بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثلاثون


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

باريكا

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
الأنفال ٨ / ٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وعميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

الجزء الثلاثون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٧
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان ـ بيروت ـ سافية الجزير ، خلف الكارلتون ، ص . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٢٩) تلكس : FIKR 44316 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النَّبأ ، أو : عمَّ

مكيّة ، وهي أربعون آية .

تسميتها :

تسمى سورة ﴿ عمّ ﴾ وسورة ﴿ النبأ ﴾ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ وهو خبر القيامة والبعث الذي يهتم بشأنه ، ويسأل الناس عن وقت حدوثه .

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي المرسلات من وجوه ثلاثة :

أ ـ تشابه السورتين في الكلام عن البعث وإثباته بالدليل ، وبيان قدرة الله عليه ، وتوبيخ الكفار المكذبين به ، ففي المرسلات : ﴿ ألم نُهلكِ الأولين ﴾ ﴿ ألم نَخْلُقْكُمْ من ماء مهين ﴾ ﴿ ألم نَجْعَلِ الأرضَ كِفاتاً ﴾ وفي هذه قال : ﴿ ألم نجعل الأرض مِهاداً .. ﴾ الآيات [٦ ـ ١٦] .

ب ـ اشتراك السورتين في وصف الجنة والنار ، ونعيم المتقين وعذاب الكافرين ، ووصف يوم القيامة وأهواله .

ج ـ فصّلت هذه السورة ما أجمل في السورة المتقدمة ، فقال تعالى في المرسلات : ﴿ لأيّ يومٍ أجّلت ، ليوم الفصلِ ، وما أدراك ما يومُ الفصل ﴾ [١٢ ـ ١٤] وقال سبحانه في هذه السورة : ﴿ إنّ يومَ الفصلِ كان ميقاتاً ﴾ [١٧] إلى آخر السورة .

ماشتملت عليه السورة :

إن محور السور إثبات البعث بالأدلة المختلفة ، لذا ابتدأت السورة بوصف تساؤل المشركين عنه ، والإخبار عن يوم القيامة ، وما يتبعه من البعث والنشور والجزاء ، وأعقبته بتهديد المشركين على إنكارهم إياه : ﴿ عمّ يتساءلون .. ﴾ [١ ـ ٥] .

ثم أقامت الأدلة والبراهين على إمكان البعث ، بتعداد مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع وإيجاد مختلف عجائب الكون ، مما يدل على إمكان إعادة الناس بعد الموت : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً .. ﴾ [٦ ـ ١٦] .

ثم حددت السورة ميقات البعث وميعاده ، وهو يوم الفصل بين الخلائق الذي يجمع فيه الأولون والآخرون : ﴿ إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً .. ﴾ [١٧ ـ ٢٠] .

ثم وصفت ألوان عذاب الكافرين ، وأنواع نعيم المتقين ، بطريق المقابلة والموازنة ، والجمع بين الترغيب والترهيب : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ ﴿ إن للمتقين مفازاً .. ﴾ [٢١ ـ ٣٨] .

وختمت السورة بالإخبار بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، وبإنذار الكفار بالعذاب الأليم القريب الذي يتمنون من شدته أن يعود تراباً .

والسورة كلها يشيع فيها جو التهويل والتخويف ، والتهديد والإنذار ، حتى لكأن التالي لها يكاد يلمس الصور الرهيبة لأحداث القيامة ، ويتملكه الذعر والخوف من شدائدها وأحوالها .

الإخبار عن البعث وأدلة إثباته

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

الإعراب :

﴿ عمّ يتساءلون ﴾ ﴿ عم ﴾ أصله : عن ما ، إلا أنه لما دخلت على (ما) الاستفهامية ، حذفت ألفها للفرق بين الاستفهام والخبر .

﴿ عن النبأ العظيم ﴾ إما بدل من ﴿ عم ﴾ بإعادة الجار ، أو متعلق بفعل مقدر ، دل عليه ﴿ يتساءلون ﴾ ولا يكون بدلاً ؛ لأنه لو كان بدلاً ، لوجب أن تكرر « عما » .

﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ أي مختلفين ، حال من الكاف والميم في ﴿ خلقناكم ﴾ .

﴿ وجناتٍ ألفافاً ﴾ ﴿ ألفافاً ﴾ صفة جنات ، وهو إما جمع لِفّ مثل جذع وأجذاع ، أو جمع الجمع لكلمة « لُف » جمع ألف ولفاء ، وفُعل بضم الفاء يجمع على أفعال ، فيكون جمع الجمع . وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف ، كشريف وأشراف .

البلاغة :

﴿ عن النبأ العظيم ﴾ إيجاز بحذف الفعل ، لدلالة المتقدم عليه ، أي يتساءلون عن النبأ العظيم .

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ﴾ تشبيه بليغ ، أي جعلنا الأرض كالمهاد الذي

يفترشه النائم ، والجبال كالأوتاد التي تثبت غيرها . ومثله ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي كاللباس في الستر .

﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ بينهما مقابلة ، قابل بين الليل والنهار ، والراحة والعمل .

﴿ أوتاداً ﴾ ﴿ أزواجاً ﴾ ﴿ سباتاً ﴾ ﴿ لباساً ﴾ ﴿ معاشاً ﴾ ﴿ شداداً ﴾ ﴿ وهاجاً ﴾ ﴿ ثجاجاً ﴾ ﴿ نباتاً ﴾ ﴿ ألفافاً ﴾ سجع مرصع .

المفردات اللغوية :

﴿ عم يتساءلون ﴾ أي عن أي شيء يسأل بعض أهل مكة بعضاً ، ومعنى الاستفهام : تفخيم شأن ما يتساءلون عنه ، كأنه لفخامته خفي جنسه ، فسئل عنه . وقد كان التساؤل من أهل مكة عن البعث فيما بينهم ، أو يسألون الرسول ﷺ والمؤمنين عنه استهزاء . ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ عن خبر يوم البعث المهم ، وهو بيان شأن المفخم . ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ يترددون فيه بين الإقرار والإنكار أو بين الإثبات والنفي .

﴿ كلا ﴾ ردع لهم وزجر ، لرد الكلام المتقدم ونفيه ، والردع عن التساؤل والوعيد عليه . ﴿ سيعلمون ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم للبعث . ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ تأكيد وتكرير للمبالغة ، وجيء بكلمة ﴿ ثم ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد من الأول .

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ ممهدة مذللة فراشاً ، كالمهد في قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَل لكم الأرضَ مَهْداً ﴾ [طه ٥٣/٢٠] . والاستفهام للتقرير ، وهذا بدء ببيان القدرة على البعث بالتذكير ببعض عجائب الكون التي أبدعها الله . ﴿ أوتاداً ﴾ لتثبيت الأرض ، كما تثبت الخيام بالأوتاد : جمع وتد : وهو ما يدق في الأرض لربط حبال الخيمة التي تشد بها . ﴿ أزواجاً ﴾ ذكوراً وإناثاً . ﴿ سباتاً ﴾ راحة لأبدانكم بقطع الحركة وإيقافها . ﴿ لباساً ﴾ كاللباس في الستر ، وهو ما يلبسه الإنسان لستر جسمه ، أي أنه تعالى جعل الليل غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء .

﴿ معاشاً ﴾ وقتاً لتحصيل أسباب المعاش أو المعايش . ﴿ سبعاً ﴾ سبع سموات . ﴿ شداداً ﴾ أي سبع سموات قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان ، ولا تصدع فيها . ﴿ سراجاً ﴾ ما يضيء وينير . ﴿ وهاجاً ﴾ وقاداً متلألئاً ، والمراد به الشمس .

﴿ والمعصرات ﴾ السحب والغيوم التي حان لها أن تعصر الماء ، فيسقط منها . ﴿ ثجاجاً ﴾ أي مطراً صباباً كثير الهطول ، جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن عمر : « أفضل الحج العَجّ والثَجّ » العج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : إراقة دم الهدي . ﴿ حباً ﴾ ما يقتات به الإنسان

كالحنطة والشعير والذرة . ﴿ ونباتاً ﴾ ماتقتات به الدواب من التبن والحشيش . ﴿ وجنات ﴾ بساتين وحدائق ، جمع جنة . ﴿ ألفافاً ﴾ ملتفة الأشجار والأغصان ، يلتف بعضها ببعض .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

﴿ عمّ يتساءلون ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم ، فنزلت : ﴿ عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ .

التفسير والبيان :

ينكر الله تعالى على المشركين تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها ، فيقول : ﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون ﴾ أي عن أي شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم فيما بينهم ؟ ثم أجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ أي عن الخبر المهم الهائل ، العظيم الشأن الذي اختلفوا في أمره ، بين مكذّب ومصدّق ، وكافر ومؤمن به ، ومنكر ومُقرّ ، وشاكّ ومُثْبت ، وهو يوم البعث بعد الموت ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إنْ هي إلا حياتُنا الدنيا ، نموتُ ونَحْيا ، وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون ٢٣/٣٧] وقوله : ﴿ مانَدْري ماالساعةُ ، إن نظنُّ إلا ظَنّاً ، وما نحنُ بمستيقنين ﴾ [الجاثية ٤٥/٣٢] .

وقال مجاهد في تفسير النبأ العظيم : هو القرآن ، قال ابن كثير : والأظهر الأول أي أنه البعث بعد الموت ؛ لقوله تعالى : ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾وقال الرازي : إنه يوم القيامة ، وهو الأقرب .

والمراد من الاستفهام تفخيم الأمر وتعظيمه وتعجيب السامعين من أمر

المشركين . وإيراد الكلام في صورة السؤال والجواب ، أقرب ـ كما قال الرازي ـ إلى التفهيم والإيضاح ، وتثبيت الجواب في نفوس الناس السائلين ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليومَ ، لله الواحد القهار ﴾ [غافر ١٦/٤٠] .

ثم رد الله تعالى عليهم متوعداً إنكارهم القيامة بقوله :

﴿ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ﴾ أي لا ينبغي لهم أن يختلفوا في شأن البعث ، فهو حق لا ريب فيه ، وسيعلم الذين يكفرون به عاقبة تكذيبهم . وكلمة ﴿ كلا ﴾ ردع لهم وزجر ، ثم كرر الردع والزجر بالجملة الثانية ، أي فليزدجروا عما هم فيه من الكفر والتكذيب ، فإنهم سيعلمون قريباً حقيقة الأمر إذا حل بهم العذاب .

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، قال أهل المعاني : تكرير الردع مع الوعيد دليل على غاية التهديد . وفي ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى أن الوعيد الثاني أبلغ من الأول .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم أورد الله تعالى بعض مظاهر قدرته العظيمة على خلق الأشياء العجيبة الدالة على قدرته على أمر المعاد وغيره ، فقال معدداً تسعة أشياء تثبت صحة البعث والحشر الذي أنكروه ، وتدل على قدرته على جميع الممكنات وعلمه بجميع المعلومات :

١ ـ ٢ ـ ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ﴾ أي كيف تنكرون البعث ، وقد عاينتم أدلة قدرة الله التامة ، من جعل الأرض ممهدة مذللة للخلائق ، كالمهد للصبي : وهو ما يمهد له من الفراش ، فينوّم عليه ، وجعل الجبال الراسيات كالأوتاد للأرض ، لتسكن ولا تتحرك ، وتهدأ ولا تضطرب بأهلها ، كما قال تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ [النازعات ٣٢/٧٩] .

٣ ـ ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ أي وأوجدناكم أصنافاً : ذكوراً وإناثاً ، للأُنس

والتعاون والحفاظ على النوع البشري ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياتِه أنْ خلَقَ لكم من أنفسِكم أزواجاً لِتَسْكُنوا إليها ، وجَعَل بينكم مودّةً ورَحْمةً ، إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ [الروم ٢١/٣٠] .

٤ ـ ٥ ـ ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم وقطعاً للحركة ولأعمالكم المتعبة في النهار ، فبالنوم تتجدد القوى ، وينشط العقل والجسم ، والسبات : أن ينقطع عن الحركة ، والروحُ في بدنه . وجعلنا الليل سكناً وكاللباس الذي يغطي بظلامه الأشياء والأجسام ، فكما أن اللباس يغطي الجسد ويقيه من الحر والبرد ، ويستر العورات ، كذلك الليل يستتر فيه من أراد الاختفاء لقضاء مصالح وتحقيق فوائد لا تتيسر في النهار ، كالاستتار من العدو وقضاء بعض الحوائج .

٦ ـ ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي وجعلنا وقت النهار مشرقاً مضيئاً ليتمكن الناس من تحصيل أسباب المعايش والتكسب والتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك من موارد الرزق .

٧ ـ ٨ ـ ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهّاجاً ﴾ أي وبنينا فوقكم سبع سموات قوية الخلق ، محكمة البناء ، متقنة الصنع ، مزينة بالكواكب الثوابت والسيارات ، وجعلنا الشمس سراجاً منيراً على جميع العالم ، يستضاء به ، ويستنار بنوره ، ويشع بحرارته ، فإن الوهج يجمع النور والحرارة ، وبها تستفيد جميع الكائنات الحية .

٩ ـ ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ﴾ أي وأنزلنا من السحب والغيوم التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد مطراً منصباً بكثرة ، كثير السيلان ، لنخرج بذلك الماء الكثير الطيب النافع حباً يقتات به الناس ، كالحبوب المختلفة من قمح وشعير وذرة وأرز ، ونباتاً تأكله

الدواب من التبن والحشيش وسائر النبات ، وبساتين وحدائق ذات بهجة وأغصان ملتفة على بعضها وثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قِطَع متجاوراتٌ ، وجناتٌ من أعناب ، وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغير صِنْوانٍ ، يُسقى بماءٍ واحدٍ ، ونفضّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون ﴾ [الرعد ٤/١٣] .

والثج : الصب الكثير المتتابع ، ومنه قول النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن ابن عمر : « أفضل الحج : العجُّ والثجّ » أي رفع الصوت بالتلبية ، وصب دماء البُدْن أو الهدي وإراقتها .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ تفخيم شأن البعث وتهويله وتعظيم أمره ، وتأكيد وقوعه وأنه حق ثابت لا ريب فيه .

٢ ـ سيعلم الكفار المكذّبون صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن وبما ذكره لهم من البعث بعد الموت ، حين يحل بهم العذاب والنكال . وفيه وعيد بعد وعيد .

٣ ـ رد الله تعالى على المشركين منكري البعث ، وأثبت لهم قدرته على البعث والمعاد والحشر والنشر من خلال الإتيان بما هو مشاهد معاين لهم وهو إيجاد عجائب المخلوقات ، والقدرة على إيجاد هذه الأمور أعظم من القدرة على الإعادة .

٤ ـ ذكر الله تعالى من عجائب مخلوقاته الدالة على كمال القدرة وتمام العلم والحكمة أموراً تسعة : هي جعل الأرض ممهدة مذللة كالمهد للصبي ، وهو ما يمهد له فينوّم عليه ، وجعل الجبال للأرض كالأوتاد التي تشدّ بها حبال الخيام ، لتسكن

وتثبت ولا تميل بأهلها ، وخلق الناس أصنافاً : ذكوراً وإناثاً وأضداداً متقابلين حسناً وقبحاً وطولاً وقصراً ليكتمل الكون ، ويزهو بالجمال والأنس ، ويتيسر التعاون ، ويستمر بقاء النوع الإنساني .

وتصيير النوم راحة للأبدان وقطعاً للحركة والأعمال التي يكابد بها الإنسان طوال النهار ، فتتجدد قواه ، ويستعيد نشاطه ، فالنوم يزيل التعب عن الإنسان .

وجعل الليل بظلمته كاللباس ساتراً ، أو سكناً للناس ، فظلمة الليل تستر الإنسان عن العيوب إذا أراد هرباً من عدو ، أو بياتاً له ، أو إخفاء مالايحب الإنسان إطلاع غيره عليه ، وأيضاً فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ، ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل ، بسبب مايحصل فيه من النوم ، يزيد في جمال الإنسان ، وفي طراوة أعضائه ، وفي تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني ، وأذى الوساوس والأفكار الموحشة .

وجَعْل النهار وقت معاش ، يتردد فيه الناس لطلب معايشهم : وهي كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك .

وبناء سبع سموات محكمات ، محكمة الخلق ، وثيقة البنيان ، وجعل الشمس سراجاً منيراً مضيئاً وقاداً متلألئاً ، وفي كل ذلك خير ونفع للإنسان . وإنزال الأمطار من السحب المحفلة بالماء ، فيحدث منها الغيث الذي يحيي الأرض بعد جدبها ، وينعش النفوس والأجسام بعد عنائها وتكدرها ، ويخرج به الحب للإنسان كالحنطة والشعير وغير ذلك ، والنبات للحيوان وهو ماتأكله الدواب من الحشيش ، وتوجد به البساتين والحدائق الغناء التي تلتف أغصانها بعضها ببعض لكثرة تشعبها ، وتزهو بالخضرة والنضرة والجمال ، والثمار والألوان ، والطعوم والروائح .

وهذه الأمور التسعة نظراً لحدوثها وإمكانها وتجددها تدل على وجود الفاعل المختار ، كما يدل مافيها من الإتقان والإحكام على كمال العلم والحكمة الذاتية ، وإذا ثبت كمال الله تعالى في هذه الأوصاف ، ثبت قطعاً إمكان الحشر دون أي شك ، ثم في إخراج النبات بعد جفافه ويبسه دليل ظاهر حسي قريب للأذهان على إمكان إخراج الموتى من القبور ، وبعثهم بعد الموت أحياء .

وفضلاً عن ذلك ، فإن كل أمر من الأمور التسعة نعمة عظمى ، يجب أن تشكر بالتوفر على الطاعة ، ولا تُكْفَر بالإقدام على المعصية[1] .

٥ ـ آية ﴿ لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً ﴾ تشمل كل أنواع النبات الثلاثة التي تنبت من الأرض : وهي ماله أكام وهو الحب ، وما لا يكون له أكام وهو الحشيش ، وهذان النوعان لاساق لهما ، والنوع الثالث : هو ماله ساق وهو الشجر ، فإذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة[2] .

أوصاف يوم القيامة وأماراته ونوع عذابه

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

---

(١) غرائب القرآن : ٧/٣٠

(٢) تفسير الرازي : ٩/٣١

الإعراب :

﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ ﴿ يوم ﴾ منصوب على البدل من يوم في قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ . ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ ﴿ لابثين ﴾ حال مقدر ، أي مقدّرين اللبث ، و ﴿ أحقاباً ﴾ منصوب على الظرف ، وعامله ﴿ لابثين ﴾ . وذكر ﴿ أحقاباً ﴾ للكثرة ، لالتجديد اللبث ، كقولك : أقمت سنين وأعواماً .

﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغسّاقاً ، جزاءً وفاقاً ﴾ ﴿ لا يذوقون ﴾ جملة في موضع نصب صفة لـ ﴿ لابثين ﴾ ، أو حال من ضمير ﴿ لابثين ﴾ . و ﴿ حميماً وغساقاً ﴾ بدل منصوب من ﴿ برداً ولا شراباً ﴾ . والحميم : يطلق على الحار والبارد من البرودة ، فإن كان بمعنى النوم فهو استثناء منقطع ، و ﴿ جزاء ﴾ منصوب على المصدر . والخلاصة : ﴿ إلا حميماً .. ﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد : النوم ، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه .

﴿ كِذّاباً ﴾ منصوب على المصدر لـ « كذّب » وزيدت الألف في ﴿ كِذّاباً ﴾ كما زيدت الهمزة في « أحسن إحساناً ، وأجمل إجمالاً » .

﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ ﴿ كتاباً ﴾ منصوب على المصدر ، وعامله إما ﴿ أحصيناه ﴾ بمعنى كتبنا ، وإما فعل مقدر من لفظه دل عليه . ﴿ أحصيناه ﴾ أي كتبناه كتاباً .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

البلاغة :

﴿ فكانت أبواباً ﴾ تشبيه بليغ ، أي كالأبواب في التشقق والتصدع ، فحذفت الأداة ووجه الشبه . ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أمر يراد به الإهانة والتحقير ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ . ﴿ برداً ﴾ و ﴿ حميماً ﴾ بينهما طباق .

﴿ أفواجاً ﴾ ﴿ أبواباً ﴾ ﴿ سراباً ﴾ ﴿ مآباً ﴾ ﴿ أحقاباً ﴾ ﴿ شراباً ﴾ ﴿ حساباً ﴾ سجع مرصع .

المفردات اللغوية :

﴿ إن يوم الفصل ﴾ هو يوم القيامة ، وسمي بذلك ؛ لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق . ﴿ كان ﴾ أي في علم الله ، أو في حكمه . ﴿ ميقاتاً ﴾ وقتاً للثواب والعقاب ، وحداً تنتهي عنده الدنيا . ﴿ الصُّور ﴾ البوق الذي ينفخ فيه ، فيخرج منه صوت شديد ، والنافخ فيه : هو إسرافيل عليه السلام . ﴿ فتأتون ﴾ من قبوركم إلى الموقف . ﴿ أفواجاً ﴾ جماعات مختلفة ، جمع فوج : أي جماعة .

﴿ وفتحت السماء ﴾ شققت وصدّعت . ﴿ فكانت أبواباً ﴾ ذات أبواب ، أو صارت من كثرة الشقوق كأنها أبواب . ﴿ وسيّرت الجبال ﴾ أزيلت عن أماكنها ، وأصبحت في الهواء كالهباء . ﴿ سراباً ﴾ مثل السراب ، إذ ترى على صورة الجبال وليست جبالاً في الحقيقة بل غباراً . ﴿ مرصاداً ﴾ موضع رصد ، يرصد فيه خزنة النار الكفار ﴿ للطاغين ﴾ الكافرين ، الذين طغوا بمخالفة أوامر ربهم . ﴿ مآباً ﴾ مرجعاً ومأوى . ﴿ لابثين ﴾ مقيمين . ﴿ أحقاباً ﴾ دهوراً لانهاية لها ، جمع حُقُب ، وواحدها حِقْبة ، وهي مدة مبهمة من الزمان .

﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ برودة الهواء ، ويطلق أيضاً على النوم . ﴿ ولا شراباً ﴾ أي مايشرب تلذذاً لتسكين العطش . ﴿ إلا حميماً ﴾ الحميم : الماء الحارّ الشديد الغليان . ﴿ وغسّاقاً ﴾ قيح وصديد أهل النار الدائم السيلان من أجسادهم . ﴿ جزاء وِفاقاً ﴾ أي جوزوا بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم وكفرهم ، فلا ذنب أعظم من الكفر ، ولا عذاب أعظم من النار . ﴿ لا يرجون ﴾ لايخافون أو لا يتوقعون . ﴿ حساباً ﴾ محاسبة على أعمالهم ؛ لإنكارهم البعث . ﴿ بآياتنا ﴾ القرآن . ﴿ كِذّاباً ﴾ تكذيباً كثيراً . ﴿ وكل شيء ﴾ أي من الأعمال . ﴿ أحصيناه ﴾ ضبطناه . ﴿ كتاباً ﴾ أي ضبطناه بالكتابة . ﴿ فذوقوا ﴾ أي فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم : ذوقوا جزاءكم . ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أي فوق عذابكم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المناسبة :

بعد إثبات قدرة الله تعالى على تخريب الدنيا ، وإيجاد عالم آخر ، بإثبات إمكان الحشر وعموم القدرة والعلم ، أخبر تعالى عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معلوم لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، ثم ذكر علامات ذلك اليوم من نفخ الصور ، وتصدع السماء ، وتسيير الجبال عن أماكنها وصيرورتها هباء كالهواء ، ثم أوضح أن جهنم مرصد للطغاة وهم الكافرون المكذبون بآيات الله ، الذين أحصى الله عليهم كل شيء من أعمالهم ، وسيلقون جزاء ماصنعوا .

التفسير والبيان :

﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ أي إن يوم القيامة وقت ومجمع وميعاد

للأولين والآخرين ، ينالون فيه ما وعدوا به من الثواب والعقاب . وسمي يوم الفصل ؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بحكمه بين خلقه .

ثم ذكر الله تعالى علامات ثلاثاً لهذا اليوم ، فقال :

١ ـ ﴿ يوم ينفخ في الصور ، فتأتون أفواجاً ﴾ أي إن يوم الفصل هو اليوم الذي ينفخ فيه إسرافيل بالبوق أو القرن ، فتأتون أيها الخلائق من قبوركم إلى موضع العرض زمراً زمراً، وجماعات جماعات ، تأتي فيه كل أمة مع رسولها ، كما قال تعالى : ﴿ يومَ نَدْعُو كلَّ أُناسٍ بإمامِهم ﴾ [الإسراء ٧١/١٧] .

٢ ـ ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أي وتصدعت السماء وشقت ، فصارت ذات أبواب كثيرة وطرقاً ومسالك لنزول الملائكة ، ونظير الآية كثير ، مثل : ﴿ إذا السماءُ انشقَّت ﴾ [الانشقاق ١/٨٤] . ﴿ إذا السماءُ انفطرت ﴾ [الانفطار ١/٨٢] . ﴿ ويومَ تشقَّق السماءُ بالغَمام ، ونُزِّل الملائكةُ تنزيلاً ﴾ [الفرقان ٢٥/٢٥] . وهذا يعني تبدل نظام الكون ، وذهاب التماسك بين أجزائه .

٣ ـ ﴿ وسُيِّرت الجبال فكانت سراباً ﴾ أي وأزيلت الجبال عن أماكنها ، وبددت في الهواء ، فكانت هباء منبثاً ، يظن الناظر أنها سراب ، وتبدأ أولاً بالدكّ كما قال تعالى : ﴿ وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ ، فدُكَّتا دكَّةً واحدةً ﴾ [الحاقة ١٤/٦٩] ثم تصير كالعهن أو الصوف المنفوش كما قال : ﴿ وتكونُ الجبال كالعِهْنِ المنفوش ﴾ [القارعة ٥/١٠١] ثم تتقطع وتتبدد وتصير كالهباء ، كما قال : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرض رجّاً ، وبُسَّتِ الجبال بسّاً ، فكانت هَبَاءً منبثاً ﴾ [الواقعة ٤/٥٦ ـ ٦] ثم تنسف عن الأرض بالرياح ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ويَسْألونَك عن الجبالِ فقُلْ : يَنْسِفُها ربي نَسْفاً ﴾ [طه ١٠٥/٢٠] وقوله : ﴿ وتَرى الجبالَ تحسبُها جامدة ، وهي تمرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل ٨٨/٢٧][1] .

---

(١) تفسير الرازي : ١١/٣١ ـ ١٢

ثم ذكر الله تعالى ما يلاقيه المكذبون الضالون الأشقياء يومئذ بقوله :

﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ﴾ أي إن نار جهنم كانت في حكم الله وقضائه مرصدة معدَّة للطغاة المتجبرين المتكبرين وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ، ومرجعاً ومصيراً ونزلاً لهم ، حالة كونهم ماكثين فيها مادامت الدهور . والأحقاب جمع حُقُب ومفردها حِقْبة : وهي المدة الطويلة من الزمان ، إذا مضى حُقُب دخل آخر ، وهكذا إلى الأبد . والمرصاد : إما اسم للمكان الذي يرصد فيه ، وإما صفة بمعنى أنها ترصد أعداء الله .

والآية دليل على أن جهنم كانت مخلوقة ؛ لأن قوله : ﴿ مرصاداً ﴾ أي معدَّة ، ومثلها الجنة أيضاً إذ لافرق بينهما .

﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً[1] وغسّاقاً ، جزاء وفاقاً ﴾ أي لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرها ، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلا الحميم : وهو الماء الحار الشديد الغليان ، والغساق : وهو صديد أهل النار ، وهذا العذاب موافق الذنب العظيم الذي ارتكبوه نوعاً ومقداراً ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار ، وقد كانت أعمالهم سيئة ، فجوزوا بمثلها ، كما قال تعالى : ﴿ وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] . وقيل : البرد : النعاس والنوم . ويلاحظ أنه تعالى بعد أن شرح أنواع عقوبة الكفار ، بين أنه جزاء حق وعدل موافق لأعمالهم .

ثم عدد الله تعالى أنواع جرائمهم ، فقال :

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٤١٤/٨) : والذي يظهر أن قوله : ﴿ لا يذوقون ﴾ كلام مستأنف ، وليس في موضع الحال ، و ﴿ إلا حميماً ﴾ استثناء متصل من قوله : ﴿ ولا شراباً ﴾ وأن ﴿ أحقاباً ﴾ منصوب على الظرف ، حملاً على المشهور من لغة العرب ، لامنصوب على الحال .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذّبوا بآياتنا كِذّاباً ﴾ أي إنهم اقترفوا الأعمال السيئة والقبائح المنكرة ؛ لأنهم لا يطمعون في ثواب ، ولا يخافون من حساب ؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث . فقوله : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لا يخافون أو لا يتوقعون حساباً : علة التأييد في العذاب .

وكذبوا بالآيات القرآنية وبالبراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد تكذيباً شديداً . وهذا إشارة إلى فساد عقائدهم ، حتى جحدوا الحق وكذبوا الرسل . ثم أخبر الله تعالى عن إحصاء جميع أعمالهم بقوله :

﴿ وكلَّ شيء أحصيناه كتاباً ﴾ أي إننا علمنا جميع أعمال العباد ، وكتبناها عليهم ، وكتبها الحفظة كتابة تامة شاملة ، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقوله ﴿ كتاباً ﴾ مصدر في موضع إحصاء ، أو أن ﴿ أحصينا ﴾ في معنى كتبنا ، لالتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل[1] .

ثم ذكر ما يقال لهم في التعذيب تقريعاً وتوبيخاً لهم :

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أي يقال لأهل النار لكفرهم ، وتكذيبهم بالآيات ، وقبح أفعالهم : ذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه . قال عبد الله بن عمرو : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ فهم في مزيد من العذاب أبداً .

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٤١٥/٨) : ﴿ وكل شيء ﴾ : عام مخصوص أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب ، وهي جملة اعتراض معترضة .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي :

١ ـ إن يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق وقت ، ومجمع ، وميعاد للأولين والآخرين ، لما وعد الله من الجزاء والثواب .

٢ ـ تحدث في بداية يوم القيامة ظواهر خطيرة ثلاث : هي نفخ إسرافيل في الصور (القرن) فيأتي الناس من قبورهم زمراً وجماعات ، وتفتّح وتشقّق أو تفطر السماء ، فتصير كلها كأنها أبواب ، وتسيير الجبال وإزالتها من أماكنها الأصلية .

٣ ـ أخبر الله تعالى عن حال الأشقياء ، وقدم ذكرهم على السعداء ؛ لأن الكلام في السورة بني على التهديد ، وهو أن جهنم تكون مكاناً مرصداً للطغاة الذين طغوا في دينهم بالكفر ، وفي الدنيا بالظلم ، أو أنها ترصد أعداء الله وتراقبهم حتى ينزلوا فيها ، وتكون المرجع الذي يرجعون فيه إليها .

٤ ـ كيفية استقرارهم في النار : هي أنهم يكونون ماكثين في نار جهنم إلى الأبد مادامت الأحقاب تتوالى ، وهي لاتنقطع ، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب ، والحقُب : الدهر ، والأحقاب : الدهور ، والحِقْبة : السنة .

٥ ـ لا يذوق الطغاة في جهنم أو في الأحقاب برداً يخفف الحر أو نوماً ، ولا شراباً يروي من العطش إلا الماء الحار والغساق : صديد أهل النار .

٦ ـ لاظلم في هذا الجزاء ، وإنما هو موافق لأعمالهم ، فإنهم كانوا لا يخافون محاسبة على أعمالهم ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، وكذّبوا بما جاءت به الأنبياء تكذيباً شديداً . وهذا دليل على أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن .

وهو جزاء دقيق عادل ؛ فإن الله تعالى عالم بأفعالهم علماً لا يزول ولا يتبدل ، وقد أحصاها عليهم ، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، كما أن الحفظة الملائكة الموكلين بأمر العباد كتبوا كل شيء عليهم بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين ، كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار ٨٢/١٠ ـ ١١] وقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ دليل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات .

٧ ـ في قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أظهر الله تعالى غاية السخط بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والتعقيب بفاء الجزاء الدال على أن العقاب سبب عن كفرهم بالحسنات ، وتكذيبهم بالآيات .

وزيادة العذاب : إما لازدياد كفرهم وعتوهم حيناً بعد حين ، كقوله تعالى : ﴿ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهم ﴾ [التوبة ٩/١٢٥] وإما لأن زيادة العذاب عبارة عن استمراره نفسه ؛ لأنه يتزايد بمرور الزمان . والمراد : إنا لن نخلصكم من العذاب إلى خلافه ، وإن عذاب أهل النار دائم غير متناه ، وإنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبداً .

وهذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه :

أحدها ـ قوله : ﴿ فلن نزيدكم ﴾ وكلمة « لن » للتأكيد في النفي .

وثانيها ـ أنه في قوله : ﴿ كانوا لا يرجون حساباً ﴾ ذكرهم بالغيبة ، وفي قوله : ﴿ فذوقوا ﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة ، وهذا يدل على كمال الغضب ، كما ذكرت .

وثالثها ـ أنه تعالى عدد وجوه العقاب ، ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ، ثم عدد فضائحهم ، ثم قال : ﴿ فذوقوا ﴾ فكأنه تعالى أفتى ، وأقام الدلائل ، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها ، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب[1] .

(١) تفسير الرازي : ١٩/٣١

أحوال السعداء

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

الإعراب :

﴿ حدائق ﴾ بدل من ﴿ مفازاً ﴾ أو عطف بيان له . ﴿ وأعناباً ﴾ عطف على ﴿ مفازاً ﴾ .

﴿ عطاء ﴾ بدل من ﴿ جزاءً ﴾ و ﴿ جزاء ﴾ و ﴿ عطاء ﴾ و ﴿ حساباً ﴾ منصوبات على المصدر .

المفردات اللغوية :

﴿ مفازاً ﴾ فوزاً وظفراً ، أو مكان فوز في الجنة . ﴿ حدائق ﴾ بساتين مثمرة ومشجرة . ﴿ وكواعب ﴾ جواري في مقتبل العمر ، جمع كاعب : وهي الفتاة التي تكعّب واستدار ثديها . ﴿ أتراباً ﴾ من كن في سن واحدة كاللِّدات ، جمع تِرْب : وهي التي تماثل في سنها سن صاحبتها . ﴿ وكأساً ﴾ إناء من الزجاج للشرب فيه . ﴿ دهاقاً ﴾ ممتلئة . والمراد خمراً مالئة الأوعية . ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ في الجنة عند شرب الخمر وغيرها من الأحوال . ﴿ لغواً ﴾ باطلاً من القول أو الكلام . ﴿ كِذّاباً ﴾ تكذيباً لبعضهم بعضاً ، خلافاً لما يحدث في مجالس شرب الخمر في الدنيا . ويقرأ بالتخفيف ﴿ كِذَاباً ﴾ أي كذباً . ﴿ جزاء من ربك ﴾ أي جزاهم الله بذلك جزاء ، بمقتضى وعده . ﴿ عطاء ﴾ فضلاً منه وإحساناً . ﴿ حساباً ﴾ كافياً لهم ، تقول : أعطاني فأحسبني ، أي أكثر علي ، حتى قلت : حسبي ، أي كفاني . ومنه قول الله تعالى : ﴿ حسبي الله ﴾ أي الله كافيّ .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى شيئاً من أحوال الأشقياء أهل النار ، ذكر ما لأهل الجنة السعداء من موضع فوز وظفر ، حيث زحزحوا عن النار ، وأدخلوا الجنة ، وأبان أن ذلك تفضل من الله وإحسان ، وفي إيراد أحوال الأسعداء والأشقياء مجال للتأمل والمقارنة ، وترغيب بالطاعة ، المؤدية إلى الجنة ، وترهيب من

المعصية والكفر وتكذيب الرسل المؤدي إلى النار . والخلاصة : أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ، أتبعه بوعد الأخيار .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن السعداء وما أعد لهم من الكرامة والنعيم المقيم ، فيقول : ﴿ إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعناباً ، وكواعب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ﴾ أي إن للذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه فوزاً وظفراً بالمطلوب ، ونجاة من النار ، بالاستمتاع بالبساتين ذات الأشجار والأثمار والأعناب اللذيذة الطعم ، وبالنساء الحور الكواعب ذوات الأثداء القائمة على صدورهن لم تتكسر ولم تتدلّ ، المتساويات في السن ، وبتناول الكؤوس المترعة المملوءة بالخمر غير المسكرة .

وعطف الأعناب على الحدائق من عطف الخاص على العام ، الذي يدل على تعظيم حال تلك الأعناب . وفسر ابن عباس ﴿ مفازاً ﴾ بقوله : متنزهاً ، ورجحه ابن كثير ؛ لأنه تعالى قال بعده : ﴿ حدائق ﴾ والحدائق : البساتين من النخيل وغيرها .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذّاباً ﴾ أي لا يسمعون في الجنة الباطل من الكلام ، ولا يكذب بعضهم بعضاً كقوله تعالى : ﴿ لالغوٌ فيها ولا تأثيمٌ ﴾ [الطور ٢٣/٥٢] ، وهذا دليل على نظافة البيئة وسموها الأدبي ، مما ترتاح له النفوس ، خلافاً لحال الدنيا حيث يسمع فيها الإنسان المؤمن ما يجرح الشعور ويؤلم النفس ، فليس في الجنة كلام لاغ ساقط عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام ، وكل مافيها سالم من النقص .

﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أي جازاهم الله تعالى على إيمانهم وصالح أعمالهم ، وأعطاهم ذلك عطاء تفضلاً منه وإحساناً ، كافياً وافياً شاملاً كثيراً ، حسبما وعدهم به من مضاعفة أجر الحسنات وتكفير السيئات .

فقه الحياة أو الأحكام :

وعد الله تعالى المتقين الذين اتقوا مخالفة أمر الله بخمسة أمور :

١ً ـ الفوز والنجاة والخلاص مما فيه أهل النار .

٢ً ـ التمتع بالرياض الغناء والحدائق أو البساتين المتنوعة الأشجار والأثمار ، وهذا هو الأمن الغذائي .

٣ً ـ الاستمتاع بالحور الكواعب ذوات النواهد التي تكعبت أثداؤهن ، اللدات الأقران في السن ، وهذا هو الإشباع الجنسي أو الغريزي .

٤ً ـ تناول الكؤوس المترعة الملأى بالخمور غير المسكرة ، كما وصفها الله تعالى : ﴿ لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزِفُون ﴾ [الواقعة ١٩/٥٦] . وهذه متعة اللهو المباح .

٥ً ـ الأمن النفسي في الجنة ، حيث لا يسمع أهلها باطلاً من الكلام ، ولا تكذيباً لبعضهم بعضاً في مجالس الشراب والمتعة ؛ لأن أهل الشراب في الدنيا يسكرون ويتكلمون بالباطل ، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم ، ولم يتكلموا بلغو .

وبعد تعداد أنواع نعيم أهل الجنة ، توّجوا بالمنحة الربانية ، وأخبروا بأن الله جزاهم بما تقدم جزاء منه ، وأعطاهم عطاءً كثيراً كافياً وافياً .

عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة وتهديد الكافرين المعاندين

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

الإعراب :

﴿ رب السموات ﴾ بالجر : بدل من ﴿ ربك ﴾ المتقدم ، وبالرفع : على تقدير مبتدأ محذوف ، تقديره : هو رب السموات . و ﴿ الرحمن ﴾ بالجر صفة ﴿ رب ﴾ وبالرفع : إما مبتدأ ، و ﴿ لا يملكون منه ﴾ الخبر ، وذلك حسن لوجود الهاء في ﴿ منه ﴾ وإما خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو الرحمن .

﴿ يوم يقوم ﴾ يوم ظرف لقوله : ﴿ لا يملكون ﴾ . ﴿ صفاً ﴾ حال ، أي : مصطفين .

﴿ إلا مَنْ أذن له الرحمن ﴾ ﴿ من ﴾ في موضع رفع على البدل من واو ﴿ يتكلمون ﴾ ويجوز أن يكون في موضع نصب على الأصل في الاستثناء . والرفع على البدل أوجه .

﴿ يوم ينظر ﴾ ﴿ يوم ﴾ ظرف لقوله : ﴿ عذاباً ﴾ .

البلاغة :

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ عطف عام على خاص ؛ لأن الروح هو جبريل عليه السلام ، وهو من الملائكة ، وأفرد بالذكر تنويهاً بقدره .

المفردات اللغوية :

﴿ لا يملكون ﴾ أي العباد . ﴿ منه ﴾ من الله تعالى . ﴿ خطاباً ﴾ مخاطبة ومكالمة ، أي لا يقدر أحد أن يخاطبه خوفاً منه . ﴿ الروح ﴾ جبريل عليه السلام . ﴿ صفاً ﴾ مصطفين .

﴿ لا يتكلمون ﴾ أي العباد ، وهو تقرير وتوكيد لقوله : ﴿ لا يملكون ﴾ قال البيضاوي : فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله ، إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً ، كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه ، فكيف يملكه غيرهم ؟

﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ في الكلام . ﴿ وقال صواباً ﴾ أي وقال قولاً صائباً من المؤمنين والملائكة ، كأن يشفعوا لمن ارتضى . ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ الثابت وقوعه ، الكائن لا محالة ، وهو يوم القيامة . ﴿ إلى ربه ﴾ إلى ثوابه . ﴿ مآباً ﴾ مرجعاً ، أي رجع إلى الله بالإيمان والطاعة ، ليسلم من العذاب فيه . ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ يا كفار مكة وأمثالكم ، والإنذار : التحذير من المكروه قبل وقوعه . ﴿ عذاباً قريباً ﴾ عذاب يوم القيامة الآتي ، وكل آت قريب . ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ حين يرى كل امرئ ما قدمه من خير أو شر ، والمرء عام ، يشمل الذكر والأنثى ، والمؤمن والكافر . ﴿ ويقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي فلا أعذب ، يقول ذلك عندما يحشر الله البهائم للاقتصاص من بعضها لبعض ، ثم ترد تراباً ، فيود الكافر حالها .

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى وعيد الكفار ووعد المتقين ، ختم الكلام بالإخبار عن عظمته وجلاله وشمول رحمته وعلى التخصيص يوم القيامة ، وأردفه ببيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، وأن الناس فيه فريقان : فريق بعيد من الله ، ومصيره إلى النار ، وفريق قريب من الله ، وتكريمه وثوابه ، ومرجعه إلى الجنة ، ثم عاد إلى تهديد الكفار المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم وكفرهم .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وشمول رحمته كل شيء ، فيقول :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ، لا يملكون منه خطاباً ﴾ أي إن الجزاء الحسن والعطاء الكافي الوافي لأهل الإيمان والطاعة هو ممن اتصف بالعظمة والجلال ، ورب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، والرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ، والذي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، لهيبته وتعاليه ، ثم أكد هذا وقرره بقوله :

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ أي إن عظمة الله تتجلى في يوم القيامة وتظهر عياناً للخلائق ، حتى إن جبريل عليه السلام وجميع الملائكة المصطفين ، مع رفعة أقدارهم ودرجاتهم ؛ لأنهم أعظم المخلوقات قدراً ورتبة لا يتكلمون في يوم القيامة الرهيب إلا بشرطين :

أحدهما ـ الإذن من الله بالشفاعة ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عنده إلا بإذنِه ﴾ [البقرة ٢٥٥/٢] وقوله سبحانه : ﴿ يومَ يأتي لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِه ﴾ [هود ١٠٥/١١] وقوله عز وجل : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفعُ الشفاعةُ إلا من أَذِن له الرحمنُ ورَضِي له قولاً ﴾ [طه ١٠٩/٢٠] .

والثاني ـ أن يقول صواباً : أي أن يقول حقاً وصدقاً إذا كان الإذن للشافع ، وأن يكون ذلك الشخص المشفوع له ممن قال في الدنيا صواباً ، أي شهد بالتوحيد بأن قال : لا إله إلا الله ، إذا كان الإذن للمشفوع .

والروح : هو جبريل عليه السلام في رأي الأكثرين ؛ لقوله عز وجل : ﴿ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ ، على قلبِك لتكونَ من المنذِرين ﴾ [الشعراء ١٩٣/٢٦ ـ ١٩٤] . وقال ابن عباس : هو مَلَك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً . وقال ابن مسعود : إنه ملك أعظم من السموات والأرض .

وفي الآية دلالة على أن الملائكة وجبريل عليهم السلام أعظم المخلوقات قدراً ومكانة ، وعلى عظمة يوم القيامة ورهبته .

ثم أخبر الله تعالى بأن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، فقال :

﴿ ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتَّخذ إلى ربِّه مآباً ﴾ أي إن ذلك اليوم الذي تقوم فيه الملائكة على تلك الصفة هو اليوم الثابت ، الكائن الواقع المتحقق الذي لا ريب فيه ، فمن أراد النجاة فيه ، اتخذ إلى ثواب ربِّه مرجعاً وطريقاً يهتدي

إليه ، ويقرّبه منه ، ويُدْنيه من كرامته ، ويباعده عن عقابه ، بالإيمان الحق والعمل الصالح .

ثم عاد الله تعالى إلى تهديد الكفار وتحذيرهم وتخويفهم من ذلك اليوم ، فقال :

﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ، يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ، ويقول الكافر : ياليتني كنت تراباً ﴾ أي إننا ياأهل مكة وأمثالكم من الكفار حذّرناكم وخوّفناكم عذاباً قريب الوقوع وهو يوم القيامة ؛ فإنه لتأكد وقوعه صار قريباً ، ولأن كل ماهو آتٍ قريب ، كما قال تعالى : ﴿ كأنّهم يوم يرونَها لم يلبثوا إلا عشيّةً أو ضُحاها ﴾ [النازعات ٤٦/٧٩] . وفي هذا اليوم القريب ينظر كل امرئ ماقدّم من خير أو شرّ في حياته الأولى في الدنيا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يومَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ماعَمِلَتْ من خيرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ ، تودُّ لوأنّ بينَها وبينَه أمداً بعيداً ﴾ [آل عمران ٣٠/٣] .

ويقول الكافر من شدة ما يعانيه من أنواع الأهوال والعذاب ، مثل أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي مُعَيط وأبي جهل وأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي : ليتني كنت تراباً ، فهو يتمنى أن لم يكن إنساناً يبعث ، وإنما كان تراباً ، ويتمنى أن يصير تراباً كالحيوانات بعد الاقتصاص من بعضها لبعض ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور ، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما ، كما ذكر ابن كثير ، ومضمون تلك الأخبار : أن البهائم تحشر ، فيقتصّ للجمّاء من القرناء ، ثم تردّ تراباً ، فيودّ الكافر حالها ليتخلص من العذاب .

والآيتان الأخيرتان تدلان على أن الناس يكونون يوم القيامة فريقين : فريق المؤمنين المقربين من ثواب الله وكرامته ورضاه ، وفريق الكافرين الجاحدين البعيدين من رحمة الله ، الواقعين في صنوف العذاب .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لله تعالى في الدنيا والآخرة صفتان عظيمتان : هما العظمة والجلال فهو ربّ السموات والأرض والكون ، والرحمة الشاملة لكل شيء ، فهو الرحمن الرحيم .

٢ ـ اقتضت عظمة الله ألا يقدر أحد على مخاطبته يوم القيامة إلا لمن أذن له بالشفاعة .

٣ ـ لا يتكلم جبريل والملائكة في موقف القيامة إجلالاً لربّهم وخوفاً منه وخضوعاً له ، فكيف يكون حال غيرهم ؟

٤ ـ إن يوم القيامة كائن واقع حتماً لا شك فيه ، فالسعيد من اتّخذ فيه إلى ربّه مرجعاً بالإيمان والعمل الصالح .

٥ ـ إن يوم القيامة وما فيه من العذاب قريب الوقوع ؛ لأن كل آتٍ قريب ، وفيه يجد كل إنسان ماقدم من خير أو شر .

٦ ـ يتمنى الكافر يوم القيامة لما يرى من أنواع العذاب أن يكون تراباً أو حيواناً غير مكلف بشيء .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

مكيّة ، وهي ست وأربعون آية .

تسميتها :

سميت سورة النازعات ؛ لافتتاحها بالقسم الإلهي بالنازعات وهم الملائكة الذين ينزعون أرواح بني آدم ، إما بيسر وسهولة وهم المؤمنون ، وإما بعسر وشدة وهم الكفار .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مناسبتها لما قبلها :

تتعلق السورة بما قبلها من وجهين :

١ ـ تشابه الموضوع : فكلتا السورتين تتحدثان عن القيامة وأحوالها ، وعن مآل المتقين ، ومرجع المجرمين .

٢ ـ تشابه المطلع والخاتمة : فإن مطلع السورتين في الحديث عن البعث والقيامة ، الأولى تؤكد وجود البعث وما فيه من أهوال وحساب وجزاء ، والثانية افتتحت بالقسم على وقوع القيامة لتحقيق ما في آخر ﴿ عَمَّ ﴾ . والأولى اختتمت بالإنذار بالعذاب القريب يوم القيامة ، والثانية ختمت بالكلام عما في أولها من إثبات الحشر والبعث ، وتأكد حدوث القيامة ، فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة وأهوالها .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع السورة كما أشرنا كسائر موضوعات السور المكية ، التي تهتم بأصول العقيدة من التوحيد ، والنبوة ، والبعث .

شرعت السورة بالقسم بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد لإثبات البعث : ﴿ والنازعات غرقاً .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] والمقسم عليه محذوف وهو « لتبعثن » لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة ، وهو : ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ [٦ ـ ٧] ، أو بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ [١٠] .

ثم وصفت أحوال المشركين المنكرين البعث ، فصوَّرت مدى الذعر الشديد والاضطراب الذي يكونون عليه يوم القيامة ، وذكرت مقالتهم في إنكار البعث والردّ عليهم : ﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ .. ﴾ [الآيات : ٨ ـ ١٤] .

وناسب ذلك إيراد قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الجبار الذي ادَّعى الربوبية ، ثم أهلكه الله وجنوده بالغرق في البحر ، للعظة والعبرة ، والدلالة على كمال القدرة الإلهية ، بإفهامهم أن الكَرَّة والإعادة ليست صعبة على الله ، فما هي إلا زجرة أو صيحة واحدة : ﴿ هل أتاك حديث موسى .. ﴾ [الآيات : ١٥ ـ ٢٦] .

ثم خاطب الله منكري البعث خطاباً يتضمن إثبات البعث بالبرهان الحسي ، متحدياً طغيانهم وتمردهم على رسول الله ﷺ ، ومذكراً إياهم أنهم أضعف من خلق السموات والأرض والجبال : ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها .. ﴾ [الآيات : ٢٧ ـ ٣٢] .

وختمت السورة ببيان أهوال يوم القيامة ، وانقسام الناس فيه فريقين :

سعداء وأشقياء ، وسؤال المشركين عن ميقات الساعة ، وتفويض أمرها إلى الله تعالى ، لا إلى أحد حتى الرسول ﷺ ، وتأكيد حدوثها ، وذهول المشركين من شدة هولها ، ومعرفتهم أن مكثهم في الدنيا كمقدار العشي أو الضحى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى .. ﴾ [الآيات : ٣٤ ـ ٤٦] .

الحلف على وقوع البعث وأحوال المشركين فيه والرد على إنكارهم إياه

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥
يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ
فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤

الإعراب :

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ ﴿ غرقاً ﴾ منصوب على المصدر ، وكذلك ﴿ نشطاً ﴾ و ﴿ سبحاً ﴾ و ﴿ سبقاً ﴾ كلها منصوبات على المصدر .

﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ ﴿ أمراً ﴾ منصوب إما لأنه مفعول به لـ ﴿ المدبرات ﴾ أو بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : والمدبرات بأمر ؛ لأن التقدير ليس إلى الملائكة ، وإنما هو إلى الله تعالى ، فهي مرسلة بما يأمرها به .

وجواب القسم محذوف تقديره : لتبعثن ، بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ أو الجواب : ﴿ يوم ترجف ﴾ على تقدير حذف اللام ، أي ليوم ترجف ، وهذا ضعيف ، أو الجواب : ﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ ﴿ يوم ﴾ : إما منصوب بفعل دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ قلوب

يومئذٍ واجفة ﴾ أي وجفت قلوبهم ، فيكون يومئذٍ بدلاً من ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ أو بتقدير : اذكر يوم ترجف ، والجملة حال .

البلاغة :

﴿ ترجف الراجفة ﴾ جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ أقسم الله بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً بشدة وألم . ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ الملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين برفق وسهولة . ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ الملائكة التي تَسْبَحُ من السماء ، أي تنزل مسرعة بأمره تعالى . ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها . ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ تنزل بتدبير ما أمرت به .

فهذه كلها صفات الملائكة ، وقيل : إنها الكواكب الجارية على نظام معين في سيرها ، ﴿ غرقاً ﴾ مسرعة في جريها . ﴿ نشطاً ﴾ خارجة من برج إلى برج . ﴿ سبحاً ﴾ سائرة في أفلاكها بهدوء . ﴿ سبقاً ﴾ مسرعة قبل غيرها في سبحها . ﴿ المدبرات أمراً ﴾ تدبر أمراً نيط بها ، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات .

﴿ ترجف الراجفة ﴾ تضطرب الأرض والجبال وتتحرك ، كقوله تعالى : ﴿ يوم تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ ﴾ [المزمل ١٤/٧٣] . ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ تلحق بها السماء والكواكب ، فتنشق وتنتثر ، وقيل : ﴿ الراجفة ﴾ : النفخة الأولى ، و ﴿ الرادفة ﴾ : النفخة الثانية . ﴿ واجفة ﴾ خائفة قلقة شديدة الاضطراب ، من الوجيف : وهي صفة القلوب . ﴿ خاشعة ﴾ ذليلة ، لهول ماترى ، أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف . ﴿ يقولون ﴾ أي أصحاب القلوب والأبصار استهزاءً وإنكاراً للبعث . ﴿ لمردودون في الحافرة ﴾ أي أنرد بعد الموت إلى الحياة ؟ و ﴿ الحافرة ﴾ الحياة الأولى ، يقال : فلان رجع في حافرته ، أي طريقته التي جاء فيها ، فيرجع من حيث جاء .

﴿ نخرة ﴾ بالية متفتتة . ﴿ قالوا : تلك ﴾ أي رجعتنا إلى الحياة . ﴿ إذاً ﴾ إن صحت . ﴿ كرّة خاسرة ﴾ رجعة ذات خسران يخسر أصحابها . ﴿ زجرة ﴾ صيحة وهي النفخة الثانية لبعث الأموات . ﴿ فإذا هم ﴾ كل الخلائق . ﴿ بالساهرة ﴾ أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض ، بعد أن كانوا ببطنها أمواتاً .

سبب النزول :

نزول الآية (١٠ ، ١٢) :

أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال : لما نزل قوله : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ؟ ﴾ قال كفار قريش : لئن حيينا بعد الموت لنخسرن ، فنزلت : ﴿ قالوا : تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ .

التفسير والبيان :

﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ﴾[1] ، أقسم الله سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم بشدة وعنف وإغراق في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد ، وتخرج أرواح المؤمنين بسرعة ولطف وسهولة ، وبالملائكة الذين ينزلون من السماء مسرعين ، لأمر الله تعالى ، والملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، وتدبر الأمر بأن تنزل بالحلال والحرام وتفصيلها ، وتدبر أهل الأرض بالرياح والأمطار وغير ذلك . قيل : إن تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل : فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل : فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل : فهو ينزل بالأمر عليهم .

وقال الحسن البصري : المراد بالكلمات الخمس : النجوم والكواكب في جريها وتنقلها بين الأبراج وسيرها في أفلاكها هادئة أو مسرعة أو مدبرة أمراً بأمر الله تعالى .

---

(١) عطف بالواو ثم بالفاء : لأن الواو تدل على المغايرة ، والمراد هنا تغاير الصفة الدالة على تغاير الذات ، والفاء تدل على ترتيب مابعدها على ماقبلها ، والمراد هنا ترتب الأحوال على ماقبلها .

وإنما قال : ﴿ أمراً ﴾ ، لاأموراً ؛ لأن المراد به الجنس ، فيقوم مقام الجمع ، وتدبير الأمر في الحقيقة لله تعالى ، وإنما أضيف إلى الملائكة لإتيانها به ، ولأنها من أسبابه .

وجواب القسم محذوف ، أي لتبعثن بعد الموت ، بدليل إنكارهم البعث كما حكى الله عنهم فيما بعد بقوله : ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ [١١] أي أنبعث بعد نخر العظام ؟

وإنما عطف الثلاثة الأولى بالواو ، والباقيتين بالفاء ؛ لأن هاتين مسببتان عن التي قبلها ، كما قال الزمخشري .

﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ أي حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال ، كقوله تعالى : ﴿ يومَ ترجُفُ الأرض والجبال ﴾ [المزمل ١٤/٧٣] ثم تتلوها السماء ، فتنشق بما فيها من الكواكب وتنتثر . وقيل : ﴿ الراجفة ﴾ : هي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، وتليها النفخة الثانية التي يكون عندها البعث .

أخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، واللفظ للترمذي ، قالم : « إذا ذهب ثلثا الليل قام ، فقال : ياأيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » زاد أحمد : فقال رجل : يارسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : إذن يكفيك الله ماأهمك من دنياك وآخرتك » .

﴿ قلوب يومئذٍ واجفة ، أبصارها خاشعة ﴾ أي هناك قلوب تكون يوم القيامة خائفة مضطربة قلقة ، لما عاينت من أهوال يوم القيامة ، وهي قلوب الكفار ، وأبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ، بسبب موتهم على غير الإسلام ، وإنكارهم البعث ، وهذه هي أقوالهم :

﴿ يقولون : أئنا لمردودون في الحافرة ، أئذا كنا عظاماً نخرة ، قالوا : تلك إذاً كرةٌ خاسرة ﴾ أي يقول مشركو قريش وأمثالهم المنكرون المعاد ، المستبعدون وقوع البعث إذا قيل لهم : إنكم تبعثون : هل نردّ إلى حياتنا الأولى وابتداء أمرنا قبل الموت ، فنصير أحياء بعد موتنا ، وبعد المصير إلى الحافرة وهي القبور ؟ وهو كقولهم : ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [الإسراء ٩٨/١٧] .

وكيف يتصور أن نرد إلى الحياة بعد تمزق أجسادنا وتفتت عظامنا ، وصيرورتها عظاماً بالية ناخرة ؟

إن رددنا بعد الموت وصحَّ أن بعثنا يوم القيامة لنخسرنَّ أو تكون رَجْعة ذات خسران ؛ لتكذيبنا بما أخبر به محمد ، وسيصيبنا ما يقوله هذا النبي . وهذا القول صادر منهم على سبيل الاستهزاء والتهكم ، لاعتقادهم ألا بعث .

ثم ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم قائلاً :

﴿ فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾ أي لا تستبعدوا ذلك ، فإنما الأمر يسير ، ولا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله ، وما هي إلا صيحة واحدة ، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتى من القبور ، فإذا هم على وجه الأرض أحياء ، وحينئذٍ يحاسب الخلائق . والساهرة على الصحيح هي أرض الآخرة ، وهي أرض بيضاء مستوية ، والمراد بها هنا : وجهها الأعلى ، وسطحها الظاهر . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذٍ ، وقيل : هي أرض بالشام .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أقسم الله سبحانه بأنواع خمسة من الملائكة ذوي مهام متنوعة على أن القيامة حق . والقسم بها تعظيم لها وتنويه بها . ولله أن يقسم على ما يشاء في أي وقت يشاء ،

ولإثبات أو نفي ما يشاء ، كالتوحيد وأن القرآن حق والرسول حق والبعث حق .

والمقسم به من المخلوقات في القرآن الكريم أحد نوعين :

الأول ـ أن تكون المخلوقات معظمة عند بعض الناس ، كالشمس والقمر .

الثاني ـ أن تكون المخلوقات مهملة مذهول عنها في أنظار الناس ، كمواقع النجوم والرياح والملائكة .

٢ ـ في يوم القيامة الرهيب ترجف الأرض والجبال ، وتتحرك وتضطرب ، وتتبعها السماء ، فتنشق وتنتثر ، والأرض : هي الراجفة ، والسماء : هي الرادفة ، وقيل : الراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية . والظاهر المعنى الأول ، قال مجاهد : الرادفة حين تنشق السماء ، وتُحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة .

٣ ـ تكون قلوب الكفار الذين ماتوا على غير دين الإسلام خائفة وجلة ، وأبصار أصحابها منكسرة ذليلة من هول ماترى .

٤ ـ أثبت المشركون المكذبون منكرو البعث على أنفسهم إنكار المعاد والبعث بأقوال ثلاثة ، فإذا قيل لهم : إنكم تبعثون ، قالوا منكرين متعجبين : أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت ؟

ولا نتصور أن نعود كما كنا بعد أن نصير عظاماً نخرة ، أي بالية متفتّتة .

وزادوا في الاستهزاء والتهكم ، فقالوا : إننا إذا بعثنا فتلك رجعة خائبة ، كاذبة باطلة .

٥ ـ ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم فقال : لاتحسبوا تلك الكَرّة صعبة على الله ، فما هي إلا صيحة واحدة ، فإذا هم بالساهرة أي على وجه الأرض أو سطحها ، بعد أن كانوا في بطونها . قال الثوري : الساهرة : أرض الشام .

التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

الإعراب :

﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ ﴿ لك ﴾ : جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف ، أي هل لك ميل أو رغبة ؟ وهو استفهام معناه العرض ، وهو لطف في الاستدعاء ؛ لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم ، فهو كلام محمول على « ادعوا » فكأنه قال : ادعوا إلى التزكي : وهو التحلي بالفضائل والتطهر من الرذائل . و ﴿ تزكى ﴾ أصله : تتزكى ، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف ، ومنهم من أبدل من التاء الثانية زايا ، وأدغم التاء في الزاي ، ولم يدغم الزاي في التاء ؛ لأن في الزاي زيادة صوت .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ ﴿ نكال ﴾ : إما مفعول لأجله ، أو منصوب على أنه مصدر ، فهو مصدر مؤكد ، كوعد الله وصبغة الله ، كأنه نكل الله به نكال الآخرة والأولى ، والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم ، والمراد الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة .

البلاغة :

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أسلوب التشويق إلى معرفة القصة .

المفردات اللغوية :

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ ؟ خطاب للنبي ﷺ بقصد تسليته على تكذيب قومه ، وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثلما أصاب من هو أعظم منهم . ﴿ المقدس ﴾ المبارك المطهر ، و ﴿ الوادي المقدس ﴾ وادٍ بأسفل جبل طور سيناء . ﴿ طوى ﴾ وادٍ بين أيلة ومصر . ﴿ اذهب إلى

فرعون ﴾ على إرادة القول ، أي وقال له . ﴿ طغى ﴾ تجاوز الحد في الكفر . ﴿ هل لك ﴾ أدعوك أو هل ترغب فيه ؟ ﴿ إلى أن تزكى ﴾ تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل ، والمراد : هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر أو الشرك والطغيان بأن تشهد أن لاإله إلا الله ؟ وقرئ : تزكّى بتشديد الزاي بإدغام التاء الثانية في الزاي . والتزكي في الأصل : التطهر من العيوب .

﴿ وأهديك إلى ربّك ﴾ أرشدك إلى معرفته ، أو أدلك على معرفته . ﴿ فتخشى ﴾ فتخاف بأداء الواجبات وترك المحرمات . ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي فذهب وبلغ ، فأراه المعجزة الكبرى والعلامة الدالة على صدقه في دعوى النبوة ، وهي انقلاب العصا حية ، أو اليد تخرج بيضاء . ﴿ فكذّب ﴾ فرعون موسى . ﴿ وعصى ﴾ الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقق أمر النبوة . ﴿ أدبر ﴾ ترك موسى وأعرض عن الإيمان والطاعة . ﴿ يسعى ﴾ في الأرض بالفساد وفي إبطال أمر موسى ومكايدته . ﴿ فحشر ﴾ جمع السحرة وجُنده . ﴿ فنادى ﴾ في المجمع بنفسه أو بمناد . ﴿ فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾ في ولاية أمركم ، لاربّ فوقي . ﴿ فأخذه الله ﴾ أهلكه بالغرق . ﴿ نكال ﴾ عقوبة أو عذاب . ﴿ الآخرة والأولى ﴾ القيامة والدنيا ، أي أخذه منكلاً به في الآخرة بالإحراق في جهنم ، وفي الدنيا بالإغراق . وقيل : المراد كلمته الآخرة وهي هذه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وكلمته الأولى قبلها ، وهي قوله : ﴿ ماعلِمْتُ لكم من إلهٍ غيري ﴾ [القصص ٢٨/٣٨] وكان بينهما أربعون سنة . ﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور . ﴿ لعبرة ﴾ لعظة . ﴿ لمن يخشى ﴾ لمن شأنه الخشية من الله تعالى .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث ، واستهزاءهم في قولهم : ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ وكان ذلك يشق على النبي محمد ﷺ ، ذكر له قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، حيث تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ، ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ عن تكذيب قومه وشدة عنادهم وإعراضهم عن دعوته . كما يكون ذلك تهديداً للكفار بأن يصيبهم مثل ماأصاب من هو أقوى وأعتى وأشد شوكة وأكثر جمعاً ، فإن أصروا على كفرهم ، واستمروا في تمردهم أخذهم الله ، وجعلهم نكالاً وعبرة ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فإنْ أعرضُوا فقُلْ : أنذرتكم صاعقةً مِثْلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ ، إذ جاءتهم الرُّسُلُ من بينِ أيديهم ومن خَلْفِهم ألا تَعْبُدوا إلا الله ، قالوا : لوشاءَ ربُّنا لأنزلَ ملائكةً ، فإنا بما أُرسلتم به كافرون ﴾ [فُصّلت ١٣/٤١ ـ ١٤] .

التفسير والبيان :

﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربّه بالوادي المقدّس طوى ﴾ أي ألم يبلغك قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حيث ابتعثه الله إليه ، وأيّده بالمعجزات ، حين ناداه ربّه ليلاً ، مكلماً إياه ، مكلّفاً له بالنبوة والرسالة في الوادي المبارك المطهّر وهو طُوى : وهو الوادي في جبل سيناء الذي نادى الرّب فيه موسى .

وإنما ذكّر الله بقصة موسى عليه السلام ؛ لأنه أبهر الأنبياء المتقدمين معجزة ، ولأن فيها تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من إعراض قومه ، ولتهديد كفار قريش بإنزال عذاب مشابه لما أنزل بفرعون وجنوده ، مع أنه كان أكثر جمعاً وأشد قوة منهم .

ثم أبان الله تعالى مهمة موسى عليه السلام بقوله :

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي قال الله له : اذهب إلى فرعون طاغية مصر ، فإنه جاوز الحد في العصيان والتكبر والكفر بالله ، حيث ادّعى الربوبية ، وتجبر على بني إسرائيل ، واستعبد قومه .

ثم علّمه أسلوب الدعوة فقال :

﴿ فقل : هل لك إلى أن تزكى ، وأهديَك إلى ربّك فتخشى ﴾ أي فقل لفرعون بعد وصولك إليه : هل لك رغبة في التطهر من الشرك والعيوب ؟ وإني أرشدك إلى معرفة الله وتوحيده وعبادته ، فتخاف عقابه ، بأداء ماأمر به ، واجتناب مانهى عنه . والخشية لاتكون إلا من مهتد راشد .

وإنما أمره الله بلين القول ، ليكون أنجع في الدعوة ؛ لأن دعوة الجبابرة تتطلب عادة التلطف والرفق والمداراة ، لتخفيف غلوائهم ، واستنزال شيء من

عتوهم وتجبرهم . وقد تكرر الأمر باللين في هذه القصة في القرآن الكريم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ، لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾ [طه ٤٤/٢٠] .

والآية دليل على أن المقصود الأعظم من بعثة الرسل هداية الناس إلى معرفة الله ، وأن معرفة الله تستفاد من الهادي .

ثم أبان الله تعالى أن موسى أظهر لفرعون معجزته ، فقال :

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي فأظهر له العلامة والمعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته ، وهي انقلاب العصا حية أو اليد ، ومع ذلك كذّب وخالف ، كما قال تعالى :

﴿ فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ﴾ أي فكذب فرعون بموسى وبما جاء به وبالحق ، وعصى الله عزّ وجلّ فلم يطعه ، وتولى وأعرض عن الإيمان ، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض ، ويجتهد في مكايدة موسى ومعارضة ماجاء به .

والجمع بين ﴿ كذب وعصى ﴾ للدلالة على أنه كذب بالقلب واللسان ، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر .

﴿ فحشر فنادى ، فقال : أنا ربّكم الأعلى ﴾ أي فجمع جنوده للتشاور أو جمع السحرة للمعارضة ، ثم نادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ، أو أمر منادياً ينادي قائلاً : أنا الرّب الأعلى ، وصاحب السلطان المطلق ، الذي ليس لأحد سواي ولاية أمركم ، ولا ربّ فوقي ، فكان جزاؤه الإغراق مع جنوده ، كما قال تعالى :

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وانتقم منه انتقاماً جعله به عبرةً ونكالاً لأمثاله المتمردين في الدنيا ، ونكّل به نكال الآخرة وهو عذاب النار ، ونكال الأولى وهو

عذاب الدنيا بالغرق ، ليتعظ بـه من يسمع خبره ، وإن فيما ذكر من قصـة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ويتعـظ وينزجر ، فينظر في أحـداث المـاضي ، ويقيس بهـا أحوال الحـاضر والمستقبل . فقولـه : ﴿ الآخرة والأولى ﴾ أي الدنيا والآخرة ، وهو الصحيح في معنى الآية كما قال ابن كثير .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن قصـة موسى عليـه السلام مع فرعون وجنوده عبرة لمن اعتبر ، وعظـة لمن اتعظ ، فقد أرسله الله إليه ، وأيّـده بـالمعجزات ، ومع هـذا استمر فرعون في كفره وطغيانه ، فانتقم الله منه انتقاماً شديداً ، وأغرقه وجنوده في البحر الأحمر .

وفي القصة تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من صـدود قومـه ، وتحـذير للكفـار المتمردين والعتـاة المتجبرين بإنـزال عقـاب مـماثـل إن استمروا في كفرهم وعتـوهم وإعراضهم عن قبول دعوة الإسلام .

فلقد كان فرعون أقوى من كفار أي عصر ، فإنـه تجـاوز الحـدّ في العصيـان ، وأبى قبول دعـوة مـوسى إلى تطهير نفسـه من الـذنـوب والمـآثم والكفر ، ولم يقبـل ماأرشده إليه من طـاعـة ربّـه ، ولم يصـدّق بمعجزتـه وهي انقلاب العصـا حيـة ، أو اليد البيضاء تبرّق كالشمس ، وكذّب نبوته وعصى ربّه عزّ وجلّ ، وولّى مـدبراً معرضاً عن الإيمان ، ساعياً في الأرض بالفسـاد ، وقـال لقومـه بصوت عـال : أنـا ربّكم الأعلى ، أي لا ربّ لكم فوقي .

ولكنه مع كل هذا لم يعجز الله القوي القادر القاهر ، فأهلكـه الله في الـدنيـا مع جنوده بالغرق ، وسيعذبه في الآخرة بنار جهنم .

إن في هذه القصة ، ومـا أحل الله بفرعون من الخزي ، وتحقيق العلو والنصر لموسى عليه السلام ، لاعتباراً وعظة لمن يخاف الله عزّ وجلّ ، ففيها بيان العقـاب العادل وأسبابـه ومسوغـاتـه ، وبهـا يتبين لكل عـاقل ضرورة أن يـدع التمرد على

الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه ، خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون وجنوده . كما عليه أن يعلم بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله .

فمن ارتكب ما يوجب العقاب من مثل ذلك قولاً وفعلاً ، اشترك في العقاب نفسه في الدنيا والآخرة .

إثبات البعث بخلق السموات والأرض والجبال

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ بناها ﴾ الجملة صفة للسماء .

﴿ أخرج منها ﴾ الجملة حال بإضمار (قد) أي مخرجاً .

﴿ متاعاً لكم ﴾ مفعول لأجله ، لفعل مقدر ، أي فعل ذلك متعة ، أو منصوب على المصدر ، أي تمتيعاً .

البلاغة :

﴿ أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ﴾ ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ السماء ﴾ و ﴿ الأرض ﴾ بينهما طباق .

﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ استعارة تصريحية في كلمة ﴿ مرعاها ﴾ أي نباتها ، شبه أكل الناس برعي الأنعام ، واستعير الرعي للإنسان ، بجامع الأكل . فإطلاق المرعى على ما يأكله الناس استعارة .

﴿ ضحاها ﴾ ، ﴿ دحاها ﴾ ، ﴿ مرعاها ﴾ ، ﴿ أرساها ﴾ سجع مرصع وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير .

المفردات اللغوية :

﴿ أشد خلقاً ﴾ أصعب خلقاً . ﴿ أم السماء ﴾ أشد خلقاً . ﴿ بناها ﴾ بيان لكيفية خلقها ، والمسؤول يجيب ، ولا بد أن يكون الجواب : السماء ، لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثرها . ﴿ رفع سَمْكها ﴾ تفسير لكيفية البناء ، والسمك أو السمت : مقدار الارتفاع من الأسفل إلى الأعلى ، والمعنى : جعل الله مقدار ارتفاعها من الأرض وسماكتها باتجاه العلو رفيعاً ثخيناً . ﴿ فسوّاها ﴾ جعلها مستوية الخلق معدلة محكمة بلا عيب ، بحيث جعل كل جزء في موضعه .

﴿ وأغطش ليلها ﴾ أظلمه . ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أبرز نور شمسها ، والمراد بالضحى : النهار ، كقوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ أي النهار . ﴿ دحاها ﴾ بسطها ومهّدها للإنسان ، وجعلها كالبيضة ليست تامة الكروية ، كما هو معروف ، فهي مفلطحة من جانبها . ﴿ أخرج منها ﴾ أي أخرج مخرجاً منها . ﴿ ماءها ﴾ بتفجير العيون . ﴿ ومرعاها ﴾ نباتها ، وهو يشمل ماترعاه الأنعام من الشجر والعشب ، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار . ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم ، أو تمتيعاً لكم ولمواشيكم . والأنعام : جمع نعم : وهي الإبل والبقر والغنم .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد بيان قصة موسى وفرعون ، عاد إلى مخاطبة منكري البعث محتجاً عليهم ببدء الخلق على إعادته ، فإنه تعالى خلق السموات البديعة ، والأرض الوسيعة المعدّة للاستقرار والحياة عليها بإعداد وسائل المعيشة فيها ، وخلق الجبال الرواسي لإرساء الأرض وتثبيتها .

التفسير والبيان :

﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ؟ ﴾ أي هل أنتم أيها الناس أصعب خلقاً بعد الموت ، وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم من خلق السماء ؟ لاشك بأن السماء أشد خلقاً ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْق الناسِ ﴾ [غافر ٥٧/٤٠] وقال سبحانه : ﴿ أو ليسَ الذي خَلَق السمواتِ

والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مِثْلَهم ﴾ [يس ٨١/٣٦] . فمن قدر على خلق السماء ذات الأجرام العظيمة التي يتحدث عنها علماء الفلك والفضاء بدهشة ، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو واضح ، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة ؟!

ثم بيَّن الله تعالى صفة خلق السموات ، وأنه بناها بضم أجزائها بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى صارت بناء واحداً ، ورفع ثخانتها في الجو ، وجعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض بدون أعمدة ، وجعلها عالية البناء ، مستوية الخلق ، معدّلة الشكل ، لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ، ولا فطور ولا شقوق ، بأن أبدع في خلق الكواكب العديدة التي تفوق الملايين ، وجعل لكل كوكب حجماً معيناً ، ومداراً يسير فيه دون تصادم مع غيره ، حتى صار من مجموعها ما يسمى بالسماء ، وما يشبه البناء .

﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أي جعل ليل السماء مظلماً ، وأبرز وأنار نهارها المضيء بإضاءة الشمس ، وجعل تعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول مناخاً صالحاً للعيش والسكنى .

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أي بسط الأرض ومهدها وجعلها مفلطحة كالبيضة بعد خلق السماء ، إلا أنها كانت مخلوقة غير مدحوة قبل خلق السماء ، ثم دحيت بعد خلق السماء ، كما جاء في سورة السجدة (فصّلت) : ﴿ قل : أئنكم لَتَكْفُرون بالذي خلَق الأرض في يومين ، وتَجْعلُون له أنْداداً ، ذلك ربُّ العالمين . وجَعَل فيها رَواسيَ من فوقِها ، وبارَك فيها ، وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ ، سَواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دُخانٌ ، فقالَ لها وللأرضِ : ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، قالتا : أتَيْنا طائعين ﴾ [٩ ـ ١١] فهذه الآية دليل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، إلا أن دحو الأرض وتمهيدها كان بعد خلق السموات[1] .

(١) تفسير ابن كثير : ٤٦٨/٤

ثم أوضح ماتم في أثناء الدحو من إعداد وسائل الحياة والعيش ، فقال :

﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي فجّر من الأرض الأنهار والبحار والعيون والينابيع ، وأنبت فيها النبات لبني آدم قوتاً كالحبوب والثمار ، وللأنعام مرعى كالأعشاب والحشائش ، وجعل الجبال كالأوتاد للأرض لئلا تميد بأهلها ، وقررها وثبّتها في أماكنها .

وجعل تعالى كل ذلك منفعة وفائدة أو تمتيعاً لكم أيها الناس ، ولأنعامكم أكلاً وركوباً وهي الإبل والبقر والغنم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي أنزلَ من السماء ماءً ، لكم منه شَرابٌ ، ومنه شجرٌ فيه تُسيمون ﴾ [النحل ١٠/١٦] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أثبت الله تعالى لمنكري البعث قدرته على إعادة الخلق والمعاد ، بقدرته على بدء الخلق ، وقدرته على خلق السموات العظيمة ، المحكمة البناء ، والتي جعل فيها الليل والنهار ، وخلق الأرض التي دحاها وبسطها ومهدها بعد خلق السموات ، وفجر منها الأنهار والينابيع ، وأرسى الجبال في أماكنها ، كل ذلك لتحقيق المنفعة للإنسان ودوابه التي يأكل منها ويركب عليها . ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ .

فمن قدر على السماء قدر على الإعادة ، وإذا كان الله قادراً على إنشاء العالم الأكبر ، يكون على خلق العالم الأصغر ، بل على إعادته أقدر .

٢ ـ نبّه الله تعالى بهذا الدليل على أمر معلوم بالمشاهدة ، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ في القدرة .

٣ ـ أشار الله تعالى إلى كيفية خلق السماء بقوله : ﴿ بناها ﴾ وفيه تصوير

للأمر المعقول ، وهو الإبداع والاختراع ، بالأمر المحسوس وهو البناء .

ثم ذكر هيئة البناء بقوله : ﴿ رفع سَمْكها ﴾ وهو الامتداد القائم من السفل إلى العلو ، وعكسه يسمى عمقاً .

٤ ـ دل قوله تعالى : ﴿ فسواها ﴾ على أن الأرض كروية ، كما دل قوله تعالى : ﴿ دحاها ﴾ على أن كروية الأرض ليست تامة ، بل هي مفلطحة كالبيضة . ودحو الأرض لا ينافي تقدم خلق الأرض على السماء في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خَلَق لكم ما في الأرضِ جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة ٢٩/٢] .

٥ ـ إنما نسب الله تعالى الليل والنهار إلى السماء ؛ لأنها يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، وهذان إنما يحصلان بسبب حركة الفلك .

٦ ـ وصف الله تعالى كيفية خلق الأرض بعد وصف كيفية خلق السماء ، وذكر صفات ثلاثاً : هي دحو الأرض ، أي بسطها وتمهيدها الذي حصل بعد خلق السماء ، وإخراج الماء والمرعى من الأرض ، والمرعى : يشمل جميع ما يأكله الناس والأنعام ، وإرساء الجبال وتثبيتها في أماكنها . قال القُتَبي : دل الماء والمرعى على جميع ماأخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

٧ ـ امتن الله تعالى على خلقه بأنه إنما خلق هذه الأشياء في السماء والأرض متعة ومنفعة لهم ولأنعامهم ، أو تمتيعاً لهم ولأنعامهم .

٨ ـ دل مجموع الآيات هنا ، وفي سورة السجدة (فصلت) وسورة البقرة وغيرها ، على أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ، ثم خلق السماء ثانياً ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ثالثاً ؛ لأنها كانت أولاً كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها .

جزاء فريقي الناس في الآخرة وتفويض علم الساعة لله تعالى وقصر مدة الدنيا

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ يوم يتذكر الإنسان ماسعى ﴾ ﴿ يوم ﴾ : بدل من قوله : ﴿ فإذا جاءت .. ﴾ وما : موصولة أو مصدرية .

﴿ فأما من طغى .. ﴾ الفاء في ﴿ فأما ﴾ : جواب إذا في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ وهي المأوى له : لأنه لابد من ضمير يعود من الجملة إلى المبتدأ : وذهب الكوفيون إلى أن الألف واللام عوض عن الضمير العائد ، والتقدير فيه : مأواه . ويصح أن يكون جواب ﴿ فإذا جاءت ﴾ محذوفاً ، دل عليه : ﴿ يوم يتذكر ﴾ أو مابعده من التفصيل .

﴿ هي المأوى ﴾ هي إما ضمير فصل أو مبتدأ .

البلاغة :

﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا .. ﴾ ﴿ وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى .. ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ تشبيه مرسل مجمل .

﴿ عشية ﴾ و ﴿ ضحاها ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ الطامة الكبرى ﴾ الداهية العظمى وهي القيامة ، التي تطمّ ، أي تعلو على سائر الدواهي ، والتي هي أكبر الطامات ، أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث ، أو ساعة سوق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار . ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته ، وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة ، والمراد : كل ما عمل في الدنيا من خير أو شر . ﴿ وبرّزت ﴾ أظهرت . ﴿ الجحيم ﴾ النار المحرقة . ﴿ لمن يرى ﴾ لكل راءٍ ، بحيث لا تخفى على أحد .

﴿ طغى ﴾ تكبر وتجاوز الحد ، حتى كفر . ﴿ وآثر ﴾ قدّم وفضل . ﴿ الحياة الدنيا ﴾ باتباع الشهوات ، ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس . ﴿ المأوى ﴾ المستقر ، أي مأواه ، واللام فيه سادّة مسدّ الإضافة ، للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغي . ﴿ مقام ربه ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد ، أو جلاله وعظمته . ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ زجرها وكفّها عن هواها المردي باتباع الشهوات . ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ ليس له سواها مأوى . والحاصل أن العاصي في النار والمطيع في الجنة .

﴿ يسألونك ﴾ أي كفار مكة . ﴿ أيان مرساها ﴾ متى إرساؤها أي وقوعها وقيامها . ﴿ فيم ﴾ أي في أي شيء . ﴿ أنت من ذكراها ﴾ أي ما أنت من ذكراها لهم ، والمراد : ليس عندك علمها حتى تذكرها . ﴿ منتهاها ﴾ منتهى علمها ، لا يعلمه غيره . ﴿ إنما أنت منذر ﴾ إنما ينفع إنذارك . ﴿ من يخشاها ﴾ يخافها ، أي إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها ، وهو لا يناسب تعيين الوقت . وأما تخصيص (من يخشى) فلأنه المنتفع بالإنذار . ﴿ لم يلبثوا ﴾ في الدنيا أو في القبور . ﴿ إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي عشية يوم أو ضحاه ، كقوله تعالى : ﴿ إلا ساعةً من نهارٍ ﴾ [الأحقاف ٣٥/٤٦] . وإنما أضاف الضحى إلى العشية ؛ لأنها من يوم واحد .

سبب النزول :

نزول الآية (٤٢) :

﴿ يسألونك عن الساعة .. ﴾ : أخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يَسْأَلُ عن الساعة ، حتى أنزل عليه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن مشركي أهل مكة سألوا

النبي ﷺ ، فقالوا : متى تقوم الساعة ؟ استهزاء منهم ، فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يُكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة مثله[1] .

المناسبة :

بعد بيان أدلة القدرة الإلهية على البعث والحشر والنشر ، من خلق السماء والأرض ، وإثبات إمكان الحشر عقلاً ، أخبر الله تعالى بعد ذلك عن وقوعه فعلاً ، وما يصحبه من أهوال ، وما يترتب عليه من انقسام الناس إلى فريقين : فريق في الجنة وفريق في السعير .

وبعد بيان البرهان العقلي على إمكان القيامة ، والإخبار عن وقوعها ، وذكر أحوالها العامة وأحوال الأشقياء والسعداء فيها ، أجاب الله تعالى عن تساؤل المشركين استهزاء وعناداً عن وقت حدوثها ، وأوضح أن علمها مفوض إلى الله تعالى ، وأن النبي ﷺ مبعوث للإنذار فقط ، وأن ما أنكروه سيرونه ، حتى كأنهم أبداً فيه ، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ، ثم مضت .

التفسير والبيان :

﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرّزت الجحيم لمن يرى ﴾ أي إذا حان وقت مجيء الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات ، وهي يوم القيامة أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث أو تسليم أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، وينسى الإنسان كل شيء قبلها في

---

(١) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين .

جنبها ، فَصَل الله تعالى بين الخلائق ، فمنهم شقي وسعيد ، فجواب (إذا) محذوف وهو : فصل الله ..

ولذلك اليوم صفتان : إنه حين يتذكر الإنسان جميع ماعمله من خير أو شر ؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف عمله ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذٍ يتذكّرُ الإنسانُ ، وأنّى له الذّكْرى ﴾ [الفجر ٢٣/٨٩] وقال سبحانه : ﴿ أحصاه اللهُ ونَسُوه ﴾ [المجادلة ٦/٥٨] . وفيه تظهر نار جهنم المحرقة إظهاراً لا يخفى على أحد . سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، كما قال تعالى : ﴿ وبرِّزت الجحيمُ للغاوين ﴾ [الشعراء ٩١/٢٦] . قال مقاتل : « يكشف عنها الغطاء ، فينظر إليها الخلق » فأما المؤمن : فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر : فيزداد غماً إلى غمه ، وحسرة إلى حسرته .

ثم فصّل الله تعالى مايحكم به بين الخلائق ، فقال :

ـ ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى[1] ﴾ أي فأما من تكبر وتمرد ، وتجاوز الحد في الكفر والمعاصي ، وقدّم الحياة الدنيا على أمر الدين والآخرة ، ولم يستعد لها ، ولا عمل عملها ، فالنار المحرقة هي مأواه ومثواه ومستقره ؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة . قيل : نزلت الآية في النضر وابنه الحارث ، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة .

ـ ﴿ وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي وأما من خاف القيام بين يدي الله عز وجل وخاف حكم الله فيه يوم القيامة ، وأدرك عظمة الله وجلاله ، ونهى نفسه عن هواها ، وزجرها عن المعاصي والمحارم التي تشتهيها ، وردها إلى طاعة مولاها ، فالجنة مكانه الذي يأوي

---

(١) اللام : للعهد الذهني ، أي مأواه اللائق به ، ولهذا استغنى عن العائد ، ولا حاجة إلى تكلف أن الألف واللام بدل من الإضافة .

إليه ، ومستقره ومقامه ، لا غيرها . والآية نزلت في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير ، وهي عامة في كل مؤمن خاف الله ، ولم يتبع هواه .

وهذان الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله بهما أهل النار ، فقوله : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ ضد ﴿ فأما من طغى ﴾ وقوله : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ضد قوله : ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ .

والخوف من الله لابد وأن يكون مسبوقاً بالعلم بالله ، على ماقال الله : ﴿ إنما يَخْشى اللهَ مِنْ عبادِه العلماءُ ﴾ [فاطر ٢٨/٣٥] . ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى ، لذا قدمه على قوله : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾[1] .

ثم ذكر الله تعالى تساؤل المشركين على سبيل الاستهزاء عن ميعاد القيامة ، فقال :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي يسألك أيها النبي المشركون المكذّبون بالبعث عن وقت إرساء القيامة وميعاد وقوعها ، متى يقيمها الله ويوجدها ، أو مامنتهاها ومستقرها كرسوّ السفينة ؟ وذلك حين كانوا يسمعون النبي ﷺ يذكر القيامة بأوصافها الهائلة ، مثل الطامة والصاخة والآزفة والحاقة والقارعة ، فقالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ أيان مرساها ﴾ أي زمان إرسائها .

عن عائشة رضي الله عنها ـ كما تقدم ـ : لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها ، حتى نزلت ، فلما نزلت هذه الآية انتهى . وقال ابن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة ، استهزاءً ؟ فأنزل الله عز وجل الآية .

---

(١) تفسير الرازي : ٥١/٣١

﴿ فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ أي : في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ أو في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها ، أي لست من ذلك في شيء[1] . وهذا تعجب من كثرة ذكره لها ، كأنه قيل : في أيّ شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها ، حرصاً على جوابهم . والمعنى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها ومنتهى علمها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ، ولا يوجد علمها عند غيره ، فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها ؟ وهم يسألونك عنها ، فلحرصك على جوابهم لاتزال تذكرها وتسأل عنها .

ونظير الآية : ﴿ ثَقُلَتْ في السمواتِ والأرضِ ، لاتأتيكم إلا بَغْتَةً ، يسألونَك كأنّك حَفِيٌّ عنها ، قل : إنما عِلْمُها عند الله ﴾ [الأعراف ١٨٧/٧] وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ عنده عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان ٣٤/٣١] . ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال فيما أخرجه مسلم عن عمر : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ؟ » .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، وما أنت إلا مخوّف لمن يخشى قيام الساعة ، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده ، اتّبعك فأفلح ونجا ، ومن كذب بالساعة وخالفك ، خسر وخاب ، فدع علم مالم تكلف به ، واعمل بما أمرت به من إنذار . وخص الإنذار بأهل الخشية ؛ لأنهم المنتفعون بذلك .

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي إن هذا اليوم الذي يسألون عنه واقع حتماً ، وكأنهم فيه ، فإنهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر ، ورأوا الساعة (القيامة) استقصروا مدة الحياة الدنيا ، ورأوا كأنها ساعة من نهار ، أو عشية من يوم أو ضحى من يوم . والمراد تقليل مدة الدنيا في نفوسهم إذا رأوا

(١) البحر المحيط : ٤٢٤/٨

أهوال القيامة . وقال ابن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً . وقيل : لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها ، وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في القبور لما عاينوا من الهول .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ ليس هناك تصوير أوقع لحال تفاعل النفس وانفعالها بمشهد خطير ، مثل هذا التصوير لعلاقة النفس الإنسانية بقيام القيامة .

فإنه إذا وقعت الواقعة ، وأتت الداهية العظمى ، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث ، كما قال ابن عباس ، تذكّر الإنسان ما عمل من خير أو شر ، وشاهد الجحيم النار المحرقة التي تبرز عياناً لكل إنسان مؤمن أو كافر . قال ابن عباس : « يكشف عنها ، فتراها تتلظى كل ذي بصر » يراها الكافر بما فيها من أصناف العذاب ، ويراها المؤمن ليعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها عليه ، ويشاهد الكافر الذي يَصْلى النار .

٢ ـ الناس يوم القيامة والبعث فريقان : السعداء والأشقياء . فأما من عتا وتمرد ، وتكبر وتجاوز الحد في الكفر والعصيان ، وقدّم الحياة الدنيا على الآخرة ، فمأواه ومستقرّه النار .

وأما من حَذِر مقامه بين يدي ربه ، وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم ، فمثواه ومستقره الجنة . قال سهل : ترك الهوى مفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ .

٣ ـ أدّى تساؤل المشركين عن وقت قيام الساعة استهزاء إلى كثرة سؤال النبي ﷺ عن ذلك ، حرصاً على جوابهم . ولكن الله جلّت حكمته اختص بعلم

الساعة ، ولم يطلع أحداً عليها ؛ لأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً ، فلا حاجة إلى الاستفهام عن وقتها بعد العلم باقترابها ، فإن هذا القدر من العلم يكفي في وجوب الاستعداد لها ، بل لا يتم الغرض من التكليف إلا بإخفاء وقتها كالموت .

٤ ـ حجب الله نبيه عن السؤال عن الساعة ، وأعلمه بأن علمها إلى الله وحده ، ووجّهه للعناية والقيام بمهمته الأصلية : وهي الإنذار والتخويف لمن يخشى مقام الله ؛ لأنهم المنتفعون به ، وإن كان منذراً لكل مكلف ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إنما تُنذِرُ من اتَّبع الذِّكْرَ وخَشِي الرحمنَ بالغيبِ ﴾ [يس ١١/٣٦] .

٥ ـ كل ما هو في حكم الواقع واقع حتماً ، فكأن الكفار والمشركين الذين يتساءلون عن القيامة استهزاء وتهكماً واقعون فيها ، قائمون في ساحاتها ، وهم حين يرونها وما فيها من أهوال تشيب لها الولدان ، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، ويقدّرون أنها قدر عشية من ليل أو ضحى من نهار يتبع تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ ﴾ [الأحقاف ٣٥/٤٦] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة عبس

مكيّة . وهي اثنتان وأربعون آية .

تسميتها :

سميت سورة (عبس) لافتتاحها بهذا الوصف البشري المعتاد الذي تقتضيه الجبلّة الإنسانية ، ويغلب على الإنسان حينما يكون مشغولاً بأمر مهم ، ثم يطرأ عليه أمر آخر لصرفه عن الأمر السابق ، ومع ذلك عوتب النبي ﷺ على عبوسه تسامياً لقدره ، وارتفاعاً بمنزلته النبوية .

مناسبتها لما قبلها :

لهذه السورة تعلق بما قبلها وهي النازعات ؛ لأنه تعالى ذكر هناك أن النبي ﷺ منذر من يخشى الساعة ، وهنا ذكر من ينفعه الإنذار ، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ويدعوهم إليه وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة . كما أن بينهما تشابهاً في موضوع الحديث عن يوم القيامة وأهوالها ، وإثبات البعث بمخلوقات الله في الإنسان والكون ، فهناك وصفت القيامة بقوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ [٣٤] وهنا وصفت بقوله سبحانه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ [٣٣] وهما من أسماء يوم القيامة . وهناك أثبت الله البعث بخلق السماء والأرض والجبال ، وهنا أثبته بخلق الإنسان والنبات والطعام .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع السورة كسائر موضوعات السور المكية التي تعنى بالعقيدة والرسالة والأخلاق التي قوامها في الإسلام المساواة بين الناس ، دون تفرقة بين غني وفقير .

ابتدأت السورة بذكر قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة بنت خويلد الذي قدم إلى الرسول ﷺ للتعلم ، في وقت كان فيه مشغولاً مع جماعة من صناديد قريش يدعوهم إلى الإيمان ، فعبس النبي ﷺ وجهه وأعرض عنه ، فعاتبه الله بقوله : ﴿ عبس وتولى .. ﴾ [الآيات ١ ـ ١٦] وأبانت أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر .

ثم نددت بجحود الإنسان وكفره بنعم ربه وإعراضه عن هداية الله : ﴿ قُتل الإنسانُ ما أكفره .. ﴾ [الآيات ١٧ ـ ٢٣] .

وأردفت ذلك بإقامة الأدلة على قدرة الله ووحدانيته بخلق الإنسان والنبات وتيسير طعام ابن آدم وشرابه ، لإثبات القدرة على البعث : ﴿ فلينظر الإنسان مم خُلق .. ﴾ [الآيات ٢٤ ـ ٣٢] .

وختمت السورة بوصف أهوال يوم القيامة ، وفرار الإنسان من أقرب الناس إليه ، وبيان حال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء في هذا اليوم : ﴿ فإذا جاءت الصاخّة .. ﴾ [الآيا في ٣٣ ـ ٤٢] .

سبب نزول السورة :

نزلت هذه السورة في شأن عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة رضي الله عنها . ويقال : عمرو بن قيس بن زائدة ، وهذا أشهر وأكثر كما في جامع الأصول ، واسم أم مكتوم : عاتكة بنت عامر بن مخزوم .

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ ، وعنده صناديد قريش : عُتبة وشَيْبة ابنا

ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلَف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم ، فقال : يا رسول الله ، أقرئني وعلّمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم شغله بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، كان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ » . واستخلفه على المدينة والياً مرتين في غزوتين غزاهما[1] .

قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكباً ، وعليه درع ، ومعه راية سوداء . ويروى : أنه ﷺ ماعبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدّى لغني .

وعلّق القرطبي على أسماء الصناديد المذكورين بقوله : وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة ، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ، ماحضر معهما ولا حضرا معه ، وكان موتهما كافرين ، أحدهما قبل الهجرة ، والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولا حضر عنده مفرداً ، ولا مع أحد[2] .

ثم علّق أبو حيان على ذلك بقوله : والغلط من القرطبي ، كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما ، وهو وهم منه ، وكلهم من قريش ، وكان ابن أم مكتوم منها ، والسورة كلها مكية بالإجماع ، وابن أم مكتوم كان أولاً بمكة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية ، وابن أم مكتوم : هو عبد الله بن شُرَيح بن مالك بن أبي ربيعة الفِهْري من بني عامر بن لؤي القرشي ، وأم مكتوم أم أبيه عاتكة ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها[3] .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢١٢/١٩ ، غرائب القرآن : ٢٧/٣٠ ، تفسير الرازي : ٥٤/٣١

(٢) تفسير القرطبي ، المكان السابق .

(٣) البحر المحيط : ٤٢٧/٨

المساواة في الإسلام

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠

الإعراب :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ ﴿ أن جاءه ﴾ : في موضع نصب ؛ لأنه مفعول لأجله ، وتقديره : لأن جاءه ، فحذف اللام فاتصل الفعل به . ومنهم من جعله في موضع جر ، بإعمال حرف الجر مع الحذف ، لكثرة حذفها معها ، وهي وحرف الجر في موضع نصب بالفعل قبلها .

﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ ﴿ فتنفعه ﴾ : بالنصب على جواب الترجي : (لعل) بالفاء بتقدير (أن) . وبالرفع بالعطف على ﴿ يذكّر ﴾ .

﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ ﴿ يسعى ﴾ : حال من فاعل : جاء . ﴿ وهو يخشى ﴾ حال من فاعل : يسعى ، وهو الأعمى .

البلاغة :

﴿ عبس وتولى .. ﴾ ثم قال : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد الإنكار ، وزيادة في العتاب ، وتنبيهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى ، كمن يشكو جانيا بطريق الغيبة ، وهو حاضر ، ثم يقبل على الجاني مواجهاً بالتوبيخ . وفي ذكر الأعمى إنكار أيضاً ؛ لأن العمى يوجب العطف والرأفة عند ذوي الآداب غالباً ، لا التولي والعبوس .

﴿ يذكر ﴾ و ﴿ الذكرى ﴾ جناس اشتقاق .

﴿ عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ﴾ سجع مرصع .

﴿ تصدى ﴾ ﴿ تلهى ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ عَبَس ﴾ قطّب وجهه . ﴿ وتولى ﴾ أعرض . ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ لأجل أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم ، فقطعه عما هو مشغول به من محاولة هداية أشراف قريش إلى الإسلام . وقد أطبق المفسرون على أن الذي عبس هو الرسول ﷺ ، والأعمى : هو ابن أم مكتوم ، واسمه عبد الله بن شُرَيح بن مالك بن ربيعة الزهري . وقد عاتب الله نبيه على عبوسه في وجه الأعمى ، حتى لاتنكسر قلوب أهل الصُّفّة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وأن النظر إلى المؤمن أولى وأصلح ، وإن كان فقيراً ، من النظر إلى غيره ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم ، وإن كان فيه نوع من المصلحة أيضاً[1] .

﴿ وما يدريك ﴾ أيْ : أيُّ شيء يعلمك ويعرّفك حال هذا الأعمى ؟ ﴿ لعله يزّكّى ﴾ يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وبما يتعرف عليه من الشرائع ، وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره . ﴿ أو يذّكّر ﴾ يتعظ ، أصله يتذكر ، فأدغم التاء في الذال . ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ العظة المسموعة منك .

﴿ استغنى ﴾ بالمال والجاه والقوة عن سماع القرآن . ﴿ تصدّى ﴾ تُقْبِلُ وتَعْرِض ، وقرئ : ﴿ تصدَّى ﴾ وأصله : تتصدى ، فأدغم التاء الثانية بالصاد . ﴿ ألا يزكّى ﴾ يتطهر ويؤمن ، أي ليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام ، حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم ، إن عليك إلا البلاغ . ﴿ وهو يخشى ﴾ أي يخاف الله ، وهو الأعمى . ﴿ تلهى ﴾ تتشاغل ، وأصله تتلهى ، فحذفت التاء الأخرى .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

﴿ عبس ﴾ : أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : أنزل ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : يا رسول الله ، أرشدني ، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، فيقول له : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا ، فنزلت : ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ . وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس .

(١) تفسير القرطبي : ٢١٢/١٩

التفسير والبيان :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ أي قطب النبي ﷺ وجهه ، وأعرض ، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه ، وهو عبد الله بن أم مكتوم ، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه ، فنزلت . وعُذْر ابن أم مكتوم أنه لم يدر بتشاغل النبي ﷺ .

﴿ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكّر فتنفعه الذكرى ﴾ ؟ أي وما يعلمك ويعرفك يا محمد لعل الأعمى يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ، فتنفعه الموعظة .

وفي هذا إيماء إلى أن غير الأعمى ممن تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى منهم الهداية . وفيه تعظيم من الله سبحانه لابن أم مكتوم .

وكان هذا التصرف من النبي ﷺ بمثابة ترك الاحتياط وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً ألبتة ، ولا مصادماً لمبدأ عصمة الأنبياء ، لصدور الفعل عن أمر تابع للجبلّة الإنسانية كالرضا والغضب والضحك والبكاء ، والتي رفع عنها التكليف في شريعة الإسلام .

وبعد هذا الوصف المؤذن بالعتاب جاء العتاب صريحاً في قوله تعالى :

أ ـ ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدّى ﴾ أي أما من استغنى بماله وثروته وقوته عما لديك من معارف القرآن والهداية الإلهية ، وعن الإيمان والعلم ، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك ، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به .

﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي لا بأس ولا شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدي ، ولا يتطهر من الذنوب ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تهتم بأمر من كان مثل هؤلاء من الكفار .

٢ ـ ﴿ وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ أي وأما من أتى إليك مسرعاً في طلب الهداية والإرشاد إلى الخير ، والعظة بمواعظ الله ، وهو يخاف الله تعالى ، فأنت تتشاغل عنه وتعرض وتتغافل .

لذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف ، والغني والفقير ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم يهدي الله تعالى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الآية عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم ، حتى لاتنكسر قلوب الفقراء ، وليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني .

٢ ـ بالرغم من أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر ؛ لأنه أبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يُعلّمه ، فكان في هذا نوع جفاء منه ، بالرغم من هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ ؛ لأن الأهم مقدم على المهم . ويستحق التأديب أيضاً ؛ لأنه كان قد أسلم وتعلّم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين . أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وإسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم .

٣ ـ عُذْر ابن أم مكتوم : أنه لم يكن عالماً بأن النبي ﷺ مشغول بغيره ، وأنه يرجو إسلامهم .

٤ ـ الآية دليل واضح على وجوب المساواة في الإسلام في شأن الإنذار وتبليغ الدعوة دون تمييز بين فقير وغني . ونظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى : ﴿ ولا تَطْرِدِ الذين يَدْعون ربَّهم بالغداة والعَشِي يريدون وجهه ﴾ [الأنعام ٥٢/٦] وقوله سبحانه : ﴿ واصبرْ نفسَك مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغداةِ والعَشِيّ

يُريدون وجهَه ، ولا تَعْدُ عيناك عنهم ، تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ، ولا تُطِعْ من أغفلنا قَلْبَه عن ذِكْرِنا ، واتَّبع هواه ، وكان أمرُه فُرُطاً ﴾ [الكهف ٢٨/١٨] .

٥ ـ أراد الله توفير جهد نبيه ﷺ في دعوة رؤساء قريش إلى الإسلام ، وهم في الحقيقة لن يؤمنوا ، وكفاهم مابلَّغهم به من دعوته إلى التوحيد ، ونبذ عبادة الأوثان ، وليس عليه بأس بعدئذ في ألا يهتدوا ولا يؤمنوا ، فإنما هو رسول ، ماعليه إلا البلاغ ، ولا يصح أن يكون الحرص على إسلامهم مؤدياً إلى الإعراض عمن أسلم ، للاشتغال بدعوة من لم يسلم .

القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾
كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

الإعراب :

﴿ في صحف ﴾ خبر ثان لـ ﴿ إنها ﴾ وما قبله اعتراض ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

﴿ قتل الإنسان ماأكفره ﴾ ﴿ ما ﴾ إما تعجبية ، وإما استفهامية .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ السبيل منصوب بفعل يفسره الظاهر ، للمبالغة في التيسير .

﴿ كلا لما يقض ماأمره ﴾ ﴿ لما ﴾ حرف جزم ، معناه النفي لما قرب من الحال . و ﴿ ما أمره ﴾ تقديره : لِمَا أمَرَ به ، فحذف الباء من « به » ثم حذف الهاء العائدة إلى « ما » فصار : لما أمره .

البلاغة :

﴿ قتل الإنسان ماأكفره ؟ ﴾ أسلوب التعجب ، تعجب من إفراط كفره ، مع كثرة إحسان الله إليه .

﴿ من أي شيء خلقه ﴾ إجمال ، ثم تفصيل بقوله : ﴿ من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسّره ، ثم أماته فأقبره ﴾ .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ كناية بالسبيل عن خروجه من فرج الأم .

﴿ في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ﴾ الخ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وهو المسمى بالسجع المرصع .

المفردات اللغوية :

﴿ كلا ﴾ كلمة ردع وزجر ، والمراد هنا زجر المخاطب عن المعاتب عليه ، أو عن معاودة مثله ، أي لاتفعل مثل ذلك . ﴿ إنها ﴾ أي الهداية أو آيات القرآن . ﴿ تذكرة ﴾ موعظة ، وهي في معنى الذكر والوعظ ، لذا ذكّر الضمير العائد إليها في قوله : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي اتعظ به ، أو حفظه . والمراد أن هذا القرآن ، أو هذا التأديب الذي عرّفناكه في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة .

﴿ في صحف مكرمة ﴾ أي إن التذكرة مثبتة كائنة مودعة في صحف شريفة عند الله . ﴿ مرفوعة ﴾ رفيعة القدر في السماء . ﴿ مطهرة ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين ، وعن النقص . ﴿ بأيدي سفرة ﴾ كَتَبة من الملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ . ﴿ كرام ﴾ أعزاء على الله تعالى . ﴿ بَرَرة ﴾ أتقياء مطيعين لله تعالى ، وهم الملائكة .

﴿ قتل الإنسان ماأكفره ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات ، وتعجب من إفراطه في كفران النعم أو استفهام توبيخ ، أي ماحمله على الكفر ؟! ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ بيان لما أنعم عليه ، والاستفهام للتحقير .

﴿ من نطفة خلقه ﴾ من مني ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر خلقه . ﴿ فقدّره ﴾ أي أنشأه في أطوار وأحوال مختلفة . ﴿ ثم السبيل يسّره ﴾ أي سهّل له مخرجه من بطن أمه ، وهو كناية ، أو سهل له طريق الخير والشر . ﴿ فأقبره ﴾ جعله في قبر يستره ، ويُوارَى فيه . ﴿ أنشره ﴾ بعثه بعد الموت . ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من الترفع والتكبر . ﴿ لما يقض ماأمره ﴾ أي لم يفعل ماأمره الله به بنحو كامل ؛ إذ لا يخلو أحد من التقصير في شيء ما .

سبب النزول :

نزول الآية (١٧) :

﴿ قتل الإنسان .. ﴾ : أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ قُتل الإنسانُ ماأكْفَرَه ﴾ قال : نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب حين قال : كفرت برب النجم .

المناسبة :

بعد عتاب الله لنبيه على عبوسه في وجه عبد الله بن أم مكتوم بسبب انشغاله مع رؤساء قريش ، سرّى الله عنه بقوله : ﴿ كلا ﴾ أي لاتفعل مثل ذلك ، وعرّفه بأن الهداية لاتحتاج لجهود ومحاولات كثيرة ، وأن هذا التأديب الذي أوحى إليه به كان لإجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ، وهذا القرآن مجرد تذكرة لتنبيه الغافلين ، فمن رغب فيها ، اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، وهي مودعة في صحف شريفة القدر .

وبعد بيان حال القرآن وأنه كتاب الذكرى والموعظة ، ذمّ الله الإنسان ووبخه على كفران نعم ربه ، وتكبره وتعاظمه عن قبول هداية الله له ، وأنه استحق أعظم أنواع العقاب لأجل ارتكابه أعظم أنواع القبائح .

التفسير والبيان :

﴿ كلا ، إنها تذكرة ﴾ أي لاتفعل مثل فعلك مع ابن أم مكتوم ، من الإعراض عن الفقير ، والتصدي للغني مع كونه ليس ممن يتزكى ، وإن هذه الآيات أو السورة أو القرآن موعظة ، جدير بك وبأمتك أن تتعظ بها وتعمل بموجبها .

وفي الآية تعظيم شأن القرآن ، فسواء قبله الكفرة أم لا ، فلا يؤبه بهم ، ولا يلتفت إليهم .

ثم وصف تلك التذكرة بأمرين :

١ - ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي إن هذه تذكرة بيّنة ظاهرة ، مقدور على فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها ، فمن رغب فيها اتعظ بها ، وحفظها ، وعمل بموجبها .

٢ - ﴿ في صحف مكرّمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سَفَرة ، كرام بَررة ﴾ أي إنها تذكرة مثبتة مودعة كائنة في صحف مكرمة عند الله ، لما فيها من العلم والحكمة ، ولنزولها من اللوح المحفوظ ، رفيعة القدر عند الله ، منزّهة لا يمسّها إلا المطهرون ، مصانة عن الشياطين والكفار ، لا ينالونها ، ومنزّهة عن النقص والضلالات ، محمولة بأيدي ملائكة سفرة وسائط يسفرون بالوحي بين الله ورسله لتبليغها للناس ، من السفارة : وهي السعي بين القوم .

وهم كرام على ربهم ، كرام عن المعاصي ، أتقياء مطيعون لربهم ، صادقون في إيمانهم ، أي إن الله تعالى وصف الملائكة بصفات ثلاث : هي كونهم سفراء ينزلون بالوحي بين الله وبين رسله ، وكرام على ربهم ، ومطيعون لله ، كما قال تعالى : ﴿ بل عبادٌ مُكْرَمون ﴾ [الأنبياء ٢٦/٢١] وقال : ﴿ لا يَعْصون اللهَ ما أمَرهم ويفعلون ما يُؤْمرون ﴾ [التحريم ٦/٦٦] .

قال ابن جرير الطبري : والصحيح أن السفرة : الملائكة ، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير : الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

أخرج الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة ﴾ عن عائشة رضي الله عنها

قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذي يقرأ القرآن ، وهو ماهر به ، مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ، وهو عليه شاق ، له أجران » .

ثم ذم الله تعالى من أنكر البعث والنشور من الناس بقوله :

﴿ قتل الإنسان ماأكفره ﴾ أي لعن الإنسان الكافر أو قتل أو عذب ماأشد كفره ؟! وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات ، وتعجب من إفراطه في الكفر ، ودليل على سخط عظيم وذم بليغ ، يدل على قبح حاله ، وبلوغه حداً من العتو والكبر لا يستحق معه الحياة . وهذا جارٍ على أسلوب العرب عند التعجب من شيء ، فيقال : قاتله الله ماأفصحه ؟! والمراد بالكلام الملائم في حقه تعالى هنا : إرادة إيصال العقاب الشديد للكافر .

ثم ذكّره بخلقه من الشيء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال تعالى :

﴿ من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي من أي شيء مهين حقير ، خلق الله هذا الكافر بربّه ؟ فلا ينبغي له التكبر عن الطاعة ، إنه تعالى خلقه من ماء مهين ، وقدّره أطواراً وأحوالاً ، وسوّاه وهيّأه لمصالح نفسه ، وأتمّ خلقه وأكمله بأعضائه الملائمة لحاجاته مدة حياته ، وزوّده بطاقات العقل والفكر والفهم ، والقوى والحواس للاستفادة من نعم الله تعالى ، فلا يستعملها فيما يغضب الله ، وإنما عليه استعمالها في رضوان الله .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ إما كناية عن خروجه بسهولة من فرج أمه ، وإما أنه تعالى يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر ، كما قال تعالى : ﴿ وهَدَيْنَاه النجدين ﴾ [البلد ٩٠/١٠] أي بيّنا له طريق الخير وطريق الشر ، وقال سبحانه : ﴿ إنا هديناه السبيلَ ، إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الدهر ٧٦/٣] .

﴿ ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي أنه بعد خلقه له وتمكينه من الحياة قبض روحه ، وجعله في قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله ملقى على

وجه الأرض تأكله السباع والطير ، ثم إذا شاء الله إنشاره أحياه بعد موته ، أو بعثه بعد موته ، في الوقت الذي يريده الله تعالى . ومنه يقال : البعث والنشور .

والإماتة ستر للعيوب بعد الهرم أو المرض ، والإقبار تكرمة حيث لم يُلْقَ للطير والسباع ، والإنشار أي البعث عدل وفضل . ثم لامه على تقصيره ، وأكد كفره بالنعم ، فقال :

﴿ كلا لما يقض ماأمره ﴾ أي هذا ردع وزجر للإنسان عما هو عليه ، فلم يخل إنسان من تقصير قط ، فبعض الناس أخل بالكفر ، وبعضهم بالعصيان ، وبعضهم بارتكاب خلاف الأولى والأفضل لما يليق بمنزلته ، وما قضى ماأمره الله إلا القليل . والآية تدل على العجب من حال الإنسان ، فإنه قد ينكر خالقه بعد قيام الأدلة على وجوده في نفسه وفي السموات والأرض ، وقد يجحد نعمة ربه ، فلا يقابلها بالحمد والشكر وعرفان الجميل ، وينسبها إلى نفسه ، وقد يعصي الله بالرغم من وجود أدلة الهداية والرشد ، وإدراكه مخاطر العصيان .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم كتاب تذكرة وموعظة وتبصرة للناس جميعاً ، فمن أراد اتعظ بالقرآن وانتفع به وعمل بموجبه . وهذا دليل على حرية الاختيار .

٢ ـ القرآن كتاب جليل عند الله ، فهو مثبت مودع في صحف مكرمة عند الله ، لما فيها من العلم والحكمة ، رفيعة القدر عند الله ، مطهرة من كل دنس ، مصانة عن أن ينالها الكفار ، محمولة بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ، وهم كرام على ربهم ، كرام عن المعاصي ، يرفعون أنفسهم عنها ، مطيعون

لله ، صادقون لله في أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ إنّه لقرآنٌ كريمٌ ، في كتابٍ مكنونٍ ، لا يمسُّه إلا المطّهرون ﴾ [الواقعة ٧٧/٥٦ ـ ٧٩] .

٣ ـ لعن الإنسان حيث كفر بالقرآن ، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور ، فالله قادر على إعادته كما قدر على بدء خلقه ، فإنه خلقه من ماء يسير مهين ، ثم جعله يمر بأطوار بعد كونه نطفة ، إلى وقت إنشائه خلقاً آخر ، وبأحوال من كونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً ، حسناً أو دمياً ، قصيراً أو طويلاً ، فكيف يليق به التكبر والتجبر عن أوامر الله ؟ ثم يسر له سلوك طريق الخير والشر ، أي بيّن له ذلك ، كما قال : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ [الدهر ٣/٧٦] وقال :﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد ١٠/٩٠] .

ثم جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والسباع . وهذا دليل على أن الله سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسية تكرمة لهم ، سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً ، دون أن يطرحوا على وجه الأرض ، طعمة للسباع ، كسائر الحيوان .

ثم إذا شاء الله أنشره ، أي أحياه بعد موته .

وكل هذه الانتقالات دلالات واضحة على أنه سبحانه إذا شاء أن ينشر الإنسان ببعثه من قبره أنشره . وهذه الانتقالات أو المراتب ثلاث : الأولى ـ بداية خلقه من ماء مهين ، وهذا دليل على زيادة التقرير في التحقير ، والثانية المتوسطة ـ التمييز بين الخير والشر ، والثالثة الأخيرة ـ الإماتة والإقبار ، والإنشار ، أي الإحياء بعد البعث .

٤ ـ كل إنسان إلا القليل مقصر في حق الله ، فلا يقضي أحد ماأمر به ، من الإيمان والطاعة ، والتأمل في دلائل الله ، والتدبر في عجائب خلق الله وبينات حكمته .

نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

الإعراب :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ﴾ ﴿ أنا ﴾ إما بدل من ﴿ طعامه ﴾ بدل اشتمال ؛ لأن هذه الأشياء تشتمل على الطعام ، وإما على تقدير اللام ، أي لأنا صببنا . وتقرأ بالكسر ﴿ إنا ﴾ على الابتداء والاستئناف .

المفردات اللغوية :

﴿ فلينظر الإنسان ﴾ نظر تأمل واعتبار . ﴿ إلى طعامه ﴾ كيف أوجد وقدر ودبر له والظاهر أن الطعام هو المطعوم . ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ أي أنزلناه بسخاء وكثرة من السحاب ، وهو بيان لكيفية إحداث الطعام . ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أي شققناه بالنبات ، وإسناد الصب والشق إلى الله نفسه إسناد الفعل إلى السبب . ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ كالحنطة والشعير . ﴿ وقضباً ﴾ هو القت الرطب أو البرسيم ، سمي قضباً لأنه يقضب ، أي يقطع مرة بعد أخرى . ﴿ وحدائق غلباً ﴾ بساتين ضخاماً عظاماً ، كثيرة الأشجار ، جمع غلباء ، وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها . ﴿ وأباً ﴾ الأب : العشب أو ماترعاه البهائم ، سمي أباً ؛ لأنه يؤبّ ، أي يؤم وينتجع . ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ متعة أو تمتيعاً ، أي أنبتناه لكم لتتمتعوا وتنتفع أنعامكم ، فبعض الأنواع المذكورة طعام وبعضها علف .

المناسبة :

بعد بيان الدلائل على قدرة الله تعالى وتعداد نعمه في الأنفس البشرية أو الذوات ، ذكر الله دلائل الآفاق ، وعدّد النعم التي يحتاج إليها الإنسان لقوام حياته .

التفسير والبيان :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ أي فليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي يعيش به ، ويكون سبباً لحياته ، وكيف دبره وهيأه له . وفي هذا امتنان بهذه النعمة ، واستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية .

ثم أوضح كيفية إيجاد الطعام ، فقال :

﴿ أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أننا أنزلنا الماء من السماء أو سحاب على الأرض بغزارة وكثرة ، فصب الماء هو المطر ، ثم أسكناه في الأرض ، ثم رَوِينا البذر المودع فيها ، ثم شققناها بالنبات الخارج منها ، فارتفع وظهر على وجهها ، فكان هناك أنواع مختلفة من النباتات في الصغر والكبر ، والهيئة والشكل ، واللون والطعم ، والأغراض المتنوعة كالغذاء والدواء والمرعى ، لذا ذكر تعالى بعدئذ ثمانية أنواع من النبات بقوله :

١ ـ ٣ ـ ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ أي فأنبتنا في الأرض الحبوب التي يتغذى بها كالحنطة والشعير والذرة ، والأعناب المتنوعة ، والرطبة أو القت أو البرسيم أو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة . والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حباً وعنباً وقضباً . وقيل : القضب : العلف .

٤ ـ ٥ ـ ﴿ وزيتوناً ونخلاً ﴾ أي وأنبتنا أيضاً شجر الزيتون والنخيل ، وثمرتها معروفة .

٦ ـ ٨ ـ ﴿ وحدائق غلباً ، وفاكهة، وأبّاً ﴾ أي بساتين ذات أشجار ضخمة ومتكاثفة كثيرة ، وفاكهةو وهي كل ما يتفكه به من الثمار ، أي يستمتع به ، كالتفاح والكمّثرى والموز والخوخ والتين ونحوها ، وعشباً أو حشيشاً مرعى

للدواب ، فالأب : كل ماأنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر أنواع المرعى للحيوان .

ثم ذكر وجه النعمة أو الحكمة في خلق هذه النباتات ، فقال :

﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي جعلنا ذلك متعة أو عيشة لكم ولأنعامكم ، لتنتفعوا بها وتأكلها بهائمكم ، والأنعام : هي الإبل والبقر والغنم .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أمر الله تعالى بالنظر والاستدلال والتدبر إلى الطعام الذي يتناوله الإنسان ، ويعيش به ، كيف دبّر الله أمره ، من إنزال الماء من السماء ، ثم شق الأرض بالنبات أو بالحراثة على الدواب أو بالآلات ، وإخراج أنواع النبات المختلفة .

٢ ـ ذكر الله تعالى ثمانية أنواع من النبات : وهي الحب : وهو كل ماحصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ، وقُدّم لأنه كالأصل في الغذاء ، والعنب ، وذكر بعد الحب ، لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر ، والقضب عند أهل مكة واليمن : وهو الرطبة المسماة بالقت ، والزيتون والنخيل ، والحدايق ذات الأشجار الضخمة الكثيرة ، والفاكهة : وهي ما يأكله الناس من الثمار ، وقد ذكرها مجملة ليعم جميع أنواعها ، والأب : وهو المرعى الذي يؤبّ أي يؤم وينتجع ، وهو ماتأكله البهائم من العشب .

٣ ـ الغاية من خلق هذه النباتات التي تشمل ما يتغذى به الإنسان والحيوان : هي الانتفاع بها ، سواء بالنسبة للناس أو للدواب ؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات .

٤ ـ القصد من إيراد هذه الأشياء : ضرب المثل من الله تعالى ، لبعث الموتى من قبورهم ، والامتنان من الله على عباده بما أنعم به عليهم .

والخلاصة : أن المقصود من هذه الأشياء أمور ثلاثة :

أولها ـ إيراد الدلائل الدالة على التوحيد .

وثانيها ـ إيراد الدلائل الدالة على القدرة على المعاد .

وثالثها ـ الترغيب بالإيمان والطاعة ؛ فإنه لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعة الإله الذي أحسن إلى عباده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان .

أهوال القيامة

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ
مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا
غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

الإعراب :

﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ جواب إذا : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي استقر لكل امرئ منهم .

البلاغة :

﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ﴾ بينهما مقابلة ، قابل فيها بين وجوه السعداء ووجوه الأشقياء .

المفردات اللغوية :

﴿ الصاخة ﴾ هي القارعة أو الطامة الكبرى أو القيامة ، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث ، والمراد بها الصيحة التي تصم الآذان لشدتها ، وصفت بها مجازاً ؛ لأن الناس يصخون لها ، والصخ : الضرب بالحديد على الحديد أو بالعصا على شيء ، فيسمع صوت شديد .

﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ لاشتغاله بشأنه ، وعلمه بأنهم لا ينفعونه . ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ شغل أو حال يكفيه في الاهتمام به ، ويشغله عن شأن غيره ، أي اشتغل كل واحد بنفسه ، مما يدل على الرهبة والخوف الشديد ، و ﴿ يغنيه ﴾ يصرفه عن غيره .

﴿ مسفرة ﴾ مضيئة متهللة مشرقة من البشر ، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء . ﴿ مستبشرة ﴾ فرحة بما ترى من النعيم ، وهم المؤمنون . ﴿ غبرة ﴾ غبار وكدورة ، وهم الكافرون . ﴿ ترهقها ﴾ تغشاها . ﴿ قترة ﴾ سواد وظلمة كالدخان . ﴿ أولئك ﴾ أصحاب هذه الحالة . ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ الجامعون بين أنواع الكفر : (إنكار وجود الله أو إنكار وحدانيته) والفجور : العصيان والخروج عن حدود الله .

المناسبة :

بعد بيان نعم الله تعالى في نفس الإنسان وفي الآفاق ، وإقامة الأدلة والبراهين بها على كمال قدرة الله عز وجل على البعث وكل شيء ، أبان الله تعالى بعض أهوال القيامة وأحوالها التي تملأ النفس خوفاً ورهبة ، ليكون ذلك مدعاة إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر ، وإلى ترك التكبر على الناس ، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد .

والناس في ذلك الموقف فريقان : سعداء وأشقياء ، والفريق الأول ضاحك مستبشر : وهو من آمن بالله ورسله وأطاع ما أمر الله به . والفريق الثاني عابس متكدر ، تعلو وجهه الغبرة وترهقه القترة : وهو الذي أنكر وجود الله وتوحيده ، وأعرض عن قبول ما جاءت به رسل الله .

قال القرطبي : لما ذكر أمر المعاش ، ذكر أمر المعاد ، ليتزودوا له بالإعمال الصالحة ، وبالإنفاق مما امتنّ به عليهم .

التفسير والبيان :

﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ أي إذا جاءت القيامة أو صيحة يوم القيامة التي تصخ الأذن ، أي تصمها فلا تسمع . والصاخّة : اسم من أسماء القيامة ، عظّمه الله وحذّر عباده . قال البغوي : الصاخة : يعني صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ؛ لانها تصُخّ الأسماع وتُصِمُّ الآذان لشدتها ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصِمُّها . وقال ابن جرير : لعله اسم للنفخة في الصور .

﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي إذا جاءت الصاخة حين يرى المرء أعز أقاربه وأخصهم لديه ، وأولاهم بالحنو والرأفة والعطف ، من أخ وأم وأب وزوجة وولد ، ويفر منهم ويبتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل ، ولكل امرئ منهم يومئذ حال أو شغل يشغله عن الأقرباء ويصرفه منهم ، ويفرّ عنهم ، حذراً من مطالبتهم إياه بشيء يهمهم ، ولئلا يروا ما هو فيه من الشدة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ يوم لا يُغْنِي مَوْلىً عن مولىً شيئاً ، ولا هم يُنْصَرُون ﴾ [الدخان ٤١/٤٤] وقوله سبحانه : ﴿ ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً ﴾ [المعارج ١٠/٧٠] .

والمراد : أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم في دار الآخرة . وفائدة الترتيب واضحة ، وهي الفرار من الأبعد وهو الأخ ، ثم من الأبوين ، ثم من الزوجة والولد ، من قبيل الترقي إلى الأحب عادة والأقرب ، قال الزمخشري : بدأ بالأخ ، ثم بالأبوين ؛ لأنها أقرب منه ، ثم الصاحبة والبنين ؛ لأنهم أقرب وأحب ، كأنه قال : يفر من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه . وأيده الرازي في هذا .

وعقب النظام النيسابوري في غرائب القرآن على ذلك فقال : هذا القول يستلزم أن تكون الصاحبة أقرب وأحب من الأبوين ، ولعله خلاف العقل

والشرع . والأصوب أن يقال : أراد أن يذكر بعض من هو مطيف بالمرء في الدنيا من أقاربه في طرفي الصعود والنزول فبدأ بطرف الصعود ؛ لأن تقديم الأصل أولى من تقديم الفرع ، وذكر أولاً في كل من الطرفين من هو معه في درجة واحدة وهو الأخ في الأول والصاحبة في الثاني . على أن وجود البنين موقوف على وجود الصاحبة ، فكانت بالتقديم أولى[١] .

والأظهر أن الفرار المعني : هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء ، بدليل قوله : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي يصرفه ويصدّه عن قرابته[٢] .

روى ابن أبي حاتم والنسائي والترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرْلاً ، أي غير مختونين ، قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ » أو قال : « ما أشغله عن النظر !! » .

ثم ذكر الله تعالى أحوال الناس حينئذ وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء ، فقال واصفاً السعداء أولاً :

﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين : وجوه متهللة مشرقة مضيئة ، وهي وجوه المؤمنين أهل الجنة ؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك مالهم من النعيم والكرامة .

ثم وصف الأشقياء بقوله :

﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ أي ووجوه أخرى في القيامة عليها غبار وكدورة ، لما تراه مما أعدّه الله لها من

---

(١) تفسير الكشاف : ٣١٤/٣ ، تفسير الرازي : ٦٤/٣١ ، غرائب القرآن : ٣١/٣٠

(٢) غرائب القرآن ، المكان السابق .

العذاب ، يغشاها سواد وكسوف ، وذلّة وشدة ، وأصحاب تلك الوجوه المغبّرة هم الذين كفروا بالله فلم يؤمنوا به ، ولا بما جاء به أنبياؤه ورسله ، واقترفوا السيئات ، فهم الفاسقون الكاذبون الذين جمعوا بين الكفر والفجور ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ [نوح ٢٧/٧١] . ولا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر ، بدليل هذه الآية : ﴿ الكفرة الفجرة ﴾ فالكفار هم الفجار لاغيرهم .

ووجود هذين الفريقين في هذه الآية ونحوها لا يقتضي نفي وجود فريق ثالث وهم المؤمنون العصاة أو الفساق ، كما قال الرازي[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إذا جاءت صيحة القيامة وهي النفخة الثانية أو الأخيرة ، والتي يهرب في يومها الأخ من أخيه ، والولد من والديه ، والزوج من زوجته وأولاده ، لاشتغاله بنفسه ، يكون لكل إنسان يومئذ حال أو شغل يشغله عن غيره .

جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً » قلت : يارسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « ياعائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

ولفظ رواية الترمذي عن ابن عباس : أن النبي ﷺ قال : « يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً ، فقالت امرأة : أينظر بعضنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟

(١) تفسير الرازي : ٦٥/٣١

قال : يافلانة ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ » قال : حديث حسن صحيح .

٢ ـ يكون الناس يوم القيامة فريقين : فريق وجوههم مشرقة مضيئة ، مسرورة فَرِحة مستبشرة بما آتاها الله من الكرامة ، قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهي وجوه المؤمنين . وفريق وجوههم يعلوها غبار ودخان تغشاها ظلمة وسواد ، وهي وجوه الكافرين بالله وبرسله ، العاصين الكاذبين المفترين على الله تعالى .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير

مكيّة ، وهي تسع وعشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة التكوير ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ أي جمع بعضها إلى بعض ، ثم لُفّت ، فرمي بها ، ومُحي ضوؤها .

مناسبتها لما قبلها :

توضح كل من السورتين أهوال القيامة وشدائدها ، ففي سورة ﴿ عبس ﴾ قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتْ الصاخّة ، يوم يفر المرء من أخيه .. ﴾ [٣٣ ـ ٤٢] وفي هذه السورة قال سبحانه : ﴿ إذا الشمس كورت .. ﴾ إلخ ، فلما ذكر سبحانه الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين ، أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات يوم الجزاء .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة كغيرها من السور المكية تتعلق بالعقيدة ، فهي تقرر ما يوجد في يوم القيامة من أحوال ، وتثبت أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى .

وقد ابتدأت ببيان أهوال القيامة ، وما يصحبها من تغيرات كونية غريبة ، تشمل كل ما يشاهده الإنسان في الدنيا من السماء وكواكبها ، والأرض وجبالها وبحارها ووحوشها ، والنفوس البشرية ومظالمها ، وتبرز بعدئذ الجحيم ونيرانها ، والجنة ونعيمها : ﴿ إذا الشمس كوّرت .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ١٤] .

ثم تحدثت عن القرآن وتنزيله من الله بواسطة جبريل الأمين على قلب النبي المصطفى ﷺ ، وإثبات نبوته ورسالته وأمانته في تبليغ الوحي وأهليته العالية لتلقي الوحي ، ورؤيته جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية : ﴿ فلا أقسم بالخنّس .. ﴾ [الآيات : ١٥ ـ ٢٥] .

وختمت السورة ببيان ضلال المشركين ، وأن القرآن عظة وذكرى لجميع العالمين من الإنس والجن ممن أراد الهداية وأقبل على الخير ، وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى ، فلا يستطيع الاستقلال بعمل ما دون إرادة الله .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأي عين ، فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ و﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و﴿ إذا السماء انشقت ﴾ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أحوال القيامة وأهوالها

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

الإعراب :

﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ ﴿ إذا ﴾ ظرف ، والعامل فيه وفي كل ﴿ إذا ﴾ بعدها قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ماأحضرت ﴾ . و ﴿ الشمس ﴾ فاعل لفعل مضمر يفسره ﴿ كورت ﴾ كما ذكر الزمخشري : لأن ﴿ إذا ﴾ لاتدخل إلا على فعل ، لما فيها من معنى الشرط .

البلاغة :

﴿ كورت ﴾ ﴿ انكدرت ﴾ ﴿ عطلت ﴾ ﴿ حشرت ﴾ ﴿ سجّرت ﴾ ﴿ زوجت ﴾ ﴿ سئلت ﴾ ﴿ قتلت ﴾ ﴿ نشرت ﴾ ﴿ كشطت ﴾ ﴿ سعرت ﴾ ﴿ أزلفت ﴾ ﴿ أحضرت ﴾ سجع مرصع وهو توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات .

﴿ الجحيم ﴾ و ﴿ الجنة ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ كوّرت ﴾ لُفّت وطويت وأزيل ضياؤها ونورها . ﴿ انكدرت ﴾ تساقطت وتهاوت على الأرض ومحي ضوؤها . ﴿ سُيّرت ﴾ أزيلت عن مواضعها بزلزلة الأرض ، وبددت في الجو ، فصارت هباء منبثاً . ﴿ العشار ﴾ النوق الحوامل التي مضى على حملها عشرة أشهر ، وهي كرائم أموال العرب جمع عُشَراء . ﴿ عُطّلت ﴾ تركت مهملة بلا راع وبلا حلب ، لما دهاهم من الأمر .

﴿ الوحوش حشرت ﴾ جمعت بعد البعث للاقتصاص من بعضها لبعض ، ثم تصير تراباً . ﴿ سُجّرت ﴾ أوقدت ، فصارت ناراً تحترق ، بالبركان والزلزال . ﴿ زُوّجت ﴾ قرنت الأرواح بالأجساد . ﴿ الموءودة سئلت ﴾ البنت التي تدفن حية خوف العار والحاجة ، وكان هذا عادة بعض العرب في الجاهلية . سئلت تبكيتاً لقاتلها أو وائدها ، كتبكيت النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة ١١٦/٥] . ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ حكاية لما تخاطب به ، وجوابها أن تقول : قتلت بلا ذنب .

﴿ الصحف ﴾ صحف الأعمال . ﴿ نشرت ﴾ فتحت وبسطت ، فهي تُطوى عند الموت ، وتُنشر وقت الحساب . ﴿ كُشطت ﴾ قُلعت كما يقلع السقف ، وأزيلت عن أماكنها كما ينزع الجلد من الشاة . ﴿ وإذا الجحيم ﴾ النار . ﴿ سُعّرت ﴾ أججت وأوقدت إيقاداً شديداً . ﴿ أزلفت ﴾ قرّبت وأدنيت لأهلها المتقين . ﴿ علمت نفس ماأحضرت ﴾ جواب أول السورة ، وما عطف عليها وهو اثنتا عشرة خصلة ، ست منها في بدء قيام الساعة قبل فناء الدنيا ، وست بعده أي يوم القيامة . وكلمة ﴿ نفس ﴾ في معنى العموم أي كل نفس ، و ﴿ ما أحضرت ﴾ أي ماقدمت من خير أو شر .

التفسير والبيان :

هذه أوصاف القيامة وأحداثها الجسام ، لتعظيمها وتخويف الناس بها :

﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ﴾ أي إذا لُفَّت الشمس ، وجمعت ، بعضها على بعض كتكوير العمامة ، وجمع الثياب مع بعضها ، ثم رمي بها ، وذهب بضوئها ، إيذاناً بخراب العالم ؛ وإذا انقضَّت النجوم وتساقطت وتناثرت ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا الكواكبُ انتثرت ﴾ [الانفطار ٢/٨٢] ؛ وإذا قلعت الجبال عن الأرض ، وسيِّرت في الهواء حين زلزلة الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وسُيِّرت الجبالُ فكانت سَرَاباً ﴾ [النبأ ٢٠/٧٨] وقال سبحانه : ﴿ ويومَ نسيِّر الجبالَ وترى الأرضَ بارزة ﴾ [الكهف ٤٧/١٨] .

﴿ وإذا العشار عُطِّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ﴾ أي وإذا النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، وهي أنفَس مال عند العرب وأعزّه عندهم ، تركت مهملة بلا راع ، لشدة الخطب ، وعظمة الهول ؛ وإذا الوحوش الدواب البرية غير الإنسية بعثت حتىٰ يقتص لبعضها من بعض ، وقيل : حشرها : موتها وهلاكها ؛ وإذا البحار أوقدت بالبراكين والزلازل فصارت ناراً تضطرم ، بعد أن فاض بعضها إلى بعض ، وصارت شيئاً واحداً ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا البحار فجِّرت ﴾ [الانفطار ٣/٨٢] وقال : ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور ٦/٥٢] وحينئذ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق .

قال أُبيّ بن كعب رضي الله عنه : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم ، إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فَماجُوا بعضهم في بعض . وقال

ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كوِّرت ﴾ إلى قوله : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ اثنتا عشرة خصلة : ستة في الدنيا ، وستة في الآخرة . والستة الأولى بيناها بقول أبي بن كعب ، والستة الأخرى في الآيات التالية .

لذا ذكر الله تعالى مايحدث بعدئذ من البعث ، فقال :

﴿ وإذا النفوس زُوِّجت ، وإذا الموءودة سئلت ﴾ أي وإذا قرنت الأرواح بأجسادها حين النشأة الآخرة ، وإذا الفتاة المدفونة حية خوف العار أو الحاجة ، كما كان بعض قبائل العرب يفعل في الجاهلية ، سئلت لتوبيخ قاتلها أو وائدها ؛ لأنها قتلت بغير ذنب فعلته . فقد كان بعض أهل الجاهلية يدسونها في التراب ، كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإنه إذا سئل المظلوم ، فما ظن الظالم إذن ؟! وقال ابن عباس : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ : سألت . والوأد جريمة عظمى .

وهذا السؤال للموءودة توبيخ الفاعلين للوأد ؛ لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين[1] .

أخرج الإمام أحمد عن خنساء ابنة معاوية الصريمية عن عمها قال : قلت : يارسول الله من في الجنة ؟ قال : « النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والموءودة في الجنة » .

﴿ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ﴾ أي إذا عرضت ونشرت للحساب صحائف الأعمال ، في موقف الحساب ، فكل إنسان يُعطى صحيفته بيمينه أو بشماله ، وإذا تشققت السماء وأزيلت ، فلم يبق لها وجود .

﴿ وإذا الجحيم سُعِّرت ، وإذا الجنة أُزلفت ﴾ أي وإذا أوقدت النار لأعداء

---

(١) البحر المحيط : ٤٣٢/٨

الله إيقاداً شديداً ، قال تعالى : ﴿ وقودُها الناس والحجارة ﴾ [البقرة ٢٤/٢] وإذا قربت الجنة وأدنيت لأهلها المتقين ، كما قال تعالى : ﴿ وأُزلفت الجنةُ للمتقين غير بعيد ﴾ [قّ ٣١/٥٠] .

﴿ علمت نفس ماأحضرت ﴾ جواب إذا وما عطف عليها ، أي إذا حصل كل ماتقدم من الأحداث ، ووقعت هذه الأمور ، علمت كل نفس ماأحضرته عند نشر الصحف ، وما عملت من خير أو شر ، كما قال تعالى : ﴿ يومَ تجدُ كل نفسٍ ماعَمِلتْ من خير مُحْضَراً ، وما عَمِلتْ من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ [آل عمران ٣٠/٣] وقال سبحانه : ﴿ ينبّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخّر ﴾ [القيامة ١٣/٧٥] . والآيات من أول السورة إلى هنا شرط ، وجوابه :﴿ علمت نفس ماأحضرت ﴾ . وقال الحسن البصري : هذا قسم وجواب له . قال القرطبي : والقول الأول أصح .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه ظواهر تحدث قبل أو بعد البعث يوم القيامة ، فتملأ النفس رهبة ، وتثير الخوف والذعر بين الناس ، لتبدّل ما كانوا يألفون ويشاهدون ، والقصد من تعدادها تخويف البشر والإعداد ليوم القيامة بما يحقق لهم النجاة والأمن والسلامة .

فهو إنذار مسبق ، ولقد أعذر من أنذر ، ولقد تضمن الإنذار مواجهة اثنتي عشرة علامة للقيامة : وهي تكوير الشمس ، وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال ، وتعطيل العشار ، وحشر الوحوش ، وتسجير البحار ، وتزويج النفوس ، وسؤال الموءودة ، ونشر صحف الأعمال ، وكشط السماء كما يكشط الإهاب (الجلد) عن الذبيحة ، وتسعير الجحيم (إيقادها) وإزلاف الجنة (إدناؤها) . وأي رهبة تحدث حينما يذهب ضوء الشمس ، فيظلم الكون ، وتتهافت النجوم وتتساقط

وتتناثر ، فتزول معالم الجمال ، وتقلع الجبال من الأرض وتسير في الهواء ، فتكون كثيباً مهيلاً ، أي رملاً سائلاً ، وتصبح كالعِهْن ، وتكون هباء منثوراً ، وسراباً لاحقيقة ولا وجود له ، كالسراب الذي ليس بشيء ، وتعود الأرض قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمْتاً ، أي ارتفاعاً ، فتزول المتعة بها في عين الرائي .

وتهمل النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، بعد العناية بها ؛ لأنها أعز ماتكون على العرب ، وهذا على وجه المثل ؛ لأن في القيامة لاتكون ناقة عُشَراء ، ولكن أراد به المثل ، أن هول يوم القيامة لوكان للرجل ناقة عُشَراء لعطلها واشتغل بنفسه .

وتحشر الوحوش ، أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض ، فيقتصّ للجمّاء من القَرْناء ، ثم يقال لها : كوني تراباً ، وهذا هو المعنى الأصح ، وقيل : حشرها : موتها وهلاكها ، وعلى كل حال ، تتعاظم المخاوف من رؤية مايحدث .

وتسجّر البحار ، أي توقد إيقاداً شديداً ، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً ، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال ، فتزول صورة جمال البحر في مشهد الطبيعة .

ويحدث البعث ، فتقرن الأرواح بالأجساد ، وتسأل البنت المدفونة حية عن سبب وأدها وقتلها ، لتوبيخ الفاعل ، ولومه على فعله مخافة الحاجة والإملاق (الفقر) أو السبي والاسترقاق ولإلحاق البنات بالملائكة ؛ لأنهم كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، وكل ذلك غير مقبول ، فإنها قتلت بغير ذنب ، وعقاب القاتل النار .

وتنشر صحائف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها مافعل أهلها من خير وشرّ ، تطوى بالموت ، وتنشر في يوم القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته ،

فيعلم مـا فيهـا ، فيقـول : ﴿ مـالهـذا الكتـاب لا يغـادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصَاها ﴾ [الكهف ٤٩/١٨] .

وتكشط السماء كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره ، وفي هذا غاية الرهبة .

وتوقد النار للكفار ويزداد في إحمائها ، وتُدنى الجنة وتقرب من المتقين ، فيتحدد مصير الخلائق .

حين حدوث هذه الوقائع الجسام ، تعلم كل نفس علم اليقين ماعملت من خير وشرّ ، وتعرف مصيرها . جاء في الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا وسيكلّمُه الله ، مابينه وبينه تَرْجُمان ، فينظرُ أيْمنَ منه ، فلا يرى إلا ماقدّمه ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ماقدّم بين يديه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتّقي النار ، ولو بشِقّ تمرة ، فليفعل » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحلف لإثبات صدق الوحي القرآني ونبوة الرسول ﷺ

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

الإعراب :

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ جواب القسم ؛ لأن معنى ﴿ فلا أقسم .. ﴾ أقسم .

﴿ وما صاحبكم ﴾ عطف على جواب القسم . ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ ﴿ عند ﴾ : متعلق بـ ﴿ مكين ﴾ .

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ عطف أيضاً على جواب القسم .

﴿ فأين تذهبون ﴾ تقديره : إلى أين تذهبون ؟ إلا أنه حذف حرف الجر كما حذف من قولهم : ذهبت الشام ، أي إلى الشام .

﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ ﴿ لمن ﴾ : بدل من قوله ﴿ العالمين ﴾ بدل بعض من كل .

﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أي ببخيل ، وقرئ « بظنين » بالظاء ، أي بمتهم .

البلاغة :

﴿ الخُنَّس ﴾ و ﴿ الكُنَّس ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ استعارة تصريحية ، شبه إقبال النهار وانتشار الضياء بنسمات الهواء العليل ، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس .

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ كناية ، كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿ صاحبكم ﴾ .

﴿ أمين ﴾ و ﴿ مكين ﴾ بينهما جناس ناقص غير تام .

﴿ الخنس ﴾ ، و ﴿ الكنس ﴾ ، و ﴿ عسعس ﴾ ، و ﴿ تنفس ﴾ إلخ سجع مرصع وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ فلا أقسم ﴾ أي أقسم ، و ﴿ لا ﴾ : لتأكيد الخبر . ﴿ بالخنّس ﴾ بالكواكب الرواجع ، من خنس يخنّس : إذا تأخر ، وواحدها : خانس : أي منقبض مستخفي ، فهي التي ترجع في مجراها وراء الشمس ، وهي عند الجمهور : الكواكب السيارة كالشمس والقمر وزُحَل وعطارد والمريخ والزهرة والمشتري . ﴿ الجواري ﴾ السيارة التي تجري مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تخفى مع ضوء الشمس . ﴿ الكنّس ﴾ التي تكنس في أبراجها ، أي تستتر ، فهي تختفي تحت ضوء الشمس ، من كنس الظبي أو الوحش : إذا دخل كِناسة ، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر ، وقيل : المراد الكواكب الخمسة السيارة ، فخنوسها : رجوعها إلى أول البرج ، وكنوسها : اختفاؤها نهاراً تحت ضوء الشمس ، وغيبتها في المواضع التي تغيب فيها عن البصر نهاراً ثم تظهر ليلاً . والخلاصة : أن ﴿ الخنس ﴾ على الأرجح : هي جميع الكواكب ، كما جاء في الصحاح ؛ لأنها تخنس (تختفي) نهاراً ، وتختفي عن البصر في المغيب ، وتظهر ليلاً ، ثم تكنس وتستتر في مغيبها تحت الأفق ، كما تكنس

الظباء في المغار ، فكل من ﴿ الخنّس ﴾ و ﴿ الكنّس ﴾ يختفي بعد ظهوره . والأصح أن معناها النجوم ، لذكر الليل والصبح بعد هذا .

﴿ عسعس ﴾ أقبل بظلامه ، أو أدبر ، فهو من ألفاظ الأضداد . ﴿ تنفس ﴾ أضاء وظهر نوره . ﴿ إنه لقول رسول ﴾ أي إن هذا المقسم عليه وهو القرآن لقول منقول نازل من رسول كريم عزيز على الله تعالى وهو جبريل عليه السلام ، أضيف القول إليه ، لنزوله به ، وقوله عن الله تعالى . ﴿ ذي قوة ﴾ شديد القوى ، حافظ . ﴿ عند ذي العرش ﴾ الله تعالى . ﴿ مكين ﴾ ذي مكانة وجاه عند ربّه ، يعطيه ما سأل . ﴿ مطاع ﴾ تطيعه ملائكة السماء . ﴿ ثَمَّ ﴾ هنالك . ﴿ أمين ﴾ على الوحي والرسالة .

﴿ وما صاحبكم ﴾ محمد ﷺ ، ﴿ بمجنون ﴾ كما زعمتم . ﴿ ولقد رآه ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها . ﴿ بالأفق المبين ﴾ الأفق الواضح ، وهو مطلع الشمس الأعلى . ﴿ وما هو ﴾ محمد ﷺ . ﴿ الغيب ﴾ الوحي وخبر السماء . ﴿ بضنين ﴾ ببخيل مقصر بالتعليم والتبليغ ، فينتقص منه شيئاً ، وقرئ : « بظنين » ، أي بمتهم . ﴿ وما هو بقول ﴾ أي القرآن . ﴿ شيطان ﴾ مُسْتَرِقِ السمع . ﴿ رجيم ﴾ مرجوم ملعون مطرود من رحمة الله . ﴿ فأين تذهبون ﴾ أيُّ طريق تسلكون بعد إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه ، وقد قامت الحجة عليكم ؟ ﴿ إن هو ﴾ ما هو . ﴿ إلا ذِكْر ﴾ عظة وعبرة . ﴿ للعالمين ﴾ الإنس والجن . ﴿ أن يستقيم ﴾ على الطريق الواضح باتباع الحق . ﴿ وما تشاؤون ﴾ الاستقامة على الحق . ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ إلا وقت أن يشاء الله استقامتكم . ﴿ ربّ العالمين ﴾ مالك الخلق كلهم .

سبب النزول :

نزول الآية (٢٩) :

﴿ وما تشاؤون .. ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى قال : لما أنزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال أبو جهل : ذاك إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين ﴾ .

التفسير والبيان :

﴿ فلا أقسم بالخنّس ، الجواري الكنّس ﴾ أي أقسم بجميع الكواكب التي

تخنَس أي تختفي بالنهار تحت ضوء الشمس ، والتي تجري في أفلاكها ، وتكنِس بالليل ، أي تظهر بالليل في أماكنها ، كما تظهر الظباء من كُنُسها ، أي بيوتها ، وهي جمع كِنَاس : وهو الذي يختفي فيه الوحش . وقوله : ﴿ لاأقسم ﴾ يراد بها القسم في أسلوب العرب ، ويراد بها تأكيد الخبر ، كأنه في ثبوته وظهوره لايحتاج إلى قسم . وإنما أقسم سبحانه بهذه الكواكب ، لما في تبدل أحوالها من الظهور والخفاء من الدلالة على قدرة مبدعها ومصرّفها .

ويرى الجمهور : أن المراد بها الكواكب السيارة كلها ، ويرى بعضهم أنها ماعدا الشمس والقمر .

﴿ والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفّس ﴾ أي والليل إذا أقبل بظلامه ، لما فيه من الرهبة ، وهذا هو الأولى ، أو أدبر وولى ، لما في إدباره من كشف الغمة . والصبح إذا أقبل وأضاء بنوره الأفق ؛ لأنه يقبل بروح نشطة ونسيم عليل .

قال ابن كثير : ﴿ عسعس ﴾ : أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً ، لكن الإقبال ههنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال تعالى : ﴿ والليل إذا يَغْشَى ، والنهارِ إذا تجلّى ﴾ [الليل ١/٩٢ ـ ٢] وقال تعالى : ﴿ والضحى والليلِ إذا سَجَى ﴾ [الضحى ١/٩٣ ـ ٢] وقال تعالى : ﴿ فالقُ الإصباحِ ، وجَعَلَ الليلَ سَكَناً ﴾ [الأنعام ٩٦/٦] ، وغير ذلك من الآيات .

وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة ﴿ عسعس ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤٧٩/٤

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ هذا هو المقسم عليه ، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم ، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله ، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ ، فليس القرآن من كلام البشر ، وإنما وصل إلى النبي ﷺ من جبريل الذي تلقاه عن ربّه عزّ وجلّ .

﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثَمَّ أمين ﴾ هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام ، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل ، وذو رفعة عالية ، ومكانة سامية عند الله سبحانه ، ومطاع بين الملائكة ، يرجعون إليه ويطيعونه ، فهو من السادة الأشراف ، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربّه ، وعلى غير ذلك . وإنما قال : ﴿ ثَمَّ ﴾ أي عند الله ، وقرئ « ثُم » تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة .

ووصف جبريل بالأمين تزكية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبده جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ .

وبعد بيان أوصاف الرسول المَلَك ، ذكر تعالى وصف المرسل إليه ، فقال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ أي وليس محمد ﷺ ياأهل مكة بمجنون ، كما تزعمون . وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ أولم يتفكروا مابصاحبهم من جِنّة ، إن هو إلا نذيرٌ مبين ﴾ [الأعراف ١٨٤/٧] ، وقوله : ﴿ قُلْ : إنما أعِظكم بواحدة أن تقوموا لله مَثْنى وفُرادى ، ثم تتفكّروا مابصاحبِكم من جِنّة ، إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ ﴾ [سبأ ٤٦/٣٤] ، وقوله : ﴿ أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ ، ثم تَولّوْا عنه ، وقالوا : مُعَلَّمٌ أو مجنونٌ ﴾ [الدخان ١٣/٤٤ ـ ١٤] .

﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أي قد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية ، له ست مئة جناح ، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق ، بحيث

حصل له علم ضروري (بدهي) بأنه مَلَك مقرب يُطْمأن لنزوله بالوحي عليه ، لا شيطان رجيم . وهذا كما جاء في سورة النجم : ﴿ ما كذَبَ الفؤادُ ما رأى ، أفتمارُونه على ما يَرَى ، ولقد رآه نَزْلةً أخرى عند سِدْرة المنتهى ﴾ [١١ ـ ١٤] . وهذه الرؤية بعد رؤيته في بدء الوحي عند غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض في صورته ، له ست مئة جناح . وقيل : هي الرؤية التي رآه فيها عند سدرة المنتهى ، وسمي ذلك الموضع أفقاً مجازاً ، وقد كانت له عليه السلام رؤية ثانية بالمدينة ، وليست هذه[1] .

﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أي ليس محمد ﷺ على ما أنزله الله عليه من الوحي وخبر السماء ببخيل مقصر في التعليم والتبليغ ، بل يعلّم الخلق كلام الله وأحكامه دون أي انتقاص ، وهو ثقة مؤتمن لا يأتي بشيء من عند نفسه ، ولا يبدل ولا يغير أي حرف أو معنى فيه .

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أي وما القرآن بقول شيطان يسترق السمع ، مرجوم بالشهب ، فالقرآن ليس بشعر ولا كهانة ، كما قالت قريش ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما تنزّلتْ به الشياطينُ ، وما يَنْبغي لهم وما يَسْتَطيعونَ ، إنَّهم عن السمعِ لمعزُولون ﴾ [الشعراء ٢١٠/٢٦ ـ ٢١٢] .

﴿ فأين تذهبون ﴾ أيْ : أيُّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بيّنت لكم ؟ وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى ؟

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم بما ينفعهم ، وتحذير لهم عما يضرهم ، لمن

(١) البحر المحيط : ٤٣٤/٨ ـ ٤٣٥

أراد من البشر أن يستقيم على الحق والإيمان والطاعة ، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه .

قال الزمخشري : ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من ﴿ للعالمين ﴾ وإنما أبدلوا منهم ؛ لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر ، فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، وإن كانوا موعوظين جميعاً .

﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين ﴾ أي وما تشاؤون الاستقامة ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، فليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى ربّ الإنس والجن والعالم كله . آمنت بالله وبما يشاء ، فلا يقدر أحد على شيء إلا بما يخلق فيه من قوة ، وبما يودع الله فيه من قدرة يتمكن من توجيهها نحو الإيمان والخير أو نحو الكفر والشر ، وهذا يعني أن الله أودع في الناس قدرة الاختيار ، بدليل الآيات الأخرى التي تنفي الإجبار والإكراه .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك ، كما قال القرطبي[1] .

٢ ـ أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنُس (تختفي) بالنهار وعند غروبها ، وخنوسها : غيبتها عن البصر بالنهار ، والتي تجري في أفلاكها ، وتكنِس ، وكنوسها : ظهورها للبصر في الليل ، كما يظهر الظبي أو الوحش من كِنَاسه ، ثم تغيب وتستتر في مغيبها تحت الأفق ، لما في تحركها وظهورها مرة ،

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٧/١٩

واختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرّفها .

وأقسم الله أيضاً بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة ، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهاراً واضحاً ، لما فيه من التفتح والبهجة .

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل : ﴿ تنزيل من ربّ العالمين ﴾ [الواقعة ٨٠/٥٦] . وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله .

٣ ـ وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف ، هي : كريم عزيز على الله ، ذو قوة في الحفظ وأداء طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها ، وذو مكانة وجاه عند ربّ العرش ، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف ، وأمين على وحي الله ورسالاته ، قد عصمه الله من الخيانة والزلل .

وقوله : ﴿ عند ذي العرش .. ﴾ هذه العندية ليست عندية المكان ، كقوله تعالى : ﴿ ومَنْ عِنْده لا يَسْتكبرون عن عبادته ﴾ [الأنبياء ١٩/٢١] وليست عندية الجهة ، بدليل قوله في الحديث : « أنا عند المنكسرة قلوبهم » بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم[1] .

٤ ـ ردّ الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما زعموا ، بأنهم أعلم الناس بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم .

٥ ـ رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية ، له ست مئة جناح بالأفق المبين ، أي بمطلع الشمس من قِبَل المشرق ، فهو مبين ؛ لأنه تَرى الأشياء من جهته ، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملَك مقرب ، لا شيطان رجيم .

٦ ـ أخبر الله تعالى عن نبيّه بأنه لا يضنّ بشيء من الغيب أي الوحي وخبر

---

(١) تفسير الرازي : ٧٣/٣١

السماء على أحد ، وإنما يقوم بتعليمه وتبليغه دون انتقاص شيء منه ، قال مجاهد : لا يضنّ عليكم بما يعلم ، بل يعلّم الْخَلْقَ كلام الله وأحكامه .

٧ ـ بعد وصف كل من الرسول الوسيط جبريل والمرسل إليه بالأمانة في تبليغ الوحي ، حسم الأمر في شأن القرآن ، فأعلن بأن القرآن ليس بقول شيطان مرجوم ملعون ، كما قالت قريش ، ولا بقول كاهن ولا مجنون ، وإنما هو موعظة وبيان وهداية للخلق أجمعين ، لمن أراد أن يستقيم أي يتبع الحق ويقيم عليه .

٨ ـ حكم الله بعد هذا الوصف على قريش بالضلال والضياع بقوله : ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيّنت لكم ، أو بعد هذه البيانات التي أوضحتها لكم .

٩ ـ لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله ، ولا شراً إلا بخذلانه ، وليس للإنسان مشيئة إلا أن يشاء الله تعالى أن يعطيه تلك المشيئة ، وفعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة . والله هدى بالإسلام ، وأضل بالكفر .

والاستقامة : هي سلوك الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السموات والأرض . قال الحسن البصري : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها .

قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكةَ ، وكلّمهم الموتى ، وحَشَرنا عليهم كلَّ شيء قُبُلاً ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام ١١١/٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وما كانَ لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ [يونس ١٠٠/١٠] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ إنك لاتَهْدي من أحببت ، ولكنَّ الله يَهْدي من يشاءُ ﴾ [القصص ٥٦/٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

مكيّة ، وهي تسع عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة (الانفطار) ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي انشقت ، كما قال سبحانه : ﴿ السماءُ منفطرٌ به ﴾ [المزمل ٧٣/١٨] .

مناسبتها لما قبلها :

هذه السورة وما قبلها وسورة ﴿ الانشقاق ﴾ في وصف يوم القيامة وأهواله وأحواله ، كما تقدم .

ماشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية تتحدث عن أمور في العقيدة ، وهي هنا بعض أمارات القيامة وما يصحبها من تبدل في الكون ، ووقوع أحداث جسام ، ووصف أحوال الأبرار والفجار يوم البعث ، كالسورة المتقدمة .

ابتدأت بوصف الأحداث الكونية التي ترى في القيامة وهي انشقاق السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، ثم الإخبار عن علم كل نفس بما قدّمت وأخّرت : ﴿ إذا السماء انفطرت .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] .

ثم ندّدت بجحود الإنسان نعم ربّه ، وبتقصيره في مقابلة الإحسان بالشكر والعرفان : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم .. ﴾ [الآيات : ٦ ـ ٨] .

ثم ذكرت سبب هذا الجحود وهو إنكار البعث ، وبيّنت أن أعمال الإنسان كلها محفوظة مسجلة عليه ، يقوم برصدها ملائكة كرام كاتبون : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين .. ﴾ [الآيات : ٩ ـ ١٢] .

وأردفت ذلك ببيان مصير الناس وانقسامهم إلى فريقين : أبرار وفجّار ، وأيلولتهم إلى نعيم أو جحيم : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم .. ﴾ [الآيات : ١٣ ـ ١٦] .

وختمت السورة بالتحذير من يوم الدّين ، أي الجزاء والقيامة ، واستقلال كل إنسان بالمسؤولية عن نفسه ، وتفرد الله بالحكم والأمر : ﴿ وما أدراك ما يوم الدّين .. ﴾ [الآيات : ١٧ ـ ١٩] .

والخلاصة : أن الله تعالى ذكر في هذه السورة السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد كما تقدم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي العين ، فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ » .

وأخرج النسائي ، وأصل الحديث في الصحيحين عن جابر قال : قام معاذ ، فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبي ﷺ : « أفتّان أنت يامعاذ ؟ أين كنت عن ﴿ سبّح اسم ربّك الأعلى ﴾ و ﴿ والضحى ﴾ و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ » ؟!

أمارات القيامة والجزاء على العمل وتوبيخ الإنسان على جحود النعم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ﴿ السماء ﴾ فاعل لفعل مقدر يفسره ﴿ انفطرت ﴾ ؛ لأن ﴿ إذا ﴾ لاتدخل إلا على الفعل .

﴿ ماغرّك بربّك ﴾ ﴿ ما ﴾ : استفهامية في موضع رفع ، مبتدأ ، و ﴿ غرّك ﴾ : خبره .

﴿ في أي صورة ماشاء ركّبك ﴾ : ﴿ ما ﴾ : إما زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، و ﴿ في ﴾ تتعلق بـ ﴿ ركّبك ﴾ أي ركّبك في أي صورة شاء ، فحذف : ما ، أو شرطية ، و ﴿ شاء ﴾ : فعل الشرط المجزوم بـ ﴿ ما ﴾ ، و ﴿ ركّبك ﴾ : جواب الشرط ، و ﴿ في ﴾ حينئذٍ متعلقة بعامل مقدر ؛ لأن مابعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله ، وتقديره : كوّنك في أي صورة . ولا يكون متعلقاً بـ ﴿ عدلك ﴾ ؛ لأن الاستفهام لا يتعلق بما قبله .

البلاغة :

﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ﴾ سجع مرصّع .

﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ استعارة مكنية ، شبّه الكواكب بجواهر متناثرة متفرقة ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية .

﴿ ماغرّك بربّك الكريم ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والإنكار .

المفردات اللغوية :

﴿ انفطرت ﴾ انشقت . ﴿ انتثرت ﴾ تساقطت متفرقة . ﴿ فجّرت ﴾ شقّقت جوانبها ، فصارت بحراً واحداً . ﴿ بعثرت ﴾ قلب ترابها الذي وضع على موتاها ، وبعث موتاها . ﴿ علمت نفس ماقدّمت وأخّرت ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ وما عطف عليها ، أي علمت نفس وقت حدوث هذه الأمور ، وهو يوم القيامة ماقدمت من الأعمال ، وما أخرت منها فلم تعمله بسبب الكسل .

﴿ ياأيها الإنسان ﴾ جنس الإنسان . ﴿ ماغرّك بربّك الكريم ﴾ ماخدعك وأي شيء جرّأك على عصيانه ، و﴿ الكريم ﴾ العلي العظيم ، وذكر للمبالغة في المنع عن الاغترار . ﴿ فسوّاك ﴾ جعل أعضاءك سوية سليمة معدّة لمنافعها . ﴿ فعدلك ﴾ جعلك معتدلاً متناسب الخَلْق والأعضاء ، فلا تجد تنافراً بينها ولا عيباً فيها ، فليست يد أو رجل أطول من الأخرى . ﴿ في أي صورة ماشاء ركّبك ﴾ أي ركّبك وكوّنك في أي صورة هي من أعجب الصور وأحكمها .

سبب النزول :

نزول الآية (٦) :

﴿ ياأيها الإنسان ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك .. ﴾ الآية قال : نزلت في أُبيّ بن خَلَف . وقيل : نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الْجُمَحِيّ ، وقال ابن عباس : الإنسان هنا الوليد بن المغيرة .

وروى غالب الحنفي قال : لما قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم ﴾ قال : « غرّه الجهل » .

التفسير والبيان :

﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي إذا انشقت السماء ، كما قال تعالى : ﴿ السماءُ مُنْفَطِرٌ به ﴾ [المزمل ٧٣/١٨] ، وقال سبحانه : ﴿ ويوم تشقّق السماءُ بالغَمام ﴾ [الفرقان ٢٥/٢٥] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ فإذا انشقّت

السماءُ ، فكانت وَرْدةً كالـدِّهـانِ ﴾ [الرحمن ٣٧/٥٥] ، وقـال عـزّ من قـائـل : ﴿ وفُتِحَتِ السماءُ ، فكانت أبواباً ﴾ [النبأ ١٩/٧٨] .

وإذا تساقطت الكواكب وتفرقت ، وذلك بعد تشقق السماء .

﴿ وإذا البحار فجّرت ، وإذا القبور بعثرت ﴾ أي فجّر الله بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً ، ثم تسجّر أي توقد فتصير ناراً تضطرم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا البحار سُجِّرت ﴾ [التكوير ٦/٨١] .

وإذا قلب تراب القبور ، وأخرج موتاها ، وصار باطنها ظاهرها .

وإذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وبما أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم ، وفناء الدنيا ، فإنه يلاحظ الترتيب ، فيبدأ أولاً بتخريب السماء التي هي كالسقف ، ويلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب ، ثم يخرب ماعلى وجه الأرض التي هي كالبناء ، وهو تفجير البحار ، ثم تقلب الأرض ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وهو بعثرة القبور .

وجواب الشرط قوله تعالى :

﴿ علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾ أي إذا حدثت الأمور المتقدمة ، علمت كل نفس عند نشر الصحف ماقدمت من عمل خير أو شر ، وما أخّرت من الأعمال بسبب التكاسل والإهمال ، كما قال تعالى : ﴿ ينبأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر ﴾ [القيامة ١٣/٧٥] .

وبما أن المراد بهذه الأمور يوم القيامة ، فيكون المقصود بالآية الأخيرة في الأصح الزجر عن المعصية ، والترغيب في الطاعة .

وبعد بيان تبدل نظام العالم ، والإخبار عن وقوع الحشر والنشر ، وبّخ الله تعالى الإنسان على تقصيره في عمل الخير ، وجحوده النعم ، بأن لم يطع أوامر الله شكراً على النعمة ، فقال :

﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك ﴾ أي ياأيها الإنسان المدرك نهاية العالم ماالذي خدعك وجرأك على عصيان ربّك الكريم الذي أنعم عليك في الدنيا ، حيث خلقك من نطفة بعد العدم ، وجعلك سوياً مستقيماً ، معتدل القامة في أحسن هيئة وشكل ، متناسب الأعضاء ، لاتفاوت فيها ، مزوّداً بالحواس من السمع والبصر ، وطاقة العقل والفهم .

والأصح أن الآية تتناول جميع العصاة ؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله .

وقد وصف الله تعالى نفسه في هذا المقام بالكرم ، وهذا الوصف يقتضي الاغترار به ، حتى قالت العقلاء : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه . فكان الكرم سبب الاغترار ، وإنما وقع الإنكار عليه ؛ لأن الإنسان لم يدرك أن كرمه صادر عن الحكمة ، وهي تقتضي ألا يهمل وإن أمهل ، وأن ينتقم للمظلوم من الظالم ولو بعد حين ، وقيل : غرّه : جهله ، وقيل : غرّه عدوه المسلّط عليه ، وهو الشيطان ، وقيل : غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة .

﴿ في أي صورة ماشاء ركّبك ﴾ أي ركّبك في أي صورة شاءها من أبهى الصور وأجلها ، وأنت لم تختر صورة نفسك ، كما قال : ﴿ لقد خَلَقْنَا الإنسان في أحسنِ تقويم ﴾ [التين ٤/٩٥] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن من علامات يوم القيامة تبدل النظام الكوني ، بتشقق السماء ، وتساقط الكواكب ، وتفجير البحار بعضها في بعضها ، حتى تصير بحراً واحداً ، ثم توقد حتى تصير ناراً تضطرم ، وبعثرة القبور وإخراج موتاها منها .

٢ ـ إذا حدثت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة ، حصل الحشر والنشر ، وختمت صحائف الأعمال ، فعلمت كل نفس ما كسبت ، ووجدت ماقدمت من خير أو شر ، وحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها ، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها ، ولم يعد ينفعها عمل بعد ذلك .

٣ ـ مسكين هذا الإنسان لا يشكر نعم ربّه بإطاعة أوامره ، ولا يدخر من العمل الصالح ما يفيده في سفينة النجاة في آخرته ، وغرّه كرم الله الذي تجاوز عنه في الدنيا ، أو حمقه وجهله ، أو شيطانه المسلط عليه . أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أن عمر سمع رجلاً يقرأ : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم ﴾ فقال عمر : الجهل ، كما قال تعالى : ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب ٣٣/٧٢] . وقيل للفضيل بن عياض : لوأقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه ، فقال لك : ﴿ ماغرّك بربّك الكريم ؟ ﴾ ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول : غرّني سُتُورك المرخاة ؛ لأن الكريم هو الستّار .

٤ ـ نعم الله على الإنسان لاتعدّ ولا تحصى ، وأهمها ما يتعلق بنفسه ، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئاً ، وجعله سليم الأعضاء ، منتصب القامة ، متناسب الأعضاء ، مستعداً لقبول الكمالات ، بالسمع والبصر والعقل وغير ذلك ، وصوّره في أحسن الصور وأعجبها وأبدعها ، واختار له الهيئة الجميلة والشكل البديع ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خَلَقْنَا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ ﴾ [التين ٩٥/٤] .

علة الجحود وكتابة الملائكة وانقسام الناس فريقين

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

الإعراب :

﴿ يوم لاتملك نفس .. ﴾ ﴿ يوم ﴾ : بالنصب على البدل من ﴿ يومَ الدين ﴾ [الآية : ١٥] الأول المنصوب . ويقرأ بالرفع على البدل من ﴿ يومُ الدين ﴾ [الآية : ١٨] المرفوع ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو يوم لاتملك .

البلاغة :

﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ﴾ سجع مرصع ، ومثله : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجّار لفي جحيم ﴾ . والسجع : هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير ، وهو ثلاثة أنواع : مطرف ومتوازي وترصيع .

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ بينهما مقابلة ، قابل بين الأبرار والفجار ، وبين النعيم والجحيم . وفيها سجع الترصيع : وهو أن يكون في إحدى الفقرتين مثل مايقابله من الأخرى في الوزن والتقفية وهو من المحسنات اللفظية . والمقابلة من المحسنات المعنوية : وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، فقد تكون بين اثنين أو ثلاثة أو أكثر .

﴿ نعيم ﴾ و ﴿ جحيم ﴾ التنكير للتعظيم والتهويل .

﴿ وما أدراك مايوم الدين ، ثم ماأدراك مايوم الدين ﴾ إطناب بإعادة الجملة ، لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته .

المفردات اللغوية :

﴿ كلا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى ؛ فهي كلمة تفيد نفي شيء تقدم ، وتحقق غيره . ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ ﴿ بل ﴾ : إضراب إلى بيان ماهو السبب الأصلي في اغترارهم . والمراد ﴿ بالدين ﴾ : الجزاء على الأعمال يوم القيامة . ﴿ لحافظين ﴾ ملائكة حفظة لأعمالكم ، يحصون كل ما كان منها من خير أو شر . ﴿ كراماً ﴾ عند الله ، ووصفهم بذلك لتعظيم الجزاء . ﴿ يعلمون ماتفعلون ﴾ يعلمون جميع الأفعال .

﴿ الأبرار ﴾ هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم ، الذين يفعلون البِرّ (الخير) ويتقون الله في كل أفعالهم ، جمع بَرّ . ﴿ نعيم ﴾ جنة . ﴿ الفجار ﴾ هم الكفار التاركون لما شرع الله لعباده ، جمع فاجر . ﴿ جحيم ﴾ نار محرقة . ﴿ يصلونها ﴾ يدخلونها ويقاسون حرّها . ﴿ يوم الدين ﴾ يوم الجزاء . ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لايخرجون منها ، لخلودهم فيها .

﴿ وما أدراك ﴾ ماأعلمك وعرّفك ، وكرر الجملة لتفخيم شأن اليوم وتعظيم هوله ، بحيث لا يدركه إنسان . ﴿ لاتملك نفس لنفس شيئاً ﴾ من المنفعة . ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾ أي لاأمر لغيره فيه ، فلا يمكّن أحد من التوسط فيه . والمقصود بالآية تقرير شدة هول ذلك اليوم ، وتفخيم أمره إجمالاً .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد بيان أمارات الساعة الدالة على صحة القول بالبعث والنشور ، وبعد تعداد نعم الله على الإنسان ، وجحوده إياها ، ذكر الله تعالى علة هذا الجحود وهو التكذيب بالبعث ، ثم رغب بالطاعة ، وحذر من المعصية بسبب كتابة الحفظة جميع الأعمال ، ثم أوضح أن الناس يوم القيامة فريقان : أبرار منعمون ، وفجار معذبون مخلّدون في النار ، وأن يوم القيامة ذو شدائد وأهوال ، تتجرد فيه النفوس من قواها ، ويتفرد الله عزّ وجلّ بالحكم والسلطان .

التفسير والبيان :

﴿ كلا ، بل تكذبون بالدين ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به ، والواقع أنكم تكذبون بيوم المعاد والحساب

والجزاء ، حيث لا يحملكم الخوف من هذا اليوم على التزام طاعة الله واجتناب معاصيه .

ثم زاد في التحذير من العناد والتكذيب بالإخبار أن جميع الأعمال مرصودة على الناس بالملائكة ، فقال :

﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ أي إن عليكم لملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم ، ويعلمون جميع ما تفعلون ، كما قال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ ، ما يَلْفِظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ﴾ [قّ ٥٠/١٧ ـ ١٨] .

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط . فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط ، أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، فوصله بلفظ آخر ، وأسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعري ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين ، الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء ، فليستتر بثوبه أو بجرم حائط ، أو ببعيره » .

لذا كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع ، لمفارقة الملَك العبد عند ذلك .

ثم ذكر الله تعالى تصنيف الناس العاملين يوم القيامة فريقين نتيجة كتابة الحفظة لأعمال العباد ، فقال :

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ﴾ أي ﴿ إن الأبرار ﴾ : وهم الذين أطاعوا الله عزّ وجلّ ، ولم يقابلوه بالمعاصي يصيرون إلى دار النعيم وهي الجنة ، ﴿ وإن الفجار ﴾ : وهم الذين كفروا بالله وبرسله ، وقابلوا ربّهم بالمعاصي ، يصيرون إلى دار الجحيم ، وهي النار المحرقة ،

يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ، كما قال تعالى : ﴿ فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ﴾ [الشورى ٧/٤٢] .

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يفارقون الجحيم ولا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف من عذابها ، بل هم فيها إلى الأبد ، ملازمون لها ، كما قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين منها ﴾ [البقرة ١٦٧/٢] .

ثم وصف يوم القيامة وصفاً إجمالياً في غاية التهويل وأكد ذلك مرتين ، فقال :

﴿ وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ماأدراك ما يوم الدين ﴾ أي وما أعلمك وما أعرفك ما يوم الجزاء والحساب ، وكرر الجملة تعظيماً لشأن يوم القيامة ، وتفخيماً لقدره ، وتهويلاً لأمره ، مما يستدعي التدبر والتأمل ، فلو عرف المرء تلك الأهوال ، لما فارق طاعة الله ساعة ، وابتعد عن المعصية بُعْد السماء من الأرض ، ولكن الإنسان في غفلة وسهو وتجاهل ، يعيش في الآمال ، ويعتمد على الأحلام أحياناً ، ويهرب من الواقع .

ثم حسم الله تعالى الأمر ، وأبان حقيقة الموقف ، ودور الإنسان فيه ، فقال : ﴿ يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذٍ لله ﴾ أي إنه اليوم الذي لا يقدر فيه أحد كائناً من كان على نفع أحد ، ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ولا يملك أحد القضاء بشيء أو صنع شيء ، إلا الله ربّ العالمين ، فهو المتفرد بالحكم والسلطان ، فبيده الأمر كله ، وإليه ترجع الأمور كلها . قال قتادة : والأمر ، والله اليوم ، لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد .

ونظير الشطر الأول من الآية قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لاتَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ﴾ [البقرة ٤٨/٢] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ

بما كسبتْ ، لاظلم اليوم ﴾ [غافر ١٧/٤٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ يوم يَفِرُّ المرءَ من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبتِه وبنيه ، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه ﴾ [عبس ٣٤/٨٠ ـ ٣٧] . وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه الترمذي : « يابني هاشم ، أنقذوا أنفسَكم من النار ، لاأملك لكم من الله شيئاً » .

ونظير الشطر الآخر قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ اليوم للهِ الواحدِ القهّار ﴾ [غافر ١٦/٤٠] ، وقوله : ﴿ الْمُلْك يومئذٍ الحقُّ للرحمنِ .. ﴾ [الحج ٥٦/٢٢] ، وقوله : ﴿ مالكِ يوم الدّين ﴾ [الفاتحة ٤/١] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أمر تعالى بأن نرتدع عن الاغترار بحلم الله وكرمه ، وأن نتفكر في آيات الله .

٢ ـ إن منشأ عدم الخوف من الله والتجرؤ على الكفر والعصيان في الحقيقة والواقع هو التكذيب بالجزاء والحساب في يوم القيامة .

٣ ـ حال الناس مما يثير التعجب ، فهم يكذبون بيوم الحساب والجزاء ، وملائكة الله موكلون بهم ، يكتبون أعمالهم ، حتى يحاسبوا بها يوم القيامة . ولا يختلف الحال بين المؤمنين والكفار ، فعليهم جميعاً الحفظة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وأما من أُوتي كتابَه بيمينه .. ﴾ [الحاقة ١٩/٦٩] ، ثم قال : ﴿ وأما من أُوتي كتابه بشماله ﴾ [الحاقة ٢٥/٦٩] ، وفي آية أخرى : ﴿ وأما من أُوتي كتابَه وراءَ ظهره ﴾ [الانشقاق ١٠/٨٤] ، فهذا خبر يدل أن الكفار يكون لهم كتاب ، ويكون عليهم حفظة .

سئل سفيان الثوري : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همّ بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا همّ العبد بحسنة ، وجدوا منه ريح المسك ، وإذا همّ بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن .

٤ ـ وصف الله تعالى الملائكة الحفظة بصفات أربع : هي كونهم حافظين ، وكونهم كراماً ، وكونهم كاتبين ، وكونهم يعلمون ماتفعلون . ووصف الله إياهم بهذه الصفات يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم ، وفي تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء ، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكلوا بضبط مايحاسب عليه كل إنسان . قال بعض العلماء : من لم يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه ، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين .

٥ ـ أحوال العاملين ومصيرهم يوم القيامة : إن الأبرار يكونون في جنات النعيم ، وإن الفجار يكونون في نيران الجحيم ، يدخلونها ويقاسون لَهابها وحرها يوم الجزاء والحساب ، ويلازمونها إلى أبد الآبدين ، فلا يغيبون عنها . وليس صاحب المعصية الكبيرة فاجراً ، وإنما الكفار هم الفجرة لاغيرهم كما تقدم ، وليس صاحب الكبيرة بفاجر على الإطلاق ، لقوله تعالى : ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس ٤٢/٨٠] .

وفي هذا تهديد عظيم للعصاة ، حكي أن سليمان بن عبد الملك مرَّ بالمدينة ، وهو يريد مكة ، فقال لأبي حازم : كيف القدوم على الله غداً ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، قال : فبكى ، ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله ! فقال أبو حازم : اعرض عملك على كتاب الله ، قال : في أي مكان من كتاب الله ؟ قال : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ قال سليمان : فأين إذن هي رحمة الله ؟ فأجابه بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[1] [الأعراف ٥٦/٧] .

(١) تفسير الرازي : ٨٥/٣١

٦ ـ في يوم القيامة والجزاء والحساب الرهيب لا يستطيع أحد مهما كان أن يقدم منفعة لآخر ، والأمر كله حينئذ لله الواحد القهار ، لا ينازعه فيه أحد .

وفي هذا وعيد عظيم وتهويل جسيم ليوم القيامة ، ودليل على أنه لا يغني عن الناس إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء . قال الواسطي في قوله تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى ، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات فمن كانت صفته في الدنيا كذلك ، كانت دنياه أخراه .

وقال الرازي في قوله تعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ : هو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله ، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم ، وفي الآخرة ، ولم يتغير من حال إلى حال ، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر ، لا إلى أحوال المنظور إليه[1] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) تفسير الرازي : ٨٦/٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطففين

مكيّة ، وهي ست وثلاثون آية .

تسميتها :

سميت سورة (المطففين) ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ وهم الذين يبخسون المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضوا من الناس ، وإما بالنقصان إن قضوهم أو وزنوا أو كالوا لهم .

مناسبتها لما قبلها :

تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجوه أربعة :

١ ـ قال الله تعالى في آخر السورة المتقدمة واصفاً يوم القيامة : ﴿ يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله ﴾ وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة ، فلهذا أتبعه هنا بقوله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ والمراد : الزجر عن التطفيف : والبخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية . أما الكثير فيظهر ، فيمنع منه .

٢ ـ في كل من السورتين توضيح أحوال يوم القيامة .

٣ ـ ذكر الله تعالى في السورة السابقة : ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ﴾ [١٠ ـ ١١] وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ [٢٠] يُجعل في عليين ، أو في سجين .

٤ ـ ذكر الله تعالى تصنيف الناس إلى فريقين : أبرار وفجار في كل من السورتين ، وذكر مآل كل فريق ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار . قال أبو حيان : لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه ، ذكر ماأعد لبعض العصاة ، وذكّرهم بأخس ما يقع من المعصية ، وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته[1] .

ماشتملت عليه السورة :

عنيت هذه السورة كسائر السور المكية بأمور العقيدة ، وعلى التخصيص أحوال يوم القيامة وأهوالها ، وعنيت بأمور الأخلاق الاجتماعية ، وهي هنا تطفيف الكيل والميزان .

بدأت السورة بمطلع مخيف ، وهو وعيد المطففين بالعذاب الشديد : ﴿ ويل للمطففين .. ﴾ [الآيات ١ ـ ٦] .

ثم أبانت أن كتاب الفجار الأشقياء في ديوان الشر ، وفي كتاب مرقوم بعلامة ، وأن مصيرهم أسفل السافلين في نار جهنم : ﴿ كلا ، إن كتاب الفجار لفي سجين .. ﴾ [الآيات ٧ـ١٧] .

وأردفت ذلك على سبيل المقارنة والعبرة والجمع بين الترغيب والترهيب ببيان أن صحائف الأبرار في أعلى عليين ، وأنها في كتاب مرقوم بعلامة متميزة عن صحائف الفجار : ﴿ إن الأبرار لفي عليين .. ﴾ [الآيات ١٨ـ٢٨] .

وختمت السورة بوصف موقف المجرمين من المؤمنين ، حيث كانوا يستهزئون ويضحكون منهم في الدنيا لإيمانهم وتقواهم ربهم ، ثم انعكاس هذا الموقف في الآخرة حيث صار المؤمنون يتضاحكون من الأشقياء المجرمين ويسخرون منهم ،

---

(١) البحر المحيط : ٤٣٩/٨

وينظرون إليهم وهم يعذبون في النار وما يلقونه من النكال : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون .. ﴾ [الآيات ٢٩-٣٦] .

وعيد المطففين

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

الإعراب :

﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ الهاء والميم : إما ضمير منصوب بالفعل ، وتقديره : كالوا لهم ووزنوا لهم ، فحذفت اللام ، فاتصل الفعل به ، وإما ضمير مرفوع مؤكد لواو الجماعة في الفعل . قال ابن كثير : والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعدياً ، ويكون (هم) في محل نصب . وقال أبو حيان : كال ووزن مما يتعدى بحرف الجر ، فتقول : كلت لك ووزنت لك ، ويجوز حذف اللام كقولك : نصحت لك ونصحتك وشكرت لك وشكرتك .

﴿ ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس ﴾ ﴿ يوم ﴾ الثاني : إما منصوب بفعل مقدر ، دل عليه ﴿ مبعوثون ﴾ اي مبعوثون يوم يقوم الناس ، وإما بدل من موضع الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ ليوم عظيم ﴾ .

﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ ﴿ ألا ﴾ هنا : ليست أداة استفتاح ، وإنما الهمزة للإنكار والتعجب ، و ﴿ لا ﴾ للنفي .

البلاغة :

﴿ ويل للمطففين ﴾ تنكير ﴿ ويل ﴾ للتهويل والتفخيم .

﴿ يستوفون ﴾ و ﴿ يخسرون ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ ويل ﴾ كلمة عذاب ، أي شدة عذاب في الآخرة . ﴿ للمطففين ﴾ المنقصين ، جمع مطفّف : وهو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق ، في كيل أو وزن ، والمراد بالتطفيف هنا : إما الازدياد إن اقتضوا من الناس ، وإما النقصان إن قضوهم . وسمي بذلك لأن ما يبخس شيء حقير طفيف . ﴿ اكتالوا على الناس ﴾ أخذوا منهم حقوقهم . ﴿ يستوفون ﴾ يأخذون الكيل وافياً كاملاً . ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ كالوا لهم أو وزنوا لهم . ﴿ يخسرون ﴾ ينقصون الكيل أو الوزن .

﴿ ألا يظن ﴾ يتيقن ، وهو استفهام توبيخ وإنكار وتعجب من حالهم ، وعبر بالظن : لأن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح ، فكيف بمن تيقنه . ﴿ ليوم عظيم ﴾ أي يوم القيامة ، عظمه لعظم ما يكون فيه . ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ من قبورهم . ﴿ لرب العالمين ﴾ أي رب الخلائق ، والمراد : يوم يقف الناس أمام ربهم لأجل أمره وحكمه وحسابه وجزائه . قال البيضاوي : وفي هذا الإنكار والتعجب ، وذكر الظن ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس فيه لله ، والتعبير برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، كانوا من أبخس الناس كيلاً ، فأنزل الله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك . وقال السُّدّي : كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان ، يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت . وهي آخر سورة نزلت بمكة ، فهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ويقال : إنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فهي مدنية في قول الحسن وعكرمة . روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، وكانوا من أخبث الناس كيلاً ، فنزلت ، فأحسنوا الكيل[1] . وهذا على أن السورة مدنية ، أو قرأها عليهم بعد قدومه إن كانت مكية .

---

(١) رواه النَّسائي عن ابن عباس .

التفسير والبيان :

﴿ ويل للمطففين ﴾ أي عذاب شديد للمنقصين في الكيل أو الوزن ، والتطفيف : الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً ، أي نزراً حقيراً أو يسيراً ، والمطفف : هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن . قال ابن كثير رحمه الله : البخس في المكيال والميزان : إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم ، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى :

﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي هم الذين إذا اكتالوا من الناس وقبضوا لهم ، يأخذون حقهم وافياً زائداً ، وإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم من الناس أو أقبضوهم ، ينقصون الكيل أو الوزن .

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وأوفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقِسْطاسِ المستقيمِ ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ [الإسراء ٣٥/١٧] وقال سبحانه : ﴿ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ ، لانكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها ﴾ [الأنعام ١٥٢/٦] وقال عز وجل : ﴿ وأقيموا الوزنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا الميزان ﴾ [الرحمن ٩/٥٥] . وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال ، بعد أن كرر النصح لهم ، فقال تعالى : ﴿ ويا قومِ أوفوا المكيالَ والميزانَ بالقِسْطِ ، ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ، ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ﴾ [هود ٨٥/١١] .

ثم توعد الله تعالى المطففين بقوله :

﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي ألا يخطر ببال أولئك المطففين أنهم مبعوثون ، فسؤولون عما

يفعلون ؟ وأما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي ربهم في يوم عظيم الهول كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟ وهو يوم القيامة .

إنه يوم يقوم الناس فيه حفاة عراة ، في موقف صعب حرج ، منتظرين لأمر رب العالمين وجزائه وحسابه . وفي هذا دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه ، وشدة عقابه ، لما فيه من خيانة الأمانة وأكل حق الغير . وفي الإشارة إليهم بأولئك ، وقد ذكرهم عما قريب ، تبعيد لهم عن رتبة الاعتبار ، بل عن درجة الإنسانية . وفي هذا الإنكار والتعجيب ، وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لرب العالمين ، بيان بليغ لعظم هذا الذنب . ويلاحظ أن المطففين إن كانوا من أهل الإسلام ، فالظن بمعنى اليقين أو العلم ، وإن كانوا كفاراً منكري البعث ، فالظن بمعناه الأصلي ، والمراد : هب أنهم لا يقطعون بالبعث ، أفلا يظنونه أيضاً ، كقوله : ﴿ إن نظنُّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية ٣٢/٤٥] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ التطفيف : وهو إنقاص حق الآخر في الكيل أو الوزن ونحوهما من المقاييس حرام شرعاً ، موجب للإثم الشديد والعذاب الأليم في الآخرة ، وهو أيضاً رذيلة اجتماعية ونقيصة وعيب يطعن في الخلق ، ويؤدي إلى ابتعاد الناس عن فاعله .

روي أن أهل المدينة كانوا تجاراً يطففون ، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، يعني بيع الغرر ، كالطير في الهواء ، فنزلت ـ على أن السورة مدنية في رأي جماعة ـ فخرج رسول الله ﷺ ، فقرأها عليهم ، فقال :

« خمسٌ بخمسٍ ، ما نقض قوم العهد إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طَفَّفوا المكيالَ إلا مُنعوا النَّباتَ ، وأُخذوا بالسِّنينَ ، ولا مَنَعُوا الزكاةَ إلا حُبِس عنهم القَطْر »[١] .

٢ ـ المراد بالتطفيف هنا : الزيادة في الكيل أو الوزن ونحوهما عند استيفاء الحق ، ونقص الكيل أو الوزن ونحوهما عند إيفاء الحق .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ توبيخ للمطففين ، وإنكار وتعجيب عظيم من حالهم ، في الاجتراء على التطفيف ، كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون يوم القيامة ، فسؤولون عما يفعلون . والظن هنا كما تقدم بمعنى اليقين ، أي ألا يُوقن أولئك ، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن . وهذا دليل على أن التطفيف من الكبائر .

وهذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك ، ومن يعزم عليه ؛ إذ العزم عليه أيضاً من الكبائر[٢] .

وأكثر العلماء على أن قليل التطفيف وكثيره يوجب الوعيد ، وبالغ بعضهم كما تقدم ، حتى عدَّ العزم عليه من الكبائر .

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله : لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل ، وفي إظهار العيب وإخفائه ، وفي طلب الإنصاف والانتصاف ، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه ، فليس بمنصف ، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه ، فهو من هذه الجملة ، ومن طلب حق

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس ، وهو حديث صحيح . وأخرجه أبو بكر البزار بمعناه ، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ابن عمر .

(٢) وهذا رأي الرازي ، تفسير الرازي : ٨٩/٣١

نفسه من الناس ، ولا يعطيهم حقوقهم ، كما يطلب لنفسه ، فهو من هذه الجملة ، والفق من يقضي حقوق الناس ، ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً[١] .

ويحكى أن أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان : إن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك ، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن ؟!

٤ ـ قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي للعرض والحساب ، فيه غاية التخويف ؛ لأن جلال الله وعظمته يملآن النفس رهبة وهيبة ، والقيام له شيء حقير أمام عظمته وحقه .

أما قيام الناس بعضهم لبعض ، ففيه خلاف ، فمنهم من أجازه ، ومنهم من منعه ، وقد روي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تيب عليه ، وقال النبي ﷺ للأنصار ، حين طلع عليه سعد بن معاذ فيما رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري : « قوموا إلى سيّدكم » . وقال أيضاً : « من سرّه أن يتمثل له الناس قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار »[٢] .

قال القرطبي : وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه ، فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة ، فإنه جائز ، وبخاصة عند الأسباب ، كالقدوم من السفر ونحوه[٣] .

والخلاصة كما ذكر الرازي : جمع الله سبحانه في هذه الآية أنواعاً من التهديد ، فقال أولاً : ﴿ ويل للمطففين ﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء ، ثم قال ثانياً : ﴿ ألا يظن أولئك ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار ، ثم قال ثالثاً :

---

(١) غرائب القرآن : ٤٩/٣٠

(٢) تفسير القرطبي : ٢٥٦/١٩

(٣) تفسير القرطبي : ٢٥٦/١٩

﴿ ليوم عظيم ﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لاشك أنه في غاية العظمة ، ثم قال رابعاً : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وفيه نوعان من التهديد :

أحدهما ـ كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذل والانكسار .

والثاني ـ أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين[1] .

ديوان الشر وقصة الفجار

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ .. لفي سجّين ﴾ ﴿ سجّين ﴾ : من السجن ، وهو الحبس والتضييق ، وقيل : النون فيه بدلاً من اللام .

﴿ كتابٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو كتاب مرقوم ، أي هو في موضع كتاب مرقوم ، وكذا التقدير في قوله بعدئذ : ﴿ عليون ﴾ [٢٩] ﴿ كتاب مرقوم ﴾ [٢٠] فحذف المبتدأ والمضاف جميعاً ، وإنما وجب هذا التقدير ، لقيام الدليل على أن ﴿ عليين ﴾ مكان ، قال النبي ﷺ : « إنكم لترون أهل عليين ، كما يُرَى الكوكب الذي في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم » . وعليين : جمع لا واحد له ، كعشرين ، سُمي به .

﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ بدل أو عطف بيان للمكذبين .

﴿ ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ ﴿ هذا ﴾ : في موضع رفع مبتدأ ، وخبره ﴿ الذي ﴾ . والجملة في موضع رفع نائب فاعل .

---

(١) تفسير الرازي : ٣١/٩٠ ـ ٩١

البلاغة :

﴿ كلا ، إن كتاب الفجار لفي سجين .. ﴾ و ﴿ كلا ، إن كتاب الأبرار لفي عليين .. ﴾ بينهما مقابلة ، حيث قابل بين حال ﴿ الفجار ﴾ وحال ﴿ الأبرار ﴾ ، وبين ﴿ سجين ﴾ و ﴿ عليين ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ كلا ﴾ للردع والزجر عما هم فيه من التطفيف والتكذيب بالنسبة للكافر أو الغفلة عن البعث والحساب بالنسبة للمؤمن . ﴿ كتاب الفجار ﴾ كتاب أعمال الكفار ، وهو ما يكتب فيه من أعمالهم . ﴿ سجّين ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين : الشياطين والفسقة والكفرة ، فهو ديوان الشر ، بدليل قوله تعالى بعدئذ : ﴿ وما أدراك ماسجين كتاب مرقوم ﴾ والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان . وقيل : هو مكان في أسفل السافلين ، و ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً للسجين ، بل التقدير : كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وإن كتاب الفجار مرقوم وموقع . لكن قال الزمخشري : سجين كتاب جامع هو ديوان الشر ، دوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس ، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة ، أو مُعْلَم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، فالمعنى أن مُاكتب من أعمال الفجار مثبّت في ذلك الديوان ، وسمي سجيناً فعّيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق ؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ، فهو اسم علم لا صفة ، منقول من وصف كخاتم ، وهو منصرف ؛ لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف[1] .

وقال أبو حيان : والظاهر أن سجيناً هو كتاب ، ولذلك أبدل منه ﴿ كتاب مرقوم ﴾[2] .

﴿ وما أدراك ماسجين ؟ ﴾ ماكتاب سجين ؟ ﴿ كتاب مرقوم ﴾ كتاب مسطور بيّن الكتابة ، أو مُعْلَم ، يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، كما تقدم ، يقال : رقّم الكتاب : إذا جعل له علامة ، وتسمى العلامة رقماً . ﴿ للمكذبين ﴾ بالحق . ﴿ معتد ﴾ متجاوز حدود الشرع والنظر والعقل . ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام (أي المعاصي) منهمك في الشهوات المعيبة ، صيغة مبالغة .

﴿ آياتنا ﴾ القرآن . ﴿ أساطير الأولين ﴾ حكايات وأخبار القدماء ، جمع أسطورة ، أو إسطارة . ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر لهم عن هذا القول . ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ غطّاها وغلب عليها ، أي اسودت من الذنوب ، وهو رد لما قالوه وبيان سبب قولهم : وهو حب المعاصي بالانهماك فيها ،

---

(١) الكشاف : ٣٢٢/٣

(٢) البحر المحيط : ٤٤٠/٨

حق صار ذلك صدأ على قلوبهم ، فعمّى عليهم معرفة الحق والباطل . والرين : الصدأ . ﴿ ماكانوا يكسبون ﴾ من المعاصي ، فهو كالصدأ .

﴿ كلا ﴾ ردع عن الكسب الزائن . ﴿ يومئذ ﴾ يوم القيامة . ﴿ لمحجوبون ﴾ فلا يرونه ، بخلاف المؤمنين ، ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة حجاب الملوك الذين يمنعون عن الدخول عليهم . ﴿ لصالوا الجحيم ﴾ لداخلو النار المحرقة وملازموها . ﴿ ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ يقول لهم الزبانية : هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به .

المناسبة :

بعد بيان عظم ذنب التطفيف ، وبيان سببه وهو إنكار البعث والحساب أو الغفلة عنها ، ردعهم الله تعالى عن الأمرين معاً ، ثم بيّن أن كل ما يعمل من خير أو شر ، فإنه مكتوب مسطر عند الله ، وأوعد منكري البعث المكذبين به ، والقائلين بأن القرآن أساطير الأولين ، وليس وحياً من عند الله ، ثم زجرهم عن هذه المقولة الباطلة ، وأوضح سببها وهو انغماسهم في المعاصي التي حجبت قلوبهم عن رؤية الحق والباطل ، فصاروا لا يميزون بين الخير والشر ، وأعقب ذلك بيان جزائهم وهو طردهم من رحمة الله ودخولهم نار جهنم وملازمتهم لها .

وقدّم ديوان الشر عن ديوان الخير ؛ لأن المذكور قبله هو وعيد أهل الفجور ، فناسب إيراد حال الأشرار أولاً .

التفسير والبيان :

﴿ كلا ، إن كتاب الفجار لفي سجّين ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ، فإن الفجار ومنهم المطففون أعمالهم مكتوبة في ديوان الشر وسجل أهل النار وهو السجين ، أو في حبس وضيق شديد ، فكلمة ﴿ سجين ﴾ من السجن : وهو الضيق والحبس .

﴿ وما أدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم ﴾ أي وما أعلمك أنت ولا قومك

ماهو السجين ؟ إنه الكتاب الذي رصدت فيه أسماؤهم ، فهو كتاب مسطور بيّن الكتابة ، جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة . وهذا السجل المسمى بالسجين هو السجل الكبير أو العظيم ، الذي فيه لكل فاجر صحيفة .

وهذا هو الظاهر في معنى كلمة ﴿ سجين ﴾ . وقد عرفنا سابقاً أن بعضهم يرى أن السجين هو مكان وهو جهنم وهي أسفل السافلين ، لذا قال محمد بن كعب القرظي : قوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً لقوله : ﴿ وما أدراك ماسجين ؟ ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ، ولا ينقص منه أحد[1] . وهو رأي النحويين كما تقدم .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي عذاب شديد يوم القيامة لمن كذب بالبعث والجزاء وبما جاء به الرسل ، فهؤلاء المكذبون هم الذين لا يصدقون بوقوع الجزاء ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . وهذا وعيد للذم لا للبيان ؛ لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله ، سواء كان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى .

ثم أبان الله تعالى صفات من يكذب بيوم الدين وهي ثلاث ، فقال :

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد ، أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين ﴾ أي لا يكذب بيوم الدين إلا من كان متصفاً بهذه الصفات الثلاث : وهي أولاً ـ كونه معتدياً ، أي فاجراً جائراً متجاوزاً منهج الحق ، ثانياً ـ أنه أثيم : وهو المنهمك في الإثم في أفعاله ، من تعاطي الحرام وتجاوز المباح ، وفي أقواله : إن حدّث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ، وثالثاً ـ أنه إذا

(١) تفسير ابن كثير : ٤٨٥/٤

تلي عليه القرآن قال : أساطير الأولين ، أي أخبار الأولين المتقدمين وأكاذيبهم وأباطيلهم التي زخرفوها ، تلقاها محمد ﷺ من غيره من السابقين ، وهذا يعني في زعمهم أن القرآن ليس وحياً من عند الله تعالى .

وهذه الصفة الثالثة تشبه قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم : ماذا أنزلَ ربكم ؟ قالوا : أساطيرُ الأولين ﴾ [النحل ٢٤/١٦] وقال سبحانه : ﴿ وقالوا : أساطيرُ الأولين اكتتبها ، فهي تُمْلَى عليه بُكْرةً وأصيلاً ﴾ [الفرقان ٥/٢٥] قيل : نزل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما .

ثم بيّن الله تعالى أسباب افترائهم على القرآن ، فقال :

﴿ كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن هذه الأقوال ، فليس الأمر كما زعمتم أيها المعتدون الآثمون ، ولا كما قلتم : إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ، ووحيه ، وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما السبب هو كثرة الذنوب والخطايا التي حجبت قلوبكم عن الإيمان بالقرآن ، والتي كوّنت عليها الرّين الذي منع نفاذ الحق والخير والنور إليها ، فأعماها عن رؤية الحقيقة . والرين : يعتري قلوب الكافرين ، فقوله : ﴿ ران على قلوبهم ﴾ أي غطى عليها . أخرج ابن جرير وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً ، نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الرانُ الذي ذكره الله سبحانه في القرآن » . قال الحسن البصري عن الران : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، ويسودّ من الذنوب . والطبع : أن يطبع على القلب ، وهو أشد من الرين .

ثم أبان الله تعالى أنهم مطرودون من أي رحمة أو تكريم ، فقال :

﴿ كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أي ليس

الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة منزلة حسنى ، بل إن هؤلاء الكفار محجوبون عن ربهم يوم القيامة ، لا ينظرون إليه كما ينظر المؤمنون ، فكما حجبهم في الدنيا عن توحيده بسبب سوء أعمالهم ، حجبهم في الآخرة عن رؤيته وكرامته .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ[1] . وهذا استدلال بمفهوم الآية ، يدل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ ، إلى ربّها ناظرةٌ ﴾ [القيامة٧٥/٢٢ـ٢٣] .

ثم إنهم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن هم من أهل النيران ، فهم داخلو النار ، وملازموها غير خارجين منها ، ومقاسو حرها ، وصِليُّ الجحيم أشد من الإهانة وحرمان الكرامة .

ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ :

﴿ ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم وزبانيتها تبكيتاً لهم وتوبيخاً : هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ، فانظروه وذوقوه .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن أعمال الفجار العصاة الكفرة مرصودة في كتاب مسطور بيّن الكتاب ، مُعْلَم بعلامة ، ومصيرهم السجن والضيق في جهنم والعذاب المهين .

٢ ـ هناك شدة وعذاب أليم يوم القيامة للذين يكذبون بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤٨٥/٤

٣ ـ لا يصدر التكذيب بالبعث والآخرة إلا من الفاجر المتجاوز حدود الحق ، المعتدي على الخلق في معاملته إياهم ، وعلى نفسه ، وهو الأثيم العاصي في ترك أمر الله ، وهو القائل عن القرآن إذا تلي عليه : إنه أساطير الأولين ، أي أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها .

٤ ـ ليس القرآن أساطير الأولين كما زعموا ، وإنما هو كلام الله الحق المنزل على قلب نبيه المصطفى ﷺ . وسبب زعمهم كثرة القبائح والمعاصي التي غطت قلوبهم بالران وهو الحجاب الكثيف الذي يحدث بسبب تراكم الذنوب ، فمنعتها من رؤية الحق والباطل ، والتمييز بين الخير والشر .

٥ ـ حقاً ، إن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث المكذبين بالقرآن محجوبون عن رؤية ربهم يوم القيامة ، فلا ينظر إليهم نظرة رحمة ، ولا يرونه ، ثم إنهم يلازمون الجحيم (النار المحرقة) فلا يخرجون منها ، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، وكلما خبت نارها زادهم الله سعيراً ، ويقال لهم من خزنة جهنم : هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به رسل الله في الدنيا .

٦ ـ قال الزجاج في آية : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ : في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرَى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولا خسّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون .

وقال جل ثناؤه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة ٧٥/٢٢ـ٢٣] فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه .

وقال مالك بن أنس في هذه الآية : لما حجب أعداءه ، فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه .

وقال الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله ، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد ، لما عبده في الدنيا .

ديوان الخير وقصة الأبرار

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ ﴿ عيناً ﴾ : تمييز ، أو حال من ﴿ تسنيم ﴾ ؛ لأنها بمعنى جارية ، على أن (تسنيماً) اسم للماء الجاري من علو الجنة ، فهو معرفة ، تقديره : ومزاجه من الماء جارياً من علو ، أو منصوب بـ ﴿ تسنيم ﴾ وهو مصدر ، مثل : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ أي ومزاجه من ماء تسنيم عيناً ، أو منصوب بتقدير (أعني عيناً) أو منصوب على المدح و﴿ يشرب ﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الموضع لقوله : ﴿ عيناً ﴾ . وباء ﴿ بها ﴾ إما زائدة ، أي يشربها بمعنى : يشرب منها ، أو بمعنى فيها .

البلاغة :

﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ تفخيم وتعظيم لمراتب الأبرار .

﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ جناس اشتقاق .

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ إطناب بذكر أوصاف المتقين ومقر نعيمهم .

﴿ ختامه مسك ﴾ تشبيه بليغ ، أي كالمسك في الطيب والبهجة ، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه .

المفردات اللغوية :

﴿ كلا ﴾ حقاً ، أو ردع وزجر عن الباطل . ﴿ كتاب الأبرار ﴾ ما يكتب من أعمال المؤمنين الصادقين في إيمانهم . ﴿ لفي عليين ﴾ لمثبت في ديوان الخير ، فهو إما أنه الكتاب الجامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين ، بدليل تفسيره بعدئذ : ﴿ وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ﴾ وإما أنه مكان عال في الجنة . ﴿ وما أدراك ما عليون ؟ ﴾ ما أعلمك ما كتاب عليين . ﴿ كتاب مرقوم ﴾ مسطور بيّن الكتابة أو مُعْلَم بعلامة . ﴿ يشهده المقرّبون ﴾ يحضرونه فيحفظونه ، وهم الملائكة . ﴿ لفي نعيم ﴾ جنة .

﴿ على الأرائك ﴾ السُرُر أو الأسرّة في الحجال ، والحجال : جمع حجلة وهي كالقبة ، ولا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة وهي الكلّة . ﴿ ينظرون ﴾ ما أعطوا من نعيم يسرّهم . ﴿ نضرة النعيم ﴾ بهجة التنعم وحسنه وبريقه . ﴿ رحيق ﴾ شراب خالص لا غش فيه ، وهو أجود الخمر غير المسكرة . ﴿ مختوم ﴾ ختم إناؤه بالمسك ، لا يفكه إلا الأبرار تكريماً لهم . ﴿ ختامه مسك ﴾ ختام إنائه المسك ، مكان الطين أو غيره . ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ فليتسارع أو فليستبق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى ، وليجاهدوا النفوس ، ليلحقوا بالركب المتقدم من العاملين المخلصين . وأصل التنافس : التنازع في الشيء بغية أن ينفرد به أحد المتنازعين دون غيره ، أي يضن به .

﴿ ومزاجه ﴾ ما يمزج به أو يخلط ، فالمِزاج والمِزْج : الشيء الذي يمزج بغيره ، والمَزْج : خلط أحد الشيئين بالآخر . ﴿ تسنيم ﴾ عين من ماء تجري من الأعلى إلى الأسفل ، وهو أشرف شراب في الجنة . ﴿ يشرب بها المقربون ﴾ يشرب منها ، أو ضمن يشرب معنى يلتذ ، و ﴿ المقربون ﴾ هم الأبرار السابق ذكرهم .

المناسبة :

بعد بيان حال المطففين وحال الفجار المكذبين بيوم الدين ، وتبيين درجتهم يوم القيامة ، أتبعه ببيان حال الأبرار الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ، وعملوا صالحاً في الدنيا ، والتعريف بمنزلتهم عند الله ، وأن الله رصد أعمالهم في كتاب مرقوم هو ﴿ عليون ﴾ وأن لهم الجزاء الحسن على إحسانهم في الدنيا ، حتى

يتبين أن كتاب الأبرار ضد كتاب الفجار بجميع معانيه ، فيقبل العاقل على مقوّمات الأولين ، ويبتعد عن محاكاة الآخرين .

التفسير والبيان :

﴿ كلا ، إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ أي حقاً ، إن كتاب الأبرار وهم المؤمنون المخلصون العاملون المطيعون مرصود في كتاب بيّن مسطور ، أو في أعالي الجنة ، ومصيرهم إلى الجنة ، وهم بخلاف الفجار ، وهو بخلاف سجين .

﴿ وما أدراك ماعليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ﴾ أي وما أعلمك يا محمد أي شيء هو عليون ؟ ويراد بذلك تفخيم أمره وتعظيم شأنه ، إنه كتاب مسطور ، سطرت فيه أسماؤهم وأعمالهم ، وهو السجل الكبير ، الذي تحضره الملائكة وتحفظه ويرونه كما يحفظ اللوح المحفوظ ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم أبان الله تعالى حالهم فقال :

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ﴾ أي إن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم يوم القيامة ، وفي جنات الخلود ، على الأسرّة التي في الحجال (ذات القبب الساترة) ينظرون إلى ماأعده الله لهم من أنواع النعيم في الجنة ، وإلى مالهم من الكرامات المادية والمعنوية ، أما الماديات فهي مختلف أنواع الأطعمة الشهية والأشربة الهنية والحور العين والمراكب الفارهة والمساكن الفخمة ، وأما المعنويات فأنسهم بالله ورؤيتهم له ورضاه عنهم وشعورهم بالأمن والطمأنينة والسعادة الأبدية .

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي إذا رأيتهم عرفت آثار النعمة والترف والسرور والدعة في وجوههم ، التي تتلألأ بالنور والحسن والبياض ،

والبهجة والرونق ؛ لأن الله تعالى زاد في جمالهم وفي ألوانهم مالا يصفه واصف ، كما قال تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ مُسْفِرةٌ ، ضاحكةٌ مستبشرةٌ ﴾ [عبس ٣٨/٨٠ـ٣٩] .

﴿ يُسْقَون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي يسقون من الخمر التي لا غش فيها ولا يشوبها شيء يفسدها ، وقد ختم إناؤها بالمسك فلا يفكه إلا الأبرار ، ويكون آخر طعمه ريح المسك ، وفي ذلك فليرغب الراغبون ، وليتسابق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه . وهذا يعني أن التسابق أو التنافس يكون فيما يؤدي إلى النعيم ، لا إلى الجحيم ، كما قال تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هذا فليعمل العاملون ﴾ [الصافات ٦١/٣٧] .

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شَرْبة ماء على ظمأ ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري ، كساه الله من خُضْر الجنة » .

﴿ ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق وهو ما يخلط به من تسنيم ، وهو شراب ينصب عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب الجنة . ويسقون الرحيق أو التسنيم من عين جارية من الأعلى إلى الأسفل يمزجون بها كؤوسهم ، وهي التي يشرب منها الأبرار المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً .

سئل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ فقال : هذا مما قال الله : ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ماأُخفي لهم من قُرّة أعين ﴾ [السجدة ١٧/٣٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يتبين من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن صحف أعمال الأبرار مدونة في السجل الكبير وهو الكتاب المسطر البيِّن الكتابة ، الذي يتميز بعلامته الخاصة ، ويشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة . وهذه أضداد كتاب الفجار .

وبالمقارنة بينهما يتبين أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة . والمقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي أضيق المواضع : إذلال الفجار وتحقير شأنهم . والمقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك : إجلالهم وتعظيم شأنهم[1] .

٢ ـ بعد أن عظم الله تعالى كتاب الأبرار عظم منزلتهم ، فأبان أنهم في نعيم الجنة . ووصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة :

أولها ـ على الأرائك ينظرون ، أي على الأسرة في الحجال ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم ، من الكرامات ومن أنواع النعيم في الجنة من الحور العين والولدان ، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها ، قال ﷺ : « يلحظ المؤمن ، فيحيط بكل ما آتاه الله ، وإن أدناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا » .

ثانيها ـ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، أي بهجته وغضارته ونوره ، والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله عز وجل ، على ما قال : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ ، إلى ربِّها ناظرةٌ ﴾ [القيامة ٧٥/٢٢ـ٢٣] .

---

(١) تفسير الرازي : ٩٧/٣١

ثالثها ـ يسقون من رحيق مختوم ، أي يسقون من شراب لا غِشّ فيه ، والرحيق : صفوة الخمر ، وخمر الجنة غير مسكرة ، كما قال تعالى : ﴿ لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنْزَفون ﴾ [الصافات ٤٧/٣٧] . وقال عز وجل : ﴿ لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون ﴾ [الواقعة ١٩/٥٦] .

وهذا النوع من الخمر يختلف عن النوع الآخر الذي يجري في الأنهار ، المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وأنهارٌ من خمرٍ لَذّةٍ للشاربين ﴾ [محمد ١٥/٤٧] لكن هذا المختوم أشرف وأفضل من الجاري .

وللرحيق صفات أربع هي :

الأولى ـ أنه شراب مختوم قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان .

الثانية ـ ختامه مسك ، أي عاقبته المسك ، بمعنى أن يختم له آخره بريح المسك . قال الفراء : الختام آخر كل شيء .

الثالثة ـ أنه محل التنافس والتنازع لرفعته وطيبه ، والمراد : فليرغب الراغبون به إلى المبادرة إلى طاعة الله عز وجل .

الرابعة ـ ومزاجه من تسنيم ، أي مزاج ذلك الرحيق الذي يخلط به من تسنيم ، وهو شراب ينصب عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب في الجنة . وأصل التسنيم في اللغة : الارتفاع ، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تسنيم : عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً ، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين ، فتطيب .

وقال ابن عباس كما تقدم في قوله عز وجل : ﴿ ومِزاجه من تسنيم ﴾ : هذا

مما قال الله تعالى : ﴿ فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّة أعين ﴾ .

لذا قال تعالى بعدئذ : ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة ، صِرْفاً وهي لغيرهم مِزاج .

ويلاحظ أنه تعالى لما قسم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون ، علمنا أن المذكورين هنا هم أصحاب اليمين . وهذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة ، فتسنيم أفضل أنهار الجنة ، والمقربون أفضل أهل الجنة[1] .

سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ومقابلتهم بالمثل في الآخرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الإعراب :

﴿ على الأرائك ينظرون ، هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ ﴿ هل ثوّب الكفار ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ ينظرون ﴾ . وقيل : لاموضع لها من الإعراب ؛ لأنها مستأنفة . وقرئ : « هل ثوّب » : بإدغام اللام في ﴿ هل ﴾ في الثاء ، وبإظهارها ، من أدغم ، فلما بينهما من المناسبة ؛ لأنها من حروف اللسان والثنايا العليا .

(١) تفسير الرازي : ١٠٠/٣١

البلاغة :

﴿ يكسبون ﴾ ﴿ يضحكون ﴾ ﴿ يتغامزون ﴾ ﴿ ينظرون ﴾ ﴿ يفعلون ﴾ سجع مرصع ، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ إن الذين أجرموا ﴾ هم رؤساء قريش ومشركو مكة : أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما . ﴿ كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ أي يضحكون استهزاء من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين . ﴿ وإذا مروا بهم ﴾ مروا بالمؤمنين . ﴿ يتغامزون ﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم بالجفن والحاجب استهزاء . والغمز : إرخاء الجفن والحاجب استهزاء وسخرية ، أو لغرض آخر يعبر به عن شيء بين الناس ، إما خير أو شر ، وأكثر ذلك إنما يكون على سبيل الخبث .

﴿ انقلبوا ﴾ رجعوا . ﴿ فكهين ﴾ معجبين بذكرهم المؤمنين أي ينسبونهم إلى الضلال ، وقرئ : فاكهين ، أي ملتذين بالسخرية منهم ، والمعنى في القراءتين واحد . ﴿ وإذا رأوهم ﴾ أي رأوا المؤمنين . ﴿ لضالون ﴾ ينسبونهم إلى الضلال ، لإيمانهم بمحمد ﷺ . ﴿ وما أرسلوا عليهم ﴾ وما أرسل الكفار على المؤمنين . ﴿ حافظين ﴾ لهم أو لأعمالهم ، أي رقباء يهيمنون على أعمالهم ، شاهدين عليها ، يشهدون برشدهم وضلالهم .

﴿ فاليوم ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ يهزؤون بهم حين يرونهم أذلاء مغلولين في النار ، ﴿ على الأرائك ﴾ على الأسرة في الحجال في الجنة . ﴿ ينظرون ﴾ من منازلهم إلى الكفار ، وهم يعذبون ، فيضحكون منهم ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا . ﴿ هل ثوب ﴾ جوزي ، من التثويب والإثابة : المجازاة ، أي هل أثيبوا ؟ ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ نعم .

سبب النزول :

نزول الآية (٢٩) :

ذكر العلماء في سبب النزول وجهين :

الأول ـ أن المراد من قوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السَّهْمي ، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم .

الثاني ـ جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين ، فسخر منهم المنافقون ، وضحكوا ، وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم ، فقالوا : رأينا اليوم الأصلع ، فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله ﷺ[1] .

المناسبة :

بعد بيان قصة الفجار وقصة الأبرار وما أعد لكل فئة في الآخرة ، حكى الله تعالى بعض قبائح أفعال الكافرين في الدنيا بالاستهزاء بالمؤمنين ، ومعاملتهم بالمثل في الآخرة ، جزاء مافعلوا في الدنيا . والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم .

التفسير والبيان :

حكى الله تعالى عن رؤساء الشرك وأمثالهم أربعة أشياء من المعلومات القبيحة ، فقال :

أ ـ ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ أي إن كفار قريش ومن وافقهم على الكفر كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم . وهكذا شأن الأقوياء والأغنياء في كل عصر يسخرون من المؤمنين المصلّين أو الفقراء المتأدبين بآداب الإسلام والقرآن ، ويهزؤون من المتدينين ومن دينهم ، اعتماداً منهم على قوتهم ، أو سلطتهم ونفوذهم ، أو ثروتهم وغناهم . قال ابن عباس في تفسير ﴿ إن الذين أجرموا .. ﴾ : هو الوليد بن المغيرة ، وعُقْبة بن أبي مُعَيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث . وأولئك الذين آمنوا من أصحاب محمد ﷺ مثل عمار ، وخبّاب ، وصُهيب ، وبلال .

(١) تفسير الرازي : ١٠١/٣١

٢ ـ ﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ أي وإذا مر الكفار بالمؤمنين يتغامزون عليهم محتقرين لهم ، يعيرونهم بالإسلام ، ويعيبونهم به . والتغامز : صيغة تفاعل تقتضي المشاركة ، من الغمز : وهو الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء ، ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب ، يقال : غمزه : إذا عابه ، وما في فلان غميزة ، أي ما يعاب به ، والمعنى : أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ، ويعيبونهم ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ، ويحرمونها لذاتها ، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه .

٣ ـ ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي وإذا رجع الكفار إلى أهلهم في منازلهم من مجالسهم في السوق ، رجعوا معجبين بما هم فيه ، متلذذين به ، يتفكهون بما فعلوا بالمؤمنين ، وبما قاموا به من استهزاء وطعن فيهم ، واستهزاء بهم ، ووصفهم بالسخف والطيش وضعف الرأي وقلة العقل .

٤ ـ ﴿ وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون ﴾ أي وإذا رأى المشركون المؤمنين ، وصفوهم بالضلال ؛ لكونهم على غير دينهم وعقائدهم الموروثة ، ولاتباعهم محمّداً ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى : هل له وجود أم لا .

فرد الله تعالى عليهم ماقالوه بقوله :

﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون من قبل الله رقباء على المؤمنين ، يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولا كُلّفوا بهم ؟ وإنما كلفوا بالنظر في شؤون أنفسهم .

ثم قرر الله تعالى مبدأ المعاملة بالمثل في الآخرة ، تسلية للمؤمنين وتقوية قلوبهم ، فقال :

﴿ فاليوم الذي آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ أي ففي اليوم الآخر يوم القيامة ، يضحك المؤمنون ويهزؤون من الكفار حين يرونهم أذلاّء مغلوبين ، قد نزل بهم مانزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، معاملة بالمثل ، وتبياناً أن الكفار الجاحدين هم في الواقع سفهاء العقول والأحلام ، خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وكلمة ﴿ فاليوم ﴾ دليل على أن التكلم واقع في يوم القيامة .

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي ينظر المؤمنون إلى أعداء الله ، وهم يعذبون في النار ، والمؤمنون متنعمون على الأرائك . وهذا دائم خالد لا يعادل بشيء من المؤقت الفاني .

﴿ هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أي هل أثيب وجوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والطعن والتنقيص ، أم لا ؟ نعم ، قد جوزي الكفار أتم الجزاء بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم . والثواب : من ثاب يثوب : إذا رجع ، فالثواب : ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويستعمل في الخير والشر . والاستفهام بمعنى التقرير للمؤمنين ، أي هل جوزوا بها ؟ .

فقه الحياة أو الأحكام :

استدل العلماء بالآيات على ما يأتي :

١ ـ الكفار دائماً في عداوة وحقد وتغاير مع المؤمنين ، فلا يلتقي الإيمان مع الكفر ، ولا الدين الصحيح مع الضلال ، ولا الأخلاق العالية مع الأخلاق المرذولة . فقد كان يصدر من المشركين ألوان متعددة من أذى المؤمنين ، منها ماذكرته هذه الآيات : وهو الاستهزاء والسخرية من المؤمنين ، وتعييبهم والطعن بهم وتعييرهم بالإسلام ، والتفكه بذكر المسلمين بالسوء أمام أهاليهم ،

والعجب بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا ، وقولهم بأن المؤمنين في ضلال لتركهم دين الآباء والأجداد واتباعهم محمداً ﷺ ، وتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب غير مؤكد الحصول .

٢ ـ قوبل الكفار في الآخرة بمثل فعلهم وقولهم ، تسلية للمؤمنين ، وتثبيتاً لهم على الإسلام ، وتصبراً على متاعب التكاليف ، وأذية الأعداء ، في أيام معدودة ، لنيل ثواب لانهاية له ولا غاية ، ففي الآخرة يهزأ المؤمنون من الكفار ويضحكون منهم ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، بسبب الضر والبؤس ، فضحك المؤمنون منهم بسبب ماهم فيه من أنواع العذاب والبلاء .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ : ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول : إن بين الجنة والنار كُوَىً ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا ، اطلع من بعض الكُوى ؛ قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ فاطّلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ [الصافات ٥٥/٣٧] قال : ذُكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تَغْلي .

ويدخل المؤمنون الجنة ، وأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار ، كيف يعذبون في النار ، وكيف يصطرخون فيها ، ويدعون بالويل والثبور ، ويلعن بعضهم بعضاً .

ويقال على سبيل التهكم : ﴿ هل ثوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ [الدخان ٤٩/٤٤] والمعنى : كأنه تعالى يقول للمؤمنين : هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم ، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة ؟ فيكون هذا القول زائداً في سرورهم ؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

مكيّة ، وهي خمس وعشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة الانشقاق ؛ لقوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أي تشققت وتصدعت مؤذنة بخراب العالم ، ومنذرة بهول يوم القيامة .

مناسبتها لما قبلها :

السور الأربعة : الانشقاق وما قبلها وهي سور المطففين والانفطار والتكوير كلها في صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه ، فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة ، وأغلب ما ذكر في المطففين في أحوال الأشقياء الفجار والمتقين الأبرار في الآخرة ، وعنيت سورة الانشقاق بالجمع بين ما يحدث من مقدمات ومشاهد الآخرة الرهيبة وبين ما يعقب ذلك من الحساب اليسير لأهل اليمين والحساب العسير لأهل الشمال .

وفي السورة المتقدمة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفي هذه ذكر كيفية عرضها يوم القيامة .

ما اشتملت عليه السورة :

محور السورة كالسور المكية الأخرى : شؤون العقيدة ، وتصوير أهوال

القيامة . وقد بدئت ببيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة : ﴿ إذا السماء انشقت .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] .

وأردفت ذلك حال الإنسان في موقف العرض والحساب يوم القيامة ، وانقسام الناس فريقين : أهل اليمين وأهل الشمال : ﴿ يأيها الإنسان ، إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه .. ﴾ [الآيات : ٦ ـ ١٥] .

ثم أقسم الله بالشفق والليل والقمر على ملاقاة المشركين في القيامة أهوالاً شديدة ، وأحوالاً عصيبة : ﴿ فلا أقسم بالشفق .. ﴾ [الآيات : ١٦ ـ ١٩] .

وختمت السورة بتوبيخ المشركين والكفار والملاحدة والوجوديين وأمثالهم على عدم إيمانهم بالله تعالى ، وبإنذارهم بالعذاب الأليم ، والتنبيه على نجاة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ومنحهم الثواب الدائم المستمر الذي لا ينقطع ولا ينقص : ﴿ فما لهم لا يؤمنون .. ﴾ [الآيات : ٢٠ ـ ٢٥] .

والخلاصة : أن السورة اشتملت على مقصدين : بيان ما يلاقيه الإنسان من نتائج أعماله يوم القيامة ، وانحصار المصير إما في جنات النعيم وإما في نيران الجحيم .

فضلها :

أخرج مسلم والنسائي : أن أبا هريرة قرأ بهم : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العَتَمة (العشاء) فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجد بها ، حتى ألقاه .

وزاد النسائي عن أبي هريرة نفسه قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿ إذا السماءُ انشقَّت ﴾ و﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلَق ﴾ .

أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ﴿ إذا ﴾ ظرف ، والعامل فيه جوابه ، وجوابه إما مقدر ، أي بعثتم ، أو جوابه : ﴿ أَذِنَتْ ﴾ والواو فيها زائدة ، والتقدير : إذا السماء انشقت أذنت . وقيل : جوابه : ﴿ ياأيها الإنسان ﴾ على تقدير : فيا أيها الإنسان ، فحذفت الفاء ، أو جوابه : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ .

﴿ ظن أن لن يحور ﴾ ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي أنه ، وقد سدت مسد مفعولي ﴿ ظن ﴾ . و﴿ ظن ﴾ وما عملت فيه : في موضع رفع خبر : إن .

البلاغة :

﴿ السماء ﴾ و﴿ الأرض ﴾ بينهما طباق .

﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ و﴿ أما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت .. ﴾ إلخ سجع مرصع : وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ انشقت ﴾ تشققت وتصدعت . ﴿ وأذنت لربها ﴾ استمعت له ، وانقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذي يأذن للأمر ، والأَذَن : هو الاستماع للشيء والإصغاء إليه[1] .

ويكون انشقاقها بالغمام ، كما قال تعالى : ﴿ ويوم تشقّق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان ٢٥/٢٥] .

﴿ وحُقّت ﴾ وحق لها أن تسمع وتطيع وتنقاد . ﴿ مُدّت ﴾ بسطت واتسعت رقعتها بزوال جبالها وآكامها وأبنيتها . ﴿ وألقت مافيها ﴾ من الموتى والكنوز إلى ظاهرها . ﴿ وتخلت ﴾ تكلفت في الخلو أقصى جهدها ، حتى لم يبق في باطنها شيء . ﴿ وأذنت لربها ﴾ سمعت وأطاعت في ذلك ، أي في الإلقاء والتخلية . ﴿ وحقت ﴾ حق لها أن تسمع وتطيع ، وذلك كله يوم القيامة .

وجواب ﴿ إذا ﴾ وما عطف عليها محذوف دل عليه مابعده تقدير : لقي الإنسان عمله ، أو بعثتم .

﴿ كادح ﴾ جاهد ومُجِدٌّ في عملك . ﴿ إلى ربك ﴾ إلى لقاء ربك ، وهو الموت . ﴿ فملاقيه ﴾ ملاق عملك من خير أو شر يوم القيامة . ﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ أعطي كتاب عمله . ﴿ بيمينه ﴾ هو المؤمن . ﴿ حساباً يسيراً ﴾ سهلاً لايناقش فيه ، بأن يعرض عليه عمله ، كما في حديث الصحيحين ، ثم يتجاوز عنه ، وفي الحديث المذكور : « من نوقش الحساب عُذِّب » . ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي يرجع في الجنة إلى عشيرته المؤمنين ، مسروراً بحسابه اليسير .

﴿ من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ هو الكافر ، يؤتى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره ، قيل : يغل يمناه إلى عنقه ، ويجعل يسراه وراء ظهره . ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ ينادي عند رؤية مافيه هلاكه ، قائلاً : ياثبوراه ، وهو الهلاك . ﴿ ويصلى سعيراً ﴾ يقاسي ناراً مستعرة ، ويدخل ناراً شديدة . ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ كان في عشيرته في الدنيا فرحاً بطراً باتباعه هواه . ﴿ يحور ﴾ يرجع ، والمراد : أنه لن يرجع إلى ربه . ﴿ بلى ﴾ أي بلى يحور ويرجع إليه ، فهو إيجاب لما بعد ﴿ لن ﴾ أي جواب لما بعد النفي ، أي نعم يرجع . ﴿ إن ربه كان به بصيراً ﴾ عالماً بأعماله وبرجوعه إليه ، فلا يهمله ، بل يرجعه ويجازيه .

---

(١) قال ﷺ : « ماأذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن » أي يتلوه يجهر به (النهاية لابن الأثير : ٣٣/١) .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن أهوال يوم القيامة وأماراتها بقوله :

﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحُقت ﴾ أي إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب العالم ، وانشقاقها من علامات القيامة ، وأطاعت ربها وانقادت له فيما أمر ، وحق لها أن تطيع أمره وتنقاد وتسمع ؛ لأنه العظيم القاهر الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ، وخضع له كل شيء .

﴿ وإذا الأرض مُدّت ، وألقت مافيها وتخلّت ﴾ أي وإذا الأرض بسطت وسُوّيت ووسّعت بزوال جبالها وآكامها . ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً ، ولفظت وأخرجت مافيها من الأموات والكنوز ، وطرحتهم إلى ظهرها ، وخلت خلواً تاماً عما فيها ، وتخلت إلى الله وتبرأت من كل من فيها ، ومن أعمالهم .

ونظير الآية : ﴿ ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسِفها ربي نسفاً ، فيذَرها قاعاً صَفْصفاً ، لاترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً ﴾ [طه ٢٠/١٠٥ ـ ١٠٧] .

﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أي استمعت وأطاعت أوامر ربها ، وحق لها أن تتخلى وتستمع لما يريد ربها أن يأمرها به ؛ لأنها واقعة في قبضة القدرة الإلهية . وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف لإرادة التهويل على الناس ، والتقدير : إذا حدث ماحدث ، رأيتم أعمالكم من خير أو شر .

﴿ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ أي ياأيها الإنسان ، والمراد به الجنس الذي يشمل المؤمن والكافر ، إنك عامل في هذه الحياة ومجاهد ومُجِدٌّ في عملك ، ومصير سعيك وعملك إلى ربك أو إلى لقائه بالموت ، وإنك ستلقى ماعملت من خير أو شر ، أو سوف تلقى ربك بعملك . والكدح : جهد النفس في العمل حتى تأثرت .

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد ، عش ماشئت فإنك ميت ، وأحبب ماشئت ، فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك ملاقيه » .

فقوله : ﴿ فملاقيه ﴾ يعود الضمير إلى العمل من خير أو شر ، وقيل : يعود الضمير على قوله ﴿ ربك ﴾ أي فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك .

ثم ذكر أحوال الناس وانقسامهم إلى فريقين يوم القيامة ، فقال : الفريق الأول ـ المؤمنون : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهم المؤمنون ، فإنه يحاسب حساباً سهلاً ، بأن تعرض عليه سيئاته ، ثم يغفرها الله ويتجاوز عنها ، من غير أن يناقشه الحساب ، فذلك هو الحساب اليسير .

روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب عُذِّب ، قالت : فقلت : أفليس الله تعالى قال : ﴿ فسوف يحاسب يسيراً ﴾؟ قال : ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » .

وهذا الذي يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً بالعرض يرجع إلى أهله وعشيرته في الجنة مغتبطاً فرحاً مسروراً بما أعطاه الله عز وجل وما أوتي من الخير والكرامة .

روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال : « إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف ، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله ، فمسرور أو مكظوم » .

ونظير الآية قوله : ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بيمينه ، فيقولُ : هاؤُمُ اقرؤوا كتابيَهْ ، إني ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ حسابيه ، فهو في عيشةٍ راضيةٍ ﴾ [الحاقة ٦٩/١٩ ـ ٢١] .

الفريق الثاني ـ الكافرون : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره ؛ حيث تثنى يده خلفه ، ويعطى كتابه بها ، وتكون يمينه مغلولة إلى عنقه ، فإذا قرأ كتابه ، نادى ياثبوراه ، أي بالهلاك والخسار ، ثم يدخل جهنم ، ويصلى حرَّ نارها وشدتها .

ونظير الآية قوله : ﴿ وأما من أُوتِيَ كتابَه بشِماله ، فيقول : ياليتني لم أُوتَ كتابيَهْ ، ولم أدْرِ ما حسابيهْ ، ياليتها كانت القاضيةَ ، ماأغنى عني ماليهْ ، هَلَكَ عني سُلطانيهْ ﴾ [الحاقة ٢٥/٦٩ ـ ٢٩] .

ثم ذكر الله تعالى سببين لعذابه فقال :

١ ـ ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ أي إنه كان في الدنيا فرحاً لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، وإنما يتبع هواه ، ويركب شهواته ، بطراً أشِراً لعدم خطور الآخرة بباله ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير حزناً طويلاً .

٢ ـ ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي إن سبب ذلك السرور والبطر ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ، ولا يبعث للحساب والعقاب ، ولا يعاد بعد الموت .

ثم رد الله عليه ظنه قائلاً :

﴿ بلى ، إن ربه كان به بصيراً ﴾ أي بلى إنه سيحور ويرجع إلى ربه ، وسيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإن الله ربه كان به وبأعماله عالماً خبيراً ، لا يخفى عليه منها شيء أو خافية .

وفي هذا إشارة إلى أنه لابد من دار للجزاء غير دار التكليف ؛ لأن ذلك مقتضى العلم التام والقدرة والحكمة .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي :

١ ـ من علامات القيامة : أولاً ـ تصدع السماء وتفطرها بالغمام ، والغمام مثل السحاب الأبيض ، وثانياً ـ بسط الأرض ودكّ جبالها ، وإخراج أمواتها ، وتخليها عنهم ، وكل من السماء والأرض تصغي وتسمع وتنقاد وتخضع لأمر ربها ، وحق لها أن تسمع أمره .

٢ ـ يكدح كل إنسان ويتعب في حياته ، ثم يرجع يوم القيامة بعمله إلى ربه رجوعاً لامحالة ، فملاق ربه ، أو ملاق عمله . قال قتادة : يا ابن آدم ، إن كَدْحَك لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله ، فليفعل ، ولا قوة إلا بالله . وهذا دليل على أن الدنيا دار عناء وتعب ولا راحة ولا فرح فيها .

٣ ـ الناس فريقان يوم القيامة : سعداء مؤمنون وأشقياء كفار ، أما الفريق الأول : فهم الذين يعطون كتب أعمالهم بأيمانهم ، ويعرضون على ربهم عرضاً لامناقشة فيه ، ويتجاوز الله عنهم ، ويرجعون إلى عشيرتهم مسرورين ، فاللهم اجعلنا منهم .

وأما الفريق الثاني : فهم الذين يتناولون كتب أعمالهم بشمائلهم مباشرة ، أو بشمائلهم من وراء ظهورهم ، فينادون بالهلاك على أنفسهم ، فيقول الواحد منهم : يا ويلاه ، ياثبوراه ، والثبور : الهلاك والخسارة ، ثم يدخلون النار حتى يصلوا حَرَّها .

وسبب خسار هذا الفريق : البطر في الدنيا ، وإنكار المعاد والحساب والجزاء والثواب والعقاب ، والله خبير بهم ، عليم بأن مرجعهم إليه .

والفرح المنهي عنه : ما يتولد من البطر والترفه ، لا الذي يكون من الرضى

بالقضاء ومن حصول بعض الكمالات والفضائل النفسية ؛ لقوله تعالى : ﴿ قل : بفضلِ الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس ٥٨/١٠] .

قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ إنا كنا قَبْلُ في أهلِنا مُشْفِقين ، فمنَّ الله علينا ، ووقانا عذابَ السَّموم ﴾ [الطور ٢٦/٥٢ ـ ٢٧] .

ثم قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه ، فقال : ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليبعثن : دليل على الجزم بوقوع البعث ، وأنه دار العدل المطلق الذي ينال فيه كل إنسان جزاء عمله خيراً أو شراً .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

الإعراب :

﴿ لتركبُن طبقاً عن طبق ﴾ أي حالاً بعد حال ، و﴿ عن ﴾ تأتي بمعنى « بعد » ومنه قولهم : سادوا كابراً عن كابر ، أي بعد كابر . وتركبن : أصله تركبونن ، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال والواو لالتقاء الساكنين .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ ﴿ لا يؤمنون ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿ لهم ﴾ وعامله معنى الفعل الذي تعلقت به اللام في ﴿ لهم ﴾ .

﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ إما استثناء متصل من الجنس ، فيكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ في موضع نصب : لأنه استثناء من الهاء والميم في ﴿ بشرهم ﴾ وإما استثناء منقطع الجنس ، فيكون منصوباً : لأن الاستثناء المنقطع منصوب .

البلاغة :

﴿ وسق ﴾ و ﴿ اتسق ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ كناية ، كُنّى به عن الشدة والأهوال التي يتعرض لها الإنسان .

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أسلوب تهكمي ، استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار .

﴿ فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبُن طبقاً عن طبق ﴾ سجع مرصّع : وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، كما تقدم .

المفردات اللغوية :

﴿ الشفق ﴾ الحمرة التي ترى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس ، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه : إنه البياض الذي يليها ، سمي به لرقته ، مأخوذ من الشفقة . ﴿ وسق ﴾ ضمّ وجمع وستر جميع ما دخل عليه من الدواب وغيرها . ﴿ اتسق ﴾ اجتمع وتم نوره وصار بدراً وذلك في منتصف الشهر القمري ، وهو ما يعرف بظاهرة القمر الأزرق . ويرى الفلكيون أنه يمكن أن يكتمل القمر بدراً مرتين في شهر واحد في أوربا وآسيا لوجود القمر في نصف الكرة الغربي ، على مدى ١٢ عاماً بين كل ١٩ عاماً ، وآخر مرة اكتمل فيها القمر بدراً في الحادي والثلاثين من تموز (يوليو) عام ١٩٨٥ م ، وسوف يكتمل القمر بدراً في المرة القادمة في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٠ م . ﴿ لتركبن ﴾ لتلاقُنّ . ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ حالاً بعد حال ، متطابقين في الشدة . والطبق : الحال المطابقة لغيرها ، والمراد : مرور الكفار بأحوال بعد أحوال هي طبقات في الشدة ، بعضها أشد من بعض ، وهي الموت وما بعده من الحياة من أحوال القيامة . ﴿ فما لهم ﴾ أي الكفار ﴿ لا يؤمنون ﴾ أيُّ مانع لهم عن الإيمان بيوم القيامة ؟ ﴿ لا يسجدون ﴾ لا يخضعون ، بأن يؤمنوا بالقرآن لإعجازه .

﴿ يكذبون ﴾ بالقرآن والبعث وغيرهما . ﴿ يوعون ﴾ يجمعون في صدورهم من الشرك أو الكفر والمعصية والتكذيب والإعراض وأعمال السوء من حسد وبغي وعداوة . ﴿ فبشرهم ﴾ البشارة :

الإخبار بما يسرّ ، والمراد هنا الإخبار عن العذاب تهكماً واستهزاء بهم . ﴿ إلا الذين ﴾ أي لكن فهو استثناء منقطع ، ويصح كونه استثناء متصلاً أي من تاب وآمن منه . ﴿ غير ممنون ﴾ غير مقطوع ولا منقوص ولا يمن به عليهم ، يقال : فلان منّ الحبل : إذا قطعه .

المناسبة :

بعد بيان أحوال الناس وانقسامهم فريقين يوم القيامة : سعداء وأشقياء ، أكد الله تعالى وقوع يوم القيامة وما يتبعها من الأهوال بالقسم بآيات واضحة في الكون : وهي الشفق والليل والقمر على أن البعث كائن لامحالة ، وأن الناس يتعرضون لشدائد الأهوال .

ثم حكى تعالى بعض عجائب الناس أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبالبعث ، ولا يخضعون لآي القرآن العظيم ، عناداً منهم واستكباراً ، فيجازون أشد العذاب ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فله الثواب الدائم غير الممنون به عليه .

التفسير والبيان :

﴿ فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ﴾ أي يقسم الله تعالى بالشفق الذي هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء ، وبالليل الأسود البهيم وما جمع وضم ، وستر كل ما كان منتشراً ظاهراً في النهار ، وبالقمر إذا اجتمع وتكامل وصار بدراً في منتصف كل شهر قمري . والقسم بهذه الأشياء دليل على تعظيمها وتعظيم قدر مبدعها .

ولا أقسم : قسم ، وأما حرف (لا) فهو نفي ورد لكلام سابق قبل القسم ، وهنا رد الله تعالى على المشرك الذي ظن أن لن يحور ، بأنه سيرجع ويبعث ، وأبطل ظنه ، ثم أقسم بعده بالشفق .

﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ جواب القسم ، أي لتصادفن أحوالاً بعد أحوال ، هي طبقات في الشدة ، بعضها أشد من بعض ، وهي الموت وما بعده من

مواطن القيامة وأهوالها ، ثم يكون المصير الأخير : الخلود في الجنة أو في النار .

ونظير الآية قوله : ﴿ بلى وربي لتبعثُنَّ ، ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ [التغابن ٧/٦٤] . وقوله : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الوِلْدان شيباً ﴾ [المزمل ١٧/٧٣] .

ثم أنكر الله تعالى على الكفار استبعادهم البعث ، فقال :

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ أي فأي شيء أو فماذا يمنعهم عن الإيمان بصحة البعث والقيامة ، وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به القرآن ، مع وجود موجبات الإيمان بذلك ، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء ، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق النبي ﷺ وصدق الوحي القرآني المنزل عليه .

وهذا استفهام إنكار ، وقيل : تعجب ، أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات .

﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ أيْ وأيّ مانع لهم من سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن الذي دل إعجازه على كونه منزلاً من عند الله تعالى ؟! ويكون سجودهم إعظاماً وإكراماً واحتراماً لآي القرآن ، بعد أن علموا كونه معجزاً ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة .

قد احتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على وجوب السجود ، فإنه ذم لمن سمعه ، ولم يسجد .

ثم أبان الله تعالى سبب عدم إيمانهم بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر ، فقال : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ، والله أعلم بما يوعون ﴾ أي والواقع أن الكفار يكذبون بالكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب ، إما حسداً للرسول ﷺ ، وإما خوفاً من ضياع المنافع والمراكز والمناصب

والرياسات ، وإما عناداً وإمعاناً في البقاء على تقليد الآباء والأجداد والأسلاف .

والله أعلم من جميع الخلائق بما يضمرونه أو يكتمونه في أنفسهم من التكذيب ، وأعلم بأسباب الإصرار على الشرك أو الكفر ، وجمع الأعمال الصالحة والسيئة .

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي فأخبرهم أيها النبي بأن الله عز وجل قد أعدّ لهم عذاباً أليماً . واستعمال البشارة التي هي في الأصل لما هو سار ، في الإخبار عن العذاب تهكم واستهزاء بهم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم أجر غير ممنون ﴾ أي لكن الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر ، وخضعوا للقرآن الكريم ، وعملوا بما جاء به ، والتزموا صالح الأعمال بأعضائهم ، لهم في الدار الآخرة ثواب غير مقطوع ولا منقوص ، ولا يمنّ به عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ عطاءً غير مجذوذٍ ﴾ [هود ١٠٨/١١] . والاستثناء منقطع في رأي الزمخشري . وقال الأكثرون : معناه إلا من تاب منهم وعمل صالحاً ، فله الثواب العظيم .

وفي هذا ترغيب شديد بالإيمان والطاعة ، وزجر عن الكفر والمعصية .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله عز وجل بالشفق (وهو حمرة السماء التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة) وبالليل وما جمع وضم ولفّ ، وبالقمر إذا اجتمع وتم واستوى ، على وقوع البعث والقيامة وما يتبعها من أهوال عظام وشدائد ضخام .

٢ ـ ماذا يمنع الكفار عن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر والقرآن بعدما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات ؟!

وماذا يمنعهم عن الخضوع والسجود للقرآن عند سماعه ، بعد ماعرفوا أنه معجز ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ؟!

وهذا توبيخ على أنهم لا ينظرون في الدلائل حتى يورثهم الإيمان والسجود عند تلاوة القرآن .

٣ ـ جمهور العلماء على أن هذه الآية : ﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ موضع سجدة تلاوة ، بدليل ماتقدم في الصحيح عن أبي هريرة أنه قرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها .

وقال الإمام مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن المعنى : لا يُذْعنون ولا يطيعون في العمل بواجباته . وعقب على ذلك ابن العربي ونقله عنه القرطبي قائلاً : والصحيح أنها منه ، أي من عزائم السجود ، وهي رواية المدنيين عنه ، أي عن مالك ، وقد اعتضد فيها القرآن والسنة[1] .

٤ ـ الواقع أن الكفار يكذبون الدلائل الموجبة للإيمان وتوابعه ، وإن كانت جلية ظاهرة ، وتكذيبهم بها إما لتقليد الأسلاف ، أو عناداً ، أو حسداً ، أو خوفاً من أنهم لو أظهروا الإيمان ، لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها .

والله عالم بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب والشرك والعناد وسائر العقائد الفاسدة والنيات الخبيثة ، فهو يجازيهم على ذلك .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ١٨٩٩/٤ ، تفسير القرطبي : ٢٨٠/١٩ ـ ٢٨١

٥ ـ صرح الله تعالى بوعيدهم قائلاً لنبيه : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي موجع في جهنم على تكذيبهم ، أي جعل ذلك بمنزلة البشارة تهكماً واستهزاء بهم .

٦ ـ استثنى الله تعالى من الوعيد السابق الذين صدقوا بشهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وعملوا الصالحات ، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ، فلهم ثواب غير منقوص ولا مقطوع ، ولا يمنٌّ عليهم به .

والاستثناء منقطع عند الزمخشري كما بينا ، ولا بأس بكونه متصلاً ، كأنه قال : إلا من آمن منهم ، فله أجر غير مقطوع ، أو هو من المنة .

وذكر ناس من أهل العلم أن قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ليس استثناء ، وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج

مكيّة ، وهي اثنتان وعشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة البروج ، لافتتاحها بقسم الله بالسماء ذات البروج : وهي منازل الكواكب السيارة في أثناء سيرها ، تنويهاً بها لاشتمالها على الظهور والغياب .

مناسبتها لما قبلها :

تتعلق السور بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١ ـ التشابه في الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد في الحديث ذكر السماوات مراداً بها السور الأربع ، كما قيل في المسبّحات . وتلك السور هي الانفطار والانشقاق ، والبروج ، والطارق .

٢ ـ اشتمال السورتين على وعد المؤمنين ، ووعيد الكافرين ، والتنويه بعظمة القرآن .

٣ ـ تضمنت السورة السابقة أن الله عليم بما يجمع المشركون في صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين معه من أنواع الأذى المادي ، كالضرب والقتل والتعذيب في حر الشمس ، والأذى المعنوي ، من حقد وحسد ، وعداوة ، ومكر ، وخوف على فوت المنافع ، وذكر في هذه السورة أن هذا شأن من تقدمهم من الأمم الكافرة الفاجرة . وفي هذا عظة للمشركين وتثبيت للمؤمنين .

ماشتملت عليه السورة :

أبرزت هذه السورة المكية جانباً مهماً من جوانب العقيدة وهو التضحية في سبيل الإيمان والاعتقاد ، ممثلاً في قصة (أصحاب الأخدود) .

افتتحت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات منازل الكواكب ، وبيوم القيامة ، وبالأنبياء الذين يشهدون على أممهم ، على إهلاك وتدمير وإبادة المجرمين ، الذين أحرقوا جماعة من المؤمنين والمؤمنات في النار ليفتنوهم عن دينهم : ﴿ والسماء ذات البروج .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٩] .

وأعقبت ذلك بوعيد هؤلاء العتاة الطغاة ، وإنذارهم بعذاب جهنم ، وبوعد المؤمنين بالجنان . ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات .. ﴾ [الآيتان : ١٠ ـ ١١] .

وختمت السورة بإظهار عظمة الله وجليل صفاته وقدرته على الانتقام من أعدائه ، والاتعاظ بقصة الطاغية فرعون الجبار : ﴿ إن بطش ربك لشديد .. ﴾ [الآيات : ١٢ ـ ٢٢] .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ ذات البروج ﴾ و ﴿والسماء والطارق ﴾ .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء .

سبب نزولها والحكمة منها :

المقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار ، ببيان أن سائر الأمم السابقة كانوا كأهل مكة ، مثل أصحاب الأخدود في نجران اليمن ،

ومثل فرعون وثمود . وكان كل الكفار سواء في التكذيب ، فانتقم الله منهم ؛ لأنهم جميعاً في قبضة القدرة الإلهية : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ . وهذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير ؛ لقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ﴾ .

وسبب نزول هذه السورة التي تدور على قصة أصحاب الأخدود : ما رواه مسلم في صحيحه وأحمد والنسائي ، وموجزها : أن أحد ملوك الكفار وهو ذو نُواس اليهودي واسمه زُرْعة بن تُبّان أسعد الحميري ، بلغه أن بعض رعيته آمن بدين النصرانية[1] ، فسار إليهم بجنود من حِمْيَر ، فلما أخذوهم خيَّروهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، فاختاروا القتل ، فشقوا لهم الأخدود ، وأضرموا فيه النار ، ثم قالوا للمؤمنين : من رجع منكم عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في النار ، فصبروا ، فألقوهم في النار ، فاحترقوا ، والملك وأصحابه ينظرون . قيل : قتل منهم عشرين ألفاً ، وقيل : اثني عشر ألفاً ، وقال الكلبي : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً .

والخلاصة : أن ذا نواس آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً ، قتل أصحاب الأخدود الذين كانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً[2] .

تفصيل القصة ـ قصة الساحر والراهب والغلام :

المعتمد من قصص أصحاب الأخدود : ما جاء في الصحاح عن النبي ﷺ : « أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ ، فلما كبِرَ ضمَّ إليه غلاماً ليعلِّمَه السِّحر ، وكان في طريق الغلام راهب يتكلّم بالمواعظ لأجل الناس ، فمال قلب الغلام إلى حديثه ،

(١) وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا بالين قبل مَبْعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة ، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبّع الحميري ، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً ، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه .

(٢) تفسير ابن كثير : ٥٤٩/٤

فرأى في طريقه ذات يوم دابة أو حية قد حَبَست الناس ، فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر ، فاقتلها بهذا الحجر ، فقتلها .

وكان ذلك الغلام بعدئذ يتعلّم من الراهب إلى أن صار بحيث يبرئ الأكمه والأبرص ، ويَشْفي من الداء . وعمي جليس للملك فأبرأه ، فأبصره الملك فسأله : من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ، ففضب ، فعذّبه .

فدل على الغلام ، فعذّب الغلام حتى دل على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه ، فقُدَّ بالمِنْشار ، وأتى الغلام ، فذُهب به إلى جبل ليُطرح من ذِرْوته ، فدعا فرَجف بالقوم فطاحوا ونجا ، فذهبوا به إلى قُرْقُور : وهي سفينة صغيرة ، فلجَجُوا به ليُغْرِقُوه ، فدعا ، فانكفأت بهم السفينة ، ففرِقوا ونجا ، وقال للملك : لستَ بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد ، وتصلبُني على جِذْع ، وتأخذ سهماً من كِنانتي وتقول : بسم الله ربّ الغلام ، ثم ترميني به .

فرماه فوقع في صُدْغه ، فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذَر ، فأُمر بأخاديد في أفواه السِّكك وأُوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبي ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الصبي : يا أمّاه ، اصبري فإنك على الحق ، وما هي إلا غُمَيْضَةٌ ، فصبرت واقتحمت » .

القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

الإعراب :

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ ﴿ والسماء ﴾ : قسم ، وجوابه إما مقدر محذوف : وهو لتبعثن ، أو قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ . واختار أبو حيان أن يكون الجواب هو قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ وحذفت اللام أي لقتل ، وحسن حذفها كما حسن في قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ثم قال : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أي لقد أفلح من زكاها ، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك وطرده من رحمة الله ، وتنبيهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم على أنهم ملعونون بجامع مااشتركا فيه من تعذيب المؤمنين . وإذا كان ﴿ قتل ﴾ جواباً للقسم ، فهي جملة خبرية ، وقيل : دعاء ، فيكون الجواب غيرها (البحر المحيط : ٤٥٠/٨) .

﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به ، وحذف للعلم به ، وإنما وجب هذا التقدير : لأن ﴿ الموعود ﴾ صفة لليوم ، ولا بد من أن يعود من الوصف إلى الموصوف ذكر .

﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ﴾ ﴿ النار ﴾ : مجرور على البدل من ﴿ الأخدود ﴾ بدل الاشتمال .

البلاغة :

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأنه يقول : لاجرم لهم إلا إيمانهم بالله ، وهذه مفخرة عظمى .

﴿ العزيز الحميد ﴾ صيغة مبالغة .

﴿ الموعود ﴾ ، ﴿ ومشهود ﴾ ، ﴿ الأخدود ﴾ ، ﴿ الوقود ﴾ سجع مرصع : وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ البروج ﴾ منازل الكواكب الاثني عشر ، وقيل : ﴿ البروج ﴾ : النجوم العظام ، جمع بُرْج : وهو الحصن ، أو القصر العالي ، أو منزل الكوكب ، سميت بروجاً لظهورها . والبروج على المعنى الأول اثنا عشر برجاً للكواكب السيارة ، تسير الشمس مثلاً في كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلث يوم ، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ، ويستتر ليلتين ، أي يخفى .

ستة من بروج الشمس شمال خط الاستواء ، وستة في جنوبه ، أما التي في شماله : فهي الْحَمَل والثور والْجَوْزاء والسَّرَطان والأسد والسُّنْبُلة . وأما التي في جنوبه : فهي الميزان والعَقْرَب والقَوْس والْجَدْي والدَّلْو والْحُوت . وتقطع الشمس الثلاثة الأولى الشمالية في ثلاثة أشهر هي فصل الربيع ، أولها ٢١ آذار (مارس) وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أخرى هي فصل الصيف ، أولها ٢١ حزيران (يونيو) وتقطع الثلاثة الأولى الجنوبية في ثلاثة أشهر هي فصل الخريف ، أولها ٢١ أيلول (سبتمبر) وتقطع الثلاثة الثانية الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضاً هي فصل الشتاء ، أولها ٢٢ من شهر كانون الأول (ديسمبر)[1].

وإذا كان القصد بالبروج الكواكب العظيمة فهي التي لايحصى عددها ، والتي هي ذات أبعاد هائلة عن الأرض ، فبعضها لا يصل ضؤوه إلى الأرض إلا بعد مليون ونصف سنة ضوئية ، علماً بأن الضوء يسير بسرعة ثلاث مئة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة ، ويصل إلى القمر في ثانية وثلث ، ويجري حول الكرة الأرضية في ثانية واحدة نحو ثمان مرات . والمريخ يبعد عن الأرض ٢٥٦ مليون ميل ، وقد أطلقت روسيا مكوكاً إلى المريخ في ١٩٨٨/٧/١٢ يصل إليه في منتصف عام ١٩٩٠ ، وأقسم الله بهذه الكواكب حيث نيط بها تغيرات في الأرض بحلول الكواكب فيها .

﴿ اليوم الموعود ﴾ يوم القيامة . ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ الشاهد في ذلك اليوم على غيره من الخلائق ، والمشهود عليه : مايشهد به الشهود على المجرمين من الجرائم التي فعلوها بالشهود أنفسهم كأصحاب الأخدود أو بغيرهم ، وهذا هو الأصح ، أو الأنبياء الشاهدين على أممهم ، أو مخلوقات الله الظاهرة التي هي عالم الشهادة ، الدالة على تمام القدرة الإلهية وعظم الحكمة ، وهي مشهودة أيضاً لكل ناظر إليها . وقال الأكثرون : الشاهد : يوم الجمعة فإنه يشهد بالعمل فيه ، والمشهود : يوم عرفة

---

(١) تفسير المراغي : ٣٠/٩٨

الذي تشهده الناس والملائكة . ﴿ قتل ﴾ لعن وهو جواب القسم بتقدير : لقد . ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ الشق المستطيل المحفور في الأرض ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود : قوم جبارون أحرقوا جماعة من المؤمنين في أخدود في نجران اليمن ، بعد أن أوقدوا فيه ناراً عظيمة ، ثم ألقوهم فيها . ﴿ النار ذات الوقود ﴾ أي الأخدود المشتمل على النار ذات الوقود أي ماتوقد به ، وهو وصف لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع به لهبها .

﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ قاعدون على حافة النار . ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي وهم حضور على تعذيب المؤمنين بالله ، بالإلقاء في النار ، إن لم يرجعوا عن إيمانهم ، ويشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم . ﴿ وما نقموا ﴾ أنكروا وعابوا . ﴿ العزيز ﴾ الغالب الذي يخشى عقابه ولا يغلب . ﴿ الحميد ﴾ المحمود على نعمه وعلى كل حال ، والذي يرجى ثوابه . ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء شهيد ﴾ شاهد عالم ، وهو للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد .

التفسير والبيان :

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ أي أقسم بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام ، وأشهر الأقوال أنها منازل الكواكب ، وهي اثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً . وهي التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً . أقسم الله بها تنويهاً بها وتعظيماً وتشريفاً لها ، حيث نيط بها تغيرات في الأرض بحلول الكواكب فيها ، فينشأ عنها الفصول الأربعة ، وما فيها من حرارة وبرودة ، وينشأ عنها عدد السنين والحساب .

وجاء ذكر البروج في آيتين أخريين هما : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ﴾ [الحجر ١٥/١٦] ، وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ [الفرقان ٢٥/٦١] .

﴿ واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ﴾ أي وأقسم بيوم القيامة الموعود به ، وبمن يشهد في ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه . وهذا إن كان ذلك مأخوذاً من الشهادة . فإن كان مأخوذاً من الحضور بمعنى أن الشاهد هو الحاضر ، كقوله :

﴿ عالمُ الغيب والشهادة ﴾ [الزمر ٤٦/٣٩] ، فالشاهد : الخلائق الحاضرون للحساب ، والمشهود عليه : اليوم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود ﴾ [هود ١٠٣/١١] فالله يقسم بالخلائق والعوالم الشاهد منها والمشهود ، لما في التأمل بها من تقدير عظمة تدل على الموجد .

والخلاصة : أن الشاهد والمشهود إما من الشهود : الحضور ، وإما من الشهادة ، والصلة محذوفة ، أي مشهود عليه أو به .

﴿ قتل أصحاب الأخدود . النارِ ذات الوقود ﴾ هذا جواب القسم ، وهو إخبار أو دعاء على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى ، أي لعن أصحاب الأخدود المشتمل على النار ذات الحطب الذي توقد به . وهم قوم من الكفار في نجران اليمن طلبوا من المؤمنين بالله عزّ وجلّ أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً (شقاً مستطيلاً) وأجّجوا فيه ناراً ، وأعدّوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها . وقد أشار سبحانه إلى عظم النار إشارة مجملة بقوله : ﴿ ذات الوقود ﴾ أي لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس .

﴿ إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي لعنوا حين أحدقوا بالنار ، قاعدين على الكراسي عند الأخدود ، وهؤلاء الذين حفروا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين ، من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم ، ويشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، حيث تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .

وهذا أي حضورهم الإحراق دليل على أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، تمكّن الكفر والباطل منهم ، وتجرّدوا عن الإنسانية ، وفقدوا الرحمة ، ودليل أيضاً

على أن المؤمنين كانوا أشد صلابة من الجبال في دينهم والإصرار على إيمانهم وحقهم في حرية الاعتقاد .

ثم ذكر الله تعالى سبب هذا التعذيب والإحراق بالنار ، فقال :

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء شهيد ﴾ أي إن هؤلاء الكفار الجبابرة ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، ولا عابوا على المؤمنين إلا أنهم صدقوا بالله الغالب الذي لا يغلب ، المحمود في كل حال ، وهو مالك السموات والأرض ، وإليه الأمر كله ، ومن كان بهذه الصفات ، فهو حقيق بأن يؤمَنْ به ويوحَّد ، والله شاهد عالم بما فعلوا بالمؤمنين ، لاتخفى عليه خافية ، ومجازيهم بأفعالهم . وأشار بقوله : ﴿ العزيز ﴾ إلى أنه لوشاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين ، ولأطفأ نيرانهم وأماتهم ، وأشار بقوله : ﴿ الحميد ﴾ إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها ، فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل ، فإنه سيثيب المؤمنين ، ويعاقب أولئك الكفرة .

وقوله : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد بالخير لمن عُذِّب من المؤمنين على دينه ، فصبر ولم يتراجع في موقف الشدة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب هل تَنْقِمُون منّا إلا أن آمنّا بالله ﴾ [المائدة ٥/٥٩] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله عزّ وجلّ بالسماء وبروجها وهي نجومها العظام أو منازل الكواكب ؛ لإناطة تغييرات في الأرض كالفصول الأربعة وبيوم القيامة الذي

وعدنا به ؛ لأنه يوم الفصل والجزاء ، وتفرد الله بالحكم والقضاء ، وبالشاهد والمشهود ، أي الخلائق والعوالم الشاهد منها والمشهود ؛ لما في التأمل بها من إدراك عظمة خالقها ، أقسم بها على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله .

قال الزمخشري : كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء ، إنهم ملعونون يعني كفار قريش ، كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم أحقاء بأن يقال فيهم : قتلت قريش ، أي لعنوا ، كما قتل أصحاب الأخدود[١] .

٢ ـ أسباب اللعنة على أصحاب الأخدود : أنهم حفروا أخدوداً أي شقاً مستطيلاً في الأرض وأوقدوا فيه ناراً عظيمة ، ثم ألقوا فيه جماعة المؤمنين ، بنجران اليمن في الفترة بين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وهم يتلذذون ويستمتعون بما تفعل النيران الملتهبة بأجساد هؤلاء المعذَّبين ، ويحضرون ذلك المنظر الرهيب إلى تمام الإحراق والالتهاب ، فهم قوم قساة ، مجدّون في التعذيب .

٣ ـ القصة درس وعظة وتذكير للمؤمنين بالصبر على ما يلاقونه من الأذى والآلام ، والمشقات التي يتعرضون لها في كل زمان ومكان ليتأسوا بصبر المؤمنين وتصلبهم في الحق وتمسكهم به ، وبذلهم أنفسهم من أجل إظهار دعوة الله .

وليس هذا بمنسوخ ، فإن الصبر على الأذى لمن قويت نفسه ، وصلب دينه أولى[٢] . قال الله تعالى مخبراً عن لقمان : ﴿ يابُنَيَّ أَقِمِ الصلاةَ ، وأْمُرْ بالمعروفِ ،

(١) الكشاف : ٣٢٦/٣

(٢) تفسير القرطبي : ٢٩٣/١٩

وانْـهَ عن المنكرِ ، واصبرْ على مـا أصـابَـك ، إن ذلـك من عَـزْم الأمـور ﴾ [لقمان ١٧/٣١] . وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « إن من أعظم الجهاد كلمةَ عدل عند سلطان جائر » .

ولقـد امتُحن كثير من أصحـاب النبي ﷺ بـالقتـل والصَّلْب والتعـذيب الشـديـد ، فصبروا ولم يلتفتـوا إلى شيء من ذلـك ، مثـل قصـة عـاصم وخُبيب وأصحابهما ، وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك .

٤ ـ ما أنكر الملك وأصحابه من الذين حَرَّقوهم إلا إيمانهم بالله العزيز الغالب المنيع ، الحميد المحمود على كل حال ، مالك السموات والأرض الذي لا شريك له فيها ولا نديد ، وهو عالم بأعمال خلقه ، لا تخفى عليه خافية .

عقاب الكفار وثواب المؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

البلاغة :

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات .. ﴾ و ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري .. ﴾ بينهما مقابلة .

المفردات اللغوية :

﴿ فتنوا ﴾ ابتلوا واختبروا ، والمراد هنا ابتلوهم بالأذى والإحراق . ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ بكفرهم وإحراقهم المؤمنين . ﴿ عذاب الحريق ﴾ هو عذاب جهنم ، وهو بيان وتفسير لما سبق . ﴿ الفوز الكبير ﴾ النجاح الأكبر الذي تصغر الدنيا وما فيها دونه .

المناسبة :

بعد بيان قصة أصحاب الأخدود وما فعلوه بالمؤمنين من الإحراق بالنار ، أتبع الله تعالى ذلك بأحكام الثواب والعقاب ، وأوضح ماأعد للكفار من عذاب جهنم ، وما أعد للمؤمنين من الثواب الجليل والتنعم بجنان الخلد .

التفسير والبيان :

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق ﴾ أي إن الذين أحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات بالله ورسله ، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم ، وأجبروهم إما على الإحراق أو الرجوع عن دينهم ، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم ، فلهم في الآخرة بسبب كفرهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الاحتراق بالنار ؛ لأن الجزاء من جنس العمل . وعذاب الحريق تأكيد لعذاب جهنم ، وقيل : إنهما مختلفان في الطبقة ، الأول ـ لكفرهم ، والثاني لأنهم فتنوا أهل الإيمان وأحرقوهم بالنار ، وهذا عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق . أو لَهُم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا ، لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم .

وقوله : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا إلى الله ، وندموا على مافعلوا ، غفر الله لهم . ولكن لم ينقل أن أحداً منهم تاب ، بل الظاهر أنهم لم يُلْعَنُوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر . قال الحسن البصري رحمه الله : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

ثم رغَّب الله تعالى وأرشد إلى ماأعدّ للمؤمنين من الثواب العظيم ، فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ذلك الفوز الكبير ﴾ أي إن الذين آمنوا وصدقوا بالله ربّاً واحداً لاشريك له ،

وبالرسل واليوم الآخر والملائكة والكتب الإلهية ، وعملوا صالح الأعمال باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومنهم الذين صبروا على نار الأخدود ، وثبتوا على دينهم ولم يرتدوا ، لهم بسبب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح جنات (بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، وذلك الثواب والنعيم المذكور هو الفوز أو الظفر الكبير الذي لا يَعْدِلُه فوز ، ولا يقاربه ولا يدانيه ، جزاء إيمانهم وطاعة ربهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيتان في الجملة على حكمين :

الأول ـ أن الذين حرّقوا المؤمنين بالنار ، من أصحاب الأخدود وغيرهم[1] ، ثم ماتوا على الكفر ، ولم يتوبوا من قبيح صنيعهم ، فلهم في الآخرة عذاب جهنم المخزي ؛ لكفرهم ، ولهم العذاب المحرق ؛ لإحراقهم المؤمنين بالنار . وعذاب جهنم وعذاب الحريق إما متلازمان ، والغرض من الثاني التأكيد ، وإما مختلفان في الدركة : الأول لكفرهم ، والثاني ؛ لأنهم فتنوا أهل الإيمان . وقيل : الأول في الآخرة ، والثاني في الدنيا ، أو أن الأول عذاب ببرد جهنم وزمهريرها ، والثاني عذاب بحرّها .

وفي هذا تصريح بأن التوبة تسقط أثر الذنب وترفع العقوبة ، والله يرغب دائماً بها .

الثاني ـ أن الذين آمنوا أي صدقوا بالله وبرسله ، وعملوا الصالحات المأمور بها وتركوا المنهي عنها ، لهم جنات (أي بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لَذّةٍ

---

(١) لأن اللفظ عام ، والحكم عام ، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل .

للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وذلك الفوز الساحق العظيم الذي لافوز يشبهه .

وإنما قال تعالى : ﴿ ذلك الفوز ﴾ ولم يقل « تلك » لأن ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات ، وقوله « تلك » إشارة إلى الجنات ، وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً ، و ﴿ الفوز الكبير ﴾ : هو رضا الله ، لاحصول الجنة ، فاللهم أرضنا وارض عنا يا كريم .

وقصة أصحاب الأخدود ، ولا سيما آية : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ تدل على أن المستكره على الكفر بالإهلاك الشديد ، الأولى به أن يصبر على ماخوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك ؛ روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ ، فقال لأحدهما : تشهد أني رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا ، بل أنت كذّاب ، فقتله ، فقال ﷺ : « أما الذي تَرك ، فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذي قُتل فأخذ بالفضل فهنيئاً له »[1] .

كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة السالفة

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

(١) تفسير الرازي : ١٢١/٣١ ـ ١٢٢

الإعراب :

﴿ ذو العرش المجيدُ ﴾ ﴿ المجيدُ ﴾ بالرفع صفة : ﴿ ذو ﴾ أو خبر بعد خبر ، وبالجر : إما وصف للعرش ، أو صفة : ﴿ ربّك ﴾ من قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربّك لشديد ﴾ وهذا أولى ؛ لأن ﴿ المجيد ﴾ من صفات الله .

﴿ فعّال لما يريد ﴾ ﴿ فعّال ﴾ : إما بدل من ﴿ ذو العرش ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو فعّال ، أو خبر بعد خبر .

﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ﴾ ﴿ فرعون وثمود ﴾ : في موضع جر على البدل من ﴿ الجنود ﴾ ، وقيل : في موضع نصب بتقدير أعني .

﴿ بل هو قرآن مجيد ، في لوحٍ محفوظٍ ﴾ ﴿ محفوظ ﴾ بالجر صفة ﴿ لوح ﴾ ، وبالرفع صفة ﴿ قرآن ﴾ .

البلاغة :

﴿ يبدئ ويعيد ﴾ بينهما طباق .

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ ؟ أسلوب التشويق لاستماع ما يأتي والاعتبار به .

﴿ لشديد ﴾ ، ﴿ الغفور ﴾ ، ﴿ الودود ﴾ ، ﴿ فعّال ﴾ إلخ : صيغ مبالغة .

المفردات اللغوية :

﴿ بطش ﴾ البطش : هو الأخذ بعنف وشدة ، فإذا وصف بالشدة كان نهاية ، والمراد بالآية : أنه تعالى مضاعف عنفه بالكفار بحسب إرادته . ﴿ يبدئ ويعيد ﴾ يبدئ الخلق ويعيده ، فلا يعجزه ما يريد . ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب من المذنبين . ﴿ الودود ﴾ المحب لمن أطاع . ﴿ ذو العرش ﴾ خالقه ومالكه وصاحبه . ﴿ المجيد ﴾ العظيم الجليل المتعالي ، المستحق لكل صفات العلو الكاملة ، أو العظيم في ذاته وصفاته ، فإنه واجب الوجود ، تام القدرة والحكمة . ومجده : علوه وعظمته . ﴿ فعّال لما يريد ﴾ لا يعجزه شيء ، ويفعل ما يريد .

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ هل بلغك يا محمد خبر الأقوام أو الجماعات الذين كذبوا الرسل وما حاق بهم ؟ وأصل معنى الجنود : العسكر أو الأعوان . والمقصود تسلية النبي ﷺ والصبر على تكذيب قومه ، وأمره بأن يحذرهم مثلما أصاب هؤلاء . ﴿ فرعون وثمود ﴾ المراد بفرعون : هو وجنوده ، أي هؤلاء هم الجنود : فرعون وأتباعه ، وقبيلة ثمود من العرب البائدة ، قوم صالح عليه السلام ، أهلكهم الله بكفرهم . وهذا تنبيه لمن كفر بالنبي ﷺ والقرآن ليتعظوا .

﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ لما حدث من إهلاك الأقوام ، فلا يرعوون عن تكذيبهم ، ومعنى الجملة والإضراب : أن حال كفار قريش أعجب من الأمم السابقة ، فإنهم سمعوا قصتهم ، ورأوا آثار هلاكهم ، وكذبوا أشد من تكذيبهم . ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ لايفوتونه ، ولا عاصم لهم منه ، فهم في قبضته وحوزته . ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ عظيم معظم ، والمعنى : بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف ، وحيد في النظم والمعنى . ﴿ في لوح محفوظ ﴾ من الزيادة والنقص ، والتغيير والتحريف .

المناسبة :

بعد بيان وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجزاء كل فريق ، أكّد الله تعالى الوعد والوعيد بما يدل على تمام قدرته على ذلك . ثم بيّن أن حال الكفار في كل عصر ، مع الأنبياء ، شبيه بحال أصحاب الأخدود ، في إلحاق أذى الكفار بالمؤمنين ، فهم دائماً في صراع معهم وعداوة وإيذاء . والقصد من هذا كله ترهيب الكفار ، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم ، وشدّ عزائمهم بالصبر ، وتطمينهم بأن كفار قريش سيلقون مثلما أصاب الأقوام السابقة : فرعون وأتباعه وثمود .

التفسير والبيان :

﴿ إن بطش ربّك لشديد ﴾ أي إن جزاء ربك وانتقامه من الجبابرة والظلمة ، ومن أعدائه الذين كذبوا رسله ، وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوي ، مضاعف إذا أراد ، فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذي ماشاء كان ، ويكون ما يريد مثل لمح البصر أو هو أقرب . وفي هذا تأكيد للوعيد ، وإرهاب لكفار قريش وأمثالهم .

ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله :

﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ أي إنه تعالى تام القدرة ، فهو الذي يبدأ الخلق ويخلقهم أولاً في الدنيا ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت . أو هو الذي يبدأ البطش

ويعيده ، أي يبطش بالجبابرة في الدنيا والآخرة . وفيه وعيد للكفرة بأنه يعيدهم ليبطش بهم ؛ إذ كفروا بنعمة الإبداء إبداء الخلق ، وكذبوا بالإعادة .

ثم أكّد الله تعالى الوعد بإيراد خمس صفات لجلاله وكبريائه وهي :

١ ـ ٢ : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي والله سبحانه بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين إذا تابوا وأنابوا إليه ، يغفر ذنب من تاب إليه ، وخضع لديه ، مهما كان الذنب كبيراً أو صغيراً ، وهو تعالى بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه ، بليغ الوداد ، والمراد به : إيصال الثواب لأهل طاعته على الوجه الأتم ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ يحبّهم ﴾ [المائدة ٥٤/٥] ، أو هو بمعنى مفعول فيكون كقوله : ﴿ ويحبونه ﴾ [المائدة ٥٤/٥] .

٣ ـ ٤ : ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ أي هو تعالى ربّ العرش العظيم العالي على جميع الخلائق ، وصاحب الملك والسلطان ، والعظيم الجليل المتعالي ، صاحب النهاية في الكرم والفضل ، وبالغ السمو والعلو .

٥ ـ ﴿ فعّال لما يريد ﴾ أي صاحب القدرة المطلقة على فعل ما يريد ، فمهما أراد فعل شيء ، لا معقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره ، وحكمته وعدله . فإذا أراد إهلاك الظالمين الجاحدين ، ونصر المؤمنين الصادقين ، فعل دون أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يصرفه عنه صارف .

ثم ذكّر الله تعالى الكفار وغيرهم ، وسلّى نبيه ﷺ بقصة فرعون وثمود من متأخري الكفار ومتقدميهم ، فقال :

﴿ هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ﴾ أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ، والتي جندت جنودها لقتالهم ؟ أو هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة بسبب تماديهم في الكفر

والضلال ؟ ومن هؤلاء الجنود وأشهر حديثهم وخبرهم المتعارف : فرعون وجنوده ، وقبيلة ثمود من العرب البائدة قوم صالح عليه السلام . والمراد بحديثهم : ماوقع منهم من الكفر والعناد ، وما حلّ بهم من العذاب . والمراد بفرعون : هو وجنوده . أما فرعون وأتباعهم فأغرقهم الله في اليمّ : البحر الأحمر ، وأما ثمود الذين عقروا ناقة نبيهم صالح ، فدمّر الله بلادهم وأهلكهم بالطاغية أي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة .

ثم أشار الله تعالى إلى أن هذا شأن الكفار وصنيعهم في كل زمان ، فقال : ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أي فالواقع القائم أن هؤلاء المشركين العرب في تكذيب شديد لك أيها النبي ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار .

وفي هذا إضراب عن التذكير بقصة الجنود إلى التصريح بتكذيب كفار قريش .

وبعد تطييب قلب الرسول ﷺ بحكاية أحوال الأولين وموقفهم من الأنبياء ، سلاّه بعد ذلك من وجه آخر ، فقال :

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ماأنزل بأولئك ، قاهر الجبارين لا يفوتونه ولا يعجزونه ، فهو مقتدر عليهم ، وهم في قبضته لا يجدون عنها مهرباً . وهذا دليل على أنه تعالى عالم بهم فيجازيهم ، وعلى أنه لاداعي للجزع من تكذيبهم وإصرارهم على الكفر وعنادهم .

ثم ردَّ على تكذيبهم بالقرآن ، فقال :

﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ أي إن هذا القرآن الذي كذبوا به شريف الرتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز ، متناهٍ في الشرف والكرم والبركة ، وليس هو كما يقولون : إنه شعر وكهانة وسحر . وإنما هو كلام الله

المصون عن التغيير والتحريف ، المكتوب في اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنه لقرآنٌ كريمٌ ، في كتابٍ مكنون ﴾ [الواقعة ٧٧/٥٦ ـ ٧٨] . أي أن الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحد .

قال بعض المتكلمين : اللوح شيء يلوح للملائكة ، فيقرؤونه ، وأمثال هذه الحقائق مما يجب به التصديق سمعاً ، أي أن اللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به ، فيجب علينا الإيمان به كما أخبر الله ، وإن لم نعرف حقيقته .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن عقاب الله وانتقامه ، وأخذه الجبابرة والظلمة لشديد قوي ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ وكذلك أخْذُ ربّك إذا أخَذَ القُرى ، وهي ظالمةٌ ، إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود ١٠٢/١١] .

٢ ـ إن الله تعالى بدأ خلق الناس أولاً في الدنيا ، ثم يعيدهم عند البعث .

٣ ـ لله تعالى صفات عليا لا تتحقق في غيره ، فهو الغفور الستور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، الودود المحب لأوليائه ، صاحب العرش الأعظم من كل المخلوقات ، وصاحب الملك والسلطان المطلق ، المجيد البالغ النهاية في الكرم والفضل ، السامي القدر المتناهي في علوه ، الفعال لما يريد ، أي لا يمتنع عليه شيء يريده . قال القفال : فعّال لما يريد على ما يراه ، لا يعترض عليه معترض ، ولا يغلبه غالب ، فهو يدخل أولياءه الجنة ، لا يمنعه منه مانع ، ويدخل أعداءه النار ، لا ينصرهم منه ناصر ، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم ، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء ، ويعذب من شاء منهم في الدنيا وفي الآخرة ، يفعل من هذه الأشياء ومن غيرها ما يريد[1] .

(١) تفسير الرازي ١٢٣/٣١ ـ ١٢٤

٤ ـ قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ، وهذا إيناس له وتسلية ، والجموع : فرعون وأتباعه وثمود ، وذكرا لأن حديثهما مشهور معروف من طريق اليهود في المدينة وغيرهم ، فإن ثمود في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة ، وإن كانوا من المتقدمين ، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك ؛ فدلّ الله بهما على أمثالهما في الهلاك .

والواقع أن كفار قريش في تكذيب لرسول الله ﷺ ، كدأب من قبلهم .

٥ ـ الله يقدر على أن ينزل بكفار مكة في الدنيا ما أنزل بفرعون ، والله عالم بهم ، فهو يجازيهم في الآخرة .

٦ ـ ليس القرآن كما زعم المشركون أنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو كتاب متناه في الشرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما يحتاج إليه الناس من أحكام الدين والدنيا . وهو مكتوب عند الله في لوح ، ومحفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قال ابن عباس : أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ : « إني أنا الله ، لاإله إلا أنا ، محمد رسولي ، من استسلم لقضائي ، وصبر على بلائي ، وشكر نعمائي ، كتبته صدّيقاً وبعثته مع الصدّيقين ، ومن لم يستسلم لقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، فليتخذ إلهاً سواي »[1] .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٨/١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

مكيّة ، وهي سبع عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ الطارق ﴾ تسمية لها بما أقسم الله به في مطلعها بقوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾ ﴿ والطارق ﴾ : هو النجم الثاقب الذي يطلع ليلاً ، سمي طارقاً ؛ لأنه يظهر بالليل ويختفي بالنهار . وكذلك الطارق : هو الذي يجيء ليلاً .

مناسبتها لما قبلها :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

السورة مرتبطة بما قبلها من ناحيتين :

١ ـ ابتداء السورتين بالحلف بالسماء كسورتي (الانشقاق) و (الانفطار) .

٢ ـ التشابه في الكلام عن البعث والمعاد وعن صفة القرآن للردّ على المشركين المكذّبين به وبالبعث ، ففي سورة ﴿ البروج ﴾ : ﴿ إنه هو يُبْدئ ويُعيدُ ﴾ [١٣] ، وفي هذه السورة : ﴿ إنه على رَجْعِه لقادرٌ ﴾ [٨] ، وفي السورة السابقة : ﴿ بل هو قرآنٌ مجيدٌ ، في لوحٍ محفوظٍ ﴾ [٢١ ـ ٢٢] ، وفي هذه السورة : ﴿ إنّه لقولٌ فَصْلٌ ﴾ [١٣] .

ما اشتملت عليه السورة :

إن محور هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية الكلام عن الإيمان

بالبعث والمعاد والحساب والجزاء ، وإثباته بخلق الإنسان من العدم ؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بعد الموت .

وقد افتتحت السورة بالقسم بالسماء وبالكواكب المضيئة ليلاً على أن كل إنسان محفوظ بالملائكة الأبرار : ﴿ والسماء والطارق .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٤] .

ثم أقام الله تعالى الدليل على إمكان البعث وقدرته عليه بعد الموت والفناء بخلق الإنسان أول مرة من تراب ثم من نطفة : ﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خلق .. ﴾ [الآيات : ٥ ـ ٨] .

وأعقبت السورة ذلك ببيان كشف الأسرار في الآخرة على نحو كامل تام ، في حالة كون الإنسان بين يدي العدالة الإلهية دون أن يكون له قوة ولا نصير : ﴿ يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [٩ ـ ١٠] .

وختمت السورة بالقسم الإلهي بالسماء والأرض على صدق القرآن وأنه القول الحكم الفصل بين الحق والباطل ، وعلى تهديد الكفار المكذبين به ووعيدهم : ﴿ والسماء ذات الرجع .. ﴾ [١١ ـ ١٧] .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد عن خالد بن أبي حبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف ، وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر ، فسمعته يقول : ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها ، قال : فوعيتها في الجاهلية ، وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الإسلام ، قال : فدعتني ثقيف ، فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه .

وأخرج النسائي عن جابر بن عبد الله قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة

والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفتّان أنت يامعاذ ! ما كان يكفيك أن تقرأ بـ ﴿ السماء والطارق ﴾ ، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ونحوها ؟ » .

القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها وإثبات إمكان البعث

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ وما أدراك ﴾ جملة ﴿ أدراك ﴾ خبر ﴿ ما ﴾ . ﴿ ماالطارق ﴾ مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدرى .

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ ﴿ لما ﴾ بالتخفيف ، فتكون ﴿ ما ﴾ زائدة ، و﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ، أي إنه ، واللام فارقة ، أي إن كل نفس لعليها حافظ . وبالتشديد ، فتكون ﴿ إن ﴾ بمعنى « ما » النافية ، و﴿ لمّا ﴾ بمعنى « إلا » مثل : نشدتك الله لمّا فعلت ، أي إلا فعلت ، وتقديره : ماكل نفس إلا عليها حافظ .

﴿ إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ﴾ الهاء في ﴿ إنه ﴾ إما أن تعود على الماء ، أي على رجع الماء إلى موضعه من الصلب لقادر ، وحينئذٍ ينصب ﴿ يوم ﴾ بتقدير : اذكر ؛ لأن رد الماء لا يكون في الآخرة ، وإما أن تعود على الإنسان ، أي على بعثه لقادر ، وهوالظاهر ، و﴿ يوم ﴾ ظرف ، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿ رجعه ﴾ لأن يؤدي إلى الفصل بين الصلة والموصول بخبر إن ، وهو قوله ﴿ لقادر ﴾ . وإنما يتعلق بفعل دلّ عليه قوله : ﴿ رجعه ﴾ أي يرجعه يوم تبلى السرائر ، أو يتعلق بقوله : ﴿ لقادر ﴾ والوجه الأول أوجه ؛ لأن الله قادر في جميع الأوقات ، فأي فائدة في تعيين هذا الوقت ؟

البلاغة :

﴿ وما أدراك ماالطارق ؟ ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم ورفعة الشأن .

﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ كناية ، كنى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة .

المفردات اللغوية :

﴿ والسماء ﴾ كل ماعلاك فأظلك . ﴿ والطارق ﴾ النجم الطالع ليلاً ، وأصله عرفاً : كل آتٍ ليلاً ، أو الذي يجيئك ليلاً ، ثم استعمل للبادي فيه ، وأطلق على النجوم لطلوعها ليلاً . ﴿ وما أدراك ﴾ وما أعلمك ؟ وفيه تعظيم لشأن الطارق . ﴿ النجم الثاقب ﴾ المضيء ، كأنه يثقب الظلام بضوئه ، فينفذ فيه ، والمراد به كل نجم ، أو الثريا . ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ أي ماكل نفس إلا عليها حافظ ، أو إن الشأن كل نفس لعليها ، إذا جعلت ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة ، و ﴿ حافظ ﴾ : رقيب وهو الله أو الملائكة تحفظ عملها من خير وشرّ . والجملة على الوجهين جواب القسم ، والمراد بالقراءتين واحد .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ فلينظر نظر اعتبار واتعاظ وتأمل من أي شيء خلق ؛ لأن وجود الحافظ يستدعي النظر إلى المبدأ ليعلم صحة قضية إعادته بالبعث ، فلا يلي على حافظه إلا مايسرّه في عاقبته . ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ أي ماء مدفوق منصب بدفع وسرعة سواء من الرجل والمرأة في رحمها ، والمراد : الممتزج من الماءين في الرحم ، بدليل ما يأتي : ﴿ الصلب والترائب ﴾ ، والجملة جواب الاستفهام في قوله : ﴿ مم خلق ﴾ . ﴿ الصلب ﴾ أي من النخاع الشوكي في ظهر الرجل ، ثم ينصب إلى عروق في البيضتين . ﴿ والترائب ﴾ عظام صدر المرأة ، جمع تريبة ، مثل فصيلة وفصائل ، والمراد : من الماء المتكون من الدم في العروق والشعب النازلة إلى الترائب ، ويعتبر الصلب والترائب أقرب أوعية المني ، فلذلك خصّا بالذّكر .

﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ أي إن الله تعالى على بعث الإنسان بعد موته لقدير ، فإذا تأمل الإنسان في أصله ، علم أن القادر على خلقه ابتداء ، قادر على بعثه . ﴿ تُبلى ﴾ تختبر وتكشف ، والمراد : تظهر السرائر وتعرف المكنونات ويميز بين ماطاب من الضمائر وما خفي من الأعمال ، وما خبث منها . ﴿ السرائر ﴾ ضمائر القلوب وما يسرّ فيها من العقائد والنيات وما خفي من الأعمال ، جمع سريرة . ﴿ فماله ﴾ مالمنكر البعث وهو الإنسان الكافر . ﴿ من قوة ﴾ يمتنع بها من العذاب . ﴿ ولا ناصر ﴾ ينصره ويدفع عنه السوء .

سبب النزول :

نزول الآية (٥) :

﴿ فلينظر ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ فلينظر الإنسان مِمَّ خُلق ﴾ قال : نزلت في أبي الأشد بن كَلَدة الْجُمَحي ، كان يقوم على الأديم (الجلد) ، فيقول : يامعشر قريش : من أزالني عنه فله كذا ، ويقول : إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر ، فأنا أكفيكم وحدي عشرة ، واكفوني أنتم تسعة .

التفسير والبيان :

﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ماالطارق ؟ النجم الثاقب ﴾ أي قسماً بالسماء البديعة ، والكوكب النير البادي ليلاً ، وما أعلمك ماحقيقته ؟ إنه النجم المضيء الشديد الإضاءة ، كأنه يخرق بشدة ضوئه ظلمة الليل البهيم .

والحلف بالسماء والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار التي أكثر الله تعالى في كتابه الحلف بها ؛ لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ، وفيها دلالة على أن لها خالقاً مدبراً ينظم أمرها . وقوله : ﴿ وما أدراك ماالطارق ؟ ﴾ يراد به التهويل والتفخيم ، كأن هذا النجم البعيد في آفاق السموات لا يمكن لبشر إدراكه ومعرفة حقيقته ، قال سفيان بن عيينة : كل شيء في القرآن : ﴿ ماأدراك ﴾ فقد أخبر الله الرسول به ، وكل شيء فيه ﴿ مايدريك ﴾ لم يخبره به ، كقوله : ﴿ وما يُدْريك لعلَّ الساعة قريبٌ ﴾ [الشورى ١٧/٤٢] .

والطارق : اسم جنس ، وسمي طارقاً ؛ لأنه يطرق بالليل ، ويخفى بالنهار ، وكل ماأتاك ليلاً فهو طارق .

وفسّره بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي هو طارق عظيم الشأن ، رفيع القدر ، وهو الذي يضيء ظلمة الليل ، ويهتدى به في ظلمات البر والبحر ، وتعرف به أوقات الأمطار وغيرها من أحوال المعايش ، وهو الثريا عند الجمهور ، وقال الحسن وقتادة وغيرهما : هو عام في سائر النجوم ؛ لأن طلوعها بليل ، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق . والظاهر أن المراد جنس النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر .

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح : نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله طروقاً ، أي يأتيهم فجأة بالليل . وفي حديث آخر مشتمل على الدعاء : « أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » .

ثم ذكر الله تعالى المقسم عليه أو جواب القسم بقوله :

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ أي قسماً بالسماء وبالنجم الثاقب ، ما كل نفس إلا عليها من الله حافظ ، يحرسها من الآفات ، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ ، كما قال تعالى : ﴿ له مُعقّباتٌ من بين يديه ومن خَلْفه ، يحفظونه من أمر الله ﴾ [الرعد ١١/١٣] . والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ ، وحفظ الملائكة : من حفظه ؛ لأنه بأمره .

ولم تبين الآية من هو الحافظ ، فقال بعض المفسرين : إن ذلك الحافظ هو الله تعالى ، وقال آخرون : إن ذلك الحافظ هم الملائكة ، كما قال : ﴿ ويُرسلُ عليكم حَفَظَةً ﴾ [الأنعام ٦١/٦] ، وقال : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين ، كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار ١٠/٨٢ ـ ١١] ، وقال : ﴿ عن اليمينِ وعن الشّمال قعيدٌ ، ما يلفِظُ مِنْ قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ﴾ [قّ ١٧/٥٠ ـ ١٨] ، وقال : ﴿ له معقّباتٌ .. ﴾ الآية المتقدمة . قال أبو أمامة : قال النبي ﷺ : « وُكّل بالمؤمن

مئة وستون مَلَكاً يَذُبُّون عنه مالم يُقْدَر عليه ، من ذلك البصر ، سبعة أملاك يذبون عنه ، كما يُذَبُّ عن قَصْعة العسل الذباب ، ولو وكِّل العبد إلى نفسه طرفة عين ، لاختطفته الشياطين » .

ثم نبَّه الإنسان إلى مبدأ الخلق ليكون ذلك دليلاً على إمكان المعاد ، فقال :

﴿ فلينظر الإنسان مِمَّ خُلق ، خُلِق من ماءٍ دافقٍ ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أي فعلى الإنسان أن يتفكر في كيفية بدء خلقه ، ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث ، إنه خلق من ماء مدفوق مصبوب في الرحم ، وهو ماء الرجل وماء المرأة ، وقد جعلا ماءً واحداً لامتزاجهما ، وإنه ماء يخرج من ظهر الرجل في النخاع الشوكي الآتي من الدماغ ، ومن بين ترائب المرأة ، أي عظام صدرها أو موضع القلادة من الصدر ، والولد يتكون من اجتماع الماءين ، ثم يستقر الماء المختلط في الرحم ، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمًّى ﴾ [الحج ٢٢/٥٠] .

ومعنى خروجه من بين الصلب والترائب : أن أكثره ينفصل من هذين الموضعين لإحاطتهما بسور البدن ، والماء في الحقيقة يشترك في تكوينه جميع أجزاء البدن ، ويتبلور في الخُصية والمبيض في بدء التكوين ، وكلاهما يجاور الكُلى ، ويقع بين الصلب ، والترائب ، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع ، وكل ذلك آثار عضوية مولدة من الدماغ ، والنخاع قناة الدماغ ، وهو في الصلب ، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن ، وهو الترائب جمع تريبة .

وبعد السؤال والجواب عنه لمعرفة المبدأ الذي هو مقدمة لمعرفة المعاد ، والذي ناسب أن يبدأ الله به ، ذكر تعالى النتيجة المترتبة على ذلك وهي بيان القدرة على الإعادة ، فقال :

﴿ إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ﴾ أي إن الله تعالى على رجع الإنسان ، أي إعادته بالبعث بعد الموت لقادر ؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة ، وقد ذكر تعالى هذا الدليل في مواضع متعددة في القرآن الكريم . وقيل : إنه تعالى على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك . والراجح القول الأول بدليل قوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ .

ويرجعه يوم القيامة يوم تختبر وتعرف السرائر ، أي ما يسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها . وحقيقة البلاء في حقه تعالى ترجع إلى الكشف والإظهار ، كقوله : ﴿ ونَبْلُوَ أخبارَكم ﴾ [محمد ٣١/٤٧] .

وكيفية دلالة المبدأ على المعاد : أن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين ، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً سوياً ، فإنه بعد موته وتفرق أجزائه ، لابدّ وأن يقدر على جمع تلك الأجزاء ، وجعلها خلقاً سوياً[1] .

﴿ فماله من قوة ولا ناصر ﴾ أي فما للإنسان حين بعثه من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله ، ولا ناصر ينصره ، فينقذه مما نزل به ، أي فلا قوة ذاتية له ، ولا قوة من غيره ، لينقذ نفسه من عذاب الله ، فهذا نفي للقوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله تعالى بالسماء وبالكواكب المنيرة المضيئة على أن لكل نفس حفظة يحفظون عليها رزقها وعملها وأجلها .

---

(١) تفسير الرازي : ١٣٠/٣١

وقد أكثر سبحانه في كتابه الكريم الإقسام بالسموات ؛ لأن أحوالها في مطالعها ومغاربها ومسيراتها عجيبة .

٢ ـ الدليل على إمكان البعث والمعاد هو بدء الخلق للإنسان . ووجه الاتصال أو التعلق بين هذا وبين ماقبله : أن الله تعالى حين ذكر أن على كل نفس حافظاً ، أتبعه بوصيته للإنسان بالنظر في أول أمره وسنته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملي على حافظه إلا ما يسرّه في عاقبة أمره .

٣ ـ خلق الله الإنسان ابن آدم من المني المدفوق ، مني الرجل والمرأة المجتمعين ، والذي يستقر في رحم المرأة ، ولا شك أن الصب فعل الشخص ، والفاعل الحقيقي هو الله ، فيكون ذلك من الإسناد المجازي الظاهري .

وتكوّن المني من عملية مشتركة تشترك فيها جميع أجزاء الإنسان ، وقد عبّر تعالى عن الكل بالأكثر الذي يحسّ به الشخص عادة وهو خروج الماء من بين الصلب أي الظهر ، والترائب أي الصدر ، جمع تَرِيبة : وهي موضع القلادة من الصدر . والصلب من الرجل ، والترائب من المرأة .

٤ ـ إذا كان الخالق الحقيقي للإنسان أولاً هو الله تعالى ، فإن الله جلّ ثناؤه قادر على إعادته وبعثه مرة أخرى بعد الموت ، في يوم القيامة ، وفي اليوم الذي تنكشف فيه السرائر وتبدو وتظهر ، ويصبح السرّ علانية ، والمكنون مشهوراً . والسرائر : كل ماأسرّ في القلوب من العقائد والنيات ، وما أخفي من الأعمال الحسنة أو القبيحة . واختبار هذه السرائر معناه الكشف والإظهار وترجيح الاتجاه الراجح من الأفعال وتمييز المرجوح ، فتنجلي الحقائق ، ويعرف الصحيح من الفاسد ، والحق من الباطل .

٥ ـ نفى الله سبحانه وجود القوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن

الإنسان يومئذٍ ، بقوله : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ . والآية دليل على أنه لاقوة للعبد ذلك اليوم ، لامن نفسه ولا من غيره ، ولا شك في أن نفي القوة زجر وتحذير ، ويتجه أولاً إلى أصحاب القوة والنفوذ في الدنيا الذين يعتمدون على الأعوان والأنصار ، وهناك يوم القيامة يفقدون كل شيء .

القسم على صدق القرآن والرسالة وتهديد الكائدين لهما

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

الإعراب :

﴿ رويداً ﴾ مصدر مؤكد لمعنى العامل ، مصغر رَوْد أو إرواد على الترخيم .

البلاغة :

﴿ السماء ﴾ و﴿ الأرض ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين (الفصل .. والهزل) .

﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ﴾ سجع رصين يزيد في جمال الأسلوب ، ومثله ﴿ إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ﴾ .

﴿ يكيدون كيداً ﴾ جناس اشتقاق .

﴿ فمهل الكافرين ، أمهلهم رويداً ﴾ إطناب بتكرار الفعل مرة أخرى ، مبالغة في الوعيد .

المفردات اللغوية :

﴿ ذات الرجع ﴾ الرجع : إعادة الشيء إلى ماكان فيه أولاً ، والمراد به هنا المطر : لأنه يعود إلى الأرض من السماء . ﴿ ذات الصَّدْع ﴾ الشَّق عن النبات والعيون وغيرهما من كنوز الأرض . ﴿ إنه ﴾ القرآن . ﴿ لقول فصل ﴾ يفصل بين الحق والباطل ، وبين الحلال والحرام . ﴿ وما هو بالهزل ﴾ باللعب والباطل ، فإنه جِدٌّ كلُّه .

﴿ إنهم ﴾ الكفار من أهل مكة وأمثالهم . ﴿ يكيدون كيداً ﴾ يدبرون ويعملون المكايد

لإطفاء نور الإسلام ، وإبطال أمر النبي ﷺ . ﴿ وأكيد كيداً ﴾ أقابلهم بما يعلي أمره ، وأدبّر أمراً خفياً لهم ، وأستدرجهم للانتقام منهم بحيث لايحتسبون ولا يعلمون . وليس المقصود بالكيد إذا أسند إلى الله على حقيقته ؛ لأن الله تعالى ليس بحاجة إليه ، وإنما المراد به جزاء العمل ، من قبيل المشاكلة والمشابهة للجرم المرتكب . ﴿ فمهّل ﴾ أنظِرهم أو أعطهم مهلة يا محمد ، فلا تشتغل بالانتقام منهم ، أو لاتستعجل بإهلاكهم . ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ أمهلهم إمهالاً يسيراً ، أو قليلاً أو قريباً ، وتكرار الفعل وتغيير بنيته للمبالغة في الوعيد . وقد أخذهم الله تعالى ببدر ، وفتح مكة ، وتطهرت الجزيرة العربية من رجس الوثنية .

المناسبة :

بعد إثبات توحيد الله وقدرته على خلق الإنسان أولاً ، وإعادته بالبعث والمعاد ، أقسم الله قسماً آخر على صحة نزول القرآن من عند الله مشتملاً على القول الفصل ، وصحة رسالة النبي الكريم الذي نزل عليه الوحي القرآني ، ثم أردفه بوعيد المفترين على القرآن والكائدين للرسول ﷺ ، ووعد هذا النبي وكل داع إلى الحق بالفوز والغلبة على الأعداء .

التفسير والبيان :

﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ أي قسماً آخر بالسماء ذات المطر الذي يجيء ويرجع ويتكرر من السماء ، فيحيي الأرض بعد موتها ، وينبت النبات ، والأرض ذات الصدع : وهو ماتتصدع وتنشق عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والمعدن والكنز والثروة النفطية والمائية ، كما قال تعالى : ﴿ ثم شَقَقْنا الأرض شَقّاً .. ﴾ الآية [عبس ٨٠/٢٦ـ٣٢] قسماً بالسماء والأرض ، إن القرآن الكريم لقول حق لا ريب فيه ، يفصل بين الحق والباطل ، ولم ينزل باللعب واللهو ، فهو جِدٌّ حقٌّ ليس بالهزل ، ولا بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، تنزيل من حكيم حميد . فقوله : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ جواب القسم . وسمي المطر رجعاً من ترجيع الصوت وهو

إعادته ، لكونه عائداً مرة بعد أخرى ، ولأنه ينشأ من تبخر بحار الأرض ثم يعود إلى الأرض .

أخرج الترمذي والدارمي عن علي كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحَكَم مابينكم ، هو الفَصْل ليس بالهزل ، من تركه من جَبّار قَصَمَه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وهو الذِّكْر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلَق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن لَمّا سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سَمِعنا قرآناً عَجَباً ، يَهْدِي إلى الرشد ﴾ [الجن ٧٢/١ـ٢] ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم » .

ثم أوعد الله تعالى المكذبين بالقرآن الكائدين للمؤمنين بقوله :

﴿ إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ﴾ أي إن الكفار زعماء مكة وأمثالهم يدبرون المكائد للنبي ﷺ لإبطال ماجاء به من الدين الحق ، وللصد عن سبيل الله وعن القرآن ، بالقول بأن القرآن أساطير الأولين ، وبأن محمداً ساحر أو مجنون أو شاعر ، ويتآمرون على قتله ، كما أخبر تعالى بقوله : ﴿ وإذ يمكُرُ بك الذين كفَرُوا ليُثْبِتُوك أو يَقْتلوك أو يخرجوك ﴾ [الأنفال ٨/٣٠] .

ولكني أدبر لهم تدبيراً آخر ، فأستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم . وقد سمى جزاء الكيد بالاستدراج والإمهال المؤدي إلى زيادة الإثم الموجبة لشدة العذاب كيداً .

ثم وعد رسوله بالنصر عليهم ، وأمره بالصبر والتمهل ، فقال :

﴿ فمهل الكافرين ، أمهلهم رويداً ﴾ أي أخّرهم وأنظرهم ، ولا تَدْعُ بهلاكهم ، ولا تستعجل به ، وارض بما يدبره الله لك في أمورهم .

ثم كرر ذلك المعنى للمبالغة ، فقال : أمهلهم إمهالاً يسيراً قليلاً ، أو قريباً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال ، والعقوبة والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعهم قليلاً ، ثم نضْطَرهم إلى عَذابٍ غليظٍ ﴾ [لقمان ٢٤/٣١] .

وهذا وعيد شديد ، تحقق يوم بدر ، ويعقبه عذاب يوم القيامة ، وفيه تحذير عن مثل سيرتهم ، وترغيب في خلاف طريقتهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أقسم الله تعالى بالسماء (السحاب) ذات الأمطار النافعة ، والأرض ذات الشقوق والصدوع التي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار على أن القرآن يفصل بين الحق والباطل ، وأنه جِدٌّ حق ليس بالهزل ، أي اللعب والباطل ، وأنه منزل من عند الله تعالى ، وأن محمداً رسول الله ﷺ .

٢ ـ أخبر الله تعالى أن أعداء الله يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكراً ، ويدبرون لهم مكائد إما بالقتل ، أو بتوجيه التهم كالطعن بكون محمد ﷺ ساحراً وشاعراً ومجنوناً ، أو بوصف القرآن بأنه أساطير الأولين .

٣ ـ يجازي الله أولئك الأعداء على كيدهم إما في الدنيا بالاستدراج إلى المعاصي والمنكرات من حيث لا يعلمون ، وإما في الآخرة بإعداد العذاب الأليم المهين لهم . ويدفع الله تعالى في الدنيا أيضاً كيد الكفرة عن محمد ﷺ ، وينصره ويعلي دينه .

والكيد في حق الله تعالى محمول على هذا الجزاء المذكور ، تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وجَزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] وقوله : ﴿ نَسُوا الله ، فأنساهم أنفسَهم ﴾ [الحشر ١٩/٥٩] وقوله : ﴿ يُخادِعون اللهَ وهو خادِعُهم ﴾ [النساء ١٤٢/٤] .

٤ ـ اقتضت الحكمة الإلهية الرفق والتأني بأعداء الإسلام ، فأمر الله نبيه بألا يدعو عليهم ، ولا يتعجل إهلاكهم ، وأن يرضى بما دبره الله في أمورهم ، وأن ينتظر حتى يحل العقاب بهم ، فإنهم في المستقبل القريب مهزومون مخذولون ، ويتحقق في النهاية النصر للنبي ﷺ وصحبه . ويظل عذاب القيامة محفوظاً لهم ، وكل ماهو آت قريب .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى

مكيّة ، وهي تسع عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة الأعلى ، لافتتاحها بقول الله تعالى : ﴿ سبّحْ اسم ربِّك الأعلى ﴾ أي نزّه الله عز وجل عن كل نقص ، وصفْه بكل صفات التمجيد والتعظيم ؛ لأنه العلي الأعلى من كل شيء في الوجود . وتسمى أيضاً سورة ﴿ سبِّح ﴾ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في أن سورة ﴿ الطارق ﴾ ذكرت خلق الإنسان في قوله تعالى : ﴿ خُلِق من ماءٍ دافقٍ ﴾ [٦] وبدء خلق النبات في قوله : ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصَّدْع ﴾ [١١ ـ ١٢] .

وهذه السورة تحدثت بما هو أعم وأشمل من خلق الإنسان وغيره : ﴿ خَلَق فسوّى ﴾ [٢] وخلق النبات في قوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ، فجعَله غُثاءً أحوى ﴾ [٤ ـ ٥] .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة المكية الحديث عن توحيد الله وقدرته ، والقرآن وتيسير حفظه ، والأخلاق الكريمة بتهذيب النفس الإنسانية . وقد افتتحت

بالأمر بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، ووصفه بصفات التعظيم والتمجيد ، لخلقه المخلوقات وإتقان الخلق وتناسبه ، وإخراجه الأعشاب والنباتات : ﴿ سبِّحْ اسم ربِّك الأعلى .. ﴾ [الآيات ١ ـ ٥] .

ثم تحدثت عن تيسير حفظ القرآن وترسيخه في قلب النبي ﷺ بحيث لا ينساه أبداً ، لينقله إلى الناس : ﴿ سنقرئك فلا تنسى .. ﴾ [٦ ـ ٧] .

وأردفت ذلك بأمر النبي ﷺ بالتذكير بالقرآن لإصلاح النفوس وتهذيب الطبائع : ﴿ فذكِّرْ إن نفعت الذكرى .. ﴾ [الآيات ٨ ـ ١٣] .

وختمت السورة ببيان فلاح كل من طهر نفسه من الكفر والشرك والمعاصي ، وتذكَّر دائماً في نفسه جلال الله وعظمته ، ولم يُؤْثر الدنيا على الآخرة ، وعرف أن هذه الأصول الاعتقادية والخلقية قديمة جاءت بها جميع الشرائع الإلهية : ﴿ قد أفلح من تزكّى .. ﴾ [١٤ ـ ١٩] .

فضلها :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلاّ صليت بـ ﴿ سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى ﴾ ، ﴿ والشمسِ وضحاها ﴾ ، ﴿ والليلِ إذا يَغْشى ﴾ » .

وأخرج الجماعة (أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وبقية أهل السنن) عن النعمان بن بشير : « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ وهل أتاك حديث الغاشية ﴾ ، وربما اجتمعا في يوم واحد ، فقرأهما » .

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أُبيّ بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبزى وعائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر

بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، زادت عائشة : والمعوذتين .

وروى أحمد عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السورة : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ إن كانت (جعل) بمعنى (خلق) كان ﴿ غثاء أحوى ﴾ منصوباً على الحال . وإن كانت بمعنى (صير) كان ﴿ غثاء أحوى ﴾ مفعولاً به ثانياً ، أي جعله غثاء أسود يابساً ، ولا يكون : ﴿ فجعله غثاء ﴾ فصلاً بين الصلة والموصول ؛ لأن قوله : ﴿ فجعله غثاء ﴾ داخل في الصلة ، والفصل بين بعض الصلة وبعضها مما يتعلق بها غير ممتنع ، وإنما الممتنع الفصل بين بعضها وبعض بأجنبي عنها .

﴿ فلا تنسى ﴾ لا : نافية ، لا ناهية ، ولهذا ثبتت الألف في قوله : ﴿ تنسى ﴾ والمعنى : لست ناسياً .

البلاغة :

﴿ خلق فسوى ﴾ وقوله : ﴿ قدّر فهدى ﴾ حذف المفعول ليفيد العموم ؛ لأنّ المراد : خلق كل شيء فسواه ، وقدر كل شيء فسواه .

﴿ أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرئك فلا تنسى ﴾ سجع غير متكلف .

﴿ الجهر وما يخفى ﴾ بينهما طباق .

﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ نزّه اسم الله ربك عما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، واذكره دائماً على وجه التعظيم ، فإنه الأسمى والأعلى من كل شيء ، جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره كما سيأتي : « لما نزل : ﴿ فسبّحْ باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة ٥٦/٧٤] قال ﷺ : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزل : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، قال : اجعلوها في سجودكم ، وكانوا يقولون في الركوع : اللهم لك ركعت ، وفي السجود : اللهم لك سجدت » .

﴿ خلق ﴾ أبدع الكائنات . ﴿ فسوّى ﴾ سوى مخلوقه بأن جعله متناسب الأجزاء ، غير متفاوت ، وعلى نظام كامل . ﴿ قدّر ﴾ جعل الأشياء على مقادير مخصوصة ، فوضع قدراً لكل حي ، وقدّر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها حسبما تقتضي مدة بقائها . ﴿ فهدى ﴾ عرّفه وجه الانتفاع بما خلق له ، وبيّن له طريق الخير والشر بالميول والإلهامات وإقامة الدلائل وإنزال الآيات . ﴿ المرعى ﴾ كل ماتخرجه الأرض من العشب والنبات والثمار والزروع . ﴿ فجعله ﴾ بعد خضرته . ﴿ غثاء ﴾ جافاً هشيماً يابساً . ﴿ أحوى ﴾ أسود .

﴿ سنقرئك ﴾ القرآن على لسان جبريل عليه السلام بأن نجعلك قارئاً ونلهمك القراءة . ﴿ فلا تنسى ﴾ ماتقرؤه ، بل تحفظه ، مع أنك أمي ليكون ذلك آية أخرى على صدق نبوتك ، ولا : للنفي لا للنهي . ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أن تنساه ، بنسخ تلاوته وحكمه . ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ ماظهر من الأحوال وما بطن ، سواء أكان قولاً أم فعلاً ، ومنه الجهر بالقراءة مع جبريل مخافة النسيان والجملة اعتراضية . ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ نوفقك لأعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر وسهولة الحياة . وإنما قال : نيسرك ، أي نعدّك للطريقة اليسرى في حفظ الوحي أو التدين أو نوفقك لها ، لانيسر لك ، عطفاً على ﴿ سنقرئك ﴾ .

سبب النزول :

نزول الآية (٦) :

﴿ سنقرئك ﴾ : قال مجاهد والكلبي : كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، لم يفرغ جبريل من آخر الآية ، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها ، مخافة أن ينساها ؛ فنزلت : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ بعد ذلك شيئاً ، فقد كَفَيتُكَه .

وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات .

التفسير والبيان :

﴿ سبح اسم ربِّك الأعلى ﴾ أي نزِّه الله عن كل ما لا يليق به ، بقولك : « سبحان ربي الأعلى » . قال القرطبي : والأولى أن يكون الاسم هو المسمى[١] . وقال أبو حيان : الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم ، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن ، فيقال له : ربّ أو إله ، وإذا كان قد أمر بتنزيهه اللفظ أن يطلق على غيره ، فهو أبلغ ، وتنزيه الذات أحرى ، وقيل : الاسم هنا بمعنى المسمى ، فالاسم : صلة زائدة ، والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى[٢] . والمراد بالأعلى : أن الله هو العالي والأعلى والأجل والأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ، كما يوصف بالكبير والأكبر .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الْجُهَني : « لما نزلت ﴿ فسبِّحْ باسمِ ربِّك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت : ﴿ سبحْ اسم ربِّك الأعلى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم » .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى بصفات تكون دليلاً على وجود الرب وقدرته لمن أراد معرفته ، فقال :

١ ـ ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ أي الذي خلق الكائنات جميعها ، ومنها الإنسان ، وسوَّى كل مخلوق في أحسن الهيئات ، فعدل قامته ، وناسب بين أجزائه ، وجعلها متناسقة محكمة غير متفاوتة ولا مضطربة ، للدلالة على إتقانها من إله حكيم مدبر عالم .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/٢٠

(٢) البحر المحيط : ٤٥٨/٨

٢ ـ ﴿ والذي قدَّر فهدى ﴾ والذي قدر لكل مخلوق ما يصلح له ، فهداه إليه ، وعرَّفه وجه الانتفاع به ، أو قدَّر أجناس الأشياء ، وأنواعها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ، ويسره لما خلقه له ، وألهمه أمور دينه ودنياه ، وقدَّر أرزاق الخلق وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً ، وخلق المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منه[1] .

ونظير الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ ربُّنا الذي أعْطى كلَّ شَيْءٍ خَلْقَه ثم هدى ﴾ [طه ٢٠/٥٠] أي قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلق ، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة ، وكان عرشه على الماء » .

والخلاصة : أن التقدير : عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمية ، وتركيبها على وجه خاص لأجله يستعد لقبول تلك القوى .

والهداية : عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء ، بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين ، ويحصل من مجموعها إتمام المصلحة .

٣ ـ ﴿ والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ أي والذي أنبت العشب وما ترعاه الدواب من النبات الأخضر ، وأنبت جميع أصناف النبات والزروع ليأكلها الإنسان .

ثم جعل ذلك المرعى بعد أن كان أخضر ، غثاء أحوى ، أي بالياً هشياً جافاً ، أسود بعد اخضراره ؛ لأن الكلأ إذا يبس اسودّ .

---

(١) فتح القدير للشوكاني .

وبما أن التسبيح الذي أمر به النبي ﷺ والذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه ، حرص النبي ﷺ على معرفته وحفظه بقراءة ماأنزله الله تعالى عليه من القرآن ، فوعده ربه وبشره بأنه سيقرئه من القرآن مافيه تنزيهه وأنه لا ينسى ، فقال :

﴿ سنقرئك فلا تنسى ، إلا ماشاء الله ﴾ أي سنجعلك يا محمد قارئاً ، بأن نلهمك القراءة ، فلا تنسى ماتقرؤه ، وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن ، لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها ، مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية ، فألهمه الله وعصمه من نسيان القرآن .

ونظير الآية قوله : ﴿ ولا تَعْجلْ بالقرآنِ من قَبْلِ أن يُقْضَى إليك وَحْيُه ﴾ [طه ١١٤/٢٠] وقوله : ﴿ لاتحرّك به لسانَك لتعجلَ به ، إنّ علينا جَمْعَه وقُرْآنه ﴾ [القيامة ١٦/٧٥-١٧] .

ثم قال : ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أي إنك ستحفظ القرآن المنزل إليك ، ولا تنساه ، إلا ماشاء الله أن تنساه ، فإن أراد أن ينسيك شيئاً ، فعل . وقيل : المراد بالاستثناء ما يقع من النسخ ، أي لاتنسى ماتقرئك إلا ما يشاء الله رفعه أو نسخه ، مما نسخ تلاوته ، فلا عليك أن تتركه .

والمعنى الأول أصح ؛ قال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ماشاء الله . قال أبو حيان : الظاهر أنه استثناء مقصود ، وكذلك قال الألوسي : والظاهر أن النسيان على حقيقته .

ثم أكد الله تعالى الوعد بالإقراء وعدم النسيان إلا ماشاء الله أن ينسيه لمصلحة ، فقال :

﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . ومن الجهر : كل ما يفعله الإنسان

أو يقوله علانية ، ﴿ وما يخفى ﴾ : كل ما يُسرّه بينه وبين نفسه ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فالذي وعدك بأنه سيقرئك ويحفّظك عالم بالجهر والسرّ .

وهذا على الرأي بأن قوله : ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ يعني النسخ : يعد تعليلاً للنسخ ، وإذا كان كذلك ، كان وضع الحكم ورفعه واقعاً بحسب مصالح المكلفين . ونظير الآية كثير ، مثل قوله تعالى : ﴿ إنه يَعْلَمُ الجهرَ من القولِ ، ويعلمُ ماتكتمون ﴾ [الأنبياء ٢١/١١٠] .

ثم بشره ببشارة أخرى وهو تيسيره ، أي توفيقه للأيسر في أحكام الدين والشريعة ، فقال :

﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً ، ونوفقك للطريقة اليسرى والشريعة السمحة في الدين والدنيا ، فلا نشرع لك إلا الأيسر ، ولا تختار لأمتك إلا الأسهل الذي لا يصعب على النفوس تحمله والقيام به .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

أ ـ ينبغي للإنسان تعظيم الله وتمجيده وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه .

ويستحب للقارئ إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أن يقول : « سبحان ربي الأعلى » قاله النبي ﷺ وجماعة من الصحابة والتابعين .

وروي أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة ، وأكثر السلف كانوا يواظبون على قراءتها في التهجد ، ويتعرفون بَرَكَتها .

والمقصود بالآية تنزيه الله وتسبيحه بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ، حتى

ولو سلمنا أن كلمة ﴿ اسم ﴾ ليست صلة زائدة ، فإن تسبيح اسمه ، أي تنزيهه عما لا يليق ، معناه بذاته تعالى وصفاته ، أو بأفعاله ، أو بأحكامه ، فإن العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة لم تنشأ إلا من هذه الفكرة ، وهي : هل الاسم نفس المسمى أم لا ؟

٢ ـ وصف الله تعالى نفسه بصفات كمال ثلاث : هي أنه الذي خلق جميع الخلائق ، وجعلها متناسبة الأجزاء ، متناسقة التركيب ، وجعل الإنسان في أحسن تقويم .

وقدر لكل مخلوق ما يصلح له ، فهداه إليه وأرشده لسلوكه ، وعرّفه وجه الانتفاع به .

وأنبت العشب وأخرج النبات والزرع ، ثم صيّره بالياً هشياً جافاً أسود .

وهذه الأوصاف تدل على كمال القدرة الإلهية وتمام الحكمة والعلم .

٣ ـ بشر الله تعالى نبيه ببشارتين :

الأولى ـ أن يقرأ عليه جبريل الوحي بالقرآن ، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه ، إلا ما شاء الله أن ينسى ، ولكنه لم ينس شيئاً منه بعد نزول هذه الآية .

والثانية ـ التوفيق لأعمال الخير ، وتشريع الشريعة اليسرى ، وهي الحنيفية السمحة السهلة .

٤ ـ إن الله تعالى يعلم تمام العلم كل ما يجهر به الإنسان وهو الإعلان من القول والعمل ، وكل ما يخفيه ، وهو السر ، لذا شرع لعباده ما فيه الخير والمصلحة ، ورفع عنهم كل مافيه مشقة وعسر ، وحماهم من كل ما فيه ضرر وشر ومفسدة .

التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

الإعراب :

﴿ فذكّر إن نفعت الذكرى ﴾ جواب ﴿ إن ﴾ دل عليه ماقبله وهو ﴿ فذكّر ﴾ وقام مقامه وسد مسده .

البلاغة :

﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ بينهما طباق .

﴿ فذكر ﴾ و ﴿ الذكرى ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

﴿ سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ﴾ بينهما مقابلة .

المفردات اللغوية :

﴿ فذكّر ﴾ التذكير : تنبيه الإنسان إلى شيء علمه ثم غفل عنه ، والمراد هنا التذكير والوعظ بالقرآن . ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ معنى اشتراط النفع إما لأن النبي ﷺ كان قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم ، فلم يزدادوا إلا عتواً وطغياناً ، فقيل له هذا بعد إلزام الحجة بتكرار التذكير ، وإما أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذم المخاطبين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم . وعلى كل فإن التذكير مطلوب وإن لم ينفع ، فقد ينفع البعض ، وقد أخبر تعالى أن المنتفع بالتذكير هو من يخشى الله سبحانه .

﴿ سيذكّر من يخشى ﴾ أي سيتعظ وينتفع بالذكرى من يخاف الله تعالى ، وهو إما مصدق بالله وبالبعث أو متردد في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [قّ ٤٥/٥٠] . ﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ يتجنب الذكرى الكافر ، فإنه أشقى من الفاسق . ﴿ الذي

يصلى النار الكبرى ﴾ الذي يدخل ويذوق حر نار الآخرة ، و﴿ النار الكبرى ﴾ أسفل دركات الجحيم والصغرى : نار الدنيا . ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة هنيئة تنفعه ويسعد .

﴿ قد أفلح ﴾ فاز ونجا . ﴿ تزكى ﴾ تطهر من الكفر والمعصية بالإيمان والتقوى . ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ بقلبه ولسانه ، أو كبر تكبيرة الإحرام . ﴿ فصلى ﴾ صلاته المفروضة . ﴿ تؤثرون ﴾ تفضلون الدنيا على الآخرة . ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ الآخرة المشتملة على الجنة خير من الدنيا وأدوم لا ينقطع نعيمها . ﴿ إن هذا ﴾ فلاح من تزكى وكون الآخرة خيراً وأبقى . ﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ المنزلة قبل القرآن . ﴿ صحف إبراهيم ﴾ وهي عشر صحف . ﴿ وموسى ﴾ وهي أيضاً عشر صحف غير التوراة .

المناسبة :

بعد التبشير بالبشارتين السابقتين : وهما حفظ القرآن وعدم نسيانه ، والتيسير والتوفيق للشريعة السهلة السمحة ، ولأعمال الخير ، أمر الله نبيه بتذكير الخلق بما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، ودعوتهم إلى الحق ، وبيَّن من ينتفع بالذكرى وهو من يخاف الله ، ومن يعرض عنها وهو من يعصي الله ، ويكون في قعر جهنم .

وبعد وعيد المعرضين عن العظة بالقرآن ، ذكر الله تعالى وعد من طهر نفسه من الكفر والشرك والرذائل ، ونددّ بمن يؤثر الدنيا على الآخرة ، مع أن الخير في تفضيل الآخرة على الدنيا ، وأخبر بأن أصول الدعوات الدينية واحدة ، فما في القرآن من عظات هو ما في صحف إبراهيم وموسى .

التفسير والبيان :

﴿ فذكّر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ﴾ أي عظ يا محمد الناس بالقرآن ، وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهدهم إلى شرائع الدين ، وذكّر حيث تنفع الذكرى ، والناس نوعان : فريق تنفعه الموعظة ، وفريق لاتنفعه ، وإنما الذي

ينتفع ويتعظ بما تبلّغه يا محمد من كان يخاف الله تعالى بقلبه ، ويعلم أنه ملاقيه . وأما من أصر على الكفار والعناد ، وتمادى في الجحود والإنكار ، فلا فائدة في تذكيره .

قال ابن كثير : ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله[١] ، أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماأنت بمحدّثٍ قوماً حديثاً لاتبلُغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة » . وروى الديلمي في الفردوس عن علي ، والبخاري موقوفاً قوله : « حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله » . وقال عيسى عليه السلام : « لاتضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع » .

وقوله : ﴿ سيذكر .. ﴾ إيماء إلى أن ماجاء به الرسول ﷺ صار من الوضوح بحيث لايحتاج إلا إلى التذكير فحسب . والخلاصة : أن التذكير مشروط بالانتفاع .

وهناك اتجاه آخر في تفسير الآية ، وهو أن التذكير مطلوب ، وإن لم ينفع ، ولا يكون التعليق بالشرط في قوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ مراداً ، وإنما هو لتصوير وبيان الواقع ، مثل آيات كثيرة أخرى ، منها قوله تعالى : ﴿ ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البِغاء إن أردْنَ تحصُّناً ﴾ [النور ٢٤/٣٣] . قال الرازي : إن الناس في أمر المعاد ثلاثة أقسام : القاطع بصحته ، والمتردد فيه ، والجاحد له ، والفريقان الأولان ينتفعان بالتذكير والتخويف .

وكثير من المعاندين إنما يجحدون باللسان فقط ، فتبين أن أكثر الخلق ينتفعون بالوعظ ، والمعرض نادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٥٠٠

كثير ، فلهذا وجب تعميم التذكير ، وإن كان لا ينتفع بالتذكير إلا البعض الذين علم الله انتفاعهم به ، ونحن لا نعلمهم ، فبعد أن أمر الله نبيه بالتذكير ، بيَّن في قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ الذي تنفعه الذكرى من هو[1] .

ثم أوضح الله تعالى من الناحية الواقعية عدم جدوى التذكير بالنسبة للمعاندين ، فقال : ﴿ ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار ، لعناده وإصراره على الكفر بالله ، وانهماكه في معاصيه .

لذا فإنه يقاسي حر نار جهنم ويدخلها ويذوق وبالها ، فهي النار العظيمة ، ونار الدنيا هي النار الصغرى ، أو أن النار الكبرى : دركات جهنم ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ ﴾ [النساء ١٤٥/٤] .

والذي يصلى النار الكبرى يخلد في عذابها ، فلا يموت فيها ، فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة ينتفع أو يسعد بها ، كما قال تعالى : ﴿ لا يُقْضَى عليهم فيموتُوا ، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابِها ﴾ [فاطر ٣٦/٣٥] .

وسبب تخصيص الكافر بالذكر : أن الفاسق لم يتجنب التذكير بالكلية ، فيكون القرآن ساكتاً عن الشقي الذي هو أهل الفسق .

وبعد وعيد الأشقياء الذين أعرضوا عن ذكرى القرآن ، ذكر وعد السعداء الذين يعنون بتزكية نفوسهم وتطهيرها من الشرك والتقليد في العبادة ودنس الرذائل ، فقال تعالى :

﴿ قد أفلح من تزكّى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي قد فاز ونجا من العذاب من تطهَّر من الشرك ، فآمن بالله ووحّده وعمل بشرائعه ، وتعهد نفسه بالتزكية

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ١٤٤/٣١ ـ ١٤٥ ، غرائب القرآن : ٧٧/٣٠

والتهذيب والتطهير من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة ، وتابع ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ .

وذكر بلسانه اسم ربه بالتوحيد والإخلاص ، وتذكر ربه العظيم في قلبه ، فأقام الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها ، ابتغاء رضوان الله ، وطاعةً لأمر الله ، وامتثالاً لشرع الله ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ ، وَجِلتْ قلوبُهم ﴾ [الأنفال ٢/٨] .

وروى أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى .. ﴾ قال : « من شهد أن لاإله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أني رسول الله » . وفي قوله : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : « هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها » .

ثم وبَّخ المُؤثِرين الدنيا ، المهملين أمر الآخرة ، فقال :

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ﴾ أي لاتفعلون ما أمرتم به سابقاً ، بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا ، والآخرة ونعيمها أفضل وأدوم من الدنيا ، وثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دار فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يُؤْثِرُ عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟!!

أخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لادار له ، ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له » . وأخرج أحمد أيضاً عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » .

ثم أبان الله تعالى وحدة الشرائع في أصولها وآدابها العامة ، فقال : ﴿ إن هذا

لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ أي إن كل ماذكر من فلاح من تزكى ، وما بعده مع تذكر اسم الله ، وإيثار الناس للدنيا ، ثابت في صحف إبراهيم العشر ، وكذا صحف موسى العشر غير التوراة ، فقد تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا .

والمراد أن ذلك مذكور بالمعنى لا باللفظ في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى ، فمعنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف ، فهو في الأولى وفي آخر الشرائع ، وتقدير الآية : إن هذا لفي الصحف الأولى التي منها صحف إبراهيم وموسى . وإنما خصت هذه الصحف بالذكر لشهرتها بين العرب . ونظير الآية قوله : ﴿ وإنّه لفي زُبُر الأولين ﴾ [الشعراء ١٩٦/٢٦] .

أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه : « أنه سأل رسول الله ﷺ قائلاً : كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مئة وأربعة كتب ، منها على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسون صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

وجاء في صحف إبراهيم : « ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه ، عارفاً بزمانه ، مقبلاً على شأنه » .

روى الآجُرّي وغيره من حديث أبي ذرّ المتقدم قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كانت أمثالاً كلُّها : أيها الملك المتسلّط المبتَلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم ، فإني لاأردّها ولو كانت من فم كافر .

وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .

وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث : تزود لمعاد ، ومَرَمَّة لمعاشٍ ، ولذة في غير محرَّم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شانه ، حافظاً للسانه . ومن عَدّ كلامه من عمله ، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه .

قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عِبَراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينصَب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها !! وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل !!

قال : قلت : يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى ، مما أنزل الله عليك ؟ قال : نعم اقرأ يا أبا ذر : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ والله تعالى أعلم بصحة هذا الحديث كما قال الألوسي .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ المطلوب تذكير الناس وموعظتهم ، سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع ، ولكنها في النهاية لا تنفع إلا المؤمنين الذين يخشون الله ربهم ، قال الحسن البصري : الذكرى تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر . وقال الجُرْجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع .

٢ ـ يتجنب الذكرى عادة ويبعد عنها الشقي في علم الله الكافر ، الذي يصلى ويدخل النار الكبرى ، أي العظمى ، وهي السفلى من أطباق النار ، أو أن نار جهنم هي الكبرى ، والصغرى نار الدنيا .

وإذا دخلها الكافر خُلّد فيها إلى الأبد ، فلا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة تنفعه .

٣ ـ قد نجا وفاز كل من تطهر من الشرك بالإيمان ، وجنّب نفسه رذائل الأخلاق ، وعمل بما يرضي ربه من الأعمال الصالحات ، وذكر ربه بلسانه وقلبه فصلى الفرائض .

٤ ـ احتج بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل ، والمسألة خلافية بين الفقهاء . واحتجوا بها أيضاً على وجوب تكبيرة الافتتاح ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على أن تكبيرة الافتتاح ليستْ من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها ، والعطف يستدعي المغايرة . وأجيب بما روي عن ابن عباس : أن المراد ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه ، فصلى له .

٥ ـ يؤثر بعض الناس أو أغلبهم الدنيا ، ويترك الاستعداد للآخرة ، والآية : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ﴾ إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا ، والترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى ، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع .

٦ ـ الشرائع الإلهية متفقة في أصولها الاعتقادية والأخلاقية وتوجيه العبادة الخالصة لله عز وجل ، وهذه نماذج من وحدة الشرائع : وجوب تزكية النفس وتطهيرها من الشرك والكفر ودنس الرذائل ، ووجوب التذكر الدائم لله عز وجل وإقامة الصلوات المفروضة في أوقاتها ، وضرورة الاستعداد للآخرة وإيثار ثوابها على ملذات الدنيا الفانية .

بل إن ما في السورة كله من التوحيد والنبوة والوعد والوعيد كان ثابتاً في صحف الأنبياء الأقدمين ؛ لأنها قواعد كلية لا تتغير بتغير الأزمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

مكيّة ، وهي ست وعشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة الغاشية ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ والغاشية : من أسماء يوم القيامة ، وهي الداهية التي تغشى الناس بأهوالها ، والاستفهام للتهويل وتفخيم شأنها .

مناسبتها لما قبلها :

هذه السورة تفصيل وتبسيط لما جاء في سورة الأعلى من أوصاف المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً ، فلما قال تعالى في الأعلى : ﴿ سيذكّر من يخشى ويتجنّبُها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ﴾ إلى قوله : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ [الآيات : ١٠ ـ ١٧] فصل ذلك في هذه السورة بقوله : ﴿ عاملة ناصبة ، تَصْلى ناراً حامية .. ﴾ [الآيات : ٢ ـ ٧] ثم ذكر صفات وأحوال المؤمنين في الآيات : [٨ ـ ١٦] . ولما قال تعالى في الأعلى : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أبان صفة الجنة في الآيات السابقة أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية .

ما اشتملت عليه السورة :

تتحدث هذه السورة المكية عن أصول الاعتقاد في موضوعات ثلاثة وهي :

أ ـ وصف أهوال القيامة ، وما يلقاه الكافر والمؤمن فيها من الشقاء والسعادة ، ووصف أهل الجنة وأهل النار .

٢ ـ إثبات وحدانية الله وقدرته وحكمته وعلمه بدليل خلق السماء والإبل والجبال والأرض وغيرها من عجائب الصنعة الإلهية .

٣ ـ ختمت السورة الكريمة بخاتمة تشبه خاتمة السورة المتقدمة وهي تذكير الناس بالرجوع إلى الله عز وجل للحساب والجزاء ، وأمر الرسول ﷺ أصالة بالتذكير بما أنزل إليه من الشرائع والأحكام .

فضلها :

تقدم في فضل السورة السابقة ماأخرجه مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ ، والغاشية في الجمعة والعيدين . وأخرج الإمام مالك ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير أيضاً : بِمَ كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

هول القيامة وأحوال أهل النار

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

الإعراب :

﴿ وجوه يومئذ ﴾ المرفوع مبتدأ ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع . وقيل : لأن تقدير الكلام أصحاب وجوه ، والخبر مابعد ، والظرف متعلق به .

﴿ لايسمن ولا يغني من جوع ﴾ صفة للطعام أو للضريع .

البلاغة :

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ؟ ﴾ أسلوب التشويق والتهويل ، وهو استفهام أريد به التقرير ولفت النظر إلى هذا الحديث .

﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ أي أصحابها وهم الكفار ، فهو مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الوجوه وإرادة الكل وهي الذوات .

﴿ وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ﴾ و ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ﴾ فيها مقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار .

المفردات اللغوية :

﴿ الغاشية ﴾ يوم القيامة ، وهي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وأهوالها . ﴿ خاشعة ﴾ ذليلة . ﴿ عاملة ناصبة ﴾ تعمل عملاً في الدنيا ، تتعب فيه وهو لا ينفعها يومئذ ، أو تتعب في النار بجر السلاسل والأغلال وخوضها ، فقوله : ﴿ ناصبة ﴾ تبعة من (نصب فلان) : تعب ، والنصَب : التعب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ [الانشراح ٧/٩٤] أي إذا فرغت من الصلاة ، فاتعب في الدعاء . ﴿ تَصْلى ناراً ﴾ تدخلها ، يقال : صلي النار : قاسى حرها ، وقرئ تُصلى : بضم التاء . ﴿ حامية ﴾ متناهية في الحر . ﴿ من عين آنية ﴾ العين : ينبوع الماء ، والآنية : الشديدة الحرارة . ﴿ ضريع ﴾ نوع من الشوك لاترعاه دابة لخبثه وضره وشدة مرارته ، أما الرطب منه وهو الشِّبْرِق فترعاه الإبل مادام رطباً ، والمراد : طعامهم مما يتحاماه الإبل ويتعافاه . ﴿ لا يُسمن ولا يغني من جوع ﴾ لا يتحقق به أحد هذين الأمرين المقصودين من الطعام .

التفسير والبيان :

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ؟ ﴾ أي هل بلغك يا محمد حديث القيامة وعلمت خبره ، وسميت غاشية : لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، والمراد : لم يأتك سابقاً حديث هذه الداهية ، وقد أتاك الآن فاستمع ، فلا يراد من التعبير حقيقة الاستفهام ، وإنما يراد منه تشويق السامع إلى استماعه ، وتعجيبه مما سيذكر بعده . والمعنى : قد جاءك يا محمد حديث الغاشية .

ثم ذكر أحوال الناس فيه وانقسامهم إلى فريقين : أشقياء وسعداء ، وبدأ بوصف الأشقياء ؛ لأن مبنى السورة على التخويف ، كما ينبئ عنه لفظ الغاشية ، فقال :

﴿ وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ﴾ أي أصحاب وجوه ، والمراد

بالوجه الذات ، أي أصحابها ، وأصحاب الوجوه وهم الكفار ، تكون في ذلك اليوم ذليلة خاضعة لما هي فيه من العذاب ، ونسب الخشوع والذل إلى الوجوه ؛ لأن أثره يظهر عليها ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ ولو تَرى إذِ المجْرِمُونَ ناكِسُوا رؤوسِهم عند ربِّهم ﴾ [السجدة ١٢/٣٢] وقوله : ﴿ وتَرَاهم يُعْرَضُون عليها خاشعين من الذُّلِّ ، يَنْظُرون من طَرْفٍ خفيٍّ ﴾ [الشورى ٤٥/٤٢] .

وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون عملاً كثيراً ، ويتعبون أنفسهم في العبادة ، ولا أجر لهم عليها ؛ لما هم عليه من الكفر والضلال ؛ والإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ شرط قبول الأعمال . والآية في القسّيسين وعُبّاد الأوثان وكل مجتهد نشط في كفره[1] .

ثم ذكر جزاء هؤلاء في يوم القيامة :

﴿ تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي تدخل تلك الوجوه ناراً شديدة الحرارة ، وتقاسي حرها ، وتعذب بها ، لخسارة أعمالها ، وتسقى إذا عطشوا من ماء عين أي ينبوع ، آنية ، أي متناهية في حرها ، فهي لاتطفئ لهم عطشاً .

وليس لهم طعام يتغذون به إلا الضريع : وهو شوك يابس شديد المرارة والضر ، يقال له في لغة أهل الحجاز الشِّبرِق إذا كان رطباً ، فإذا يبس فهو الضريع ، وهو سم ، وشر الطعام ، وأبشعه وأخبثه .

ولا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور ، فلا يُسمن آكله ، ولا يدفع عنه الجوع . وإنما قدم المشروب على الضريع المطعوم ؛ لأن الماء لأهل النار أهم ، ويغلب عليهم العطش إذا أثر فيهم حر النار .

---

(١) البحر المحيط : ٤٦٢/٨

وهناك طعام آخر لأهل النار وهو الغِسْلين والزقّوم ، قال تعالى : ﴿ ولا طعامٌ إلا من غِسْلين ﴾ [الحاقة ٣٦/٦٩] وقال : ﴿ إنّ شجرة الزقّوم طعامُ الأثيم ﴾ [الدخان ٤٣/٤٤ ـ ٤٤] .

ذكر الحافظ أبو بكر البرقاني عن أبي عمران الجوني قال : مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب ، فناداه : يا راهب ، فأشرف ، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي ، فقيل له : ياأمير المؤمنين ، ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله عز وجل في كتابه : ﴿ عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذي أبكاني .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القيامة يوم رهيب ، يغشى الناس فيه غاشية شديدة من الأهوال والمخاوف .

٢ ـ تكون وجوه الكفار في ذلك اليوم ذليلة بالعذاب ، خاضعة للعقاب ، وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون ويتعبون أنفسهم ؛ لأن الآخرة ليست دار عمل ، مثل عبدة الأوثان وأصحاب الصوامع والرهبان وغيرهم ، خشعت وجوههم لله ، وعملت ونصِبت في أعمالها من غير نفع لهم في الآخرة ؛ لأن أعمالهم مبنية على غير أساس من الدين الحنيفي القائم على التوحيد الخالص والإخلاص الكامل لله عز وجل ، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له ، قال تعالى واصفاً عمل هؤلاء : ﴿ قل : هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً : الذي ضلّ سعيُهم في الحياة الدنيا ، وهم يَحْسَبون أنهم يحسنون صُنْعاً ، أولئك الذين كفروا بآياتِ ربّهم ولقائه ، فحبِطت أعمالُهم ، فلا نُقيمُ لهم يوم القيامة وزناً ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورُسُلي هزُواً ﴾ [الكهف ١٠٣/١٨ ـ ١٠٦] .

٣ ـ ومكانهم هو النار الشديدة الحر ، ومشروبهم هو ﴿ من عين آنية ﴾ أي من ينبوع ماء متناه في الحرارة ، ومطعومهم الضريع الذي لا يسمن آكله ، ولا يدفع الجوع عنه . جاء في الخبر عن ابن عباس : (الضريع : شيء يكون في النار يشبه الشَّوْك ، أمَرُّ من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حَرّاً من النار)[1] .

وقال العلماء : إن للنار دركات ، وأهلها على طبقات ؛ فمنهم من طعامه الزَّقوم ، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من طعامه ضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصَّديد : ﴿ لكل بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ [الحجر ١٥/٤٤] . ووجود النبت في النار ليس ببدع من قدرة الله ، كوجود بدن الإنسان والعقارب والحيات فيها .

قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال المشركون على سبيل التعنت : إن إبلنا لتسمن بالضَّريع ، فنزلت : ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي ليس فيه منفعة الغذاء ، ولا الإسمان ودفع الجوع .

وهذا دليل على أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس ، ولكن من جنس الشوك الذي ترعاه الإبل مادام رطباً ، فإذا يبس ، نفرت عنه ؛ لأنه سم قاتل . ودليل أيضاً على تكذيب الله لهم في قولهم : « يَسَمَّن الضريعُ » .

والخلاصة : أن وصف أحوال النار على النحو المذكور يستدعي الفرار منه ، وإبعاد النفس عن موجبات هذا العذاب ، من العقيدة الفاسدة ، والعمل الخاسر ، ولا عقيدة صحيحة إلا بتوحيد الله والإيمان بالقرآن والرسول محمد ﷺ ، ولا عمل مقبول إلا على وفق ماجاء به الإسلام . ولا أقول هذا لأني مسلم ، وإنما هذا الذي صح دليله .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٠/٣٠

أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

الإعراب :

﴿ لاتسمع فيها لاغيةً ﴾ التاء للخطاب ، والفعل مبني للمعلوم (للفاعل) و ﴿ لاغية ﴾ مفعول ﴿ تسمع ﴾ و ﴿ لاغية ﴾ مصدر كالعافية والعاقبة .

وقرئ بضم التاء ورفع ﴿ لاغية ﴾ على أن الفعل مبني للمجهول (لما لم يسم فاعله) و ﴿ لاغية ﴾ مرفوع ؛ لأنه نائب فاعل .

ومن قرأ القراءة الثانية ، ذكّر اللاغية إما لأنه أراد بها اللغو ، وهو مذكر ، وإما لأنه فصل بين الفعل والفاعل ، مثل : حَسَّنَ اليوم دارك ، واضطرم الليلة نارك ، وحضر القاضيَ اليوم امرأة . وإذا جاز التذكير مع المؤنث الحقيقي ، فمع غير الحقيقي أولى .

البلاغة :

﴿ لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ﴾ سجع رصين غير متكلف .

المفردات اللغوية :

﴿ ناعمة ﴾ ذات بهجة وحسن ، أو متنعمة . ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي راضية في الآخرة بعملها الذي عملته في الدنيا ، وهو طاعة الله ، لما رأت ثوابه . ﴿ في جنة عالية ﴾ عالية للمكان والقدر ؛ لأن الجنة درجات ، كما أن النار دَرَكات . ﴿ لاغية ﴾ لغواً وهذياناً لافائدة فيه ، وكذباً وبهتاناً . ﴿ عين جارية ﴾ ينبوع ماء جارٍ . ﴿ سرر ﴾ جمع سرير : وهو مايجلس أو ينام عليه . ﴿ مرفوعة ﴾ رفيعة ذاتاً وقدراً ومحلاً .

﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب : إناء لاعروة له . ﴿ موضوعة ﴾ معدّة ومهيأة لشربهم وبين أيديهم . ﴿ ونمارق ﴾ وسائد ، جمع نمرقة ـ بضم النون وفتحها ـ وبالكسر في لغة ﴿ مصفوفة ﴾ اصطف بعضها بجنب بعض للاستناد إليها ﴿ وزرابي ﴾ بسط فاخرة ، وطنافس لها خمل ، جمع زِرْبي

ـ بكسر الزاي أو زَرْبِيَّة : وأصل الزرابي : أنواع النبات الأحمر والأصفر والأخضر ﴿ مبثوثة ﴾ مبسوطة مفرّقة في المجالس .

المناسبة :

بعد بيان وعيد الكفار الأشقياء ، وبيان حالهم ومكانهم وطعامهم وشرابهم ، ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين السعداء ، وما وعدهم به ربهم ، واصفاً ثوابهم وأهل الثواب ، ثم وصف دار الثواب ، لترغيب الناس بأعمالهم ، وتشويقهم لما يلاقونه من فضل ربهم .

التفسير والبيان :

﴿ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ﴾ أي ووجوه يوم القيامة ذات نعمة وبهجة ونضرة وحسن ، يعرف النعيم فيها ، أو متنعمة ، كما قال تعالى : ﴿ تعرِفُ في وجوهِهم نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين ٢٤/٨٣] وهي وجوه السعداء ، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم ، وقبول عملهم ، فهي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية ، أي رضيت عملها ؛ لأنها قد أعطيت من الأجر من أرضاها ، كما قال تعالى : ﴿ رَضِيَ الله عنهم ، ورَضُوا عنه ﴾ [البينة ٨/٩٨] .

والخلاصة : أن الله تعالى وصف أهل السعادة والثواب بوصفين :

أحدهما ـ في ظاهرهم وهو قوله : ﴿ ناعمة ﴾ أي ذات بهجة وحسن ، أو متنعمة .

والثاني ـ في باطنهم وهو قوله : ﴿ لسعيها راضية ﴾ .

ثم وصف دار الثواب وهي الجنة بسبعة أوصاف :

١ ـ ٢ ـ ﴿ في جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ﴾ أي إن أصحاب الوجوه الناعمة وهم المؤمنون السعداء في جنة رفيعة المكان ، بهية الوصف ، آمنة

الغرفات ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض .

ولا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة لغو وهذيان ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم ، ولأن الجنة منزل أحباب الله ، ومنازل الصفاء لا تتعكر باللغو والكذب والبهتان ، كما قال تعالى : ﴿ لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم ﴾ [الطور ٢٣/٥٢] وقال : ﴿ لا يَسْمعون فيها لَغْواً إلا سَلاَماً ﴾ [مريم ٦٢/١٩] وقال : ﴿ لا يَسْمعون فيها لَغْواً ولا تأثيماً إلا قيلاً : سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة ٢٥/٥٦ ـ ٢٦] .

٣ ـ ٤ ـ ﴿ فيها عين جارية ، فيها سُرُر مرفوعة ﴾ أي في الجنة ينبوع أو عين ماء تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة الصافية ، وليس المراد بها عيناً واحدة باعتبارها نكرة في سياق الإثبات ، وإنما هذا جنس ، يعني فيها عيون جاريات .

وفيها أسرة عالية مفروشة بما هو ناعم الملمس ، كثيرة الفرش ، مرتفعة السُّمك ، إذا جلس عليها المؤمن استمتع بها ورأى رياض الجنة ونعيمها ، كما قال تعالى : ﴿ وفُرُش مرفوعة ﴾ [الواقعة ٣٤/٥٦] .

وفي ذلك غاية التشريف والتكريم .

٥ ـ ٧ ـ ﴿ وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ﴾ أي وفيها أواني الشرب وأقداح الخمر غير المسكرة معدة مرصودة بين أيديها ، يشربون منها متى أرادوا ، وفيها وسائد (مخدات) مصفوفة بعضها إلى بعض ، للجلوس عليها أو الاستناد إليها ، وفيها بُسُط مبسوطة في المجالس ، وطنافس (سجّاد) لها خمل رقيق ناعم ، مفرّقة في المجالس ، كثيرة ، تغري بالجلوس عليها ، ويستمتع الناظر إليها ، وفيها معاني الأبهة والفخامة .

فقه الحياة أو الأحكام :

وصف الله تعالى أهل السعادة والثواب ، ودار الثواب بأوصاف جميلة رائعة الجمال والمتعة ، لإغراء الناس بها وترغيبهم في الحصول عليها إذا عملوا عمل أصحابها المستحقين لها .

أما أهل الثواب فلهم صفتان : ظاهرية وباطنية ، فوجوه المؤمنين ذات نعمة وبهجة ونضرة ، ولعملها الذي عملته في الدنيا راضية في الآخرة ، حيث أعطيت الجنة بعملها .

وأما دار الثواب فلها صفات سبع كما تقدم :

الأولى ـ في جنة عالية ، أي مرتفعة ، وعالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

الثانية ـ لا تسمع فيها كلاماً ساقطاً غير مرضي ، ولا تسمع فيها كلمة لغو .

الثالثة ـ فيها عين شراب جارية على وجه الأرض ، من غير أخدود ، وتجري لهم كلما أرادوا ، بماء مندفق وبأنواع الأشربة اللذيذة من خمر وعسل ولبن .

الرابعة ـ فيها سرر عالية المكان ، مرتفعة السماء .

الخامسة ـ فيها أكواب ، أي كيزان لا عرى لها ، أو أباريق وأوان ، والإبريق : هو ماله عُروة وخُرطوم ، والكوب : إناء ليس له عروة ولا خرطوم .

السادسة ـ فيها نمارق ، أي وسائد مصفوفة واحدة إلى جنب الأخرى .

السابعة ـ فيها البُسط المبسوطة ، والطنافس التي لها خَمْل رقيق ، والكثيرة المتفرقة في المجالس .

إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

الإعراب :

﴿ كيف خلقت ﴾ ﴿ كيف ﴾ حال مقدم من ضمير ﴿ خلقت ﴾ ، والجملة بدل اشتمال من الإبل .

﴿ لست عليهم بمصيطر ، إلا من تولى وكفر ﴾ قرئ ﴿ بمسيطر ﴾ على الأصل ، وقرئ بالصاد ، بإبدال السين صاداً ، لتوافق الطاء في الاستعلاء والإطباق ، مثل ﴿ وزاده بصطة في العلم والجسم ﴾ [البقرة ٢٤٧/٢] وأصله : (بسطة) فأبدل من السين صاداً ، لتوافق الطاء في الإطباق ، وكذلك قالوا : الصراط افي السراط ، وصطر في سطر .

و ﴿ إلا من تولى ﴾ : في موضع نصب على استثناء من غير الجنس أي استثناء منقطع ، وقيل : هو استثناء من الجنس ، أي استثناء متصل . وتقديره : إنما أنت مذكر الناس إلا من تولى وكفر .

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ بتخفيف الباء ، آب يؤوب إياباً ، نحو : قام يقوم مقاماً ، وأصله : إوابا وقواماً ، وقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها . وقرئ ﴿ إيّابهم ﴾ بتشديد الياء ، قال أبو الفتح ابن جني : يجوز أن يكون أراد : إوّاباً ، إلا أنه قلبت الواو ياء استحساناً طلباً للخفة ، لاوجوباً ، مثل اجلوّذ اجلياذاً ، وإن كان المشهور : إجلواذاً .

البلاغة :

﴿ فذكر ﴾ ﴿ مذكّر ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وكذا بين ﴿ يعذبه ﴾ و ﴿ العذاب ﴾ .

﴿ إلينا إيابهم ﴾ ﴿ علينا حسابهم ﴾ يوجد بينهما طباق في الحرف .

المفردات اللغوية :

﴿ أفلا ينظرون ﴾ ينظر أهل مكة ونحوهم نظر اعتبار . ﴿ الإبل ﴾ الجِمَال ، جمع بعير ، ولا واحد لها من لفظه كنساء وقوم . ﴿ كيف خلقت ﴾ خلقاً يدل على كمال قدرة الله تعالى وحسن تدبيره ، بأن جعلت أداة لحمل الأثقال إلى البلاد النائية ، مع احتمال العطش عشراً فأكثر وخصت بالذكر ؛ لأنها أعجب ماعند العرب من هذا النوع ، وبدئ بها لأنهم أكثر مخالطة لها من غيرها .

﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ بلا عمد وأمسكها بما فيها من الكواكب . ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ فهي راسخة لاتميل وهي أعلام للسائرين . ﴿ سطحت ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً موطأة للإقامة عليها . قرئت الأفعال الأربعة بالبناء للمجهول ، وحذف المفعول المنصوب أي خلقتها رفعتها نصبتها ، والمعنى : أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من المركبات وغيرها ، ليعرفوا كمال قدرة الخالق ووحدانيته ، فلا ينكروا اقتداره على البعث ، ولذلك عقب به أمر المعاد ، ورتب عليه الأمر بالتذكير .

﴿ فذكّر إنما أنت مذكّر ﴾ أي فذكرهم نعم الله ودلائل توحيده وعظهم والفت نظرهم إلى الكون كله ، وما عليك ألا ينظروا أو لم يتذكروا ، فإنما عليك البلاغ فقط . ﴿ بمصيطر ﴾ بمسلّط ، لإجبارهم على ماتريد ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ لكن من تولى وكفر بالقرآن ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ عذاب الآخرة ، وهو في آية سابقة ﴿ النار الكبرى ﴾ والأصغر عذاب الدنيا بالقتل والأسر . ﴿ إيابهم ﴾ رجوعهم بعد الموت . ﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ في المحشر ، وتقديم الخبر في الجملتين الأخيرتين للتخصيص ، والمبالغة في الوعيد .

سبب النزول :

نزول الآية (١٧) :

﴿ أفلا ينظرون .. ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن قتادة قال : لما نعت الله ما في الجنة ، عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأنزل الله : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ .

المناسبة :

بعد أن حكم الله تعالى بمجيء يوم القيامة ، وقسم الناس فيها إلى فريقين : أشقياء وسعداء ، ووصف أحوال الفريقين ، أقام الدليل على وجوده ووحدانيته

وقدرته بما يشاهدونه من آثار القدرة من السماء العالية ، والأرض التي يسكنون فيها ، والإبل التي ينتفعون بها في نقل الأحمال والانتفاع بلحومها وأوبارها وألبانها ، والجبال الراسيات التي ترشد السالكين ، فيستدلون بذلك على قدرته تعالى على بعث الأجساد والمعاد وصحة عقيدة التوحيد .

ثم أمر نبيه ﷺ أن يذكّرهم بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها ، لينظروا فيها ، وليصبر على معارضتهم ، فإنما بعث لذلك دون غيره .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ووجوده وتوحيده ، فيقول :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ؟ ﴾ أي كيف يصح للمشركين إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك ، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم ، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع ، من عظم الجثة ، ومزيد القوة ، وبديع الأوصاف ، فهي خلق عجيب ، وتركيب غريب ، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للولد الصغير ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها ، وتصبر على الجوع والعطش . وبدأ تعالى التنبيه بها ؛ لأن غالب دواب العرب كانت الإبل ، وأيضاً مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر ؛ فهي مأكولة ، ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ، والصبر على العطش ، وقلة العلف ، وكثرة الحَمْل ، وهي معظم أموال العرب .

﴿ وإلى السماء كيف رُفعت ﴾ وألا يشاهدون السماء كيف رفعت فوق الأرض بلا عمد ؟ كما قال تعالى : ﴿ أفلم يَنْظُروا إلى السماء فوقهم كيفَ بنيناها وزيّناها ومالَها من فُروج ؟ ﴾ [قَ ٦/٥٠] .

﴿ وإلى الجبال كيف نُصبت ﴾ أي جعلت منصوبة قائمة مرفوعة على الأرض ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، والنظر إليها مبعث هيبة وتعجب ، ويستفيد من وجودها وتسلسلها السالكون في البراري والقفار ، والأعجب من هذا أن كثيراً من الينابيع المائية تنبع منها ، وفيها منافع كثيرة ومعادن وفيرة ، ويقتطع منها أحجار ضخمة ، ورخام ذو ألوان مختلفة بديعة .

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ كيف بسطت ومدّت ومهّدت ، ليستقر عليها ساكنوها ، وينتفعوا بما فيها من خيرات ومعادن دفينة ، وما تخرجه من نباتات وزروع وأشجار متنوعة ، بها قوام الحياة والمعيشة .

وتسطيح الأرض إنما هو بالنسبة للناظر والمقيم عليها ، ولا يعني ذلك أنها ليست بكرة ؛ لأن الكرة ـ كما ذكر الرازي ـ إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح[1] .

وإنما ذكرت هذه المخلوقات دون غيرها ؛ لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان الناظر فيها ، فهو يشاهد صباح مساء بعيره ، ويرى السماء التي تظلله ، والجبال التي تجاوره ، والأرض التي تقلّه .

ثم أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير بهذه الأدلة ، فقال :

﴿ فذكّرْ ، إنما أنت مذكّر ، لست عليهم بمصيطر ﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ، وعظهم وخوفهم ، والفت نظرهم إلى ضرورة التأمل بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها الدالة على قدرة الله على كل شيء ، ومنها البعث والمعاد ، وليس عليك إلا التذكير فقط ، فإنما بعثت لهذا الغرض ، ولا سلطان ولا سيطرة لك عليهم لحملهم على أن يؤمنوا بالله وبرسالتك ، ولجبرهم على ما تريد ، فإن

(١) التفسير الكبير : ١٥٧/٣١ ـ ١٥٨

آمنوا فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا فقد ضلوا وكفروا ، كما قال سبحانه : ﴿ فإنّما عليك البلاغُ ، وعلينا الحسابُ ﴾ [الرعد ٤٠/١٣] .

وقوله : ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ تأكيد لمهمة التذكير فقط ، وتقرير لها ، ونظير الآية قوله : ﴿ أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونُوا مؤمنين ؟ ﴾ [يونس ٩٩/١٠] وقوله : ﴿ وما أنتَ عليهم بجبَّار ، فذكّرْ بالقرآنِ من يخاف وعيدِ ﴾ [قَ ٤٥/٥٠] .

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لاإله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » ثم قرأ : ﴿ فذكّرْ إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر ﴾[1] .

﴿ إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ، وكفر بالحق بقلبه ولسانه ، فيعذبه الله في الآخرة عذاب جهنم الدائم ، عدا عذاب الدنيا من قتل وأسر واغتنام مال ؛ لأنه إذا كان لاسلطان لك عليهم ، فإن الله هو المسيطر عليهم ، لا يخرجون عن قبضته وقوته وسلطانه .

أخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي : مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله » .

ثم أكد الله تعالى وقوع البعث والحساب والعذاب ، فقال :

﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ أي إن إلينا مرجعهم ومصيرهم ،

---

(١) الحديث مخرج في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة بدون ذكر هذه الآية .

ونحن نحاسبهم على أعمالهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ ، فلا مفر للمعرضين ، ولا خلاص للمكذبين من العقاب .

وفائدة تقديم الظرف أو الجار والمجرور في الموضعين الحصر والتشديد بالوعيد ، أي ليس مرجعهم إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام وإيفاء جزاء كل طائفة ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه بمقتضى الحكمة البالغة ، وهو الذي يحاسب على الصغير والكبير[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ ذكّر الله تعالى الناس بصنعته وقدرته ، وأنه قادر على كل شيء ، بعد أن ذكر أمر أهل الدارين ، فتعجب الكفار من ذلك ، فكذبوا وأنكروا . وقد ذكّرهم بخلق الإبل ؛ لأنها كثيرة في العرب ، وبخلق السماء ورفعها عن الأرض بلا عَمَد ، وبخلق الجبال الراسيات المنصوبة على الأرض ، بحيث لا تزول ، وبخلق الأرض كيف بسطت ومدت ومهدت لأهلها كي يستطيعوا العيش عليها بقرار وأمان .

٢ ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتذكير قومه وعظتهم وتخويفهم ، وطمأنه بأنه مجرد واعظ ، ليس بمسلّط عليهم ، فيقتلهم ، أو يجبرهم على الإيمان برسالته .

٣ ـ حذر الله تعالى من مخالفة دعوة النبي ﷺ ورسالته ، فأنذر كل من تولى عن الوعظ والتذكير بالعذاب الأكبر في الآخرة ، وهو عذاب جهنم الدائم ، ووصف العذاب بالأكبر ؛ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل .

وهذا على أن الاستثناء منقطع ، وقيل : هو استثناء متصل ، والمعنى : لست

---

(١) تفسير الكشاف : ٣٣٤/٣ ، تفسير الرازي : ١٦٠/٣١

بمسلط إلا على من تولى وكفر ، فأنت مسلّط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر ، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير .

والأظهر في رأي بعض المفسرين أن يكون الاستثناء متصلاً ، لاباعتبار الحال ، فإن السورة مكية ، ولكن بالنظر إلى الاستقبال ، أي إلا المصرّين على الإعراض والكفر ، فإنك تصير مأموراً بقتالهم ، مستولياً عليهم بالغلبة والقهر[١] .

والظاهر لدي أن يكون الاستثناء منقطعاً ، أي لست بمصيطر ولا بمستول عليهم ، ولكن من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر عليه ، فهو يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة ، بعد العذاب الأصغر في الدنيا وهو القتل والسبي ، كما قال تعالى : ﴿ ولَنُذِيقنَّهم من العذابِ الأدنى دون العذاب الأكبر ، لعلهم يَرْجِعون ﴾ [السجدة ٢١/٣٢] . وهذا ماسار عليه أغلب المفسرين ، مشيرين إلى القول الثاني بصيغة (قيل) المفيدة للتضعيف .

٤ ـ تضمنت السورة في خاتمتها مايصلح للوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فإن مصير جميع الناس ورجوعهم بعد الموت إلى الله عز وجل ، وحسابهم إليه وحده .

والحساب وإن كان حقاً لله تعالى ، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه ، إلا أنه تعالى جعل الحساب واجباً عليه ، إما بحكم وعده الذي لاخلف فيه ، وإما بمقتضى الحكمة والعدل ، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم ، لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم ، وتعالى الله عنه ، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة[٢] .

---

(١) غرائب القرآن : ٨٥/٣٠

(٢) تفسير الرازي : ١٦٠/٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

مكيّة ، وهي ثلاثون آية .

تسميتها :

سميت سورة الفجر ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ وهو قسم عظيم بفجر الصبح المتبلج نوره كل يوم على أن الكفار سيعذبون حتماً .

مناسبتها لما قبلها :

تتعلق السورة الكريمة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١ ـ إن القسم الصادر في أولها كالدليل على صحة ما ختمت به السورة التي قبلها من قوله جل جلاله : ﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

٢ ـ تضمنت السورة السابقة قسمة الناس إلى فريقين : أشقياء وسعداء ، أصحاب الوجوه الخاشعة ، وأصحاب الوجوه الناعمة ، واشتملت هذه السورة على ذكر طوائف من الطغاة : عاد وثمود وفرعون الذين هم من الفريق الأول ، وطوائف من المؤمنين المهتدين الشاكرين نعم الله ، الذين هم في عداد الفريق الثاني ، فكان الوعد والوعيد حاصلاً في السورتين .

٣ ـ إن جملة ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد .. ﴾ في هذه السورة مشابهة لجملة : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت .. ﴾ في السورة المتقدمة .

ماشتملت عليه السورة :

اشتملت السورة على أغراض ستة :

١ ـ القسم الإلهي بالفجر والعشر الأوائل من ذي الحجة والشفع والوتر والليل على أن عذاب الكفار واقع حتماً لامفر منه : ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] .

٢ ـ إيراد قصص بعض الأمم الظالمة البائدة المكذبة رسل الله ، كعاد وثمود وقوم فرعون ، لضرب المثل ، وبيان ماحل بهم من العذاب بسبب طغيانهم : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد .. ﴾ [الآيات : ٦ ـ ١٤] .

٣ ـ بيان أن الحياة ابتلاء للناس بالخير والشر ، والغنى والفقر ، والتعرف على طبيعة الإنسان في حب المال ، وتوضيح أن كثرة النعم على عبد ليست دليلاً على إكرام الله له ، ولا الفقر وضيق العيش دليلاً على إهانته : ﴿ فأما الإنسان إذا مابتلاه ربه .. ﴾ [الآيات : ١٥ ـ ٢٠] .

٤ ـ وصف يوم القيامة وأهواله وشدائده : ﴿ كلا إذا دُكّت الأرض دكّاً دكّاً .. ﴾ [الآيات : ٢١ ـ ٢٣] .

٥ ـ بيان انقسام الناس إلى فريقين في الآخرة : سعداء وأشقياء ، وتمني الأشقياء العودة إلى الدنيا : ﴿ يقول : ياليتني قدمت لحياتي .. ﴾ [الآيات : ٢٤ ـ ٢٦] .

٦ ـ الإخبار عن ظفر السعداء بالنعيم العظيم في جنان الله : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة .. ﴾ [الآيات : ٢٧ ـ ٣٠] .

فضلها :

روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل ، فصلى معه ،

فطوّل ، فصلى في ناحية المسجد ، ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذاً ، فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلي معه ، فطوّل علي ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد ، فعلفت ناقتي ، فقال رسول الله ﷺ : « أفتّان يامعاذ ؟ أين أنت من : ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿ والفجر ﴾ ، ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ » .

حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

الإعراب :

﴿ والفجر ، وليال عشر .. ﴾ هذا قسم ، وجوابه : إما قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أو محذوف مقدر تقديره : لتبعثن . والأولى أن يكون جواب القسم محذوفاً وهو ليعذبن ، كما ذكر في الكشاف (٢٣٥/٣) أي وربّ هذه الأشياء ليعذبن الكفار ، وقد دلّ عليه : ﴿ ألم تر كيف فعل ربّك بعاد .. ﴾ إلى قوله : ﴿ فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب ﴾ .

﴿ كيف فعل ربّك بعاد ، إرم ﴾ ﴿ إرم ﴾ : مجرور على البدل ، أو عطف البيان ، ولا يجوز أن يكون وصفاً أو نعتاً ؛ لأنه ليس مشتقاً . و ﴿ إرم ﴾ : ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، ودليل التأنيث وصفها بقوله : ﴿ ذات العماد ﴾ .

البلاغة :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ استفهام تقريري ، لتفخيم شأن الأمور المقسم بها .

﴿ الشفع والوتر ﴾ بينهما طباق .

﴿ فصبّ عليهم ربك سوط عذاب ﴾ استعارة ، شبّه العذاب الشديد النازل بهم بالسوط المؤلم ، واستعمل الصبّ للإنزال .

﴿ وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ﴾ سجع رصين غير متكلف ، وكذا قوله : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ والفجر ﴾ قسم بالوقت الذي ينبلج فيه نور الصبح كل يوم ؛ لتبديد حجب الظلام ، وظهور النور وما يتبعه من الاستعداد والذهاب لقضاء الحوائج وتحقيق المنافع وطلب الرزق ، وهو مثل القسم في قوله تعالى : ﴿والصبح إذا تنفّس ﴾ [التكوير ١٨/٨١] وقوله : ﴿والصبح إذا أسفر ﴾ [المدثر ٣٤/٧٤] .

﴿ وليال عشر ﴾ عشر ذي الحجة ، وتنكيرها للتعظيم . ﴿ والشفع ﴾ الزوج . ﴿ والوتر ﴾ الفرد من تلك الليالي ، والمراد : والأشياء كلها شفعها ووترها ، وكلمة « الوتر » : بفتح الواو وكسرها . ﴿ يسر ﴾ أي يسري بمعنى إذا يمضي ، كقوله : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ [المدثر ٣٣/٧٤] .

﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أي هل في ذلك القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لكل ذي عقل ؟ كأنه يقول : إن هذا لقسم عظيم عند ذوي العقول ، فمن كان عاقلاً أدرك أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيها دلالة على توحيده وقدرته . وجواب القسم محذوف ، أي لتعذبن أيها الكفار . والحِجْر : العقل ، سمي بذلك ؛ لأنه يمنع من الوقوع فيما لا ينبغي .

﴿ ألم تر ﴾ ألم تعلم يا محمد . ﴿ بعاد ﴾ هي قبيلة عربية بائدة ، من أولاد عاد بن عوض بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام ، قوم هود عليه السلام ، سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه ، وتلقب عاد بإرم أيضاً .

﴿ إرم ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف ، أي سبط إرم ، و ﴿ إرم ﴾ : هي عاد الأولى . ﴿ ذات العماد ﴾ ذات البناء الرفيع ، سكان الخيام العالية ، وهذا كناية عن الغنى والبسطة ، وكانت منازلهم بالرمال في الأحقاف بلاد الرمال بين عُمان وحضرموت جنوب جزيرة العرب . ﴿ لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ في بطشهم وقوتهم .

﴿ وثمود ﴾ قبيلة من العرب البائدة أيضاً من ولد كاتر بن إرم بن سام ، كانت تسكن بالحِجْر بين الشام والحجاز ، وهم قوم صالح عليه السلام . ﴿ جابوا الصخر ﴾ قطعوا الصخر ونحتوه واتخذوه بيوتاً . ﴿ بالواد ﴾ وادي القرى . ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام ، صاحب المباني العظيمة الثابتة ثبوت الأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يدق في الأرض .

﴿ طغوا ﴾ تجبروا في البلاد وتجاوزوا الحد في الظلم ، صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ بالقتل والتعذيب والمنكرات . ﴿ فصبّ ﴾ أفرغ وألقى وأنزل بهم العقوبة متتابعة . ﴿ سوط عذاب ﴾ أي نوع عذاب ينزل بهم ، وأصل السوط : الجلد الذي يضفر ليضرب به . ﴿ لبالمرصاد ﴾ أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته شيء منها ، ليجازيهم عليها . وأصل المرصاد : مكان الرصْد أو الراصد ، والرصْد : من يرصُد الأمور ، أي يترقبها ليعرف مافيها من خير أو ضرر ، ويطلق أيضاً على الحارس ، ويطلق على الواحد والجمع والمؤنث ، والترصد : الترقب .

التفسير والبيان :

﴿ والفجر ، وليال عشر ﴾ أي قسماً من الله بالفجر ، أي الصبح الذي يظهر فيه الضوء ، وينبلج النور ؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن الليل ، كل يوم ، وما يترتب عليه من اليقظة والاستعداد لجلب المنافع وتحقيق المصالح بالانتشار في الأرض وطلب الرزق من الإنسان والحيوان ، كما في قوله تعالى : ﴿ والصُّبح إذا تنفَّس ﴾ [التكوير ١٨/٨١] ، وقوله : ﴿ والصُّبح إذا أسْفَرَ ﴾ [المدثر ٣٤/٧٤] . وقيل : المراد : القسم بصلاة الفجر .

وقسماً بالليالي العشر من ذي الحجة ذات الفضيلة ؛ ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً : « مامن أيام العمل الصالح أحبُّ إلى الله فيهنّ من هذه الأيام ـ يعني عشر ذي الحجة ـ قالوا : ولا الجهادُ في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » .

﴿ والشفع والوتر ﴾ أي والزوج والفرد من كل الأشياء ، ومنها هذه الليالي ، أي بما حوته من زوج وفرد .

وقيل : الشفع يوم النحر لأنه عاشر الأيام ، والوتر يوم عرفة لأنه تاسع الأيام ، وقيل : الشفع : يوما التشريق الأول والثاني اللذان يجوز التعجل فيهما بالنفر من منى ، والوتر : اليوم الثالث .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ وقسماً بالليل إذا جاء وأقبل ثم ذهب وأدبر ، كقوله تعالى : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ [المدثر ٣٣/٧٤] ، وقوله : ﴿ والليل إذا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير ١٧/٨١] أي أقبل ظلامه ، أو أدبر ، فكما في إقبال الصبح من عظيم النفع ، في الظلام نفع أيضاً ، حيث تهدأ النفوس ، وتستريح من عناء العمل ، ثم في ذهابه نفع أيضاً حيث يستمان بالراحة التي ارتاحها الجسم للعمل في النهار ، ومجابهة المتاعب والأعمال .

﴿ هل في ذلك قسم لذي حِجْر ﴾ أي أليس في القسم بهذه الأشياء قسم مَقْنع لكل ذي عقل أو لبّ ؟ والحِجْر : العقل ، فمن كان ذا عقل ولبّ ، علم أن ماأقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به .

ثم ذكر الله تعالى بعض قصص الأمم السالفة للمثل والعبرة ـ فقال :

﴿ ألم تر كيف فعل ربّك بعاد ، إرَم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي ألم تعلم أيها الإنسان المخاطب ، كيف أهلك الله قبيلة عاد الأولى ، وهم ولد عاد بن حوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وتلقب أيضاً بإرَم ، فإرم : اسم آخر لعاد الأولى ، كما قال تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم ٥٠/٥٣] ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى . ومساكنهم الأحقاف بلاد الرمال بين عُمان وحضرموت ، ونبيهم هود عليه السلام .

وقد كانوا أهل عَمَد وخيام عالية في الربيع ، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا هاج النبت ، وكانوا طوال القامة ، ذوي أجسام قوية شديدة ، وأشد الناس في زمانهم خلقة ، وأقواهم بطشاً ، ولم يوجد في البلاد كلها مدينة محكمة البنيان ذات

أعمدة طوال منحوتة كمدينتهم ، والصواب لم يوجد مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة كما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذْ جعلَكم خلفاءَ من بعدِ قومِ نوح ، وزادَكم في الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فاذكروا آلاءَ الله ، ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدين ﴾ [الأعراف ٦٩/٧] ، وقال سبحانه : ﴿ فأما عادٌ فاستكبروا في الأرضِ بغيرِ الحقِّ ، وقالُوا : من أشدُّ منّا قوةً ، أولم يَرَوْا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَهم ، هو أشدُّ منهم قُوَّةً ﴾ [فصّلت ١٥/٤١] .

وجواب القسم المبدوء به في أول السورة محذوف تقديره : لتعذبن يا كفار أهل مكة وأمثالكم ، وقد دلّ على الجواب هذه الآية : ﴿ ألم تر كيف فعل ربّك بعاد ؟ ﴾ وما بعدها .

وضمير ﴿ لم يخلق مثلها ﴾ على الصواب عائد على القبيلة ، أي لم يخلق مثل عاد تلك القبيلة في البلاد ، يعني في زمانهم ، وليس على العماد لارتفاعها كما قال ابن زيد ؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال : التي لم يعمل مثلها في البلاد ، وإنما قال : ﴿ لم يخلق مثلها في البلاد ﴾[1] .

﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ أي وقبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه ، وبنوا بالأحجار بيوتاً يسكنون فيها ، وقصوراً وأبنية عظيمة ، في الْحِجْر ما بين الشام والحجاز ، أو وادي القرى ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وتَنْحِتُون من الجبالِ بيوتاً فارهين ﴾ [الشعراء ١٤٩/٢٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وكانوا يَنْحِتُونَ من الجبالِ بيوتاً آمنين ﴾ [الحجر ٨٢/١٥] .

﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ أي وحاكم مصر في عهد موسى عليه السلام ، الذي هو صاحب المباني العظيمة ، ومنها الأهرام التي بناها الفراعنة لتكون قبوراً

---

(١) تفسير ابن كثير : ٥٠٧/٤

لهم ، وسخّروا في بنائها شعوبهم . وقيل : الأوتاد : الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه .

والتعبير بالأوتاد عن الأبنية يشير إلى هياكلهم العظيمة التي لها شكل الأوتاد المقلوبة ، فهي عريضة القاعدة ، ثم تصير رفيعة دقيقة في رأسها .

﴿ الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ أي هؤلاء الذين سبق ذكرهم وهم عاد وثمود وفرعون الذين تجاوزوا في بلادهم الحدّ في الظلم والجور ، وتمردوا وعتوا ، واغتروا بقوتهم ، وأكثروا الفساد فيها بالكفر والمعاصي وظلم العباد .

﴿ فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب ﴾ أي فأنزل الله تعالى على تلك الطوائف نوعاً من العذاب الشديد ، مشبهاً ما أوقعه بهم بالسوط المؤلم الذي يستعمل في تطبيق العقوبات . وقد ذكر نوع عقوباتهم تفصيلاً في سورة الحاقة [الآيات : ٥ ـ ١٠] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ثم ذكر الله تعالى سبب العذاب وهو الجريمة ، فقال :

﴿ إن ربّك لبالمرصاد ﴾ أي إن الله يرصد عمل كل إنسان ، فلا يفوته شيء ، حتى يجازيه عليه بالخير خيراً ، وبالشر شرّاً ، ولا يهمل منه شيئاً قلّ أو كثر ، صغر أو كبر . والمرصاد : المكان الذي يرقب فيه الرصد .

والغرض من تكرار هذه القصص في مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو التذكير بها ، والعظة والعبرة منها ، إما بالاستدلال على قدرته تعالى ، وإما ببيان قهره العباد ، وإما بإنذارهم وتخويفهم ، ليدركوا أن ما جرى على شخص أو قوم ، يجري على النظير والمثيل .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ حتمية عذاب الكفار ، فقد أقسم الله تعالى بالفجر أي الصبح أو بصلاة الفجر ، وبالليالي العشر من ذي الحجة ، وبالشفع والوتر أي الزوج والفرد من الأشياء كلها ؛ لأن الموجودات لاتخلو من هذين القسمين ، فتكون كقوله : ﴿ فلا أُقسم بما تُبصرون وما لاتبصرون ﴾ [الحاقة ٣٨/٦٩ ـ ٣٩] ، وبالليل إذا يسري أي يمضي كقوله : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ [المدثر ٣٣/٧٤] والمراد عموم الليل كله ، أقسم الله بهذه الأشياء على أنه ليعذبن الكفار .

وإقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبئ عن شرفها ، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية ، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد ، أو توجب الحثّ على الشكر[1] . قال القرطبي : قد يُقسِم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : ﴿ وما خلق الذكَرَ والأنثى ﴾ [الليل ٣/٩٢] ويقسم بمفعولاته ، لعجائب صنعه ؛ كما قال : ﴿ والشمس وضُحاها ﴾ [الشمس ١/٩١] ، ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس ٥/٩١] ، ﴿ والسماء والطارق ﴾ [الطارق ١/٨٦][2] .

٢ ـ أكّد الله تعالى ماأقسم به وأقسم عليه بقوله : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حِجْر ﴾ أي بل في ذلك مَقْنع لذي لُبّ وعقل ، فالمراد بالاستفهام تقرير أن هذه المذكورات لشرفها وعظم شأنها يحق أن يؤكد بمثلها المقسم عليه ، وهو تعذيب الكفار ، كَمَنْ ذَكَر حجة باهرة ، ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ يريد أنه

---

(١) تفسير الرازي : ١٦١/٣١

(٢) تفسير القرطبي : ٤١/٢٠

لاحجة فوق هذا . ومن هنا قال بعضهم : فيه دليل على أنه تعالى أراد ربّ هذه الأشياء ، ليكون غاية في القسم .

٣ ـ ذكر الله تعالى للعبرة ، ولتسلية النبي ﷺ قصة ثلاث فرق على سبيل الإجمال ؛ لأنهم أعلام في القوة والشدة والتجبر ، وهم عاد الأولى أو إرم ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد ، ومعنى إرم : القديمة ، والتي لم يخلق مثل تلك القبيلة في زمنها في البلاد ، قوة وشدة ، وعظم أجساد ، وطول قامة .

وثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه ، وبنوا به البيوت العظيمة بوادي القرى ، قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصور والرخام : ثمود ، فبنوا من المدائن ألفاً وسبع مئة مدينة كلها من الحجارة ، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبع مئة ألف ، كلها من الحجارة .

وفرعون حاكم مصر ذو الأوتاد أي صاحب الأبنية الشاهقة ، أو الجنود الكثيرة أو الأوتاد الأربعة لتعذيب الناس .

٤ ـ هؤلاء الطوائف الثلاث : عاد وثمود وفرعون طغوا في البلاد ، أي تجاوزوا الحدّ في الظلم والعدوان ، وتمرّدوا وعَتَوْا ، فأكثروا فيها الفساد ، أي الجور والأذى ، فعاقبهم الله عقاباً شديداً ، وصبّ عليهم سوط عذاب ، أي أفرغ عليهم وألقى نوعاً من العذاب الشديد عليهم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

وفيه إشارة إلى أن عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة كالسوط بالنسبة إلى القتل مثلاً ، ثم أشار إلى عذاب الآخرة أو إليه مع عذاب الدنيا بقوله : ﴿ إن ربّك لبالمرصاد ﴾ أي يمهل ولكنه لا يهمل ، ويرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به .

توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تماديه في الدنيا

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

الإعراب :

﴿ فأما الإنسان .. فيقول : ربي أكرمني ﴾ ﴿ الإنسان ﴾ : مبتدأ ، وجملة ﴿ فيقول .. ﴾ خبر المبتدأ ، وأتى بالفاء لأن في « أما » معنى الشرط بالإنعام . والظرف المتوسط : ﴿ إذا ما ابتلاه .. ﴾ في تقدير التأخير ، كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل : ربي أكرمني وقت ابتلائه .

﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ إما أن يكون ﴿ طعام ﴾ بمعنى إطعام ، فيكون اسماً أقيم مقام المصدر ، مثل : سلمت عليه سلاماً ، أي تسليماً ، وكلمته كلاماً ، أي تكليماً ، وإقامة الاسم مقام المصدر كثير في كلام العرب ، وإما أن يكون التقدير فيه : ولا تحضون على إطعام طعام المسكين ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

البلاغة :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه .. ﴾ وقوله : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه .. ﴾ بينهما مقابلة ، قابل بين ﴿ أكرمن ﴾ و ﴿ أهانن ﴾ ، وبين توسعة الرزق وتضييقه .

﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب . والأصل أن يقال : كلا بل لا يكرمون .

المفردات اللغوية :

﴿ فأما الإنسان ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال البيضاوي : كأنه قيل : إنه لبالمرصاد في الآخرة ، فلا يريد إلا السعي لها ، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها . ﴿ إذا ما ابتلاه ربه ﴾ اختبره بالغنى واليسر . ﴿ فأكرمه ونعّمه ﴾ بالجاه والمال . ﴿ فيقول : ربي أكرمن ﴾ فضّلني بما أعطاني ، وصيّرني مكرماً ، يتمتع بالنعيم .

﴿ إذا ماابتلاه ﴾ بالفقر والتقتير ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ ضيّقه . ﴿ أهانني ﴾ أذلني وبادرني بالإهانة ، وهذا لقصور نظره وسوء تفكيره ، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين ، والتوسعة قد تؤدي إلى الانهماك في حبّ الدنيا .

ولذلك ذمّه على قوليه السابقين وردعه بقوله : ﴿ كلا ﴾ كلمة للردع والزجر ، أي ليس الإكرام بالغنى ، والإهانة بالفقر ، وإنما هو بالطاعة والمعصية ، والكفار لا يتنبهون لذلك . ﴿ لاتكرمون اليتيم ﴾ لايحسنون إليهم مع غناهم . ﴿ ولا يحضون على طعام المسكين ﴾ لايحثون أنفسهم أو غيرهم على إطعام المسكين ، وقراءة حفص : ﴿ تكرمون ﴾ ، و ﴿ تحضون ﴾ . ﴿ لاتكرمون اليتيم ﴾ لايحسنون إليهم مع غناهم . ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ لايحثون أنفسهم أو غيرهم على إطعام المسكين ، وقراءة حفص : ﴿ تكرمون ﴾ ، و ﴿ تحضون ﴾ . ﴿ وتأكلون التراث ﴾ الميراث . ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ شديداً ذا لمّ ، أي جمع بين الحلال والحرام ، فإنهم لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أنصباءهم . ﴿ وتحبّون المال حبّاً جمّاً ﴾ حبّاً كثيراً .

المناسبة :

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه بمرصد من أعمال بني آدم ، يراقبهم ويجازيهم ، عقّبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة ، وفرط تماديه في إصلاح المعاش الدنيوي ، كأنه قيل : إن الله يؤثر الآخرة ويرغّب فيها ، وأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها ، فإذا صار في راحة قال : ربي أكرمني ورفعني ، وإن فقد الراحة قال : ربي أهانني وأذلني .

وبعد بيان خطأ الإنسان في تصوره واعتقاده هذا ، زجر الناس عن تقصيرهم وارتكابهم المنكرات ، ونبّه لما هو شرّ من ذلك ، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال ، ثم لا يؤدون حق الله فيه ، فلا يحسنون إلى اليتامى والمساكين ، ويتناهبون الميراث دون إعطاء النساء والصبيان حقوقهم ، ويحرصون على جمع المال حرصاً شديداً .

التفسير والبيان :

﴿ فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربّه ، فأكرمه ونعّمه ، فيقول : ربي أكرمن ﴾ أي إن الإنسان مخطئ في تفكيره أنه إذا امتحنه ربّه واختبره بالنعم ، فأكرمه

بالمال ، ووسع عليه الرزق ، فيقول : ربي أكرمني وفضلني واصطفاني ورفعني وعافاني من العقوبة ، معتقداً أن ذلك هو الكرامة ، فرحاً بما نال ، وسروراً بما أعطي ، غير شاكرٍ الله على ذلك ، ولا مدرك أن ذلك امتحان له من ربّه .

والمراد بالإنسان الجنس ، وليس الكافر فقط ، ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام[1] .

والمقصود من الآية أن الله ينكر على الإنسان ويوبخه في اعتقاده أنه إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره فيه ، كان ذلك إكراماً من الله له ، وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان ، كما قال تعالى : ﴿ أيحسَبُون أنّما نُمِدُّهم به مِنْ مالٍ وبنين ، نسارِعُ لهم في الخيراتِ ، بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون ٢٣/٥٥ ـ ٥٦] .

ونظيره أيضاً قوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ يَعْلَمُون ظاهراً من الحياةِ الدنيا ، وهُم عن الآخرةِ هم غافِلُون ﴾ [الروم ٣٠/٧] ، وقوله أيضاً : ﴿ ومِنَ الناسِ من يعبدُ الله على حَرْفٍ ، فإن أصابه خيرٌ اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجههِ ﴾ [الحج ٢٢/١٠] .

والخلاصة : أن الغنى والثروة أو الجاه والسلطة ليس دليلاً على رضا الله عن العبد ؛ لأن ذلك لاقيمة له عند الله تعالى .

ثم ذكر الجانب الآخر وهو أن الفقر والتقتير ليس دليلاً على سخط الله على العبد ، فقال : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ، فقدر عليه رزقه ، فيقول : ربي أهانن ﴾ أي وأما إذا ما اختبره وامتحنه بالفقر والتقتير ، وضيّق عليه رزقه ولم يوسعه له ، فيقول : ربي أهانني وأذلني . وهذا خطأ أيضاً فلا يصح أن يعتقد أن ذلك إهانة له وإذلال لنفسه .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٤٧٠

فالإنسان مخطئ في الحالين ؛ لأن سعة الرزق لاتدل على أحقية العبد لها ، بدليل مانشاهده من غنى الكفار وثروة الفساق والعصاة .

وضيق الرزق ليس دليلاً على عدم الاستحقاق ، بدليل ما نراه من فقر بعض الأنبياء وأكابر المؤمنين والصلحاء والعلماء .

والكرامة عند الله للطائع الموفق لعمل الآخرة ، والإهانة والخذلان عند الله للعاصي غير الموفق للطاعة وعمل أهل الجنة ، وليست سعة الدنيا كرامة ورفعة ، ولا ضيقها إهانة ومذلة ، وإنما الغنى اختبار للغني هل يشكر ، والفقر اختبار له هل يصبر[1] .

ونظراً للخطأ في الحالين ردع الله الإنسان بقوله :

﴿ كلا بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ أي ردع وزجر للإنسان القائل في الحالتين السابقتين ماقال ، فليس الأمر كما زعم ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لايحب ، ويضيق على من يحب ومن لايحب ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين ، فإذا كان غنياً ، شكر الله على نعمته ، واذا كان فقيراً صبر .

وبعد أن ذمّهم على قبح الأقوال ، ذمّهم على قبح الأفعال الذي هو شرّ من سابقه ، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال ، ثم لا يؤدون حق الله فيه ، فأنتم أيها الأغنياء الموسرون لاتكرمون اليتيم ولا تحسنون إليه ، ولا تحضون أنفسكم أو غيركم على إطعام المساكين ، ولا يحث بعضكم بعضاً على صلة الفقراء ، ولا تأمرون بعضكم بعضاً بالإحسان إلى المحتاجين .

وفي قوله : ﴿ بل لاتكرمون اليتيم ﴾ أمر بإكرام الأيتام ، كما جاء في

---

(١) فتح القدير للشوكاني .

الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسَن إليه ، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه ، ثم قال بأصبعيه : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » . وروى أبو داود عن سهل بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه : الوسطى والتي تلي الإبهام . قال مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حِجْر أمية بن خلف ، وكان يدفعه عن حقه ، فنزلت .

فترك إكرام اليتيم : ترك برّه ، ودفعه عن حقه الثابت له في الميراث ، وأخذ ماله منه .

﴿ وتأكلون التراث أكلاً لَمّاً ، وتحبون المال حبّاً جَمّاً ﴾ أي وإنكم تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، وجمعاً من أي جهة حصل ، من حلال أو حرام .

وتحبون المال حبّاً كثيراً فاحشاً ، والجمّ : الكثير ، قال بعضهم :

إن تغفر اللهمّ تغفر جمّـــاً وأيُّ عبـــد لـــك لا ألمّـــا

والخلاصة : أنكم تؤثرون الدنيا على الآخرة ، والله يحب السعي للآخرة ، وترك الإفراط والمغالاة والتمادي في حبّ الدنيا وملذاتها .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ يخطئ الإنسان في فهم حال الغنى والفقر ، فليس الغنى وبسط الرزق دليلاً على الإكرام والتفضيل والاصطفاء ، كما أن الفقر ليس دليلاً على الإهانة والإذلال .

فالكرامة عند الله والهوان ليس بكثرة الحظ في الدنيا وقلته ، وإنما الكرامة

عنده أن يكرم الله العبد بطاعته وتوفيقه ، المؤدي إلى حظ الآخرة ، وإن وسّع عليه في الدنيا حمده وشكره .

والله لا يريد من عبده إلا الطاعة والسعي للعاقبة الآخرة ، وأما الإنسان فلا يريد ذلك ، ولا يهمه إلا الدنيا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها .

٢ ـ أكّد تعالى المعنى السابق بكلمة ﴿ كلا ﴾ للرد على سوء فهم الإنسان ، وزجراً وردعاً له عن اعتقاده وتصوره السابق ، فليس الأمر كما يَظُنُّ ، بأن الغنى لفضله ، والفقر لهوانه ، وإنما الغنى والفقر من تقدير الله وقضائه ، وعلى العبد أن يحمد الله عزّ وجلّ على الفقر والغنى . جاء في الحديث : « يقول الله عزّ وجلّ : كلا ، إني لاأكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ، ولا أهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي ، وأهين من أهنت بمعصيتي »[1] .

٣ ـ أخبر الله تعالى عما كان الناس يصنعونه من ترك بِرّ اليتيم ومنعه من الميراث ، وأكل ماله إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، وأنهم لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم ، وأكلهم ميراث اليتامى والنساء والصبيان أكلاً شديداً وجمعاً شاملاً ، ومحبتهم المال حبّاً جَمّاً ، كثيراً ، فقد كان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان ، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم ، وتُراثهم مع تُراثهم ، وكانوا يجمعون المال دون تفرقة بين الحلال والحرام .

وهذا ما يشيع الآن كثيراً في العالم ، بل بين المسلمين أنفسهم .

---

(١) تفسير القرطبي : ٥٢/٢٠

حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفع عنها يوم القيامة

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

الإعراب :

﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ قوله تعالى : ﴿ فيومئذٍ لا يعذّب عذابه ﴾ . و ﴿ دكاً دكاً ﴾ : منصوب على المصدر المؤكد ، وكرر للتأكيد .

﴿ صفاً صفاً ﴾ منصوب على المصدر ، في موضع الحال ، أي مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة .

﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان ﴾ ﴿ بجهنم ﴾ : في موضع رفع نائب فاعل . و ﴿ يومئذٍ ﴾ الأول : ظرف متعلق بـ ﴿ جيء ﴾ ، و﴿ يومئذٍ ﴾ الثاني : إما بدل من ﴿ يومئذٍ ﴾ الأول ، أو يتعلق بـ ﴿ يتذكر ﴾ .

﴿ لا يعذّب عذابه أحد ، ولا يُوثِق وَثَاقه أحد ﴾ قرئ ﴿ يعذب ﴾ و ﴿ يوثق ﴾ بكسر الذال وفتحها ، وبكسر الثاء وفتحها ، فمن قرأ بكسر الذال والثاء ، كان تقديره : لا يعذّب أحدٌ أحداً عذاباً مثل عذابه ، ولا يوثق أحدٌ أحداً وثاقاً مثل وثاقه ، والهاء تعود على الله تعالى ، وإن لم يذكر ، لدلالة الحال عليه . و ﴿ عذابه ﴾ و ﴿ وثاقه ﴾ : منصوبان على المصدر ، والمصدر مضاف إلى الفاعل ، و ﴿ أحد ﴾ فاعل مرفوع .

ومن قرأ بفتحها كان تقديره : لا يعذّب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، والهاء تعود على الإنسان ، لتقدم ذكره ، والمصدر مضاف إلى المفعول ، و ﴿ احد ﴾ : نائب فاعل .

﴿ راضية مرضية ﴾ حالان .

البلاغة :

﴿ يتذكر ﴾ و ﴿ الذكرى ﴾ بينهما جناس اشتقاق ، وكذا بين ﴿ لا يعذب عذابه ﴾ وبين ﴿ ولا يوثق وثاقه ﴾ .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ الإضافة إلى الله للتشريف .

المفردات اللغوية :

﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم : وهو التقصير في أداء الحقوق . ﴿ إذا دكت الأرض دكّاً دكّاً ﴾ زلزلت حتى يتهدم كل بناء عليها وينعدم ، دكّاً بعد دكّ حتى صارت الجبال والتلال هباءً منبثاً ، وأرضاً مستوية . والدكّ : الهدم والتسوية للشيء المرتفع ، قال المبرد : الدكّ : حطّ المرتفع بالبسط ، واندك سنام البعير : إذا انفرش في ظهره ، ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش . وجواب ﴿ إذا ﴾ هو قوله : ﴿ فيومئذٍ لا يعذب .. ﴾ .

﴿ وجاء ربّك ﴾ أمر ربّك وظهرت آيات قدرته وآثار قهره . ﴿ والْمَلَك ﴾ الملائكة . ﴿ صفّاً صفّاً ﴾ مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة بحسب منازلهم ومراتبهم . ﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾ كشفت للناظرين بعد الغيبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وبُرِّزت الجحيمُ لمن يَرَى ﴾ [النازعات ٣٦/٧٩] . ﴿ يتذكّر الإنسان ﴾ يتذكر معاصيه ، أو يتعظ ؛ لأنه يعلم قبحها ، فيندم عليها . ﴿ وأنّى له الذكرى ﴾ أي ومن أين له فائدة التذكر ، وقد فات الأوان ؟ وهو استفهام بمعنى النفي ، أي لا ينفعه تذكره ذلك ، واستدل به على عدم قبول التوبة في الآخرة . ﴿ يقول : ياليتني قدمت لحياتي ﴾ أي يقول مع تذكره : ياليتني قدمت لحياتي هذه الخيرَ والإيمان ، أو وقت حياتي في الدنيا ، و ﴿ يا ﴾ : للتنبيه .

﴿ فيومئذٍ لا يعذّب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أي لا يتولى أحد عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواه ، إذ الأمر كله له ، ولا يعذّب أحد مثل تعذيبه ، ولا يوثق مثل إيثاقه ، والوثاق : الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال . وضمير ﴿ عذابه ﴾ و ﴿ وثاقه ﴾ للكافر .

﴿ ياأيتها النفس ﴾ أي يقال لها عند الموت ما يأتي . ﴿ المطمئنة ﴾ المستقرة الثابتة المتيقنة بالحق ، الآمنة وهي المؤمنة التي اطمأنت بذكر الله . ﴿ ارجعي إلى ربّك ﴾ ارجعي إلى ثوابه وتكريمه ، وأمره وإرادته . ﴿ راضية ﴾ بالثواب . ﴿ مرضية ﴾ عند الله بعملك ، أي جامعة بين الوصفين . ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ في جملة أو في زمرة عبادي الصالحين المقرّبين المكرّمين . ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم .

سبب النزول :

نزول الآية (٢٧) :

﴿ يـاأيتهـا النفس .. ﴾ : أخرج ابن أبي حـاتم عن بريـدة في قولـه : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : نزلت في حمزة .

وأخرج أيضاً عن ابن عبـاس : أن النبي ﷺ قـال : من يشتري بئر رُومـة ، يستعذب بها ، غفر الله له ، فاشتراها عثمان ، فقال : هل لـك أن تجعلهـا سقـايـة للناس ؟ قال : نعم ، فأنزل الله في عثمان : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة .. ﴾ .

المناسبة :

بعـد أن أنكر الله على النـاس تصـورهم عن الغنى والفقر ، وأفعـالهم المنكرة ، بالحرص على الدنيا ، وإيثارها على الآخرة ، وترك المواسـاة منهـا ، وجمعهـا دون تفرقـة بين حلال أو حرام ، ردعهم عن ذلـك ، وأخبر عمـا يقع يـوم القيـامـة من الأهوال العظيمـة ، وأبـان أنهم ينـدمون حين لا ينفع النـدم : ﴿ يقـول : يـاليتني قدمت لحياتي ﴾ فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل ، ثم ذكر تحسر المقصر في طـاعـة الله يوم القيامة : ﴿ يوم يتذكر الإنسان ، وأنى له الذكرى ﴾ .

وبعد بيان حال هـذا الإنسـان الحريص على الـدنيـا ، ذكر الله تعـالى حـال المؤمن المخلص المترفع عنهـا ، المتسـامي بطبعـه إلى مراتب الكمـال ، فيكون جزاؤه دخول الجنان في زمرة الصالحين المقربين من عباد الله تعالى .

التفسير والبيان :

﴿ كـلا إذا دكّت الأرض دكّـاً دكّـاً ﴾ أي زجراً وردعـاً لأقـوالكم وأفعـالكم هذه ، ولا ينبغي أن يكون هكـذا عملكم في الحرص على الـدنيـا ، وترك المواسـاة

منها ، وجمع الأموال فيها من حيث تتهيأ ، دون تفرقة بين حلال وحرام ، وتوهم ألا حساب ولا جزاء .

وسيأتي يوم القيامة وما يقع فيه من الأهوال الرهيبة ، وتظهر فيه أوصاف ثلاثة ، فتدكّ الأرض دكّاً بعد دكّ ، أي تكسر وتدق ، وتتزلزل وتتحرك تحركاً بعد تحريك ، وتهدّ جبالها حتى تستوي مع سطح الأرض ، فتسوّى الأرض والجبال ، ويقوم الناس من قبورهم . وقوله : ﴿ دكّاً دكّاً ﴾ يدل على تكرار الدكّ حتى صارت الجبال هباءً منبثاً .

﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ أي وجاء الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده ، وتصدر أوامره وأحكامه بالجزاء والحساب ، وتظهر آيات قدرته وآثار قهره ، ويقف الملائكة مصطفين صفوفاً للحراسة والحفظ والهيبة . وهذه هي الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم .

﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾ أي وكشفت للناظرين بعد غيبتها وتحجبها عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وبرّزت الجحيم للغاوين ﴾ [الشعراء٢٦/٩١] ، وقال أيضاً : ﴿ وبرّزت الجحيمُ لمن يرى ﴾ [النازعات ٧٩/٣٦] . وهذه هي الصفة الثالثة من صفات ذلك اليوم .

﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان ، وأنى له الذكرى ، يقول : ياليتني قدمت لحياتي ﴾ أي في ذلك اليوم يندم الإنسان على ماقدّم في الدنيا من الكفر والمعاصي ، وعلى ماعمل من أعمال السوء ، وكيف تنفعه الذكرى ؟ أي لاتنفعه ، فقد فات الأوان ، وإنما كانت تنفعه الذكرى لوتذكر الحق قبل حضور الموت . ويقول مبيناً تذكره : ياليتني قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي الأخروية الدائمة الباقية ، فهي الحياة الأخيرة لأهل النار ولأهل الجنة جميعاً . ويصح جعل اللام بمعنى الوقت ، أي وقت حياتي في الدنيا .

قال الرازي : فيه دليل على أن قبول التوبة على الله لا يجب عقلاً . والواقع أن الآية ليست في هذا الجانب ، لأنه لا يلزم من عدم قبول التوبة في الآخرة عدم قبولها في دار التكليف في الدنيا ، كإيمان اليأس .

﴿ فيومئذٍ لا يعذّب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ هذا جواب الشرط السابق في ﴿ إذا دكّت .. ﴾ أي فيومئذٍ لا يتولى أحد تعذيب العصاة وحسابهم وجزاءهم ووثاقهم ، ولا يعذب أحد مثل عذاب الله ، ولا يوثق أحد الكافرَ بالسلاسل والأغلال كوثاق الله .

وفي هذا ترغيب بالعمل الصالح والإيمان ، وترهيب من الكفر والعصيان .

ثم ذكر حال الإنسان المترفع عن أطماعه وملذاته وشهواته في الدنيا وبشارة الأبرار ، فقال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ أي يقول الله للمؤمن ، بذاته أو على لسان مَلَك : يا أيتها النفس الموقنة بالإيمان والحق وتوحيد الله ، التي لا يخالجها شك في صدق عقيدتها ، وقد رضيت بقضاء الله وقدره ، ووقفت عند حدود الشرع ، فتجيء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله ، ثابتة لا تتزعزع ، آمنة مؤمنة غير خائفة ، ارجعي إلى ثواب ربك الذي أعطاك ، وإلى محل كرامته الذي منحك إياه ، راضية بهذا الثواب عما عملت في الدنيا ، وبما حكم الله ، ومرضية عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ رَضِيَ الله عنهم ، ورَضُوا عنه ﴾ [البيّنة ٨/٩٨] وهذه هي صفة ارباب النفوس الكاملة .

فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ، وكوني في جملتهم ، وادخلي معهم جنتي ، فتلك هي الكرامة لا كرامة سواها ، جعلنا الله من أهلها ، والظاهر العموم ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت به الآية .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ زجر الله الناس وردعهم عن انكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها ، فإن من يفعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض ولا ينفع الندم .

٢ ـ وصف الله يوم القيامة بصفات ثلاث هي :

الأولى ـ دكّ الأرض ، أي زلزلتها وتحريكها بشدة تحريكاً بعد تحريك ، ومرة بعد مرة .

الثانية ـ مجيء أمر الله وقضائه وآياته العظيمة واصطفاف الملائكة صفوفاً ، كقوله تعالى : ﴿ هل يَنْظُرون إلا أن يأتيَهم الله في ظُلَلٍ من الغمَام والملائكةُ ، وقُضي الأمر ، وإلى اللهِ تُرجع الأمورُ ﴾ [البقرة ٢/٢١٠] .

الثالثة ـ بروز جهنم وانكشافها وظهورها للناس بعد احتجابها عنهم .

٣ ـ في يوم القيامة يتعظ الكافر ويتوب ، كما يتعظ من حرصه على الدنيا دون الآخرة ، ولكن من أين له الاتعاظ والتوبة والمنفعة ، وقد فرط فيها في الدنيا . ويقول نادماً متأسفاً : ياليتني قدمت في الدنيا عملاً صالحاً لحياتي الأخيرة التي لا موت فيها .

٤ ـ لا يُعذِّب أحد كعذاب الله ، ولا يُوثق بالسلاسل والأغلال أحد كوثاق الله ، وهذه كناية ترجع إلى الله تعالى ، في حق المجرمين من الخلائق ، تعني أن السلطان المطلق في الحساب والجزاء لله ، ولا يخرج أحد عن قبضة الله وسلطانه .

٥ ـ أما النفس الزكية المطمئنة بالإيمان والعمل الصالح وبوعد الله دون خوف ولا فزع ، فيقال لها : ارجعي إلى رضوان ربّك وجنته ، راضية بما أعطاك الله من النعم ، مرضية عند الله بما قدمت من عمل . وهذا الخطاب والنداء يكون عند الموت أو الاحتضار ، كما ذكر المفسرون ، وتتمة المقالة : فادخلي في زمرة عباد الله الصالحين ، وادخلي جنتي دار الأبرار المقربين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

مكيّة ، وهي عشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة البلد ؛ لأن الله تعالى أقسم في فاتحتها بالبلد الحرام (مكة) الذي شرفه الله بالبيت العتيق ، وجعله قبلة المسلمين ، تعظيماً لشأنه .

مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين :

١ ـ ذم الله تعالى في السورة السابقة (الفجر) من أحب المال ، وأكل التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة (إعتاق العبيد) والإطعام في يوم المسغبة (المجاعة) .

٢ ـ ختم الله تعالى السورة المتقدمة ببيان حال النفس المطمئنة في الآخرة ، وذكر هنا طريق الاطمئنان ، وحذّر من ضده وهو الكفر بآيات الله ومخالفة أوامر الرحمن .

ماشتملت عليه السورة :

محور هذه السورة المكية الحديث عن سعادة الإنسان وشقاوته ، ومنهجه في اختيار أحد الطريقين . بدأت بالقسم بالبلد الحرام ـ مكة أم القرى ، التي يأمن

الناس فيها ، تنبيهاً على عظمة قدرها ، سواء في حال الإحرام أو الحل ، وتنويهاً بموطن النبي ﷺ وتعظيم تحريم إيذائه في البلد الأمين ، ثم ذكرت المقسم عليه وهو أن حال الإنسان في الدنيا في نصب وتعب : ﴿ لاأقسم بهذا البلد .. ﴾ [الآيات ١ ـ ٤] .

وأردفت ذلك بالإخبار عن خلق ذميم في الإنسان وهو اغتراره بقوته ، مما حدا بكفار مكة الذين اغتروا بقوتهم أن يعاندوا الحق ، ويكذبوا رسول الله ﷺ ، وينفقوا أموالهم في المفاسد والشرور ، وهو شأن المفتونين المغرورين بمالهم وغناهم : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد .. ﴾ [الآيات ٥ ـ ٧] .

ثم ذكّرت الإنسان بما أنعم الله عليه من العينين واللسان والشفتين وبيان طريق الخير والشر له ، واختياره أحد السبيلين بعقله وإرادته : ﴿ ألم نجعل له عينين .. ﴾ [الآيات ٨ ـ ١٠] .

ثم أبانت للإنسان ما يعترضه من الأهوال والمصاعب يوم القيامة وطريق اجتيازها بالإيمان والعمل الصالح وإنفاق المال في جهات البر والخير ، ليكون من الأبرار السعداء أهل اليمين : ﴿ فلا اقتحم العقبة .. ﴾ [الآيات ١١ـ١٨] .

وقابلت ذلك بتوضيح منهج الأشقياء الفجار أهل الشمال ، وهو الكفر بآيات الله ، فيتميز المؤمنون عن الكفار ، ويتبين مآل الفريقين إما إلى الجنة أو إلى النار : ﴿ والذين كفروا بآياتنا .. ﴾ [١٩ ـ ٢٠] .

ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤
أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧

الإعراب :

﴿ أيحسب أن لن يقدر .. ﴾ أن مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي أنه .

البلاغة :

﴿ لاأقسم بهذا البلد ﴾ أي أقسم بهذا البلد ، وزيادة ﴿ لا ﴾ لتأكيد الكلام وتأكيد القسم ، تقول : لا والله ماقلت كذا ، أي والله . وهذا مستفيض في لغة العرب .

﴿ ووالد وما ولد ﴾ بينهما جناس اشتقاق ، فكل من الوالد والولد مشتق من الولاد .

﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ ، وكذا قوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ .

﴿ لاأقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ لاأقسم ﴾ أي أقسم . ﴿ بهذا البلد ﴾ مكة . ﴿ وأنت حِلّ بهذا البلد ﴾ أي وأنت يا محمد حلال وحالّ مقيم فيه ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام ، وحال كون النبي ﷺ مقيم فيه ، إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله . وهذه الجملة وما بعدها اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله بعدئذ : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ .

﴿ ووالد وما ولد ﴾ أي وأقسم بكل والد كآدم أو إبراهيم وغيرهما ، وبكل مولود من أي شيء آخر ، والمراد : أن الله أقسم ببلد النبي ﷺ الذي هو مسقط رأسه ، وحرم أبيه إبراهيم ، ومنشأ أبيه

إسماعيل ، وبن ولد فيه . والتنكير للتعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران ٣٦/٣] أي بأي شيء وضعت ، يعني موضوعاً عظيم الشأن .

﴿ لقد خلقنا الإنسان ﴾ جنس الإنسان . ﴿ في كبد ﴾ أي خلقناه مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد ، والتعب والنصب ، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه ومنتهاها الموت وما بعده ، وهو تسلية وتثبيت للرسول ﷺ مما كان يكابده من قريش ، وبَعْث له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم في عداوته .

﴿ أيحسب ﴾ أيظن الإنسان . ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أي أنه يغتر بقوته ، ويعتقد ألا أحد ينتقم منه ولكن الله قادر عليه ، كأبي الأشد بن كَلَدة ، فإنه كان يُبْسَط تحت قدمه أديم عكاظي ، ويجذبه عشرة ، فينقطع ، ولا تَزِلّ قدماه . ﴿ يقول : أهلكت مالاً لُبَداً ﴾ أي وأنه يقول : أنفقت مالاً كثيراً ، من تليد الشيء : إذا اجتمع ، على عداوة محمد ، أو سمعة ومفاخرة . ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ فيما أنفقه ، فيعلم قدره ، والله عالم بقدره ، وأنه ليس مما يتكثر به ، ومجازيه على فعله السيء .

سبب النزول :

نزول الآية (٥) :

﴿ أيحسب أن لن يقدر ﴾ : روي أن هذه الآية : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ ﴾ نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الْجُمَحي ، الذي كان مغتراً بقوته البدنية . قال ابن عباس : كان أبو الأشدّين يقول : أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً ، وهو في ذلك كاذب .

نزول الآية (٦) :

﴿ يقول أهلكت .. ﴾ : قال مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب ، فاستفتى النبي ﷺ ، فأمره أن يُكَفِّر ، فقال : لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات ، منذ دخلت في دين محمد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق ، فيكون طغياناً منه ، أو أسفاً عليه ، فيكون ندماً منه .

التفسير والبيان :

﴿ لاأقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ﴾ أي أقسم بالبلد الحرام وهو مكة ، تنبيهاً على كرامة أم القرى وشرفها عند الله تعالى ؛ لأن فيها بيته الحرام قبلة المسلمين ، وهي بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وفيها مناسك الحج . وقوله : ﴿ لاأقسم ﴾ قسم مؤكد وليس نفياً للقسم ، كقول العرب : لا والله لا فعلت كذا ، ولا والله ما كان كذا ، ولا والله لأفعلن كذا .

أُقسم بهذا البلد في حال كون الساكن فيها حلالاً مقيماً بها وهو محمد ﷺ وكل من دخله : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران ٩٧/٣] تشريفاً لك ، وتعظيماً لقدرك ؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، ولا شك أن الأمكنة تشرف بأهلها . والحل : الحلال . ورد في الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

والمراد أن مكة عظيمة القدر في كل حال ، حتى في حال اعتقاد الكفار أنك حلال لا حرمة لك ، فلا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك . وفي هذا تقريع وتوبيخ لهم .

وأقسم بكل والد ومولود من الإنسان والحيوان ، تنبيهاً على عظم آية التناسل والتوالد ، ودلالتها على قدرة الله وحكمته وعلمه .

ثم ذكر المقسم عليه ، فقال :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ أي لقد خلقنا الإنسان مغموراً بالتعب والنصب ، وفي مكابدة المشاقّ والشدائد ، فهو لا يزال في تلك المكابدة بدءاً من

الولادة ، إلى المتاعب المعيشية والأمراض الطارئة ، ثم إلى الموت وما يتبعه في قبره والبرزخ وآخرته من شدائد ومتاعب وأهوال .

وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ ، وحَمْله على احتمال مكائد أهل مكة ، وصبره على المشاق والمتاعب ، فذلك لا يخلو منه إنسان ، وفيه لوم لهم على عداوته .

ثم وبخ الإنسان على الاغترار بقوته ، فقال :

﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ ﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ، ولا ينتقم منه أحد ، فإن الله هو القادر على كل شيء .

ثم لام الإنسان على الإنفاق مراءاة ، فقال :

﴿ يقول : أهلكت مالاً لبداً ﴾ أي أنفقت مالاً كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض . والمراد أن الإنسان يقول في يوم القيامة : أنفقت مالاً كثيراً فيما كان يسميه أهل الجاهلية مكارم ، ويدعونه معالي ومفاخر .

ثم عابه على جهله ، فقال :

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ؟ ﴾ أي أيظن الإنسان والمدعي النفقة في سبيل الخير أن الله سبحانه لم يطلع عليه ، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله تعالى بالبلد الحرام ـ مكة أم القرى ، وبالوالد والمولود كآدم وذريته ، وكل أب وولده ، وما يتوالده الحيوان ، على أنه خلق الإنسان مغموراً في شدة وعناء من مكابدة الدنيا .

ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها ، والمراد تعظيم البلد الحرام المشتمل على البيت العتيق ، وكونه بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ووجود مناسك الحج فيه ومنشأ كل بركة وخير ، وتظل الحرمة لهذا البلد ، وإن اعتقد كفار مكة أن محمداً ﷺ حلال لهم ، لا حرمة له .

والقسم بالوالد والولد ونسلهم ؛ لأنهم أعجب ماخلق الله تعالى على وجه الأرض ؛ لما فيهم من التّبيان والنطق والتدبير ، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى .

٢ ـ وبخ الله تعالى الإنسان على بعض الأفكار والاعتقادات والتصورات ، كظنه ألا قدرة لأحد عليه ، وإنفاقه المال الكثير مراءاة ، أو مضايقة من أداء الواجبات المالية الخيرية ، وجهله بأن الله عالم به مطلع على جميع أقواله وأفعاله ، وسائله عن ماله من أين كسبه ، وفي أي شيء أنفقه ؟

إن الله قادر على كل شيء من الإنسان والحيوان والجماد والنبات ، عالم بقصد كل إنسان حين ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً وحباً للانتساب إلى المعالي والمكارم ، أو معاداة لرسول الله ﷺ ، ويرى كل أحد فيا يعمل ويجني ويكتسب وينفق .

مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

الإعراب :

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أي لم يقتحم ، و (لا) في الماضي مثل (لم) في المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ فلا صدَّق ولا صلّى ﴾ [القيامة ٣١/٧٥] أي لم يصدق ولم يصلّ ، وكقول الشاعر أبي خراش الهذلي :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأي عبد لك لا ألمّا

أي لم يُلمّ .

﴿ وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مَسْغبة ، يتيماً ﴾ ﴿ ماالعقبة ﴾ : تقديره : مااقتحام العقبة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و ﴿ فك رقبة ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : اقتحامها فك رقبة . ﴿ أو إطعام ﴾ : عطف عليه ، و ﴿ يتيماً ﴾ : مفعول ﴿ إطعام ﴾ وهو مصدر (أطعم) أي أن أطعم يتيماً .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ اسم كان : ضمير مستتر تقديره هو ، أي ثم كان مقتحمها من الذين آمنوا . وإنما قال ﴿ ثم ﴾ وإن كان الإيمان مقدماً في الرتبة عن العمل : لأن ﴿ ثم ﴾ إذا عطفت جملة على جملة لاتفيد الترتيب ، بخلاف ماإذا عطفت مفرداً على مفرد ، فهي ليست هنا للتراخي في الزمان إذ شرط الأعمال الحسنة الإيمان ، وإنما التراخي في الذكر والبيان .

البلاغة :

﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ؟ ﴾ استفهام تقريري للتذكير بالنعم ، أي جعلنا له ، وفيه مراعاة الفواصل .

﴿ وما أدراك ماالعقبة ؟ ﴾ الاستفهام للتهويل والتعظيم . و ﴿ العقبة ﴾ : استعارة تبعية لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال ، تشبيه بعقبة الجبل : وهو ماصعب منه ، أي أن العقبة : الطريق الوعر في الجبل ، استعير للأعمال الصالحة ذات المشقة .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ استعارة ، استعار النجدين لطريقي الخير والشر أو السعادة والشقاوة ، وأصل النجد : الطريق المرتفع .

﴿ مقربة ﴾ و ﴿ متربة ﴾ جناس ناقص لتغير بعض الحروف .

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ ﴿ أولئك أصحاب المشأمة ﴾ بينهما مقابلة .

المفردات اللغوية :

﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بها ، أي جعلنا له . ﴿ ولساناً ﴾ يترجم به عما يريد ضميره . ﴿ وشفتين ﴾ يستر بها فاه ، ويستعين بها على النطق والأكل والشرب وغيرها . ﴿ وهديناه النجدين ﴾ بينا له طريقي الخير والشر أو السعادة والشقاوة ، وأصل النجد : المكان المرتفع . ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ فهلا اجتازها أو دخلها بسرعة وشدة ، والعقبة : الطريق الصعب في الجبل . والمراد : مجاهدة النفس لفعل الخير وترك الشر .

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ وما أعلمك مااقتحام العقبة ؟ والجملة اعتراضية لتعظيم شأنها أي لم تدر صعوبتها وثوابها . ﴿ فك رقبة ﴾ إعتاقها من الرق ، أو المعاونة عليه . ﴿ ذي مسغبة ﴾ مجاعة . ﴿ ذا مقربة ﴾ قرابة في النسب . ﴿ ذا مَتْربة ﴾ ذا فقر ، يقال : ترب فلان : إذا افتقر ، أي أصبحت يده ملصقة بالتراب لفقره ، والمراد : هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب ، لا بيوت لهم . وإنما ذكر الإعتاق والإطعام لما فيهما من مجاهدة النفس .

﴿ ثم ﴾ عطف على ﴿ اقتحم ﴾ و ﴿ ثم ﴾ للترتيب الذكري لا الزماني ، والمعنى : وكان وقت الاقتحام مؤمناً . ﴿ وتواصوا ﴾ أوصى ونصح بعضهم بعضاً . ﴿ بالصبر ﴾ على الطاعة ، وعن المعصية . ﴿ بالمرحمة ﴾ الرحمة على الناس . ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بهذه الصفات . ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ اليمن ، وأصحاب طريق النجاة والسعادة . ﴿ المشأمة ﴾ الشمال ، أصحاب طريق الشقاء . ﴿ مؤصدة ﴾ مطبقة مغلقة عليهم .

المناسبة :

بعد توبيخ الإنسان وذمه على طبائع غريبة وعجيبة ، أقام الله تعالى الدليل على كمال قدرته بخلق الأعين واللسان والشفتين والعقل المميز بين الخير والشر ، ومنحه الخيار للإنسان ليثبت ذاتيته ، ويتحرر من عبودية أهوائه وشهواته ، وليعرف البشر أنه تعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل .

ثم بيَّن الله تعالى أنه كان على الإنسان بعدئذ أن يشكر هذه النعم ،، ويختار طريق الخير والسعادة ، فيبادر إلى الإيمان والعمل الصالح ، ومنه إعتاق أو تحرير الرقاب ، وإطعام الأيتام الأقارب والمساكين المحتاجين ، والتواصي بالرحمة على الناس ، وأدى اختيار الإنسان بالتالي إلى أن يكون من أحد الفريقين :

أصحاب اليمين والسعادة ومآلهم إلى الجنة ، وأصحاب الشمال والشقاوة ومآلهم إلى النار .

التفسير والبيان :

﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ﴾ أي ألم أمنحك أيها الإنسان الجاهل المغرور بقوتك ، المرائي بعملك بإنفاق المال طلباً للشهرة والسمعة ، أمنحك العينين اللتين تبصر بهما ، واللسان الذي تنطق به ، والشفتين اللتين تستر بهما ثغرك ، وتستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهك وفمك ، والمراد أنني أنا الله الذي منحتك القدرة على البصر والنطق أو الكلام .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي ألم نبين لك ونعرفك طريق الخير والشر ، فأودعنا في فطرتك السليمة أداة التمييز بينهما ، وجعلنا لك من العقل والفكر ماتستطيع به إدراك محاسن الخير ، ومفاسد الشر وأبعاد كل منهما . وعبَّر عن هذين الطريقين بالنجدين : وهما الطريقان المرتفعان ، للدلالة على صعوبتهما ووعورتهما ، واحتياجهما إلى مجاهدة النفس لعبورهما بشدة وسرعة .

لذا أردفه ببيان وجوب اختيار الأفضل وشكر تلك النعم ، فقال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ماالعقبة ﴾ أي فهلا نشط واخترق الموانع المانعة من طاعة الله ، من تسويل النفس واتباع الهوى والشيطان ، وهلا جاهد نفسه لاجتياز الطريق الصعب ، وأي شيء أعلمك ماقتحام العقبة ؟ استفهام للتفخيم والتعظيم .

ثم أرشد إلى طريق اقتحامها فقال :

﴿ فكّ رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا مَتْربة ﴾ أي إن اقتحام العقبة ودخولها يكون بإعتاق الرقبة من العبودية ، وتخليصها من إسار الرق ، أو المعاونة عليه ، أو إطعام في يوم المجاعة الذي يعز

فيه الطعام اليتيم القريب : وهو الصغير الذي فقد أباه ، وكان قريباً في نسبه من المطعم ، أو إطعام المسكين المحتاج الذي لا شيء له ، ولا قدرة على كسب المال لضعفه وعجزه ، كأنه ألصق يده بالتراب ، لفقد المال .

فمن حرر الرقبة أو أطعم اليتيم أو المسكين في يوم المجاعة ، كان طائعاً لله ، نافعاً عباده ، فهو من أصحاب اليمين . وهذا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان .

قال الصاوي على الجلالين : إنما قيّد الإطعام بيوم المجاعة ؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس . وقد يستدل بقوله : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ للشافعي : أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير ، وأنه قد يكون بحيث يملك شيئاً ، وإلا وقع قوله : ﴿ ذا متربة ﴾ تكراراً . وقد استدل أبو حنيفة بتقديم العتق على أنه أفضل من الصدقة ، وعند بعضهم بالعكس لأن في الصدقة إنقاذ النفس من الهلاك ؛ فإن الغذاء قوام البدن ، وأما الفك فهو تخليص من القيد في الأغلب .

أخرج أحمد عن عُقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة ، فهي فكاكه من النار » . وأخرج أحمد أيضاً عن البراء بن عازب قال : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علّمني عملاً يُدخلني الجنة ، فقال : لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، أعتق النَّسَمة وفُكَّ الرَّقَبة ، فقال : يا رسول الله ، أو ليستا بواحدة ؟ قال : لا ، إن عتق النسمة : أن تنفرد بعِتْقها ، وفكُّ الرقبة : أن تُعين في عِتْقها » .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي عن سَلْمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة وصلة » .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي قام

بالأفعال الخيرية السابقة بعد أن آمن بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر ، فإن هذه القربات إنما تنفع بشرط الإيمان ، فكان من جملة المؤمنين العاملين صالحاً : المتواصين بالصبر على أذى ، وعلى الرحمة بهم ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الثابت : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[١] وفي الحديث الآخر : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »[٢] .

والصبر يكون أيضاً على طاعة الله ، وعن المعاصي ، وعلى المصائب والبلايا . والرحمة على عباد الله ترقق القلب ، ومن كان رقيق القلب ، عطف على اليتيم والمسكين ، واستكثر من فعل الخير بالصدقة .

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء مبشراً بهم ، فقال :

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات هم من أصحاب اليمين ، وهم أصحاب الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وأصحابُ اليمين ، ماأصحابُ اليمين ؟ في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وطَلْحٍ منضودٍ ، وظلٍّ ممدودٍ ، وماءٍ مسكوبٍ ، وفاكهةٍ كثيرةٍ ، لا مَقْطُوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، وفُرُشٍ مرفوعةٍ ﴾ [الواقعة ٥٦/٢٧ـ٣٤] .

ثم ذكر أضداد هؤلاء للمقارنة والعبرة ، فقال :

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ، عليهم نار مؤصدة ﴾ أي والذين جحدوا بآياتنا التنزيلية والآيات الكونية الدالة على قدرتنا ، هم أصحاب الشمال ، وعليهم نار مطبقة مغلقة ، وأصحاب الشمال هم أهل النار المشؤومة كما قال تعالى : ﴿ وأصحابُ الشِّمال ماأصحابُ الشِّمال ، في سَمُومٍ وحميمٍ ، وظِلٍّ من يَحْمومٍ ، لا باردٍ ولا كريمٍ .. ﴾ [الواقعة ٥٦/٤١ـ٤٤] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ جيء بآيات ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ للتذكير بنعم الله تعالى على الإنسان من البصر والنطق والجمال والعقل والفكر المميز بين الحق والباطل وبيان طريقي الخير والشر ، وللدلالة على كمال قدرة الله تعالى ، ولبيان مبدأ اختيار الإنسان للإيمان والكفر أو السعادة والشقاوة أو الخير والشر ، كما قال تعالى : ﴿ إنّا هَدَيْناه السبيلَ ، إما شاكراً ، وإما كفوراً ﴾ [الدهر ٣/٧٦] .

٢ ـ إن هذه النعم تقتضي الشكر عليها والاستعداد للنجاة في الآخرة ، بالإيمان والعمل الصالح الشامل للتواصي بالصبر على التكاليف الشرعية ، بطاعة الله وعن معصيته وعلى البلايا والمحن ، والتواصي بالمرحمة على الْخَلْق أي التعاطف والتراحم ، وتحرير الرقاب (العبيد) وإطعام اليتامى والأرامل والمساكين . وإخراج المال في وقت القحط والضرورة والجوع أثقل على النفس ، وأوجب للأجر ، لذا قال : ﴿ ذي مسغبة ﴾ كقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [البقرة ١٧٧/٢] وقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ﴾ [الدهر ٨/٧٦] .

والإيمان شرط قبول هذه الأعمال الخيرية ، وإنما أخر للترقية من الأدنى إلى الأعلى ، والترتيب ذِكْري ، لا زماني .

وهؤلاء أصحاب اليمين أهل الجنة ، وهم الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم .

ويلاحظ أنه ذكر في باب الكمال أمرين : فك الرقبة والإطعام ، والإيمان ، وفي باب التكميل شيئين : التواصي بالصبر على الوظائف الدينية ، والتواصي

بـالتراحم ، وكل من النوعين مشتمل على تعظيم أمر الله ، والشفقـة على خلق الله ، إلا أنه في الأول قدم جانب الخلق ، وفي الثاني قدم جانب الحق[١] .

٣ ـ ذكر الله تعالى للمقابلة والمقارنـة والعظـة أصحـاب الشمال بعـد أصحـاب اليمين ، والفريـق الأول هم الـذين كفروا بـالقرآن ، وهم الـذين يـأخـذون كتبهم بشمائلهم ، ومصيرهم إلى النار التي تطبق وتغلق أبوابها عليهم .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) تفسير الرازي : ١٨٧/٣١ ، غرائب القرآن : ١٠٢/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

مكيّة ، وهي خمس عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة الشمس لافتتاحها بالقسم الإلهي بالشمس المنيرة المضيئة لآفاق النهار .

مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين :

١ ـ ختم الله سبحانه سورة البلد بتعريف أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، ثم أوضح المراد من الفريقين في سورة الشمس بعمل كل منها حيث قال : ﴿ قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ .

٢ ـ أبان الله تعالى في آخر آيات السورة السابقة مصير أو مآل الكفار في الآخرة وهو النار ، وذكر تعالى في أواخر هذه السورة عقاب بعض الكفار في الدنيا ، وهو الهلاك ، فاختتمت السابقة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، واختتمت هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة الكلام عن موضوعين مهمين هما :

١ ـ الإقسام بالمخلوقات الكونية العظيمة في العالم العلوي والسفلي وآلة التفكر

في ذلك وهو النفس على أحوال النفس الإنسانية ، ودور الإنسان في تهذيبها ، وتعويدها الأخلاق الفاضلة ليفوز وينجو ، أو إهمالها وتركها بحسب هواها فيخيب .

٢ ـ ضرب المثل بثمود لمن دسّ نفسه وأهملها ، فتمادت في الطغيان ، فنزل بها العقاب الشديد وأهلكها ودمرها عياناً في الدنيا .

والخلاصة : المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات ، والتحذير من المعاصي .

جزاء إصلاح النفس وإهمالها

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

الإعراب :

﴿ والشمس وضحاها ﴾ الواو الأولى واو القسم ، وسائر الواوات عطف عليها ، وجواب القسم : إما مقدر ، وهو لتبعثن ، أو هو ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أي لقد أفلح من زكاها ، وحذفت اللام لطول الكلام . وقال الزمخشري : تقدير الجواب : ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود ، أي أطبق عليهم العذاب ؛ لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما ﴿ قد أفلح من زكاها .. ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء .

﴿ إذا ﴾ في المواضع الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم .

﴿ والسماء وما بناها ﴾ ﴿ ما ﴾ إما مصدرية ، أي وبنائها ، أو بمعنى الذي ، أي والذي

بناها ، وهو الأحسن أو بمعنى ﴿ مَنْ ﴾ أي ومن بناها ، وقد جاءت (ما) بمعنى (من) قال أهل الحجاز للرعد : سبحان ماسبّحتَ له ، أي سبحان من سبّحت له .

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ ﴿ دسّاها ﴾ أصله : دسّسها ، فاجتمعت الأمثال ، فوجد الاستثقال ، فأبدل من السين الأخيرة ياء ، كما قالوا : قصّيت أظفاري ، في قصصت ، فصار (دسيها) ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ماقبلها .

البلاغة :

﴿ الشمس والقمر ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿ الليل ﴾ ﴿ والنهار ﴾ وبين ﴿ فجورها وتقواها ﴾ .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ مقابلة بينها وبين ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ وكذا بين ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وبين ﴿ وقد خاب من دسّاها ﴾ . والطباق والمقابلة من المحسنات البديعية ، كما هو معروف .

في السورة كلها سجع مرصع وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ وضحاها ﴾ قال مجاهد : هو ارتفاع الضوء وكماله ، وقال أبو حيان : المعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً ، فإذا زاد فهو الضُحاء ـ بالمد وفتح الضاد : إلى الزوال . ﴿ تلاها ﴾ تبعها ، أي أن القمر يتبع الشمس طالعاً عند غروبها . ﴿ جلاّها ﴾ أي جلّى الشمس وكشفها وأتم وضوحها .

﴿ يغشاها ﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها بظلمته ، أي يزيله ويحجبه . ﴿ والسماء ﴾ كل ماعلاك وارتفع فوق رأسك فهو سماء ، والمراد به الكون الذي فوقك ، وفيه الكواكب . ﴿ وما بناها ﴾ أي ومن رفعها ، وجعل كل كوكب بمنزلة لبنة من بناء سقف ، قال الزمخشري والبيضاوي : وإنما أوثرت على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها . ﴿ طحاها ﴾ بسطها ، مثل دحاها .

﴿ سوّاها ﴾ أحكم خلقتها وتسويتها وتعديل أعضائها بخلق القوى والغرائز فيها ، وجعل وظيفة لكل منها . ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ عرّفها وأفهمها ، وبيّن لها طريق الخير والشر . والفجور : الفسوق والشر وكل مايؤدي إلى الخسارة والهلاك . والتقوى : التزام جادة الاستقامة ، وإتيان مايحفظ النفس من سوء العاقبة .

﴿ أفلح ﴾ فاز ونجا وأدرك المطلوب . ﴿ من زكّاها ﴾ طهرها من الذنوب ، وهذّبها ونمّاها بالعلم والعمل ، وهو جواب القسم . ﴿ خاب ﴾ خسر . ﴿ دسّاها ﴾ أهمل تهذيبها ، والتدسية : النقص والإخفاء ، فمن فعل الشر والمعصية ، أنقص نفسه عن مرتبة الكمال ، وأخفاها بالذنوب والمعاصي ، وهي ضد التزكية .

التفسير والبيان :

أقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة بسبعة أشياء ، فقال :

١ ـ ٢ ـ ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ﴾ أي أقسم بالشمس المضيئة نفسها ، سواء غابت أم طلعت ؛ لأنها شيء عظيم أبدعها الله ، وأقسم بضوئها وضحاها وهو وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها إذا تم ضوؤها ؛ لأنه مبعث حياة الأحياء .

وأقسم بالقمر المنير إذا تبع الشمس في الطلوع بعد غروبها ، وبخاصة في الليالي البيض : وهي الليالي الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وقت امتلائه وصيرورته بدراً بعد غروب الشمس إلى الفجر . وهذا قسم بالضوء وقت الليل كله .

٣ ـ ٤ ـ ﴿ والنهار إذا جلّاها ، والليل إذا يغشاها ﴾ أي وأقسم بالنهار إذا جلّى الشمس وكشفها وأظهر تمامها ، ففي اكتمال النهار كمال وضوح الشمس ، وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس ويغطي ضوءها بظلمته ، فيزيل الضوء وتغيب الشمس ، وتظلم الدنيا في نصف الكرة الأرضية ، ثم تطلع في النصف الآخر .

وفي هذا التبدل والتغير رد على المشركين الذين يؤلهون الكواكب ، والثنوية الذين يقولون بأن للعالم إلهين اثنين : النور والظلمة ؛ لأن الإله لا يغيب ولا يتبدل حاله .

وبعد التنويه بعظم هذه الأشياء الكونية ، ذكر الله تعالى صفات حدوثها ، فقال :

٥ ـ ٦ ـ ﴿ والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ﴾ أي وأقسم بالسماء وبناء الله تعالى لها بالكواكب ، كأن كل كوكب لبنة في سقف أو قُبَّة تحيط بالأرض وأهلها . وأقسم بالأرض كوكب الحياة البشرية والذي بسطها من كل جانب ، وجعلها ممهدة موطأة للسكنى مثل قوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات ٣٠/٧٩] أي بسطها ، والطحو كالدحو وهو البسط ، ثم مكّن الناس من الانتفاع بها ظاهراً بالنبات ، وباطناً بالمعادن والثروات . ونظير الآية : ﴿ الذي جَعَل لكم الأرضَ فِراشاً ، والسماءَ بناءً ﴾ [البقرة ٢٢/٢] .

وختم الأشياء المحلوف بها بالنفس البشرية التي خلقت هذه الأشياء من أجلها ، وكونها أداة الانتفاع بها ووسيلة ترقي الحياة وتقدمها ، فقال :

٧ ـ ﴿ ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي وأقسم بالنفس الإنسانية ، والذي خلقها سوية ، مستقيمة ، على الفطرة القويمة ، وتسويتها : إعطاء قواها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن ، وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، والقوى الطبيعية ، أي تعديل أعضائها ، وتزويدها بطاقات وقوى ظاهرية وباطنية متعددة ، وتحديد وظيفة لكل عضو فيها .

ثم إنه تعالى عرّف هذه النفس وأفهمها ما هو شر وفجور ، وما هو خير وتقوى ، وما فيها من قبح وحسن ، لتمييز الخير من الشر ، كما قال تعالى : ﴿ وهَدَيْناه النَّجْدين ﴾ [البلد ١٠/٩٠] أي علمناه وعرفناه سلوك طريقي الخير والشر . ويعضده مابعده : ﴿ قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ . وهذا قول المعتزلة ، وقال أهل السنة : الضميران في قوله تعالى : ﴿ فألهمها ﴾ وقوله : ﴿ وهديناه ﴾ لله تعالى ، والمعنى : قد سعدت نفس زكاها الله تعالى ،

وخلقها طاهرة ، وخابت نفس دسّاها الله ، وخلقها كافرة فاجرة[١] .

والظاهر التفسير الأول ، بدليل ماقال ابن كثير : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ : أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أي بيّن لها ذلك ، وهداها إلى ماقُدّر لها[٢] . وقال ابن عباس : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ بيّن لها الخير والشر[٣] . وهذا دليل على مبدأ الاختيار للإنسان .

ثم ذكر الله تعالى جزاء ماتختاره النفس ، فقال :

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ أي قد فاز بكل مطلوب ، وظفر بكل محبوب من زكى نفسه فهذبها ونمّاها وأعلاها بالتقوى والعمل الصالح ، وقد خسر من أضل نفسه وأغواها وأهملها وأخلها ، ولم يهذبها ، ولم يتعهدها بالطاعة والعمل الصالح . وهذا جواب القسم الذي افتتحت به السورة .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مرّ بهذه الآية : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقف وقال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » .

وروى الإمام أحمد عن عائشة : أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت عليه ، وهو ساجد ، وهو يقول : « رب أعطِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها » .

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي .

(٢) تفسير ابن كثير : ٥١٦/٤

(٣) المرجع السابق ، وهذا أيضاً قول مجاهد وقتادة والضحاك والثوري .

وروى أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر ، اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوها .

فقه الحياة أو الأحكام :

أقسم الله تعالى بسبعة أشياء : لقد أفلح وفاز من زكى نفسه بالطاعة ، وخسرت نفس أهملها صاحبها وتركها تنغمس في المعصية .

والأشياء السبعة : هي الشمس وضوؤها وإشراقها ، وهو قسم ثان ، والقمر إذا تبع بالطلوع الشمس بعد غروبها ، فاستوى واستدار ، وكان مثلها في الضياء والنور ، والنهار إذا جلّى أو كشف الشمس ، أي أبان بضوئه جِرْمها ، والليل إذا يغشى الشمس ، أي يذهب بضوئها عند غروبها ، والسماء وبنيانها وبانيها وهو الله ، والأرض ومن طحاها أي بسطها ، والنفس الإنسانية وتسويتها ومن سوّاها وهو الله عز وجل ، بأن عدّلها وزوّدها بالأعضاء المتناسبة ، وبالقوى العضلية والفكرية والحسية ، وعرّفها طريق الفجور والتقوى ، وسلوك سبيل الخير والشر ، والطاعة والمعصية .

وقد أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه ، وأراد أن ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة ، حتى يتأمل المكلف فيها ، ويشكر عليها ؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب ، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى[1] .

---

(١) تفسير الرازي : ١٨٨/٣١

العظة بقصة ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

الإعراب :

﴿ فسوّاها ، ولا يخاف عُقْباها ﴾ سوّاها : تعود على الدمدمة ، ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ في موضع نصب على الحال ، وتقديره : سوّاها غير خائف عاقبتها .

البلاغة :

﴿ ناقة الله ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف .

﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ تهويل ، فالتعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب .

المفردات اللغوية :

﴿ بطغواها ﴾ أي بسبب طغيانها ، والطغوى والطغيان : تجاوز الحد المعتاد . ﴿ إذ انبعث ﴾ حين أسرع أو قام ، وهو ظرف لكذّبت أو طغوى . ﴿ أشقاها ﴾ أشقى ثمود ، وهو قُدَارُ بن سالف ، الشخص الذي عقر الناقة . ﴿ رسول الله ﴾ صالح عليه السلام . ﴿ ناقة الله ﴾ أي ذروا ناقة الله ، واحذروا التعرض لها وعقرها . ﴿ وسُقياها ﴾ شِرْبها الخاص بها في يومها ، فلا تذودوها عنها . ﴿ فكذبوه ﴾ فيما حذرهم من حلول العذاب إن فعلوا . ﴿ فعقروها ﴾ نحروها أو ذبحوها . ﴿ فدمدم ﴾ فأطبق عليهم العذاب . ﴿ فسوّاها ﴾ سوى الدمدمة عليهم أي عمهم بها ، فلم يفلت منها صغير ولا كبير . ﴿ عقباها ﴾ عاقبتها وتبعتها . أي عاقبة الدمدمة .

المناسبة :

بعد الحلف بأشياء عظيمة على فوز من زكّى نفسه وهذبها وطهرها من الذنوب ، وخيبة وخسار من أهملها وتركها تعيث في الأرض فساداً بفعل المعاصي ، وترك فعل الخير ، وعظهم الله تعالى بقصة ثمود ، لقربها من ديار

العرب ، ليحذروا معاندة الرسول ﷺ وتكذيبه ، وإلا حلّ بهم ما حلّ بأمثالهم من الأمم السابقة .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فيقول :

﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها ، فإنه الذي حملها على التكذيب . والطغيان : مجاوزة الحد في المعاصي .

وذلك حين قام أشقى ثمود ، وهو قُدَار بن سالف ، أحيمر ثمود ، فعقر الناقة ، بتحريض قومه ورضاهم بما يفعل ، فكان عقرها دليلاً على تكذيبهم جميعاً لنبيهم ، وبرهاناً على صدق رسالته إذ حلّ بهم العذاب الذي أوعدهم به .

ونظير الآية : ﴿ فنادَوْا صاحبَهم ، فتَعاطى فعَقَر ﴾ [القمر ٢٩/٥٤] . وكان أشقى ثمود عزيزاً فيهم ، شريفاً في قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما ذكر أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن زَمْعة قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها ، فقال : « إذ انبعث أشقاها ، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه ، مثل أبي زمعة » .

ثم يذكر الله تعالى ماتوعدهم به رسولهم على فعلهم ، فيقول :

« فقال لهم رسول الله : ناقة الله ، وسقياها » أي فقال لهم أي للجماعة الأشقياء النبي صالح عليه السلام : ذروا ناقة الله واحذروا التعرض لها أو أن تمسوها بسوء ، واتركوها وتناولها شِرْبها من الماء المخصص لها ، فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تتعرضوا لها يوم شربها .

﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ أي فكذبوه في تحذيره إياهم من العذاب ، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العقاب ، فعقر الأشقى الناقة ، وجميع قومه رضوا بما فعل . أو كذبوه فيما جاءهم به ، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة آية لهم وحجة عليهم .

ثم يبين ماعوقبوا به ، فيقول :

﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، فسوّاها ، ولا يخاف عُقباها ﴾ أي فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم ، وغضب عليهم فدمر عليهم ، فسوّى الدمدمة عليهم ، وعمّهم بها ، أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء ، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها ، دمدم الله عليهم بذنبهم ، فسواها .

وقد فعل الله ذلك بهم ، وأهلكهم ، غير خائف هذا الأشقى من عاقبة ولا تبعة ، أي فإنه تجرأ على عقر الناقة دون أن يخاف الذي عقرها عاقبة إهلاك قومه ، وعاقبة ماصنع ، والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها ، وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه .

وقال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . قال ابن كثير : وهذا القول أولى لدلالة السياق عليه . وقال أبو حيان : الظاهر عود الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو ﴿ ربهم ﴾ أي لا دَرَك عليه تعالى في فعله بهم ، لا يسأل عما يفعل ، قال ابن عباس والحسن ، وفيه ذم لهم وتعقبة لآثارهم . والمراد أن الله لا يخاف عاقبة مافعل بهم ؛ لأنه عادل في حكمه . وقال الزمخشري : ولا يخاف الله عاقبتها وتبعتها ، كما يخاف كل معاقب من الملوك ، فيبقي بعض الإبقاء . ويجوز أن يكون الضمير لثمود ، على معنى : فسوّاها بالأرض أو في الهلاك ، ولا يخاف عقبى هلاكها .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا خبر قاطع من الله العلي القدير ، أخبرنا به عن قبيلة ثمود التي تجاوزت الحد بطغيانها وهو خروجها عن الحد في العصيان . وذلك حين نهض أشقاها لعقر الناقة ، واسمه قُدار بن سالف .

ولكنّ رسولهم صالحاً عليه السلام حذرهم عاقبة فعلهم ، وقال لهم : احذروا عقر ناقة الله ، وذروها ، كما قال : ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آيةً ، فذَرُوها تأكلْ في أرضِ اللهِ ، ولا تمسُّوها بسوءٍ ، فيأخذكم عذابٌ أليم ﴾ [الأعراف ٧٣/٧] وذروها وشِرْبها المخصص لها في يومها . فإنهم لما اقترحوا الناقة ، وأخرجها الله لهم من الصخرة ، جعل لهم شِرْب يوم من بئرهم ، ولها شِرْب يوم مكان ذلك ، فشقّ عليهم .

وكذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم : « إنكم تُعَذّبون إن عقرتموها » فعقرها الأشقى ، وأضيف العقر إلى الكل بقوله : ﴿ فعقروها ﴾ لأنهم رضوا بفعله .

والجُرْم وهو العَقْر وتكذيب النبي يستدعيان بلا شك عقاباً صارماً ، فكان العقاب أن أهلكهم الله ، وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر ، وسوَّى عليهم الأرض ، أو سوى الدمدمة والإهلاك عليهم ؛ لأن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم .

والعبرة من ذلك أن الله فعل بهم مافعل غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد ، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد . وهاء ﴿ عقباها ﴾ ترجع إلى الفَعْلة . وقال السدّي والضحاك والكلبي : ترجع إلى العاقر ، أي لم يخف الذي عقرها عقبى ماصنع .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

مكيّة ، وهي إحدى وعشرون آية .

تسميتها :

سميت سورة الليل لافتتاحها بإقسام الله تعالى بالليل إذا يغشى ، أي يغطي الكون بظلامه ، ويستر الشمس والنهار والأرض والوجود بحجابه .

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر في سورة الشمس قبلها : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح ، وما تحصل به الخيبة بقوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ ﴿ وأما من بخل واستغنى .. ﴾ فهي كالتفصيل لما قبلها .

ولما كانت سورة الليل نازلة في بخيل ، افتتحت بالليل الذي هو ظلمة .

ما اشتملت عليه السورة :

محور السورة سعي الإنسان وعمله وجزاؤه في الآخرة .

افتتحت السورة بالقسم بالليل والنهار وخالق الذكر والأنثى على أن عمل الناس مختلف ، فمنهم التقي ومنهم الشقي ، ومنهم المؤمن ومنهم الفاجر : ﴿ والليل إذا يغشى .. ﴾ [الآيات ١ ـ ٤] .

ثم أوضحت أن الناس فريقان ، وحددت منهج وطريق كل فريق ، وجزاء كل منهم في الآخرة : أهل الإيمان والسعادة والجنة : وهم الذين بذلوا المال وصدقوا بوعد الله في الآخرة ، وأهل الكفر والشقاوة والنار : وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا عن ربهم عز وجل ، وأنكروا ماوعد الله به من الجنة : ﴿ فأما من أعطى واتقى .. ﴾ [الآيات ٥ ـ ١٠] .

وأعقبت ذلك ببيان عدم جدوى المال في الآخرة ، وأن الله واضع دستور الهداية ، وأنه مالك الدنيا والآخرة : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾ [١١ ـ ١٣] ودلّ هذا التحذير من عذاب الله والإنذار بالنار على أنه العقاب المستحق لكل من كذب بآيات الله تعالى وبرسوله ﷺ : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى .. ﴾ [١٤ ـ ١٦] .

يبذل ماله في طرق الخير مخلصاً لوجه الله ، دون قصد مكافأة أحد ، ولا لمصلحة دنيوية عند إنسان ، وذلكم المثال هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ﴿ وسيجنّبها الأتقى .. ﴾ [الآيات ١٧ ـ ٢١] .

فضلها :

تقدم حديث جابر في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ : « فهلاً صَلّيتَ بـ : ﴿ سبّح اسم ربّك الأعلى ﴾ ، ﴿ والشمسِ وضحاها ﴾ ، ﴿ والليلِ إذا يغشى ﴾ » .

اختلاف مسعى الناس

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

الإعراب :

﴿ إذا يغشى ﴾ ، ﴿ إذا تجلى ﴾ ﴿ إذا ﴾ في الموضعين : لمجرد الظرفية ، والعامل فيها فعل القسم .

﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ﴿ ما ﴾ : فيها ثلاثة أوجه كما في السورة السابقة .

﴿ وما بناها ﴾ إما أن تكون مصدرية ، أو بمعنى الذي وهو الأولى ، أو بمعنى (مَنْ) . ويجوز الجر في الذكر والأنثى على البدل من ﴿ ما ﴾ .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ جواب القسم .

﴿ وما يغني عنه ماله ﴾ ﴿ ما ﴾ : نافية .

البلاغة :

﴿ الليل ﴾ و ﴿ النهار ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ وبين (اليسرى ، والعسرى) وبين ﴿ صدق ﴾ و ﴿ كذب ﴾ .

﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ و ﴿ أما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ بينهما مقابلة ، والمقابلة والطباق من المحسنات البديعية .

﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ حذف المفعول لإفادة التعميم وإطالة التأمل .

المفردات اللغوية :

﴿ يغشى ﴾ يغطي كل شيء بظلامه . ﴿ تجلّى ﴾ ظهر وانكشف . ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ أي والقادر الذي خلق آدم وحواء وكل ذكر وأنثى في الإنسان والحيوان والنبات .. ﴿ سعيكم ﴾ عملكم أو مسعاكم . ﴿ لشتى ﴾ مختلف متفرق ، جمع شتيت : وهو المتباعد عن غيره . واختلاف المنهج والمسعى إما بالعمل للجنة بالطاعة ، أو للنار بالمعصية .

﴿ أعطى ﴾ بذل المال . ﴿ واتقى ﴾ التزم الأوامر وفعل الخير ، واجتنب النواهي والشر . ﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ بالكلمة أو الخصلة الحسنى ـ صفة تأنيث الأحسن ، وهي كلمة التوحيد : لاإله إلا الله ، والجنة والثواب ، وكل فضيلة . ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون والتي تؤدي إلى الخير ، وذلك في الدنيا والآخرة ، كدخول الجنة .

﴿ بخل ﴾ أمسك المال وشح به ولم يؤد حق الله فيه . ﴿ واستغنى ﴾ عن ربه عز وجل وعن الثواب . ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ نهيئه للحالة السيئة في الدنيا والآخرة التي لاتنتج إلا شراً . ﴿ وما يغني عنه ماله ﴾ لا يفيده ماله وغناه . ﴿ إذا تردى ﴾ هوى وسقط في النار أو في القبر .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

سبب النزول :

نزول الآية (٥) :

﴿ فأما من أعطى .. ﴾ : أخرج ابن جرير والحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه (أبو قحافة) : أي بني ! أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء ، يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك ، فقال : أي أبتِ ، إنما أريد ماعند الله ، فنزلت هذه الآيات فيه : ﴿ فأما من أعطى واتقى .. ﴾ إلى آخر السورة .

نزول الآية (٨) :

﴿ وأما من بخل ﴾ : قال ابن عباس : نزلت في أُمية بن خَلَف .

التفسير والبيان :

﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ، وما خلق الذكر والأنثى ﴾ أي أقسم بالليل حين يغطي بظلامه كل ما كان مضيئاً ، وبالنهار متى ظهر وانكشف ووضح ، لزوال ظلمة الليل ، والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى من جميع الأجناس ، من الناس وغيرهم ، كقوله تعالى : ﴿ وخَلَقْناكم أزواجاً ﴾ [النبأ ٨/٧٨] .

ولم يذكر مفعول ﴿ يغشى ﴾ للعلم به ، وقيل : يغشى النهار ، أو الخلائق أو الأرض أو كل شيء بظلمته .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا هو المحلوف عليه جواب القسم ، أي إن أعمال العباد مختلفة متباعدة ، فمن فاعل خيراً ، ومن فاعل شراً ، وبعض الأعمال ضلال وبعضها هدى ، وبعضها يوجب الجنة ، وبعضها يوجب النار .

ويقرب من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ ، أصحابُ الجنةِ هم الفائزون ﴾ [الحشر ٢٠/٥٩] وقوله : ﴿ أفَمَنْ كان مؤمناً كمَنْ كان فاسقاً ، لا يَسْتوون ﴾ [السجدة ١٨/٣٢] وقوله : ﴿ أم حَسِب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، سواءً محياهم ومماتُهم ، ساءَ ما يَحْكُمون ﴾ [الجاثية ٢١/٤٥] .

ثم فصل أحوال الناس وقسمتهم فريقين ، فقال :

﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدّق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ أي فأما من بذل ماله في وجوه الخير ، واتقى محارم الله التي نهى عنها ، وصدق بموعود الله الذي وعده عوضاً عن الإيمان والنفقة الخيرية ، فإنا نسهل عليه كل ما كلّف به من الأفعال والتروك ، ونهيئه للخطة السهلة التي تؤدي به إلى الخير ، ونيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بطاعة الله .

﴿ وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ أي وأما من بخل بماله ، فلم يبذله في سبل الخير ، واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، وزهد في الأجر والثواب وفضل الله ، وكذّب بالجزاء في الدار الآخرة ، فسنهيئه للخصلة العسرى والطريقة الصعبة التي لا تنتج إلا شراً ، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، حتى يصل إلى النار ، ولا يغني عنه شيئاً ماله الذي بخل به ، إذا سقط في جهنم . ويلاحظ أن التيسير والبشارة في الأصل على الشيء المفرح والسّار ، لكن إذا جمع في الكلام بين خير وشر ، جاء التيسير والبشارة فيهما جميعاً .

أخرج البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغَرْقَد في جنازة ، فقال : « مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار ، فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ . وهناك أحاديث كثيرة في هذا المعنى[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أقسم الله عز وجل بالليل حينما يغطّي كل شيء بظلامه ، وبالنهار إذا انكشف ووضح وظهر ، وبالذي خلق الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل ، على أن عمل الناس مختلف في الجزاء ، فبعضهم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاص ، وبعضهم في هدى أو في ضلال ، وبعضهم ساعٍ في فكاك نفسه من النار ، وبعضهم بائع نفسه فموبقها في المعاصي ، كما ذكر الثعلبي من قوله ﷺ : « الناس غاديان : فبائع نفسه فمعتِقها ، أو موبقها » .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٥١٨/٤ ـ ٥١٩

ثم أوضح سبحانه معنى اختلاف الأعمال المذكور من العاقبة المحمودة والمذمومة ، والثواب والعقاب ، وذكر فريقين :

الأول ـ من بذل ماله في سبيل الله ، وأعطى حق الله عليه ، واتقى المحارم والمنكرات ، وصدّق بوعد الله بالعوض على عطائه ، فالله يهيئ له الطريق اليسرى السهلة للوصول إلى غايته ، ويرشده لأسباب الخير والصلاح ، حتى يسهل عليه فعلها . جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعطِ منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً » .

والثاني ـ من ضنّ بما عنده ، فلم يبذل خيراً ، وكذلك بتعويض الله ، فالله يسهل طريقه للشر ، ويعسّر عليه أسباب الخير والصلاح ، حتى يصعب عليه فعلها .

قال العلماء : ثبت بهذه الآية : ﴿ وأما من بخل .. ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ ومّما رزقناهم يُنفقُون ﴾ [البقرة ٢/٢] وقوله : ﴿ الذين يُنفقون أموالَهم بالليل والنهار سِرّاً وعلانيةً ﴾ [البقرة ٢/٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها ، والجواد : هو الذي يعطي في موضع العطاء ، والبخيل : هو الذي يمنع في موضع العطاء ، فكل من استفاد بما يعطي أجراً وحمداً ، فهو الجواد ، وكل من استحق ذماً أو عقاباً ، فهو البخيل ، والمسرف المذموم ، وهو من المبذّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين ، وأوجب الحَجْر عليهم[1] .

ولا يفيد هذا البخيل ماله إذا مات أو صار في القبر أو سقط في جهنم .

---

(١) تفسير القرطبي : ٨٤/٢٠ ـ ٨٥

قد أعذر من أنذر

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

الإعراب :

﴿ يتزكى ﴾ بدل من ﴿ يؤتى ﴾ أو حال من فاعله .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ ﴿ ابتغاء ﴾ منصوب لأنه استثناء منقطع ، وهو قول أكثر النحويين ؛ لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة ، أي لكن ابتغاء .

البلاغة :

﴿ الأشقى ﴾ و ﴿ الأتقى ﴾ بينهما طباق .

﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ سجع رصين غير متكلف .

المفردات اللغوية :

﴿ إن علينا للهدى ﴾ علينا الإرشاد إلى الحق ، بموجب قضائنا ، أو بمقتضى حكمتنا . ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لله الآخرة والدنيا ، نعطي ما نشاء لمن نشاء ، فمن طلبها من غيرنا فقد أخطأ ، ولا يضرنا ترك الاهتداء . ﴿ فأنذرتكم ﴾ خوفتكم . ﴿ تلظى ﴾ تتلظى أي تتوقد وتتلهب . ﴿ لا يصلاها ﴾ لا يدخلها ولا يحترق بها إلى الأبد . ﴿ إلا الأشقى ﴾ الشقي الكا كأبي جهل وأمية بن خلف ، أما الفاسق وإن دخلها فلا يلزمها .

﴿ كذب ﴾ كذب النبي فيما جاء به . ﴿ وتولى ﴾ أعرض عن الإيمان والط
﴿ وسيجنبها ﴾ يبعد عنها . ﴿ الأتقى ﴾ التقي الذي اتقى الكفر والمعاصي . ﴿ يـ
بأن يخرجه لله تعالى ، لا رياء ولا سمعة ، فيكون زاكياً عند الله . ﴿ تُجزى ﴾ تكا
﴿ إلا ﴾ لكن فعل ذلك . ﴿ ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أي طلب ثواب الأ
بما يعطاه من الثواب في الجنة . والآية تشمل كل من فعل مثل هذا ، فيبـ

سبب النزول :

نزول الآية (١٧) :

﴿ وسيجنبها .. ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عروة : أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة ، كلهم يعذب في الله ، وفيه نزلت : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السورة .

نزول الآية (١٩) :

﴿ وما لأحد .. ﴾ : روى عطاء عن ابن عباس قال : إن بلالاً لما أسلم ، ذهب إلى الأصنام فسلح عليها ، وكان عبداً لعبد الله بن جُدْعان ، فشكا إليه المشركون مافعل ، فوهبه لهم ، ومئة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء ، وهو يقول : أحَدٌ أحَدٌ فمرَّ به رسول الله ﷺ فقال : ينجيك أحدٌ أحدٌ . ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر : أن بلالاً يعذّب في الله ، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب ، فابتاعه به .

فقال المشركون : مافعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾[1] .

وأخرج البزار عن ابن الزبير قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى .. ﴾ إلى آخرها ، في أبي بكر الصديق .

المناسبة :

بعد أن عرّف الله تعالى أن سعي الناس شتى في العواقب ، وبيّن ماللمحسن من اليسرى وما للمسيء من العسرى ، أخبر أنه قد قام بما عليه من البيان والدلالة ، والترغيب والترهيب ، والإرشاد والهداية ، وأعلم أنه مالك الدنيا

(١) أسباب النزول للنيسابوري : ص ٢٥٥ وما بعدها .

والآخرة ، ولا يزيد في ملكه اهتداء الناس ، ولا يضره ترك اهتدائهم بهداه ، ويعطي ما يشاء لمن يشاء ، فتطلب سعادة الدارين منه .

ثم أنذر الناس جميعاً بعذاب النار ، وأبان من يصلاها ويحترق بها ، ومن يبعد عنها ويسلم من عذابها ، وقد أعذر من أنذر .

التفسير والبيان :

﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال ، والحلال من الحرام ، والحق من الباطل ، والخير من الشر ، من طريق الأنبياء وإنزال الكتب التي فيها تشريع الأحكام ، وتبيان العقائد والعبادات والأخلاق وأنظمة المعاملات .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لنا كل ما في الآخرة ، وكل ما في الدنيا ، نتصرف به كيف نشاء ، فمن أراد شيئاً من الدارين ، فليطلبه منا ، نهب ونعطي ما نشاء لمن نشاء ، ولا يضرنا ترك الاهتداء بهدانا ، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤهم ، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم أيها الناس . ومن ملك الدنيا والآخرة وكان هو المتصرف فيهما ، كان هديه وشرعه هو الذي يجب اتباعه .

ثم حذر من سلوك طريق النار ، فقال :

﴿ فأنذرتكم ناراً تَلَظَّى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ﴾ أي لقد خوفتكم ناراً عظيمة شديدة تتوهج وتتلهب ، لا يدخلها ويذوق حرها إلا الكافر الذي كذب الحق الذي جاءت به الرسل ، وكذب رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه ، وأعرض عن الإيمان بالله واتباع شرائعه وأحكامه ، وطاعة أوامره .

وأبان سبيل النجاة من النار ، فقال :

﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ أي وسيباعد عن النار

المتقي للكفر والمعاصي اتقاء بالغاً ، قال الواحدي كما مر : الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين ، أي إنها نزلت فيه ، وإلا فحكمها عام .

وهذا الأتقى هو الذي ينفق ماله ويعطيه في وجوه الخير ، طالباً أن يكون عند الله زكياً متطهراً نقياً من الذنوب ، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ، ولا مديحاً وثناء من الناس .

روى الإمام أحمد والبخاري عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : رجل توضع في أخمص قدميه جَمْرتان يغلي منهما دماغه » .

وروى مسلم الحديث بلفظ آخر : « إن أهون أهل النار عذاباً : من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل ، ما يريد أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

وروى أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقي ، قيل : ومن الشقي ؟ قال : الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك لله معصية » .

وروى أحمد أيضاً والبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .

ثم ذكر صفة الإخلاص في العمل ، فقال :

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » أي لا يتصدق بماله مقابل نعمة لأحد من الناس عليه ، يكافئه عليها ، وإنما يريد بذلك طلب رضوان الله ومثوبته ، لا لمكافأة نعمة ، وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم .

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله ، دعته خزنة الجنة : ياعبد الله هذا خير ، فقال أبو بكر : يارسول الله ، ما على من يُدْعَى منها ضرورة ، فهل يُدْعَى منها كلها أحد ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يبين لهم كل ماهو رشاد وهداية موصلة إلى جنته ورضاه ، وقد تعهد الله عز وجل بذلك لبيان أحكام الحلال والحرام ، والطاعة والمعصية .

٢ ـ لله تعالى ملك الدنيا والآخرة ، وهو المتصرف فيهما ، ومانح ثوابها ، يعطي ما يشاء لمن يشاء ، فمن طلبهما من غير مالكهما ومن غير المتصرف فيهما ، فقد أخطأ الطريق . ولا يضره عصيان العاصين ، ولا ينفعه طاعة المطيعين ، وإنما يعود ضره أو نفعه إليهم .

٣ ـ حذر الله تعالى بعد هذه البيانات الوافية من نار جهنم التي تتوهج وتتوقد ، ولا يجد صَلاَها وهو حرها على الدوام إلا الشقي الكافر الذي كذَّب نبي الله محمداً ﷺ ، وأعرض عن الإيمان .

٤ ـ سيكون بعيداً من النار المتقي المعاصي ، الخائف من عذاب الله ، وصفة الأتقى أو المتقي : هو الذي يعطي ماله طالباً أن يكون عند الله زاكياً طاهراً متطهراً من الآثام والذنوب ، لا يطلب بذلك رياء ولا سمعة ، ولا مكافأة لأحد ، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى ، قاصداً ثوابه ورضاه ، ولسوف يرضى عن الله ، ويرضى الله عنه ، فيكون راضياً مرضياً . وهو وعد كريم من رب رحيم .

والخلاصة : أن كلاً من الأتقى والأشقى يشمل قسمين ، فالأتقى : يشمل المؤمن البار الذي ابتعد عن الفواحش كلها ، والمؤمن الذي يذنب أحياناً فيتوب ويندم ، وثواب كل منهما الجنة .

والأشقى : يشمل الكافر الجاحد بالله وبرسله وبما أنزل عليه ، والمسلم الذي آمن في قلبه بالله ورسله ، ولكنه يصر على بعض المعاصي والسيئات ولا يتوب منها ، وهذا دليل على نقص تصديقه ، بدليل قوله ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

والأول مخلّد في النار ، والثاني معذب فيها على وفق مشيئة الله ، ثم يخرج إلى الجنة . وأما صفة الأتقى والأشقى فهو كلام وارد على سبيل المبالغة .

قال الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين ، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيها المتناقضتين ، فقيل : ﴿ الأشقى ﴾ وجعل مختصاً بالصَّلْي ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل : ﴿ الأتقى ﴾ وجعل مختصاً بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف ، وأبو بكر رضي الله عنه[1] .

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا من شقي ، قيل : ومن الشقي ؟ قال : الذي لا يعمل لله تعالى طاعة ، ولا يترك لله تعالى معصية » .

---

(١) الكشاف : ٣٤٤/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

مكيّة ، وهي إحدى عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة الضحى تسمية لها باسم فاتحتها ، حيث أقسم الله بالضحى : وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ، تنويهاً بهذا الوقت المهم الذي هو نور ، ولأنها نزلت في شأن النبي ﷺ ، فافتتحت بالضحى . ولما كانت سورة الليل نازلة في بخيل ، افتتحت بالليل .

مناسبتها لما قبلها :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هذه السورة متصلة بسورة الليل من وجهين :

١ ـ ختمت سورة الليل بوعد كريم من الله تعالى بإرضاء الأتقى في الآخرة ، وقال تعالى في سورة الضحى مؤكداً وعده لنبيه ﷺ بقوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

٢ ـ ذكر تعالى في السورة السابقة : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ ثم عدد الله تعالى نعمه على سيد الأتقياء في هذه السورة وهو محمد ﷺ .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع سورة الضحى المكية الحديث عن شخصية النبي ﷺ . وقد تضمنت أربعة مقاصد :

١ ـ ابتدأت بالقسم الإلهي العظيم على أن الله عز وجل ماقلا رسوله ولا أبغضه ، ولا هجره ولا تركه ، وإنما هو محل العناية الربانية ، وهو عظيم القدر عند الله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سَجَى .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٤] .

٢ ـ بشَّره ربه بالعطاء الجمّ في الآخرة ومنه الشفاعة العظمى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [٥] .

٣ ـ عددت نعم الله على نبيه منذ صغره : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى .. ﴾ [الآيات : ٦ ـ ٨] .

٤ ـ ختمت بإيصائه بفضائل ثلاث : العطف على اليتيم ، وصلة المسكين ، وشكر النعمة العظمى وهي النبوة وغيرها من هذه النعم المذكورة : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ [٩ ـ ١١] .

فضلها :

ثبت عن الإمام الشافعي أنه يسن التكبير بأن يقول « الله أكبر » أو « الله أكبر ، لاإله إلا الله ، والله أكبر » عقب قراءة سورة ﴿ والضحى ﴾ وخاتمة كل سورة بعدها . وذكر القراء في مناسبة التكبير : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر مدة ، ثم جاء الملك ، فأوحى إليه : ﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ﴾ السورة بتمامها ، كبَّر فرحاً وسروراً . قال ابن كثير : ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف .

نعم الله تعالى على النبي محمد ﷺ

وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ
۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١

الإعراب :

﴿ والضحى ﴾ قسم ، وجواب القسم : ﴿ ماودّعك ربك وما قلى ﴾ والتوديع : مبالغة في الودع ؛ لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك . وقرئ : ﴿ وَدَعك ﴾ أي تركك . و﴿ ما قلى ﴾ أي ماقلاك أي ماأبغضك ، فحذف الكاف وهي مفعول ، كما حذف الكاف التي هي المفعول من قوله : ﴿ فآوى ﴾ أي فآواك ، وفي قوله : ﴿ فأغنى ﴾ أي فأغناك ، والحذف للتخفيف كثير . وهنا حذفت المفاعيل رعاية للفواصل .

﴿ ولسوف يعطيك ﴾ دخلت اللام على « سوف » دون السين ؛ لأن « سوف » أشبهت الاسم ؛ لأنها على ثلاثة أحرف . ولما دخلت اللام عليها علم أنها لام قسم ، لا لام ابتداء ، لأن لام الابتداء لاتدخل على« سوف » . و﴿ يعطيك ﴾ فعل متعد إلى مفعولين ، وحذف هنا أحدهما ، وتقديره : ولسوف يعطيك ربك ماتريده ، فترضى . وهو من الأفعال التي يجوز الاقتصار فيها على أحد المفعولين دون الآخر ، فيجوز أن تقول في (أعطيت زيداً درهماً) : (أعطيت زيداً) .

﴿ فأما اليتيم ﴾ ﴿ وأما السائل ﴾ ﴿ وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ ﴿ اليتيم ﴾ مفعول ﴿ تقهر ﴾ ، و﴿ السائل ﴾ مفعول ﴿ تنهر ﴾ ، والباء في ﴿بنعمة ﴾ تتعلق بـ ﴿ حدّث ﴾ والفاء في ﴿ فلا تقهر ﴾ ، و﴿ فلا تنهر ﴾ ، و﴿ فحدث ﴾ جواب ﴿ أما ﴾ في هذه المواضع ؛ لأن فيها معنى الشرط .

البلاغة :

﴿ الآخرة ﴾ ﴿ والأولى ﴾ بينهما طباق أي بين الآخرة والدنيا .

﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ مقابلة بينها وبين ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ﴾ .

﴿ تقهر ﴾ و ﴿ تنهر ﴾ جناس ناقص لتغير الحرف الثاني من الكلمة .

﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ سجع مرصّع : وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ والضحى ﴾ وقت ارتفاع الشمس أول النهار . ﴿ والليل إذا سجى ﴾ سكن وغطى بظلامه الأشياء . وإنما قدم ذكر الليل في السورة السابقة ، وأخره في هذه السورة ، للتنويه بفضيلة كل واحد من الليل والنهار ، فالليل له فضيلة السبق ، وللنهار فضيلة النور ، فيقدم هذا تارة ، وهذا تارة أخرى . وإنما حلف بالضحى والليل فقط للتنويه بقيمة الزمان الذي يدل عليه مرور النهار والليل . وخص وقت الضحى بالذكر ؛ لأنه وقت اجتماع الناس ، وكمال الأنس بعد وحشة زمان الليل . وذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل كله إشارة إلى أن ساعة من النهار في الإنتاج توازي جميع الليل ، كما أن محمداً إذا قورن بغيره يوازي جميع الأنبياء[1] .

﴿ ماودّعك ﴾ ماقطعك أو فارقك قطع المودّع أو مفارقته ، وقرئ ﴿ ودّعك ﴾ بالتخفيف ، أي تركك . وهو جواب القسم . ﴿ وما قلى ﴾ ماأبغضك ربك ، والقلى : شدة الكُرْه ، وقد نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً : إن ربه ودعه وقلاه . ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ لما فيها من الكرامات ، ولأنها باقية خالصة عن الشوائب ، والدنيا فانية مشوبة بالمضارّ . وهذا تنويه بقدر النبي ﷺ وإعداده للنبوة ، ومواصلته بالوحي والكرامة في الدنيا ، والإخبار بعلو منزلته في الآخرة ، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ يعطيك ربك في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلاً ، فترضى به ، وهو وعد شامل بالعطاء الجزيل ، ومنه الشفاعة العظمى ، فقال ﷺ فيما رواه الخطيب في تلخيص المتشابه : « إذن لاأرضى ، وواحد من أمتي في النار » . وهذا تمام جواب القسم بمثبتين بعد منفيين .

﴿ ألم يجدك ﴾ استفهام تقرير ، أي وجدك ﴿ يتيماً ﴾ بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها . ﴿ فآوى ﴾ ضمك إلى عمك أبي طالب . وهذا وما بعده تعداد لما أنعم الله به على نبيه محمد ﷺ ، تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى ، يحسن إليه فيما يستقبل . ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ لا يمكن حمل الضلال هنا على مايقابل الهدى ؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك ، قال العلماء : إنه ما كفر

(١) تفسير الرازي : ٣١/٢٠٧ ـ ٢٠٨

بالله طرفة عين ، وإنما المراد بالضلال : الخطأ في معرفة أحكام الشرائع ، فهداه إلى مناهجها وكيفياتها . والمراد : الحيدة عن معالم الشريعة الحنيفية ، كقوله تعالى : ﴿ ما كنتَ تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ﴾ [الشورى ٥٢/٤٢] .

﴿ عائلاً ﴾ فقيراً . ﴿ فأغنى ﴾ بالقناعة بربح التجارة وغيرها ، جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس » . ﴿ فلا تقهر ﴾ فلا تستذله وتستضعفه بأخذ ماله أو بتسخيره ونحو ذلك . ﴿ فلا تنهر ﴾ تزجره لفقره . ﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ أي نعمته عليك بالنبوة وغيرها . ﴿ فحدِّث ﴾ أخبر واشكر مولاك

سبب النزول :

نزول الآية (١) وما بعدها :

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال : اشتكى النبي ﷺ ، فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتته امرأة ، فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك ، وما قلى ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال : أبطأ جبريل على النبي ﷺ ، فقال المشركون : قد وَدَّع محمد ، فنزلت .

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال : مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل ، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب : ما أرى صاحبك إلا قد ودَّعك وقَلاَك ، فأنزل الله : ﴿ والضحى .. ﴾ الآيات .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد : أن خديجة قالت للنبي ﷺ : ما أرى ربك إلا قد قلاك ، فنزلت . والخبر مرسل ، ورواته ثقات . قال الحافظ ابن حجر : فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك ، لكن أم جميل قالته شماتة ، وخديجة قالته توجعاً .

والخلاصة : أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ، فقال المشركون : قلاه الله وودّعه ؛ فنزلت الآية .

نزول الآية (٤) :

﴿ وللآخرة خير .. ﴾ : أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « عُرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي ، فسرّني » فأنزل الله : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ وإسناده حسن .

نزول الآية (٥) :

أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال : عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته كَفْرا كَفْراً ـ أي قرية قرية ـ فسُرّ به ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

التفسير والبيان :

﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أي قسماً بالضحى : وقت ارتفاع الشمس أول النهار ، والمراد به النهار ، لمقابلته بالليل ، وبالليل إذا سكن وغطى بظلمته النهار مثلما يُسَجّى الرجل بالثوب ، ما قطعك ربك قطع المودِّع ، وما تركك ، ولم يقطع عنك الوحي ، وما أبغضك وما كرهك ، كما يزعم بعضهم أو تتوهم في نفسك . وهذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ لو كان من عنده لما توقف .

ثم بشره بأن مستقبله أفضل من ماضيه ، فقال :

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، إذا فرض انقطاع الوحي وحصل الموت ، وكذلك فإن أحوالك الآتية خير لك من الماضية ، وأن كل يوم تزداد عزاً إلى عز ، ومنصباً إلى منصب ، فلا تظن أني قليتك ، بل تكون كل يوم يأتي أسمى وأرفع ، فإني أزيدك رفعة وسمواً ، وإن شرف الدنيا يصغر عنده كل شرف ، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة في الدنيا .

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، وقلت : يا رسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : « مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ، ظلَّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .

وبشره بعطاء جزيل فقال :

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أي ولسوف يمنحك ربك عطاء جزيلاً ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فهو الفتح في الدين ، وأما في الآخرة فهو الثواب والحوض والشفاعة لأمتك ، فترضى به . وهذا دليل على تحقيق العلو والسمو في الدارين ، فيعلو دينه على كل الأديان ، ويرتفع قدره على جميع الأنبياء والناس بالشفاعة العظمى يوم العرض الأكبر يوم القيامة . وإنما أتى بحرف التوكيد والتأخير ، ليفيد بأن العطاء كائن لا محالة ، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة .

ثم عدد الله تعالى نعمه على رسوله ﷺ قبل إرساله ، وكأنه قال : ماتركناك وما قليناك قبل أن اخترناك واصطفيناك ، فتظن أنا بعد الرسالة نهجرك ونخذلك ، فقال :

﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي ألم يجدك ربك يتيماً لأب لك ، فجعل لك مأوى تأوي إليه ، وهو بيت جدك عبد المطلب وعمك أبي طالب ، فإنه فقد أباه وهو في بطن أمه ، أو بعد ولادته ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب ، وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي ، وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة .

ووجدك غافلاً عن أحكام الشرائع حائراً في معرفة أصح العقائد ، فهداك لذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوْحَيْنا إليك رُوحاً من أمرِنا ، ما كنت تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادِنا ﴾ الآية [الشورى ٥٢/٤٢] .

ووجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك ، فأغناك بربح التجارة في مال خديجة ، وبما منحك الله من البركة والقناعة ، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه » .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل .

ثم أمره ربه ببعض الأخلاق الاجتماعية وبشكره على هذه النعم ، فقال :

١ ـ ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله ، فلا تستذل اليتيم وتهنه وتتسلط عليه بالظلم لضعفه ، بل أدّه حقه ، وأحسن إليه ، وتلطف به ، واذكر يتمك . لذا كان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي باليتامى خيراً .

٢ ـ ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي وكما كنت ضالاً ، فهداك الله ، فلا تنهر السائل المسترشد في العلم ، وطلب المال ، ولا تزجره ، بل أجبه أورد عليه رداً جميلاً .

٣ ـ ﴿ وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ أي تحدث بنعمة ربك عليك ، واشكر هذه النعمةوهي النبوة والقرآن ، وما ذكر في الآيات ، والتحدث بنعمة الله

شكر ، فكما كنت عائلاً فقيراً ، فأغناك الله ، فتحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء في الدعاء النبوي المأثور : « واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُثْنِين عليها ، قابليها ، وأتمها علينا » .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله بالضحى ، أي بالنهار ، وبالليل إذا سكن ، على أنه ما ترك نبيه وما أبغضه منذ أحبه . قال ابن جريج : احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً . وقال ابن عباس : خمسة عشر يوماً . وقيل : خمسة وعشرين يوماً . وقال مقاتل : أربعين يوماً .

قال الرازي : هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ، إذ لو كان من عنده لما امتنع[1] . كما تقدم .

٢ ـ بشر الله نبيه ببشارتين عظيمتين : الأولى ـ أنه جعل أحواله الآتية خيراً له من الماضية ، ووعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز ، وجعل ما عنده في الآخرة حين مرجعه إليه ، خيراً له مما عجل له من الكرامة في الدنيا .

والثانية ـ أنه سيعطيه غاية ما يتمناه ويرتضيه في الدنيا بالنصر والتفوق وغلبة دينه على الأديان كلها ، وفي الآخرة بالثواب والحوض والشفاعة .

روى الخطيب أنه ﷺ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : « إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار » ، كما تقدم .

---

(١) تفسير الرازي : ٢١٠/٣١

والخلاصة : آية ﴿ ولسوف يعطيك .. ﴾ عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عز وجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوحات وانتشار الدعوة في المشارق والمغارب ، ولما ادخر له عليه السلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو عز وجل .

وورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ﴾ [إبراهيم ٣٦/١٤] وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة ١١٨/٥] فرفع يديه ، وقال : اللهم أمتي أمتي ، وبكى ؛ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله ، فأخبره ﷺ بما قال ، وهو أعلم ؛ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسوؤك » .

٣ ـ عدد الله تعالى نعمه ومِنَنَه على نبيه محمد ﷺ ، وذكر منها في السورة ثلاثاً هي الإيواء بعد اليتم ، والهدى بعد الغفلة ، والإغناء بعد الفقر .

أما الإيواء فقد تكفله بعد موت أبيه وأمه جده عبد المطلب ، ثم عمه أبو طالب فكفله وآزره ، ودفع عنه الأذى .

وأما الهدى فهو بيان القرآن والشرائع ، فهداه الله إلى أحكام القرآن وشرائع الإسلام ، بعد الجهل بها والغفلة عنها . وليس معنى الضلالة الكفر أو كونه على دين قومه ؛ لأن الأنبياء معصومون عن ذلك . واتفق جمهور العلماء على أنه ﷺ ما كفر بالله لحظة واحدة . وقالت المعتزلة : هذا غير جائز عقلاً ، لما فيه من التنفير .

وأما الإغناء فهو الإمداد بالفضل والمال والرزق بالتجارة في مال خديجة رضي الله عنها . وفي زمان الرسالة أغناه بمال أبي بكر ، ثم بمال الأنصار بعد الهجرة ، ثم بالغنيمة .

والحكمة في اختيار اليتم له : أن يعرف قدر اليتامى ، ويقوم بحقهم وصلاح أمرهم . ثم إن اليتم والفقر نقص في حق الناس عادة ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً ، وأكرم الخلق ، مع هذين الوصفين ، كان ذلك قلباً للعادة ، فكان من جنس المعجزات .

٤ ـ أدّب الله نبيه محمداً ﷺ بأن يتعامل مع الخَلْق مثل معاملة الله معه ، فأمره بألا يظلم اليتيم ، ويدفع إليه حقه ، ويذكر أنه كان يتيماً مثله . ودلت الآية على طلب اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه ، حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه ، فقال : « إن أردت أن يلين ، فامسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين » وفي الصحيح الذي رواه البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

ونهى الله تعالى نبيه ﷺ عن زجر السائل وعن إغلاظ القول له ، وأمره بأن يردّه ببذل يسير ، أو ردّ جميل ، وأن يتذكر فقره . روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يمنعن أحدكم السائلَ ، وأن يعطيه إذا سأل ، ولو رأى في يده قُلْبين[1] من ذهب » . وقال النبي ﷺ أيضاً : « رُدُّوا السائل ببذل يسير ، أو ردّ جميل ، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله »[2] .

---

(١) القُلْب : السوار .

(٢) تفسير القرطبي : ١٠١/٢٠

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بشكر نعمة الله عليه وهي النبوة والرسالة ، وإنزال القرآن الكريم عليه . ويكون الشكر بنشر ما أنعم الله عليه ، والتحدث بنعم الله ، والاعتراف بها شكر لها .

ويلاحظ أنه تعالى نهاه عن شيئين وأمره بواحد : نهاه عن قهر اليتيم جزاء لما أنعم به عليه في قوله : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ . ونهاه عن نهر السائل في مقابلة قوله : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ . وأمره بتحديث نعمة ربه ، وهو في مقابلة قوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

قال العلماء المحققون : التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقاً ، بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدي به غيره ، أو أن يشيع شكر ربه بلسانه ، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب ، فالستر أفضل .

وإنما أخر التحديث تقديماً لمصلحة المخلوقات على حق الله ؛ لأن الله غني وهم المحتاجون ، ولهذا رضي لنفسه بالقول فقط .

وروي عن الشافعي أنه رأى التكبير سنة في خاتمة ﴿ والضحى ﴾ إلى آخر القرآن ؛ لأنه حين انقطع الوحي كما تقدم ، وأنزلت السورة ، قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر » تصديقاً لما أتى به القرآن .

وهذا التكبير ليس بقرآن ؛ لأنه لم ينقل كالقرآن نقلاً متواتراً بسوره وآياته وحروفه ، دون زيادة ولا نقصان . وقال العلماء : لا نقول : إنه لابد لمن ختم أن يفعله ، ولكنه من فعل فقد أحسن ، ومن ترك فلا حرج .

ولفظ التكبير إما بأن يقول : « الله أكبر » أو يقول : « لاإله إلا الله والله أكبر » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرح ، أو : الانشراح

مكيّة ، وهي ثماني آيات .

تسميتها :

سميت سورة الشرح أو الانشراح أو ﴿ ألم نشرح ﴾ لافتتاحها بالخبر عن شرح صدر النبي ﷺ أي تنويره بالهدى والإيمان والحكمة ، وجعله فسيحاً رحيباً واسعاً ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يهديَه ، يشرحْ صدره للإسلام ﴾ [الأنعام ١٢٥/٦] .

مناسبتها لما قبلها :

هي شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبها في الجمل والموضوع ؛ لأن فيها تعداد نعم الله تعالى على نبيه ﷺ ، مع تطمينه وحثه على العمل والشكر ، حيث قال في السورة السابقة : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى .. ﴾ وأضاف هنا وعطف : ﴿ ألم نشرح لك صدرك .. ﴾ .

ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنها سورة واحدة بلا بسملة بينها ، والأصح المتواتر كونها سورتين ، وإن اتصلتا معنىً .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة كسابقتها الحديث عن شخصية النبي ﷺ وما أمده الله به من نعم عظيمة ، تستحق الحمد والشكر .

وقد اشتملت على أمور أربعة :

١ ـ تعداد نعم ثلاث أنعم الله بها على نبيه المصطفى ﷺ وهي شرح صدره بالحكمة والإيمان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، ورفع منزلته ومقامه وقدره في الدنيا والآخرة : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ﴾ [١ ـ ٤] وذلك بقصد تسلية الرسول ﷺ وإيناسه عما يلقاه من أذى قومه الشديد في مكة والطائف وغيرهما .

٢ ـ وعد الله له بتيسير المعسر ، وتفريج الكرب عليه ، وإزالة المحن والشدائد ، وتبشيره بقرب النصر على الأعداء : ﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ [٥ ـ ٦] .

٣ ـ أمره بمواظبة العبادة والتفرغ لها بعد القيام بتبليغ الرسالة ؛ شكراً لله على ما أنعم عليه : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ [٧] .

٤ ـ أمره بعد كل شيء بالتوكل على الله وحده ، والرغبة فيما عنده : ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ [٨] .

نعم الله على نبيه وما أمره به

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾

البلاغة :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ استفهام تقريري للتذكير بنعم الله ، أي قد شرحنا لك صدرك .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل حامله بطريق التمثيل .

﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ تنكير اليسر للتعظيم والتفخيم ، كأنه قال : يسراً عظيماً .

﴿ العسر ﴾ و « اليسر » بينهما جناس ناقص .

﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ إطناب بتكرير الجملة ، لتشبيت معناها في النفوس ، وبما أن العسر معروف فهو مفرد ، واليسر منكر فهو متعدد ، أي مع كل عسر يسران ، فالعسر الأول عين الثاني ، واليسر تعدد .

﴿ فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات . وكذا في قوله : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

المفردات اللغوية :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ألم نَفْسَحْ ونبسط ونوسع لك يا محمد صدرك ، حتى وسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق ، بما أودعنا فيه من الحكمة والإيمان والنبوة ، وأزلنا عنه ضيق الجهل . والعرب تطلق سعة الصدر وعظمه على الحلم والقوة ، فهو كناية عن السرور وانبساط النفس وراحة البال وسعة الأفق . وهو استفهام تقرير ، أي قد شرحنا وأفسحنا .

﴿ وضعنا ﴾ حططنا وأزلنا وخففنا عنك . ﴿ وزرك ﴾ حملك الثقيل . ﴿ أنقض ﴾ أثقل ، حتى سمع له نقيض أي صوت . وهذا كقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح ٢/٤٨] . وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام ، فإن الرسل معصومون من ارتكاب الذنوب ، وإنما المراد ما فعله اجتهاداً مما هو خلاف الأولى ، كإذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك ، وأخذ الفداء من أسرى بدر ، وعبوسه في وجه الأعمى ونحو ذلك . وقيل : المراد من قوله : ﴿ وزرك ﴾ تخفيف أعباء النبوة والرسالة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها ، وأداء واجباتها وحفظ حقوقها ، فسهل الله تعالى ذلك عليه ، وحط عنه ثقلها ، بأن صارت يسيرة له .

﴿ ورفعنا لك ذِكْرك ﴾ بالنبوة وغيرها ، كأن جعلتك تُذكر مع ذِكْري في الأذان والإقامة والتشهد والخُطبة وغيرها . ﴿ فإن مع العسر ﴾ الشدة والضعف والفقر ونحوها من المضايقات ﴿ يسراً ﴾ سهولة وتوفيقاً للاهتداء والطاعة ، وقد قاسى النبي ﷺ من كثير من الكفار ، وعانى منهم الشدائد ، ثم حصل له اليسر ، بنصره عليهم .

﴿ فإذا فرغت ﴾ من أداء الرسالة وتبليغ الناس بها . ﴿ فانصب ﴾ اتعب في الدعاء والعبادة . ﴿ فارغب ﴾ تضرع وتوكل ، واجعل رغبتك بالله في جميع شؤونك .

سبب النزول :

نزول الآية (٦) :

﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ : نزلت لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر . وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أبشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين » .

التفسير والبيان :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ أي قد شرحنا لك صدرك لقبول النبوة ، وتحمل أعبائها ، وحفظ الوحي . قال الرازي : وقد استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك . والأولى أن يقال كما بينا : الاستفهام تقريري ، يراد به إثبات الشرح .

والمراد بشرح الصدر تنويره وجعله فسيحاً وسيعاً رحيباً ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يهديَه يشرحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الأنعام ١٢٥/٦][1] . وقال أبو حيان : شرح الصدر : تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه ، وهو قول الجمهور ، والأولى العموم لهذا ولغيره من مقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده ، واحتمال المكاره من إذاية الكفار[2] . والأكثرون على أن الشرح أمر معنوي .

وقيل : المراد بذلك شرح صدره ليلة الإسراء ، كما رواه الترمذي عن مالك بن صَعْصَعَة . قال ابن كثير : ولكن لامنافاة ، فإن من جملة شرح صدره : الذي فعل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٥٢٤/٤

(٢) البحر المحيط : ٤٨٧/٨

(٣) تفسير ابن كثير ، المرجع السابق .

وروى أيضاً حديث شرح الصدر عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء ، لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيتَ من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً ، وقال : « لقد سألت يا أبا هريرة ، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذ بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط ، وأرواح لم أجدها من خَلْق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما مسّاً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر ، فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها ، فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ، ثم هزّ إبهام رِجْلي اليمنى ، فقال : اغدُ واسلم ، فرجَعْتُ بها أغدُو رِقّة على الصغير ، ورحمة على الكبير » .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه : أن النبي ﷺ قال : « فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، إذ سمعت قائلاً يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين ، فأُتيت بطَسْتٍ من ذهب ، فيها ماء زمزم ، فشرح صدري إلى كذا وكذا » ـ قال قتادة : قلت : ما يعني ؟ قال : إلى أسفل بطني ـ قال : فاستخرج قلبي ، ففَسل قلبي بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ، ثم حُشِي إيماناً وحكمة » .

والخلاصة من حديث شق الصدر : أن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ في صغره ، وشق صدره ، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ، ثم ملأه علماً وإيماناً ، ووضعه في صدره .

وقد طعن بعضهم في هذه الرواية ؛ لأن هذه الواقعة حدثت في حال الصغر ، وذلك من المعجزات ، فلا يجوز أن تتقدم نبوته ، ولأن تأثير الغسل في إزالة أوساخ الأجسام ، والمعاصي ليست بأجسام ، فلا يكون للغسل فيها أثر ، ولأنه لا يصح أن يملأ القلب علماً ، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم .

وأجاب الإمام فخر الدين الرازي عن ذلك بأن هذا يسمى الإرهاص ، وهو مقدمات النبوة وبشائرها ، ومثله في حق الرسول ﷺ كثير ، ولا يبعد أن يكون غسل الدم الأسود من قلب الرسول ﷺ علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي ، ويحجم عن الطاعات ، فإذا أزالوه كان ذلك كالعلامة على كون صاحبه معصوماً ، مواظباً على الطاعات ، محترزاً عن السيئات ، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد[1] .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ﴾ أي حططنا عنك ما كنت تتصور من وجود ذنوب ومعاص أثقلت كاهلك ، وأتعبت نفسك ، سواء قبل النبوة أم بعدها مما تفعله خلاف الأولى ، وهو لا يتفق مع سمو قدرك ، ورفعة منزلتك ، وعلو شأنك ، كالإذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الجهاد في موقعة تبوك ، وقبول الفداء من أسرى بدر ، والعبوس في وجه الأعمى .

وقيل : المراد حططنا عنك حمل أعباء النبوة والرسالة ، فسهلناها عليك ، حتى تيسرت لك .

﴿ ورفعنا لك ذِكْرك ﴾ أي جعلنا ذِكْرك مرفوعاً عالياً في الدنيا والآخرة ، بالنبوة وختم الرسالات بك ، وإنزال القرآن العظيم عليك ، وتكليف المؤمنين بالقول بعد « أشهد أن لا إله إلا الله » : « أشهد أن محمداً رسول الله » سواء في

---

(١) تفسير الرازي : ٢/٣٢

الأذان أم في التشهد أم في الخطبة وغيرها ، وأمرهم بالصلاة والسلام عليه ، وأمر الله بطاعته ، وجعل طاعته طاعة لله تعالى .

قال قتادة : رفع الله ذِكْره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة ، إلا ينادي بها : أشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل ، فقال : إن ربي وربك يقول : كيف رَفَعتُ ذِكْرك ؟ قال : الله أعلم ، قال : إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي » .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربي مسألة ، وددت أني لم أسأله ، قلت : قد كان قبلي أنبياء ، منهم من سخّرت له الريح ، ومنهم من يحيي الموتى ، قال : يامحمد ، ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ قلت : بلى ياربّ ، قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى ياربّ ، قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى يارب ، قال : ألم أشرح لك صدرك ، ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يارب » .

وبعد التذكير بهذه النعم ، ذكر الله تعالى أن ذلك جارٍ على وفق سنته ، من إيراد اليسر بعد العسر ، فقال ردّاً على المشركين الذين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر :

﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ أي إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً ، وإن مع الضيق فرجاً ، وقد أكّد تعالى ذلك في الجملة الثانية . وفي هذا بشارة لرسول الله ﷺ وتسلية له أنه سيبدل حاله من فقر إلى غنى ، ومن ضعف إلى عزة وقوة ، ومن عداوة قومه إلى محبتهم . والأظهر أن المراد باليسرين : الجنس ، ليكون وعداً عاماً لجميع المكلفين في كل عصر ، ويشمل يسر الدنيا ويسر الآخرة ، ويسر العاجل والآجل .

قال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالألف واللام ، وليس هناك معهود سابق ، فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً . وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكان أحدهما غير الآخر .

يؤيد ذلك ما رواه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً : « لو كان العسر في حَجَر ، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه ، فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين ، إن الله يقول : ﴿ إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ » .

ثم أمره ربه بمهام تتناسب مع مقامه ومع شكر هذه النعم السابقة واللاحقة من اليسر والظفر ، فقال :

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من تبليغ الدعوة ، أو من الجهاد ، أو مشاغل الدنيا وعلاقاتها ، فأتعب نفسك في العبادة ، واجتهد في الدعاء ، واطلب من الله حاجتك ، وأخلص لربّك النيّة والرغبة . وهذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة ؛ لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً ، وإن الله يكره العبد البطال .

﴿ وإلى ربّك فارغب ﴾ أي أقبل على الله ، واجعل رغبتك إلى الله وحده ، وتضرع إليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة ، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله ، فإنه الجدير بالتوجه والتضرع إليه ، وبالتوكل عليه .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ هذه باقة أخرى من نعم الله على نبيه المصطفى ﷺ ، بالإضافة لما ذكر في سورة الضحى السابقة ، وهي :

أولاً ـ شرح الصدر ، أي جعله فسيحاً رحيباً ، قوياً عظيماً لتحمل أعباء النبوة والرسالة .

وثانياً ـ حطّ الذنوب والمعاصي التي تعد ثقيلة وكبيرة بالنسبة لقدره ومنزلته ، وإلا فهي ليست ذنوباً على الحقيقة ؛ لأن الأنبياء معصومون منها ، ولم يسجد لصنم أو وثن قط ، ولم يصدر عنه كفر أصلاً قبل النبوة . وهذا يستدعي كمال عقله وروحه ، وتبرئته من الوزر الذي ينشأ عن النفس والهوى ، وهو معصوم منها .

وثالثاً ـ رفع ذكره وإعلاء شأنه ومقامه في الدنيا والآخرة وتنزيه مقامه عن كل وصم ، قال ابن عباس : يقول له : لاذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان ، والإقامة ، والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم عرفة ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خُطب النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها .

ولو أن رجلاً عبد الله جلّ ثناؤه ، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، لم ينتفع بشيء ، وكان كافراً[1] .

٢ ـ جعل الله تيسيراً ورحمة على العباد يسرين مع كل عسر ، قال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرَّفاً ، ثم كرروه ، فهو هو ، وإذا نكّروه فهو غيره ، وهما اثنان ، ليكون أقوى للأمل ، وأبعث على الصبر .

٣ ـ الحثّ على المواظبة على انعمل الصالح واستدامته ، وعلى عمل الخير والإقبال على فعله ، فعلى العاقل ألا يضيع أوقاته في الكسل والدعة ، ويحرص بكل قواه على تحصيل ما ينفعه في الدارين .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠٦/٢٠ ـ ١٠٧

٤ ـ التوكل على الله وحده ، والرغبة إليه والتضرع لوجهه الكريم ، فإنه أهل التوجه والضراعة ، ولا يطلب ثواب العمل الصالح إلا منه سبحانه .

قال ابن العربي : روي عن شُريح أنه مرّ بقوم يلعبون يوم عيد ، فقال : ما بهذا أمرَ الشارع . وفيه نظر ؛ فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدَّرَق والحِراب في المسجد يوم العيد ، والنبي ﷺ ينظر . ودخل أبو بكر بيت رسول الله ﷺ على عائشة وعندها جاريتان من جَوَاري الأنصار تغنّيان ، فقال أبو بكر : أمِزْمَارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنه يوم عيد . وليس يلزم الدُّؤوب على العمل ، بل هو مكروه لِلْخَلْق[1] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) أحكام القرآن : ١٩٣٨/٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين

مكيّة ، وهي ثماني آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ التين ﴾ ؛ لأن الله تعالى أقسم في مطلعها بالتين والزيتون لما فيهما من خيرات وبركات ، ومنافع : ﴿ والتين والزيتون .. ﴾ .

مناسبتها لما قبلها :

ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة حال أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، وأنه أفضل العالم ، ثم ذكر في هذه السورة حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من التدني ودخول جهنم إن عادى رسول الله ﷺ ، أو دخول الجنة إن آمن به وعمل صالحاً .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية بيان أمور ثلاثة متعلقة بالإنسان وعقيدته :

١ ـ تكريم النوع الإنساني ، حيث خلق الله الإنسان في أحسن صورة وشكل ، منتصب القامة ، سَوِيّ الأعضاء ، حسن التركيب : ﴿ والتين والزيتون .. ﴾ [١ ـ ٤] .

٢ ـ بيان انحدار مستوى الإنسان وزجّ نفسه في نيران جهنم بسبب كفره بالله تعالى ورسوله ﷺ ، وإنكاره البعث والنشور ، بالرغم من توافر الأدلة القاطعة

على قدرة الله عزّ وجلّ بخلق الإنسان في أحسن تقويم : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [٥] .

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ [٦] .

٣ ـ إعلان مبدأ العدل المطلق في ثواب المؤمنين ، وتعذيب الكافرين : ﴿ فما يكذبك بعدُ بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [٧ ـ ٨] .

فضلها :

أخرج الجماعة في كتبهم ومالك في موطئه عن البراء بن عازب : كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

حال النوع الإنساني خَلْقاً وعملاً

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨

الإعراب :

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ ﴿ الأمين ﴾ : إما من الأمن أي الآمن ، كعليم بمعنى عالم ، أو بمعنى المؤمّن ؛ لقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران ٣/٩٧] كحكيم بمعنى مُحكِم ، وسميع بمعنى مسمع .

﴿ في أحسن تقويم ﴾ ﴿ أحسن ﴾ : صفة لمحذوف ، أي في تقويم أحسن .

﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ « ما » : استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿ يكذبك ﴾ : خبره .

البلاغة :

﴿ والتين والزيتون ﴾ إن أريد موضعها وهما الشام وبيت المقدس ، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية بإطلاق الحالّ وإرادة المحل ، مثل : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ [الانفطار ١٣/٨٢] فالنعيم مجاز ، وهو شيء معنوي يحل في الجنة ، والجنة محل له ، وهو حالّ فيها ، فأطلق على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الحالّية .

﴿ أحسن تقويم ﴾ و ﴿ أسفل سافلين ﴾ بينهما طباق .

﴿ فما يكذبك ؟ ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والعتاب .

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ استفهام تقريري .

﴿ أحكم الحاكمين ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

﴿ البلد الأمين ﴾ ، ﴿ أسفل سافلين ﴾ ، ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ سجع مرصّع .

المفردات اللغوية :

﴿ والتين والزيتون ﴾ هما الشجرتان المعروفتان ، أو الشام وبيت المقدس موضعا إنبات هاتين الشجرتين ، أو جبلان بالشام ينبتان المأكولين ، قال أبو حيان : والظاهر أن التين والزيتون هما المشهوران بهذا الاسم ، وفي الحديث : مدح التين ، وأنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس . وقال البيضاوي : خصّهما من بين الثمار بالقسم ؛ لأن التين فاكهة طيبة ، لافضل (بقايا) لها ، وغذاء لطيف ، سريع الهضم ، ودواء كثير النفع ، فإنه يلين الطبع ، ويحلل البلغم ، ويطهر الكليتين ، ويزيل رمل المثانة ، ويفتح سدّة الكبد والطحال . والزيتون فاكهة وإدام ودواء ، وله دهن لطيف ، كثير المنافع ، مع أنه قد ينبت حيث لادهنية فيه كالجبال .

﴿ وطور سينين ﴾ الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عنده ، وناجى عليه موسى ربّه ، و ﴿ سينين ﴾ وسيناء : اسمان للموضع الذي فيه . ومعنى ﴿ سينين ﴾ : المبارك أو الحسن بالأشجار المثمرة . ﴿ البلد الأمين ﴾ مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة ، و ﴿ الأمين ﴾ : إما الآمن ، أو المأمون فيه ، يأمن فيه من دخله .

﴿ الإنسان ﴾ أراد به الجنس . ﴿ في أحسن تقويم ﴾ تعديل لصورته وشكله ، بأن خصه

بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ، يقال : قوّم الشيء تقويماً : جعله على أعدل وجه وأكمل صورة . والتقويم أيضاً : معرفة قدر الشيء وقيمته . ﴿ ثم رددناه ﴾ رددنا بعض أفراده وهو الكافر أو بعض الناس . ﴿ أسفلَ سافلين ﴾ أي جعلناه من أهل النار الذين هم أسفل من كل سافل ، وقيل : هو كناية عن الهرم والضعف ، وأرذل العمر (أي الخرف) فيكون : ﴿ إلا الذين .. ﴾ استثناء منقطعاً بمعنى لكن . ﴿ غير ممنون ﴾ غير مقطوع عنهم ، جاء في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس : « إذا كبر العبد وضعف عن العمل ، كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته » .

﴿ فما يكذبك ﴾ أيها الكافر . ﴿ بعد ﴾ بعدما ذكر من خلق الإنسان في أحسن صورة ، ثم رده إلى أرذل العمر ، الدال على القدرة الإلهية على البعث . ﴿ الدّين ﴾ الجزاء بعد البعث والحساب ، أي ما يجعلك مكذباً بالبعث ولا جاعل ولا موجب لهذا التكذيب ؟

سبب النزول :

نزول الآية (٥) :

﴿ ثم رددناه .. ﴾ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : هم نفر ، ردوا إلى أرذل العمر ، على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل عنهم حتى سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم ، أن لهم أجرهم الذي عملوا ، قبل أن تذهب عقولهم .

التفسير والبيان :

﴿ والتين والزيتون ﴾ أي قسماً بالتين الذي يأكله الناس ، وبالزيتون الذي يعصرون منه الزيت ، فالمراد من التين والزيتون هذان الشيئان المشهوران ، قال ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذا .

وهما كناية عن البلاد المقدسة التي اشتهرت بإنبات التين والزيتون . وإنما أقسم بالتين ؛ لأنه غذاء وفاكهة ودواء ، فهو غذاء لأنه طعام لطيف ، سريع الهضم ، لا يمكث في المعدة ، يلين الطبع ، ويقلل البلغم ، ويطهر الكليتين ،

ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمّن البدن ، ويفتح مسام الكبد والطحال ، وهو خير الفواكه وأحمدها .

وكونه دواء لأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن ، وفي الحديث الحسن الذي رواه ابن السني وأبو نعيم عن أبي ذر ، وضعفه السيوطي : « إنه يقطع البواسير ، وينفع من النّقرس » .

وكذلك الزيتون فاكهة وإدام ودواء ، يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب لبعض أهل البلاد ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية ، قال تعالى : ﴿ يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ ، لاشرقية ولا غربية ﴾ [النور ٣٥/٢٤] . وقال ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة وهو ضعيف : « كلوا الزيت وادّهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

﴿ وطور سينين ﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وهو طور سيناء .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ أي مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة المشرفة ، وبميلاد النبي ﷺ وإرساله فيه ، سمي أميناً لأنه آمن ومأمون فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ومَنْ دَخَلَه كان آمناً ﴾ [آل عمران ٩٧/٣] .

أقسم الله سبحانه بهذه المواضع الثلاثة ؛ لأنها مهابط وحي الله على أولي العزم من الرسل ، ومنها أضاءت الهداية للبشر . وجاء في آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء ـ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ . وذَكَرَهم مُخْبِراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

ثم ذكر جواب القسم المحلوف عليه ، فقال :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أي أُقسم بالأشياء الثلاثة المذكورة على أننا خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل ، منتصب القامة ، سويّ الأعضاء ، حسن التركيب ، يأكل بيده ، يتميز بالعلم والفكر والكلام والتدبير والحكمة ، فصلح بذلك أن يكون خليفة مستخلفاً في الأرض كما أراد الله له . والخلاصة : خلقناه في أحسن تعديل شكلاً وانتصاباً ، كما قال أكثر المفسرين .

ذكر القرطبي القصة التالية التي توضح حسن تقويم الإنسان ، فقال :

كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبّاً شديداً ، فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ؛ فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني ! وبات بليلة عظيمة ، فلما أصبح ، غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً ، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم ، فقال جميع من حضر : قد طُلّقت ؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتاً .

فقال له المنصور : مالك لاتتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ . ياأمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه .

فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبل على زوجتك . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلقك .

ثم عقب القرطبي على هذا قائلاً : فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً ، جمال هيئة ، وبديع تركيب : الرأس بما فيه ، والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ،

والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالَم الأصغر ؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه[١] .

لكنه غفل عن هذه المقومات ، وأهمل هذه الميزات ، وأخذ يعمل بهواه وشهواته ، لذا قال تعالى :

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قيل : إلى النار التي هي أسفل الدرجات إن لم يطع الله ويتبع الرسل ، والأولى أن يقال : رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف ، والخرف ونقص العقل ، بعد الشباب والقوة ، وجمال النطق ، وسلامة الفكر .

والقول الأول ، أي إلى النار بسبب كفر بعض الناس هو قول الحسن ومجاهد وأبي العالية وابن زيد وقتادة ، وعلى هذا يكون الاستثناء الآتي : ﴿ إلا الذين آمنوا .. ﴾ استثناءً متصلاً .

والقول الثاني ، أي إلى أرذل العمر هو قول ابن عباس وعكرمة والضحاك والنخعي ، وعلى هذا يكون الاستثناء التالي منقطعاً . وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا ، بل في الجنس من يعتريه ذلك . واختار ذلك ابن جرير .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي إلا الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ، وعملوا صالح الأعمال من أداء الفرائض والطاعات ، فلهم ثواب على طاعاتهم دائم غير منقطع .

والمعنى كما أشرنا على التفسير الأول وكون الاستثناء متصلاً : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بأن جمعوا بين الإيمان والعمل في حال الاستطاعة ، فلهم ثواب جزيل ، ينجون به من النار أسفل السافلين ، وهو الجنة دار المتقين .

---

(١) تفسير القرطبي : ١١٤/٢٠

والمعنى على التفسير الثاني وكون الاستثناء منقطعاً وهو الراجح لدينا : لكن المؤمنين المتقين ، فإن الله يكافئهم بثواب دائم غير منقطع ، بسبب صبرهم على ماابتلوا به من الشيخوخة والهرم والمواظبة على الطاعات بقدر الإمكان ، مع ضعف البنية ، وفتور الأعضاء ، أي أنهم قد يردون إلى أرذل العمر كغيرهم ، لكن لهم أجراً كبيراً دائماً على أفعالهم .

قال الألوسي : المتبادر من السياق الإشارة إلى حال الكافر يوم القيامة ، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها ، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها ؛ لعدم شكره تلك النعمة وعمله بموجبها[1] .

أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب الله تعالى له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحاً مقيماً » . وفي رواية عنه : ثم قرأ ﷺ : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ .

وأخرج الطبراني عن شدّاد بن أوس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله تبارك وتعالى يقول : « إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً ، فحمدني على ماابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الربّ عزّ وجلّ : إني أنا قيّدت عبدي هذا ، وابتليته ، فأجْروا له ما كنتم تُجرون له قبل ذلك » وهو حديث صحيح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : إذا كَبِر العبد ، وضعف عن العمل ، كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته .

ورأى بعضهم أن الاستثناء متصل حتى على القول الثاني ، فلا يردُّ المؤمن المتقي إلى أرذل العمر ، بدليل ماأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان

(١) تفسير الألوسي : ٤٧٦/٣٠

عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا ﴾ قال : إلا الذين قرؤوا القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير نحوه ، فقال : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر .

ثم وبّخ الكفار على التكذيب بالجزاء بعد البعث ، فقال :

﴿ فما يكذّبك بَعْدُ بالدّين ؟ ﴾ المراد : فأي شيء يلجئك بعد هذه البيانات والأدلة على قدرة الله إلى أن تكون كاذباً ، بسبب تكذيب الجزاء ؛ لأن كل مكذّب بالحق فهو كاذب ؟ فإذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردّك بسبب الكفر أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ لقد علمت البدأة ، وعرفت أن من قدر على البدأة ، فهو قادر على الرجعة بطريق أولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد ، وقد عرفت هذا ؟

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم أكّد ماسبق بقوله :

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين قضاءً وعدلاً ، الذي لا يجور ولا يظلم ، ومن عدله أن يقيم القيامة ، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه ؟!

أخرج الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً : « فإذا قرأ أحدكم : ﴿ والتين والزيتون ﴾ ، فأتى على آخرها : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ أقسم الله تعالى بمواضع ثلاثة مقدسة : هي أماكن نبات التين والزيتون ، التي هي مقام الأنبياء ومهبط الوحي ، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ، ومكة البلد الحرام الآمن على أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم وهو اعتداله واستواء شبابه . ثم يرد بعض النوع الإنساني أسفل سافلين ، أي إلى أرذل العمر ، وهو الهَرَم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، حتى يصير كالصبي في طوره الأول من أطوار الحياة .

قال ابن العربي : ولامتنان الباري سبحانه ، وتعظيم النعمة أو المنة في التين ، وأنه مقتات مدخر ، فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه[1] .

٢ ـ استثنى الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، فإنه تكتب لهم حسناتهم ، وتُمحى عنهم سيئاتهم ، وهم الذين أدركهم الكِبَر ، لا يؤاخذون بما عملوه في كِبرهم .

٣ ـ وبّخ الله الكافر وألزمه الحجة بكفره بالجزاء بعد البعث بقوله فيما معناه : إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردّك إلى أرذل العمر ، وينقلك من حال إلى حال ، فما يحملك على أن تكذّب بالبعث والجزاء ، وقد أخبرك محمد ﷺ به ؟

٤ ـ أليس الله أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق ، وأنه أحكم الحاكمين قضاءً بالحق وعدلاً بين الخلق ؟! وفي هذا تقدير لمن اعترف من الكفار بالصانع القديم وهو الله تعالى . وهو وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله .

---

(١) أحكام القرآن : ١٩٣٩/٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق

مكيّة ، وهي تسع عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة العلق ، وسورة ﴿ اقرأ ﴾ ، أو ﴿ القلم ﴾ ؛ لأن الله سبحانه افتتحها بقوله : ﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علَق ، اقرأ وربُّك الأكرم ﴾ . والعلق : الدم المتجمد على شكل الدودة الصغيرة .

مناسبتها لما قبلها :

ذكر الله تعالى في سورة ﴿ التين ﴾ أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وهذا بيان للصورة ، وذكر هنا أنه : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ وهذا بيان للمادة .

وذكر تعالى في هذه السورة من أحوال الآخرة بياناً توضيحياً لما ذكر في السورة السالفة .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي ﷺ لبيان الأمور الثلاثة التالية :

أ ـ بيان حكمة الله في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة ، والإشادة بما زوّده وأمره به من فضيلة القراءة ﴿ اقرأ ﴾ والكتابة ﴿ علّم بالقلم ﴾ لتمييزه على غيره من المخلوقات : ﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق .. ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] .

٢ ـ الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرده على أوامر الله ، وجحوده نعم الله عليه وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثروة والمال والغنى لديه ، فقابل النعمة بالنقمة ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربّه على فضله ، فجحد النعمة وتجبّر واستكبر : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى .. ﴾ [الآيات : ٦ ـ ٨] .

٣ ـ افتضاح شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل الذي كان ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ، انتصاراً للأوثان والأصنام ، وتوعده بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وكفره وطغيانه ، وتنبيه الرسول ﷺ إلى عدم الالتفات لما كان يتوعده به ويتهدده : ﴿ أرأيت الذي ينهى ... ﴾ إلى ﴿ كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ﴾ [الآيات : ٩ ـ ١٩] .

كيفية نزول هذه السورة ـ حديث بدء نزول الوحي :

نزل صدر هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم ، أما بقية السورة فهو متأخر النزول ، بعد انتشار دعوته ﷺ بين قريش ، وتحرشهم به وإيذائهم له .

أخرج الإمام أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عائشة رضي الله عنها قالت :أول ما بدئ به رسول الله ﷺ : الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الْخَلاَء ، فكان يأتي حِرَاء ، فيتحنَّث فيه ـ وهو التعبّد ـ الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحي ، وهو في غار حراء ، فجاءه الْمَلَك فيه فقال : ﴿ اقرأ ﴾ .

قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » قال : فأخذني فغَطَّني ـ ضمَّني ـ حتى بلغ مني الْجَهْد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطَّني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطَّني الثالثة ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : ﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ ، وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ .

قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة ، فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع ، فقال : يا خديجة ، مالي ؟ وأخبرها الخبر ، وقال : قد خشيت على نفسي ، فقالت له :

كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرَّحِمَ ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الْكَلّ ـ الضعيف العاجز ـ وتَقْري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق . ثم انطلقتْ به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرأ قد تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : أي ابنَ عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة .

ابن أخي ماترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ، ليتني فيها جَذَعاً[1] ، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أَوَمُخْرِجيَّ هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً . ثم لم يَنْشَب[2] ورقة أن توفي ، وفتر الوحي ، حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حُزْناً ، غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذِرْوة جبل لكي يُلقي نفسه منه ، تبدّى له جبريل ، فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً ، فيَسْكُن بذلك جأشه ، وتقَرُّ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل ، تبدّى له جبريل ، فقال له مثل ذلك .

(١) الجذع : الشاب القوي الجَلْد .
(٢) لم ينشب : لم يلبث .

الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ اقرأ وربّك الأكرم ﴾ ﴿ وربّك الأكرم ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿ اقرأ ﴾ .

﴿ علّم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ علّم بالقلم ﴾ أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية .

﴿ أن رآه استغنى ﴾ ﴿ أن رآه ﴾ : في موضع نصب على أنه مفعول لأجله ، أي لأن رآه ، وأصله « رأيه » فتحركت الياء وانفتح ماقبلها ، فقلبت ألفاً . ورأى : يتعدى إلى فعلين ؛ لأنه من رؤية القلب ، فالمفعول الأول : الهاء ، والثاني : ﴿ استغنى ﴾ .

وقرئ « رأه » بهمزة من غير ألف بعدها ، على أساس حذف لام الفعل مثل ﴿ حاش لله ﴾ أو لأن مضارعه « يرى » وقد حذفت عينه بعد نقل حركتها إلى ماقبلها ، أو حذفت لسكونها وسكون السين في ﴿ استغنى ﴾ .

البلاغة :

﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ سجع مرصّع .

﴿ اقرأ باسم ربّك ﴾ و ﴿ اقرأ وربّك الأكرم ﴾ إطناب بتكرار الفعل ، لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم .

﴿ خلق ﴾ و ﴿ علق ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ بينهما طباق السلب .

﴿ إن إلى ربّك الرجعى ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

المفردات اللغوية :

﴿ اقرأ باسم ربّك ﴾ ابتدئ قراءة القرآن مفتتحاً باسم ربّك ، أو مستعيناً به . ﴿ الذي خلق ﴾ الذي خلق كل شيء . ﴿ خلق الإنسان ﴾ جنس الإنسان . ﴿ من علق ﴾ جمع علقة : وهي قطعة دم يسيرة جامدة ، فإذا جرى الدم فهو المسفوح . ﴿ اقرأ ﴾ تأكيد للأول . ﴿ وربّك الأكرم ﴾ الذي لا يوازيه كريم ، الزائد في الكرم على كل كريم ، فإنه يُنعم بلا غرض . ﴿ الذي علّم بالقلم ﴾ علّم الخط والكتابة بالقلم ، وأول من خط به إدريس عليه السلام . ﴿ علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ علم جنس الإنسان بخلق القوى ، وإقامة الدلائل ، وإنزال الآيات ، وبتعليمه الأشياء من غير معلّم كالكتابة والصناعة وغيرها ، والمقصود : أنه يعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً . وقال : ﴿ من علق ﴾ بلفظ الجمع : لأنه أراد بالإنسان الجمع ، وكل الناس خلقوا من علق بعد النطفة . والعلقة : قطعة من دم رطب ، سميت بذلك : لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه ، فإذا جفّت لم تكن علقة .

وقد أبان في هذه الآيات مبدأ خلق الإنسان الذي يدلّ على الأوصاف الإلهية وأهمها بيان وجوده وقدرته تعالى ، ثم أشار إلى إثبات العلوم السمعية الموقوفة على النقل والكتابة ، ثم إثبات النبوة .

﴿ كلا ﴾ أي حقاً عند بعض المفسرين : لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يتوجه إليه الردع ، وقال الزمخشري : إنه ردع لمن كفر بنعمة الله عليه وطغى ، وهذا معلوم من سياق الكلام ، وإن لم يذكر . ﴿ إن الإنسان ﴾ أي : فرد من النوع الإنساني . ﴿ ليطغى ﴾ يتكبر ويتجاوز الحدّ في العصيان . ﴿ أن رآه ﴾ لأن رأى نفسه . ﴿ استغنى ﴾ اغتنى بالمال وغيره ، أي صار ذا مال وأعوان يغنى بها ، والآية نزلت في أبي جهل ، كما سأبيّن . ﴿ إن إلى ربّك ﴾ يا إنسان . ﴿ الرُّجعى ﴾ الرجوع ، والرجعى والمرجع والرجوع : مصادر ، أي المصير والعودة ، والمراد تخويف الإنسان ، فإن الله يجازي الطاغي بما يستحقه .

سبب النزول :

نزول الآية (٦) :

﴿ كلاّ إن الإنسان .. ﴾ : أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يُعفّر محمدٌ وجْهَه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته يفعل لأطأنّ على رقبته ، ولأعفرنّ وجهه في التراب ، فأنزل الله : ﴿ كلا ، إن الإنسان ليطغى ﴾ الآيات .

ثم إنه رأى رسول الله ﷺ في الصلاة ، فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك ياأبا الحكم ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار ، وهولاً شديداً .

التفسير والبيان :

﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ﴾ أي اقرأ مبتدئاً باسم ربّك ، أو مستعيناً باسم ربّك ،الذي أوجد وخلق كل شيء . وقد وصف الله لنا نفسه بأنه الخالق للتذكير بأول النعم وأعظمها . والمراد : الأمر من الله لنبيّه بأن يصير قارئاً ، بقدرة الله الذي خلقه وإرادته ، وإن لم يكن من قبل قارئاً ولا كاتباً ، فمن خلق الكون قادر على أن يوجد فيه القراءة ، وإن لم يتعلمها سابقاً .

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ أوجد بني آدم من قطعة دم جامد وهي العلقة ، التي هي طور من أطوار خلق الجنين ، فإنه يبدأ نطفة ، ثم يتحول بقدرة الله إلى علقة : وهي كأنها قطعة من الدم الجامد ، ثم يكون مضغة : وهي كأنها قطعة لحم ، ثم يظهر فيها بقية التخليق من عظام ، فلحم ، فإنسان كامل الخلقة .

ويلاحظ أنه تعالى أطلق الخلق أولاً ليتناول كل المخلوقات ، ثم خصّ الإنسان بالذّكر لشرفه ، أو لعجيب فطرته ، أو لأن الآية سيقت من أجله .

وإنما قال : باسم ربّك ، ولم يقل : باسم الله كما في التسمية المعروفة : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لأن الربّ : من صفات الفعل ، والله : من أسماء الذات ، وبما أنه أمره بالعبادة ، وصفات الذات لاتستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة صفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ في الحثّ على الطاعة ، والخلاصة : إنه لم يأت بلفظ الجلالة ، لما في لفظ الرّب من معنى الذي ربّاك ، ونظر في مصلحتك ، وجاء الخطاب ليدل على التأنيس والاختصاص ، أي ليس لك ربّ غيره .

وإنما أضاف ذاته إلى رسوله ، فقال : ﴿ باسم ربّك ﴾ للدلالة على أنه له ،

تصل إليه منفعته ، أما طاعة العبد فلا تحقق منفعة لله ، فإذا أتى بما طلبه منه من طاعة أو توبة ، أضافه إلى نفسه بوصف العبودية ، فقال : ﴿ أسرى بعبده ﴾ [الإسراء ١/١٧] .

وإنما ذكر قوله ﴿ الذي خلق ﴾ بعد قوله : ﴿ ربّك ﴾ للاستدلال على أنه ربّه ، وهو الذي أوجده ، فصار موجوداً بعد أن كان معدوماً ، والخلق والإيجاد تربية ، وكذلك جاء بصفة الخالق ، أي المنشئ للعالم ، للإتيان بصفة لا يمكن للأصنام شركة فيها ، فيكون رداً على العرب التي كانت تسمي الأصنام أرباباً .

﴿ اقرأ وربّك الأكرم ﴾ أي افعل ما أُمرت به من القراءة ، وربّك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم ، ومن كرمه : تمكينك من القراءة وأنت أميّ . وإنما كرر كلمة ﴿ اقرأ ﴾ للتأكيد ، ولأن القراءة لا تتحقق إلا بالتكرار والإعادة . وقوله : ﴿ وربّك الأكرم ﴾ لإزاحة المانع ، وإزالة العذر الذي اعتذر به النبي ﷺ لجبريل حين طلب منه بقوله : ﴿ اقرأ ﴾ ، فقال : ما أنا بقارئ .

والأوجه : أن يراد بقوله الأول : ﴿ اقرأ ﴾ : أوجد القراءة ، وبالثاني : استعن باسم ربّك .

ثم قرن القراءة بالكتابة ، فقال :

﴿ الذي علّم بالقلم ﴾ أي علّم الإنسان الكتابة بالقلم ، فهو نعمة عظيمة من الله عزّ وجلّ ، وواسطة للتفاهم بين الناس كالتعبير باللسان ولولا الكتابة لزالت العلوم ، ولم يبقَ أثر لدين ، ولم يصلح عيش ، ولم يستقر نظام ، فالكتابة قيد العلوم والمعارف ، ووسيلة ضبط أخبار الأولين ومقالاتهم ، وأداة انتقال العلوم بين الأمم والشعوب ، فتبقى المعلومات ، ثم يبنى عليها ويزاد إلى ما شاء الله ، فتنمو

الحضارات ، وتسمو الأفكار ، وتحفظ الأديان ، وتنشر الهداية . جاء في الأثر : « قيدوا العلم بالكتابة »[١] .

لهذا بدأت دعوة الإسلام بالترغيب في القراءة والكتابة ، وبيان أنها من آيات الله في خلقه ، ومن رحمته بهم ، وكانت معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وهو العربي الأميّ ، قرآناً يتلى ، وكتاباً يكتب ، وأنه بذلك نقل أمته من حال الأميّة والجهل إلى أفق النور والعلم ، كما قال تعالى ممتناً بذلك : ﴿ هو الذي بَعَث في الأُمّيين رسُولاً منهم ، يَتْلو عليهم آياته ، ويزكّيهم ، ويُعلّمُهم الكتابَ والْحِكْمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين ﴾ [الجمعة ٢/٦٢] .

ثم أبان عموم فضله وكثرة نعمه ، فقال :

﴿ علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ أي علّم الله الإنسان بالقلم كثيراً من الأمور مالم يعلم بها ، فلا عجب أن يعلمك الله أيها النبي القراءة ، وكثيراً من العلوم ، لنفع أمتك . ورد في الأثر : « من عمل بما علم ، ورّثه الله علم مالم يكن يعلم »[٢] .

ثم ردع الإنسان على طغيانه حال الغنى ، فقال :

﴿ كلا ، إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ أي ارتدعْ وانزجرْ أيها الإنسان ، عن كفرك بنعمة الله عليك ، وتجاوزك الحدّ في العصيان ، لأن رأيت نفسك مستغنياً بالمال والقوة والأعوان .

وقيل : المراد بالآية : حقاً إن أمر الإنسان عجيب ، يستذل ويضعف حال الفقر ، ويطغى ويتجاوز الحدّ في المعاصي ويتكبّر ويتمرد حتى أحسّ بنفسه القدرة والثروة . وأكثر المفسرين على أن المراد بالإنسان هنا أبو جهل وأمثاله .

(١) أخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن عمرو ، وهو صحيح .

(٢) تفسير ابن كثير : ٥٢٨/٤

ثم أنذر بالعقاب في الآخرة ، فقال :

﴿ إن إلى ربّك الرجعى ﴾ أي إن الرجوع والمصير إلى الله وحده ، لا إلى غيره ، فهو الذي يحاسب كل إنسان على ماله من أين جمعه ، وأين صرفه . ويلاحظ أن هذا الكلام جاء على طريقة الالتفات إلى خطاب الإنسان ، تهديداً له ، وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود : منهومان لا يشبعان : صاحب العلم ، وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن ، وأما صاحب الدنيا ، فيتمادى في الطغيان ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ وقال للآخر : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾

وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ بيان قدرة الله تعالى بالخلق ، فهو الخالق ، والتنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة : قطعة دم جامد رطب غير جاف . وهذه الآيات الكريمات أول شيء نزل من القرآن ، وهن أول رحمة من الله لعباده وأول نعمة أنعم الله بها عليهم .

٢ ـ أمر الله سبحانه الرسول ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربّه الذي خلق ، واسم الذي علّم الإنسان مالم يعلم .

٣ ـ أمر الله تعالى أيضاً بتعلم القراءة والكتابة ؛ لأنها أداة معرفة علوم الدين والوحي ، وإثبات العلوم السمعية ونقلها بين الناس ، وأساس تقدم العلوم والمعارف والآداب والثقافات ، ونمو الحضارة والمدنية .

٤ ـ من كرم الله تعالى وفضله : أن علم الإنسان مالم يكن يعلمه ، لينقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فقد شرّفه وكرّمه بالعلم ، وبه امتاز أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم إما بالفكر والذهن ، وإما باللسان ، وإما بالكتابة بالبنان . قال قتادة : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلُح عيش .

وفضائل الكتابة والخط كثيرة ، فحيث منّ الله على الإنسان بالخط والتعليم ، مدح ذاته بالأكرمية ، فقال : ﴿ وربُّك الأكرمُ الذي علّم بالقلم ﴾ أي علّم الإنسان بواسطة القلم ، أو علّمه الكتابة بالقلم .

مع أنه سبحانه حين عدد على الإنسان نعمة الخلق والتسوية وتعديل الأعضاء الظاهرة والباطنة ، وصف نفسه بالكرم قائلاً : ﴿ يا أيها الإنسانُ ، ما غرّك بربّك الكريمِ الذي خَلَقَك ، فسوّاك فعدَلك ﴾ [الانفطار ٦/٨٢ ـ ٧] .

جاء في الحديث الصحيح : « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة ، فهو عنده في الذِّكْر فوق عرشه »[1] .

وكانت أُمّية الرسول ﷺ ثم تعليمه من الله أثبت لمعجزته بين العرب الأُميين ، وأقوى في حجته .

٥ ـ أخبر الله تعالى عن طبع ذميم في الإنسان وهو أنه ذو فرح وأشر ، وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى ، وكثر ماله .

لذا هدده الله وتوعده ووعظه ليضبط طغيانه ويوقف تهوره بإخباره بأنه إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسب كل إنسان على ماله ، من أين جمعه ، وفيمَ صرفه وأنفقه .

(١) تفسير القرطبي : ١٢١/٢٠

وأصل نزول الآية في أبي جهل عند أكثر المفسرين ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون ، أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من استغنى طغى ؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً ، لعلنا نأخذ منها ، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد خيّرهم في ذلك ، فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه ، فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة » . فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك ؛ فكفّ عنهم إبقاء عليهم[1] .

٦ ـ أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها يدل على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً في الدين ، ومنفراً عن الدنيا والمال[2] .

صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

الإعراب :

﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ ﴿ أرأيت ﴾ : يقرأ بالهمز على الأصل ، وبالتخفيف بجعل الهمزة بين الهمزة والألف ؛ لأن حركة الهمزة فتحة ، وتخفيف الهمزة : أن تجعل بين الهمزة والحرف الذي

(١) تفسير القرطبي : ١٢٣/٢٠

(٢) تفسير الرازي : ٩/٣٢

حركتها منه . وتقرأ بالإبدال : بجعل الهمزة ألفاً تشبيهاً لها بما إذا كانت ساكنة ، مفتوحاً ماقبلها ، وليس لقياس . و ﴿ الذي ينهى ﴾ : مفعول أول لأرأيت الأول وأرأيت الثاني مكرر للتأكيد ولطول الكلام . وقوله : ﴿ إن كان على الهدى ﴾ مع ماعطف عليه مفعول ثان له . وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب الشرط الثاني وهو قوله : ﴿ ألم يعلم ﴾ . ويجوز أن يكون﴿ أرأيت ﴾ الثالث أيضاً مكرراً . وجواب الشرط بالحقيقة هو ماتدل عليه هذه الجملة الاستفهامية وهي : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ كأنه قيل : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أو كذب وتولى ، فإن الله مجازيه .

﴿ لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ نون ﴿ نسفعن ﴾ نون التوكيد الخفيفة ، وتكتب بالألف عند البصريين كالتنوين ، وبالنون عند الكوفيين ، وهي مكتوبة في المصحف بالألف ، كمذهب البصريين ، مثل : ﴿ وليكوناً من الصاغرين ﴾ [يوسف ٣٢/١٢] وليس في القرآن لها نظير . ﴿ ناصية كاذبة ﴾ : بدل من الناصية ، وهذا بدل النكرة من المعرفة .

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل مجلسه ، أهل ناديه ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

البلاغة :

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً ﴾ ؟ كناية ، كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ ، ولم يقل : ينهاك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره . و ﴿ أرأيت ﴾ استفهام للإنكار والتعجب ، وهي بمعنى أخبرني .

﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ ؟ استفهام للتعجيب من حال الناهي الذي ينهى .

﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ مجاز عقلي ، أسند الكذب والخطأ إلى الناصية مجازاً ، والمراد صاحبها ؛ لأنه السبب .

﴿ فليدع ناديه ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية ، أي أهل ناديه ، بإطلاق المحل وإرادة الحال .

المفردات اللغوية :

﴿ أرأيت ﴾ ؟ أي أخبرني ، وهي في المواضع الثلاثة للتعجب ، والمراد من الاستخبار : إنكار الحال المستخبر عنها وتقبيحها ، مثل : ﴿ أرأيت الذي يكذّب بالدين ؟ ﴾ [الماعون ١/١٠٧] . ﴿ الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ الناهي : هو أبو جهل ، والعبد : هو النبي ﷺ . والمعنى : أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن ؟!

وقيل : أرأيت إن كان المنهي على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ وأو : للتقسيم . ﴿ أرأيت إن كذب ﴾ الناهي النبيَّ ؟ ﴿ وتولى ﴾ عن الإيمان . ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ؟ أي ألم يدر بأن الله يرى ويشاهد ما يصدر منه ، فيجازيه عليه ؟ أي اعجب منه يا مخاطب من حيث نهيه عن الصلاة ، ومن حيث إن المنهي عن الهدى آمر بالتقوى ، ومن حيث إن الناهي مكذب متول عن الإيمان ؟!

والخطاب في قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ للرسول ﷺ على وجه التعجب . وفيه أنه ﷺ كان يقول : « اللهم أعزّ الإسلام بعُمر ، أو بأبي جهل بن هشام » وكأنه تعالى قال له : يا محمد كنت تظن أنه يعزّ به الإسلام ، وهو ينهى عن الصلاة التي هي أول أركان الإسلام . وكان يلقب بأبي الحكم ، فقيل له : كيف يليق به هذا اللقب ، وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، ويأمره بعبادة الجماد ؟!

وجواب شرط : ﴿ إن كان على الهدى ﴾ محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، أي فإن الله مجازيه .

﴿ كلا ﴾ ردع للناهي . ﴿ لئن لم ينته ﴾ عما هو فيه أو عليه من الكفر ، واللام : لام القسم . ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار . والسفع : الجذب بشدة ، والناصية : شعر الجبهة ، والمراد بذلك : القهر والإذلال بأنواع العذاب . ﴿ كاذبة خاطئة ﴾ وصفها بالكذب والخطأ ، والمراد صاحبها ، بالإسناد المجازي للمبالغة . ﴿ ناديه ﴾ أي أهل ناديه ، والنادي : المجلس أو مكان اجتماع القوم للتحدث فيه ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله .

﴿ سندعو الزبانية ﴾ ليجروه إلى النار ، و ﴿ الزبانية ﴾ الملائكة الغلاظ الشداد جمع زبنية وزبْني ، قال ابن عباس فيما ذكره أحمد : « لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً » . ﴿ كلا ﴾ ردع للناهي أيضاً . ﴿ لا تطعه ﴾ يا محمد في ترك الصلاة ، واثبت أنت على طاعتك . ﴿ واسجد ﴾ ودم على سجودك ، وصل لله . ﴿ واقترب ﴾ تقرب إلى ربك بطاعته .

سبب النزول :

نزول الآية (٩) :

﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلي ، فجاءه أبو جهل ، فنهاه ، فأنزل الله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى قوله : ﴿ كاذبة خاطئة ﴾ .

نزول الآية (١٧) :

﴿ فليدع ناديه ﴾ : أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يصلي ، فجاءه أبو جهل ، فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي ﷺ ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني ، فأنزل الله : ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾ وهو حسن صحيح كما قال الترمذي .

المناسبة :

بعد أن أبان سبحانه في مطلع السورة مظاهر القدرة الإلهية ، وعدد نعمه ومننه العظمى على الإنسان بتعليمه القراءة والكتابة وما لم يعلم ، ذكر السبب الحقيقي لكفر الإنسان وطغيانه وبغيه وهو حب الدنيا والثروة والاغترار بها ، مما شغله عن النظر في آيات الله وشكر نعمه .

ثم ذكر صوراً أخرى من طغيان الإنسان وهي النهي عن الصلاة والعبادة ، وهل يأمر بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ؟ وتكذيبه بالحق والتولي عن الدين والإيمان .

وناسب بعد هذا تهديده ووعيده بالعقاب الشديد والنكال الأليم يوم العرض والحساب ، من غير أن يجد نصيراً ينصره أو معيناً يمنعه من العذاب .

وختمت السورة بأمر النبي ﷺ بعدم طاعة هذا الطاغية ، والإقبال على عبادة ربه ، والتقرب إليه بالطاعة .

التفسير والبيان :

أخبر الله تعالى عن حالات قبيحة جداً من أحوال الطغاة وهي :

١ ـ ﴿ أرأيت الذي ينهى ، عبداً إذا صلى ﴾ ؟ أي أخبرني عن حال هذا الطاغية المغرور وهو أبو جهل وأمثاله ، كيف يجرؤ على أن ينهى عبداً هو محمد

رسول الله ﷺ وأتباعه عن أداء الصلاة والعبادة لله رب العالمين ، ويريد طاعته في عبادة الأوثان ، وترك عبادة الخالق الرزاق ؟ وتنكير كلمة ﴿ عبداً ﴾ يدل على كونه كاملاً في العبودية . والمراد بالآية : ماأجهل من ينهى أشد الخلق عبودية عن الصلاة ، وذلك مذموم عند العقلاء .

روي أن علياً رضي الله عنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال : ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك ، فقيل له : ألا تنهاهم ؟ فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ فلم يصرح بالنهي عن الصلاة . وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال أبو يوسف : أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لي ؟ فقال : يقول : ربنا لك الحمد ، ويسجد ، ولم يصرح بالنهي عن الدعاء[1] .

٢ ـ ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟ ﴾ أي أخبرني أيضاً عن حال هذا الطاغية الناهي ، إن كان على طريق سديد فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى ، أو هل هو آمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟

والأكثرون على أن الخطاب للنبي ﷺ أيضاً ، ليكون الكلام على نسق واحد . وقيل : الخطاب للكافر ، والمعنى : أرأيت يا كافر إن كانت صلاة هذا العبد المنهي هدى ، ودعاؤه إلى الدين أمراً بالتقوى ، أتنهاه مع ذلك ؟ والتقوى : الإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تُتقى به النار . ويتصور هذا كأن الظالم والمظلوم حضرا عند الحاكم ، أحدهما المدعي ، والآخر المدعى عليه ، ثم خاطب هذا مرة ، أي في الكلام الأول : ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ وهذا مرة أي في الكلام الثاني : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى .. ﴾ .

---

(١) تفسير الرازي : ٢١/٣٢ ، غرائب القرآن : ١٣٦/٣٠

٢ ـ ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال هذا الكافر أبي جهل إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة ، ومظاهر القدرة الباهرة ، وبما جاء به رسول الله ، وأعرض عن الإيمان بدعوتك ؟ والجواب فيما دل عليه ما يأتي : ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ، وأنه سيجازيه ويحاسبه على جرائمه ؟

وهذا على رأي الأكثرين في أن الخطاب في ﴿ أرأيت ﴾ في المواضع الثلاثة للنبي ﷺ . فإن كان الخطاب للكافر فالمراد بالآية الثالثة : إن كان محمد كاذباً أو متولياً عن الحق ، ألا يعلم أن خالقه يراه حتى ينتهي ، فلا يحتاج إلى نهيك ؟

قال العلماء : هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل ، إلا أن كل من ينهى عن طاعة الله فهو شريك في وعيد أبي جهل .

ثم جاء الزجر والتهديد والوعيد بصيغ مختلفة مبالغ فيها ، وبعضها أشد من بعض :

١ ـ ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه ويطلع على أحواله ، وسيجازيه بها أتم الجزاء ، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ؟!

٢ ـ ﴿ كلا ، لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الناهي عن البرّ والعبادة لله تعالى ، فوالله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر عن الشقاق والعناد ، لنأخذن بناصيته ، ولنجرّنه إلى النار . والناصية : شعر مقدم الرأس ، وصاحبها كاذب خاطئ مستهتر بفعل الخطايا والذنوب .

وفي هذا توعد شديد ، وتهديد أكيد عن طغيان هذا الطاغية .

٣ ـ ﴿ فليدع ناديه ، سندعُو الزبانية ﴾ أي فليدع هذا الناهي أهل ناديه أي قومه وعشيرته ، ليستنصر بهم ويعينوه ، والنادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم أو الأهل والعشيرة ، فإنه إن دعاهم لنصرته ، تعرض لسخط ربه وعقابه الأشد ، وسندعو له حينئذ الزبانية ، أي الملائكة الغلاظ الشداد ، ليأخذوه ويلقوه في نار جهنم . وفي هذا تحدٍّ بالغ .

روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ؟! فنزلت ، كما تقدم .

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة » .

٤ ـ ﴿ كلا ، لاتطعه ، واسجد واقترب ﴾ أي إياك يا محمد أن تجامل هذا الطاغية في شيء ، أو تطيعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة كما قال : ﴿ فلا تُطعِ المكذبين ﴾ [القلم ٨/٦٨] ، وصل لله غير مكترث به ، ولا مبال بتهديده أو نهيه ، وتقرب إلى الله سبحانه بالطاعة والعبادة ، فذلك يكسبك قوة وعزة ، ومنعة وهيبة في قلوب الأعداء ، والعبادة هي الحصن والوقاية ، وطريق النجاة والنجاح والنصر .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع لأبي جهل عن قبائح أحواله وأفعاله . والمراد بنهي النبي ﷺ عن طاعة أبي جهل : قطع كل الصلات والعلاقات معه ، والمراد بالأمر بالسجود : أن يزداد غيظ الكافر .

وهذا تهكم بهذا الطاغية ، واستخفاف به ، وتعريض بأن الله سبحانه وتعالى عاصم نبيه وحافظه .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وصف الله تعالى أبا جهل وأمثاله من الطغاة المتردين المتكبرين بأنه ينهى الرسول ﷺ وأتباعه عن عبادة الله تعالى ، وأنه فيما يأمر به من عبادة الأوثان ليس على طريق سديدة ، ولا على منهج الهدى ، ولا من الآمرين بالتقوى ، أي التوحيد والإيمان والعمل الصالح ، وأنه في الحقيقة مكذب بكتاب الله عز وجل ، ومعرض عن الإيمان .

٢ ـ هدد الله تعالى هذا الطاغية بالحشر والنشر ، فإن الله تعالى عالم بجميع المعلومات ، حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فلا بد أن يجازي كل أحد بما عمل . وفي هذا تخويف شديد للعصاة ، وترغيب قوي لأهل الطاعة .

وهذه الآية ، وإن نزلت في حق أبي جهل ، فكل من نهى عن طاعة الله ، فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد ، كما تقدم .

ولا يعترض عليه بالمنع من الصلاة في الدار المغصوبة ، والأوقات المكروهة ؛ لأن المنهي عنه غير الصلاة ، وهو المعصية .

كذلك لا يعترض عليه بمنع الزوجة عن صوم التطوع وعن الاعتكاف ؛ لأن ذلك لاستيفاء مصلحة الزوج بإذن الله ، لا بغضاً بعبادة ربه .

٣ ـ زاد الله تعالى في الزجر والوعيد لذلك الطاغية أبي جهل وأمثاله : بأنه إن لم ينته عن أذى محمد ليأخذن الله بناصيته (مقدم شعر رأسه) وليذلّنه ويجرّنه إلى نار السعير ؛ لأن ناصية أبي جهل كاذبة في قوله ، خاطئة في فعلها ، والخاطئ

معاقب مأخوذ ، والمخطئ[١] غير مؤاخذ . والمراد أن صاحب تلك الناصية كاذب خاطئ ، كما يقال : نهاره صائم ، وليله قائم ، أي هو صائم في نهاره ، قائم في ليله .

٤ ـ تحدى الله تعالى هذا الطاغية مع التهكم والتوبيخ بأن يطلب أهل مجلسه وعشيرته ، ليستنصر بهم ، فإنه إذا فعل أحضر الله الزبانية الملائكة الغلاظ الشداد لإلقائه في نار السعير .

٥ ـ بالغ الله تعالى في زجر هذا الكافر عن كبريائه ، ونَفَى قدرتَه على تحقيق تهديده ، وحقَّره وأبان صغر شأنه وعجز نفسه ، فليس الأمر كما يظنه أبو جهل ، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ، وصل لله ، وتقرب إلى جنابه بالطاعة والتعبد .

وإنما عبَّر عن الصلاة لله بقوله ﴿ واسجد ﴾ لما روى عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وأحبه إليه ، جبهتُه في الأرض ، ساجداً لله » . وعند مسلم عن أبي هريرة : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

وإنما كان ذلك ؛ لأن السجود على الأرض نهاية العبودية والذلة ، ولله غاية العزة ، وله العزة التي لا مقدار لها ، فكلما بعدت من صفته ، قربت من جنته ، ودنوت من جواره في داره . جاء في الحديث الصحيح : أن النبي ﷺ قال : « أما الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء ، فإنه قَمِن[٢] أن يستجاب لكم »[٣] .

---

(١) الخاطئ : الآثم القاصد للذنب . والمخطئ : من أراد الصواب ، فصار إلى غيره .

(٢) قَمِن : خليق وجدير .

(٣) تفسير القرطبي : ١٢٨/٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

مكيّة ، وهي خمس آيات .

تسميتها :

سميت سورة القدر أي العظمة والشرف تسمية لها بصفة ليلة القدر الذي أنزل الله فيها القرآن ، فقال سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ أي في ليلة عظيمة القدر والشرف .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مناسبتها لما قبلها :

أمر الله تعالى في سورة العلق نبيه ﷺ بقراءة القرآن باسم ربه الذي خلق ، واسم الذي علّم الإنسان مالم يعلم ، ثم أبان في هذه السورة زمن البدء في نزول القرآن ، وهو ليلة القدر ذات الشرف الرفيع والقدر العالي بسبب نزول القرآن فيها .

ما اشتملت عليه السورة :

تحدثت هذه السورة المكية عن تاريخ بدء نزول القرآن الكريم ، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والليالي والشهور ، لنزول الملائكة وجبريل فيها بالأنوار والأفضال والبركات والخيرات على عباد الله المؤمنين الصالحين ، من لدن أرحم الراحمين الذي يفيض بها على من يشاء .

معنى نزول القرآن في ليلة القدر :

معنى نزول القرآن في ليلة القدر ، مع العلم بأنه نزل منجّماً مقسّطاً على مدى ثلاث وعشرين سنة : أنه ابتدأ إنزاله ليلة القدر ؛ لأن بعثة النبي ﷺ كانت في رمضان .

وذلك لأن الله تعالى قال في هذه السورة : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وقال في سورة الدخان : ﴿ حم ، والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ ، إنا كُنّا منذِرين ، فيها يُفْرَقُ كل أمرٍ حكيمٍ ، أمراً من عندِنا ، إنا كنا مُرسلين ، رحمةً من ربّك إنه هو السميع العليم ﴾ [١ ـ ٦] .

وأما قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ شهرُ رمضانَ الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس ، وبيّناتٍ من الهدى والفُرْقان ﴾ [١٨٥] فمعناه أنه ابتدأ نزول القرآن في شهر رمضان المبارك .

وأما آية الأنفال : ﴿ .. وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الْجَمْعان ﴾ [٤١] فلا تعني تحديد موعد نزول القرآن ، وإنما تذكّر المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ يوم بدر في السابع عشر من رمضان من الآيات المتعلقة بأحكام القتال ، والملائكة ، والنصر . وسمي يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق فيه بين الحق والباطل .

بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾
تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

الإعراب :

﴿ إنا أنزلناه ﴾ يراد بالهاء القرآن ، وأضمره وإن لم يجر له ذكر ، للعلم به .

﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ فيه صفة محذوفة ، تقديره : خير من ألف شهر ، لا ليلة قدر فيه ، فحذف الصفة .

﴿ سلام هي .. ﴾ ﴿ هي ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ سلام ﴾ : خبره المقدم .

﴿ حتى مطلَع الفجر ﴾ أي إلى مطلع الفجر . ويقرأ أيضاً ﴿ مطلِع ﴾ بكسر اللام ، والقياس هو الفتح : لأنه من طلَع يطلُع ، بضم عين المضارع ، والكسر على خلاف القياس .

البلاغة :

﴿ ليلة القدر ﴾ إطناب لذكرها ثلاث مرات ، للتفخيم وزيادة العناية بها .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ استفهام بقصد التفخيم والتعظيم .

﴿ تنزّل الملائكة والروح ﴾ ذكر الخاص بعد العام ، ذكر جبريل بعد الملائكة ، للتنويه بقدره .

﴿ القدر ﴾ ، ﴿ شهر ﴾ ، ﴿ أمر ﴾ ، ﴿ الفجر ﴾ سجع مرصع : وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ أنزلناه ﴾ القرآن ، أضمره من غير سابقة ذكر له ، للعلم به ، والشهادة بأنه غني عن التصريح والتعريف ، وقد عظّمه بإسناد إنزاله إليه ، وعظّم الوقت الذي نزل فيه بقوله : ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ﴾ .

﴿ أنزلناه في ليلة القدر ﴾ أي ابتدأ إنزاله فيها ، أو أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا على السفرة الكرام البررة ، ثم كان جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ منجّماً مقسطاً على التدريج في ثلاث وعشرين سنة . قال ابن العربي : وهذا باطل ؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة . ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ﴾ أي ماأعلمك يا محمد ماهذه الليلة ، والاستفهام لتعظيم شأنها ، وسميت بذلك لشرفها ، أو لتقدير الأمور فيها ، كما قال تعالى : ﴿ فيها يُفْرَقُ كل أمرٍ حكيم ﴾ [الدخان ٤/٤٤] .

﴿ خير من ألف شهر ﴾ ليس فيها ليلة قدر ، فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها . ﴿ تنزّل ﴾ أي تتنزل إلى الأرض أو السماء الدنيا ، أو تقربهم إلى المؤمنين .

﴿ والروح ﴾ جبريل عليه السلام . ﴿ فيها ﴾ في الليلة . ﴿ بإذن ربهم ﴾ بأمره . ﴿ من كل أمر ﴾ أي كل أمر قضاه الله فيها لتلك السنة إلى قابل ، وقوله : ﴿ من ﴾ سببية ، بمعنى الباء أي من أجل كل أمر قدّر في تلك السنة . والآية : ﴿ تنزل ﴾ لبيان سبب تفضيلها على ألف شهر .

﴿ سلام هي ﴾ أي ماهي إلا سلامة ، والمعنى : لا يقدر الله فيها إلا السلامة ، وأما في غيرها فيقضي بالسلامة والبلاء ، أو لكثرة سلام الملائكة فيها على كل مؤمن ومؤمنة . ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أي إلى وقت مطلعه أو طلوعه .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي أن ليلة القدر خير من ألف شهر ، ونزول السورة هي بسبب ماساءه من حكم بني أمية الذي دام ألف شهر ، ولكنه حديث غريب ومنكر جداً .

وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد : أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله .

نزول الآية (٣) :

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، فعمل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ عملها ذلك الرجل .

التفسير والبيان :

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ أي إننا نحن الله بدأنا إنزال القرآن في ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة ، كما قال الله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة

مباركة ﴾ [الدخان ٣/٤٤] وهي في شهر رمضان ؛ لقول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة ١٨٥/٢] . ثم أتممنا إنزاله بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحاجة وما تقتضيه الوقائع والحوادث ، تبياناً للحكم الإلهي فيها . قال الزمخشري رحمه الله : عظَّم الله القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن أسند إنزاله إليه ، وجعله مختصاً به دون غيره ، والثاني ـ أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ، والثالث ـ الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه[1] .

ثم ذكر الله تعالى فضائل تلك الليلة ، فقال :

أ ـ ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ أي وما أعلمك ماليلة القدر ؟ وهذا لتفخيم شأنها وتعظيم قدرها ، وبيان مدى شرفها ، وسميت بذلك ؛ لأن الله تعالى يقدر فيها ماشاء من أمره إلى السنة القابلة ، أو لعظيم قدرها وشرفها . قال الزمخشري : معنى ليلة القدر : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، من قوله تعالى : ﴿ فيها يُفرَقُ كل أمر حكيم ﴾ [الدخان ٤/٤٤] .

وقدرها أيضاً : أن العمل فيها ، وهي ليلة واحدة ، خير من العمل في ألف شهر .

أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، في ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرها فقد حُرم » .

---

(١) الكشاف : ٣٥١/٣

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ماتقدم من ذنبه » .

٢ ـ ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أي تهبط الملائكة وجبريل من السموات إلى الأرض بكل أمر ومن أجل كل أمر قدّر في تلك الليلة إلى قابل ، قال النبي ﷺ : « إن الله يقدّر المقدّر في ليلة البراءة ، فإذا كان ليلة القدر يسلّمها إلى أربابها » . ولا يفعلون شيئاً إلا بإذن الله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وما نتنزّلُ إلا بأمر ربّك ﴾ [مريم ٦٤/١٩] . والروح : هو جبريل عليه السلام خص بالذكر لزيادة شرفه ، فيكون من باب عطف الخاص على العام .

ومن فوائد نزول الملائكة : أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات مالم يروه في سكان السموات ، ويسمعون أنين العصاة الذي هو أحب إلى الله من زجل المسبّحين ، فيقولون : تعالوا نسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من تسبيحنا .

ولعل للطاعة في الأرض خاصية في هذه الليلة ، فالملائكة أيضاً يطلبونها طمعاً في مزيد الثواب ، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعاته هناك أكثر ثواباً .

٣ ـ ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ أي هذه الليلة المحفوفة بالخير بنزول القرآن وشهود الملائكة ، ماهي إلا سلامة وأمن وخير وبركة كلها ، لا شرّ فيها ، من غروب الشمس حتى وقت طلوع الفجر ، يستمر فيها نزول الخير والبركة ، ونزول الملائكة بالرحمة فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ بدأ نزول القرآن العظيم في ليلة القدر من ليالي رمضان المبارك .

٢ ـ ليلة القدر هي ليلة الشرف والتعظيم ، وليلة الحكم والتقدير ، يقدّر الله فيها ما يشاء من أمره ، إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره ، ويسلّمه إلى مدبّرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبرائيل عليهم السلام .

٣ ـ العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر .

٤ ـ تهبط الملائكة من كل سماء ، ومن سدرة المنتهى ، وجبريل حيث مسكنه على وسطها إلى الأرض ، ويؤمّنون على دعاء الناس ، إلى وقت طلوع الفجر . وهم ينزلون في ليلة القدر بأمر ربهم من أجل كل أمر قدّره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل ، كما قال ابن عباس : وهذه الآية دالة على عصمة الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وما نتنزّلُ إلا بأمر ربك ﴾ [مريم ٦٤/١٩] وقال سبحانه : ﴿ لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء ٢٧/٢١] .

٥ ـ تلك الليلة ليلة أمن وسلام ، وخير وبركة من الله تعالى ، فلا يقدّر الله في تلك الليلة إلا السلامة ، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة ، وهي ليلة ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة . وليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى . وهي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر . والخلاصة : اشتملت هذه الليلة على الخيرات والبركات وتقدير الأرزاق ، والمنافع الدينية والدنيوية .

يؤيد هذا ماأخرجه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « ليلة القدر في العشر البواقي ، من قامهن ابتغاء حسبتهن ، فإن الله يغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وهي ليلة وتر : تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة » .

تعيين ليلة القدر :

الذي عليه أكثر العلماء أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان ، كل عام ؛ لحديث زِرّ بن حُبَيش الذي أخرجه مسلم والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، قال : قلت لأبيّ بن كعب : إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول : من يَقُمِ الحول يُصِب ليلة القدر ، فقال : يغفر الله لأبي عبد الرحمن ! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتّكل الناس ، ثم حلف لا يستثني[1] : أنها ليلة سبع وعشرين . قال : قلت : بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر ؟ قال : بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ ، أو بالعلامة : أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها .

والجمهور على أن هذه الليلة باقية في كل عام ، ومختصة برمضان .

أماراتها أو علاماتها :

من علاماتها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها . روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « ليلة سَمْحة طَلْقة ، لا حارّة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء » . وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ قال : « إني رأيت ليلة القدر ، فأُنسيتها ، وهي في العشر الأواخر من ليالي ، وهي طَلْقة بَلْجة ، لا حارّة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها » .

وروي أن النبي ﷺ خرج ليخبر عن ليلة القدر ، فوجد رجلين يتنازعان ، فنسي الخبر .

---

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه ، بأن يقول عقب يمينه : إن شاء الله .

الحكمة في إخفائها بين الليالي :

الحكمة في إخفاء ليلة القدر كالحكمة في إخفاء وقت الوفاة ، ويوم القيامة ، حتى يرغب المكلف في الطاعات ، ويزيد في الاجتهاد ، ولا يتغافل ، ولا يتكاسل ، ولا يتكل . ومن الإشفاق أيضاً ألا يعرفها المكلف بعينها لئلا يكون بالمعصية فيها خاطئاً متعمداً . وإذا اجتهد العبد في طلب ليلة القدر بإحياء الليالي المظنونة ، باهى الله تعالى ملائكته ، ويقول : كنتم تقولون فيهم : ﴿ أتجعل فيها من يُفسِدُ فيها ، ويَسْفِك الدماءَ ﴾ فهذا جِدُّهم في الأمر المظنون ، فكيف لو جعلتها معلومة لهم ؟ فهنالك يظهر سر قوله : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

فضائلها :

أوجز الله تعالى كما تقدم بيان فضائلها بقوله سبحانه : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ . والآية الأولى فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة : فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير ، ولم يبين قدر الخيرية . وأما التهديد : فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار ، وأن إحياء مئة ليلة من القدر ، لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق ، بتطفيف حبة واحدة ، فدل ذلك على تعظيم حال الذنب والمعصية[1] . وفي الصحيحين عن أبي هريرة كما تقدم : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدّم من ذنبه » .

وقال الشعبي : وليلُها كيومها ، ويومها كليلها . وقال الفرّاء : لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم ، ويقدّر في غيرها البلايا والنقم . وقال سعيد بن المسيب في الموطأ : من شهد العِشاء من ليلة القدر ، فقد أخذ بحظه منها . ومثله ومثل ما تقدمه لا يُدْرَك بالرأي .

---

(١) تفسير الرازي : ٣١/٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البيِّنة

مدنيّة ، وهي ثماني آيات .

تسميتها :

سميت سورة البيِّنة ؛ لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين ، حتى تأتيهم البينة ﴾ أي مفارقين ماهم عليه من الكفر ، منتهين زائلين عن الشرك ، حتى تأتيهم الحجة الواضحة ، وهي ذلك الْمُنَزَّلُ الذي يتلوه رسول الله ﷺ ، وتسمى أيضاً سورة البرية ، أو : ﴿ لم يكن ﴾ .

مناسبتها لما قبلها :

هذه السورة كالعلة لما قبلها ، فكأنه لما قال سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ قيل : لم أُنزل القرآن ؟ فقيل : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكّين عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، فهي كالعلة لإنزال القرآن ، المشار إليه في سورة القدر المتقدمة .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المدنية تحدثت عن الأمور الثلاثة التالية :

١ ـ بيان علاقة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين برسالة

النبي ﷺ ، وموقفهم منها ، وإقلاعهم عن كفرهم بسببها : ﴿ لم يكن الذين كفروا .. ﴾ [الآيات ١ ـ ٤] .

٢ ـ تحديد الهدف الجوهري من الدين والإيمان وهو إخلاص العبادة لله عز وجل : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين .. ﴾ [٥] .

٣ ـ توضيح مصير كل من الكفار المجرمين الأشقياء شر البرية ، والمؤمنين الأتقياء السعداء خير البرية : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب .. ﴾ [٦ ـ ٨] .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال : « لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّاً ، فقال النبي ﷺ لأبيّ : إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة ، قال أبيّ : وقد ذكرت ثَمّ يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فبكى أبيّ » .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قال : وسماني لك ؟ قال : نعم ، فبكى » .

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، فقرأ : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب .. ﴾ فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة

ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يُكْفَره » وقال الترمذي : حسن صحيح .

لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة دون إنذار

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

الإعراب :

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ﴿ والمشركين ﴾ : معطوف على ﴿ أهل الكتاب ﴾ و ﴿ منفكين ﴾ : خبر كان .

﴿ رسول من الله يتلو ﴾ ﴿ رسول ﴾ : بدل مرفوع من ﴿ البينة ﴾ قبله ، أو على تقدير مبتدأ محذوف ، تقديره هي رسول ، وقرئ : ﴿ رسولاً ﴾ بالنصب على الحال .

﴿ دين القيّمة ﴾ أي الملة القيمة ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، ولولا هذا التقدير ، لكان ذلك يؤدي إلى أن يكون ذلك إضافة الشيء إلى نفسه ، وذلك لايجوز .

﴿ مخلصين ﴾ منصوب على الحال .

البلاغة :

﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ ثم قال : ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ إجمال ثم تفصيل .

﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ استعارة تصريحية في لفظ ﴿ مطهرة ﴾ حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس .

﴿ البينة ﴾ ، ﴿ القيّمة ﴾ ، ﴿ خير البرية ﴾ ، ﴿ شر البرية ﴾ توافق الفواصل ، وهو من المحسنات البديعية .

المفردات اللغوية :

﴿ من ﴾ للبيان . ﴿ أهل الكتاب ﴾ اليهود والنصارى . ﴿ المشركين ﴾ عبدة الأوثان والأصنام . ﴿ منفكين ﴾ منتهين عن كفرهم ، زائلين عما هم عليه ، مفارقين له . ﴿ البيِّنة ﴾ الحجة الواضحة التي يتميز بها الحق من الباطل ، مأخوذة من البيان : وهو الظهور ، والمراد هنا : الرسول أو القرآن ، فإنه مبين للحق . ﴿ صحفاً ﴾ جمع صحيفة : وهي ما يكتب فيه . ﴿ مطهرة ﴾ خالية من الباطل ، مبرَّأة من الضلال والزور .

﴿ فيها كتب قيِّمة ﴾ في الصحف مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق ، أي إن الرسول يتلو مضمون الكتب ، وهو القرآن . ﴿ وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب ﴾ عما كانوا عليه ، بأن آمن بعضهم بالقرآن ، وكفر به بعضهم . ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ الدليل الواضح الدال على الحق ، وهو الرسول ﷺ أو القرآن الجائي به معجزة له .

﴿ وما أمروا ﴾ في كتبهم كالتوراة والإنجيل . ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أي إلا أن يعبدوه ، فحذفت (أن) وزيدت اللام . ﴿ مخلصين له الدين ﴾ جاعلين الدين له وحده نقيّاً من الشرك ، لا يشركون به . والإخلاص : الإتيان بالعمل خالصاً لله تعالى دون إشراك به . والدين : العبادة . ﴿ حنفاء ﴾ مائلين عن الباطل والعقائد الزائغة ، جمع حنيف : وهو في الأصل المائل المنحرف عن الشيء إلى غيره ، والمراد هنا : المستقيمين على دين إبراهيم ودين محمد حين مجيئه . ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ دين الملة المستقيمة .

التفسير والبيان :

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ لجميع العالمين من الإنس والجن ، ولجميع الأمم والشعوب في عصره والعصور التالية له ، ولكل أهل الملل والأديان ، حتى أهل الكتاب والمشركين الذين بعدوا عن الدين الصحيح ، لذا قال تعالى :

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيِّنة ﴾ أي لم يكن الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ وأنكروا نبوته ، من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام والأوثان من مشركي العرب وغيرهم ، منتهين عما هم عليه من الكفر ، مفارقين لكفرهم الموروث ، حتى تأتيهم الحجة الواضحة ، وهي رسول الله ﷺ أو القرآن الكريم .

والمراد إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله ، حتى يأتيهم الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن ، فإنه بيَّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان .

ثم أوضح المراد بالبيِّنة فقال :

﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيِّمة ﴾ أي تلك البينة هي محمد ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين ، يقرأ عليهم ماتتضمنه صحف القرآن ، المطهرة من الخلط والكذب ، والشبهات والكفر ، والتحريف واللَّبْس ، بل فيها الحق الصريح الذي يبين لأهل الكتاب والمشركين كل ما يشتبه عليهم من أمور الدين ، وفيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة ، دون زيغ عن الحق ، وإنما هي صلاح ورشاد ، وهدى وحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾ [فصّلت ٤١/٤٢] وقال سبحانه : ﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجاً ، قيماً لينذر .. ﴾ [الكهف ١٨/١ـ٢] .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ في صُحُف مكرَّمة ، مرفوعةٍ مطهّرةٍ ، بأيدي سَفَرة ، كِرامٍ بَرَرة ﴾ [عبس ٨٠/١٢ـ١٦] .

ثم أبان تفرُّق الكتابيين ، فقال :

﴿ وما تفرَّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة ﴾ أي لاتتأسف يا محمد على الكتابيين ، فإن تفرقهم واختلافهم لم يكن لاشتباه الأمر عليهم ، بل كان بعد وضوح الحق ، وظهور الصواب ، ومجيء الدليل المرشد إلى الدين الحق والبينة الواضحة وهو محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته ووصفه ، فلما بعث الله محمداً ، تفرقوا في الدين ، فآمن به بعضهم ، وكفر آخرون ، وكان عليهم أن يتفقوا على طريقة واحدة ، من اتباع

دين الله ، ومتابعة الرسول الذي جاءهم من عند الله ، مصدّقاً لما معهم .

ونظير الآية : ﴿ ولا تكُونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّناتِ ، وأولئك لهم عذابٌ عظيم ﴾ [آل عمران ١٠٥/٣] . وقد أعذر من أنذر ، كما قال تعالى : ﴿ ليهلِك من هلك عن بيِّنةٍ ، ويحيى من حَيَّ عن بيِّنة ﴾ [الأنفال ٤٢/٨] .

وجاء في الحديث المروي من طرق : « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي »[1] .

ثم وبَّخهم على انحرافهم عن الهدف الجوهري من الدين وهو إخلاص العبادة لله ، فقال :

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيِّمة ﴾ أي إنهم تفرقوا واختلفوا ، مع أنهم لم يؤمروا في التوراة والإنجيل أو في القرآن الذي جاءهم من عند الله إلا بعبادة الله وحده ، وتكون عبادتهم خالصة لا يشركون به شيئاً ، ويخلصون العبادة لله عز وجل ، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، ويفعلون الصلوات على الوجه الذي يريده الله في أوقاتها ، ويعطون الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس عند حلول وقتها . وهذا الذي أمروا به يقتضي الاتحاد والاتفاق ، لا الشقاق والافتراق ، ولم يجئ محمد ﷺ إلا بمثل ما أمر به الرسل من ذلك ، ومنهجه اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله كما قال : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتّبعْ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾ [النحل ١٢٣/١٦] .

وذلك الدين : وهو إخلاص العبادة ، وترك كل ما يعبد من دونه ، وأداء

(١) تفسير ابن كثير : ٥٣٧/٤

الصلوات لله في أوقاتها ، وبذل الزكاة للمحتاجين ، هو دين الملة المستقيمة .

وقوله : ﴿ وما أمروا ﴾ أي وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ، أي أن المشروع في حقهم مشروع في حقنا . والأولى أن يكون المراد كما ذكر الرازي : وما أمر أهل الكتاب في القرآن أو على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء ، لأن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً ، وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى ، ولقوله تعالى : ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي محمد ﷺ ، ولأن الله تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ وهو شرع محمد ﷺ .

وهذه الآية دالة على أن التفرق والكفر فِعْلُهم بدليل قوله : ﴿ إلا من بعد ماجاءتهم البينة ﴾ . والمقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ ، أي لايحزنك أو لا يغمّنك تفرقهم ، فليس ذلك لقصور في الحجة ، بل لعنادهم ، وهكذا كان سلفهم تفرقوا في السبت وعبادة العجل بعد قيام البينة عليهم ، فهي عادة قديمة لهم .

وقوله : ﴿ ليعبدوا ﴾ اللام في موضع (أن) أي إلا أن يعبدوا ، والعرب تجعل اللام في موضع (أن) في الأمر والإرادة كثيراً ، مثل قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء ٢٦/٤] وقوله : ﴿ يريدون ليطفئوا ﴾ [الصف ٨/٦١] وقال في الأمر : ﴿ وأُمرنا لِنُسلِمَ ﴾ [الأنعام ٧١/٦] .

وبما أن الإخلاص : عبارة عن النية الخالصة ، والنية معتبرة ، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به ، فلا بد وأن يكون مَنْوياً . قالت الشافعية : بما أن الوضوء مأمور به في قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة ٦/٥] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون مَنْوياً ، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء مَنْوياً . وعلى هذا لابد في المأمورات من

النية : بأن يقصد الشخص بعمله وجه الله . أما المنهيات فإن تركها بدون نية لم يؤجر في تركها ، وإن تركها ابتغاء وجه الله ، كان مأجوراً على تركها ، وأما المباحات كالأكل والنوم ، فإن فعلها بغير نية لم يؤجر ، وإن فعلها بقصد وجه الله والتقوي بها على الطاعة ، كان له فيها أجر .

واللام في قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا : العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة أو إلى البعد عن عقاب النار ، بل لأجل أنك عبد ، وهو رب ، فلو لم يكن هناك ثواب ولا عقاب ألبتة ، ثم أمرك بالعبادة ، وجبت لمحض العبودية . وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة .

والعبادة هي التذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم . والعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية .

والإخلاص : هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل . وقوله : ﴿ مخلصين ﴾ تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص : هو الذي يأتي بالحسن لحسنه ، والواجب لوجوبه ، فيأتي بالفعل مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا : لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً ، وإن كان لابد من ذلك . وقالوا أيضاً : من الإخلاص : ألا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير ، مثل الواجب من الأضحية شاة ، فإذا ذبحت اثنتين : واحدة لله ، وواحدة للأمير ، لم يجز ؛ لأنه شرك .

ثم إن هذه الآية : ﴿ وما أمروا .. ﴾ دليل على أن الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل ؛ لأن الله تعالى ذكر العبادة المقرونة بالإخلاص وهو التوحيد ، ثم عطف عليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم أشار إلى المجموع بقوله : ﴿ وذلك دين القيّمة ﴾[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ للإسلام وشارعه فضل على جميع الأمم والخلائق ، فلولاه لما عرف إيمان صحيح ، ولا دين حق .

٢ ـ من هذه الفضائل والمزايا : أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين عبدة الأوثان والأصنام لم يصيروا منتهين عن كفرهم ، مائلين أو زائلين عنه إلا بمجيء البينة وهي الحجة الواضحة ، وهي محمد ﷺ بما جاء به من القرآن العظيم ، حجة الله على عباده ، ومعجزة رسوله مدى الحياة ، وهو الذي يتلو منه على أسماع البشر صحفاً مطهرة من الزور والشك والنفاق والضلالة ، كما قال ابن عباس ، وفي تلك الصحف مكتوبات مستقيمة مستوية محكمة ، مستقلة بالدلائل .

والصحف : القراطيس التي يكتب فيها القرآن ، المطهر من النقائص ، ومسّ المحدث إياه . ومعنى تلاوة الصحف : إملاؤه إياها . عن جعفر الصادق رضي الله عنه : أنه ﷺ كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لا يكتب ، ولعل هذا من معجزاته .

٣ ـ تقتضي الآية الأولى : ﴿ لم يكن ﴾ أن أهل الكتاب منهم كافر ، ومنهم

---

(١) تفسير الرازي : ٣٢/٤٣ ـ ٤٨

مؤمن ليس بكافر . أما المشركون فلا ينقسمون هذه القسمة ، وكلهم كفار ؛ لأن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ هنا ليست للتبعيض ، بل للتبيين ، كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج ٢٢/٣٠] فقوله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب والمشركين ﴾ بيان للذين كفروا ، والمراد أن الكفار فريقان : بعضهم أهل الكتاب ومن يجري مجراهم كالمجوس ، وبعضهم مشركون . وكلمة ﴿ والمشركين ﴾ وصف لأهل الكتاب ؛ لأن النصارى مثلثة ، وعامة اليهود مشبِّهة ، وهذا كله شرك .

٤ ـ في الآية الأولى أحكام شرعية هي :

أولاً ـ أنه تعالى فسر قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين ، وهذا يقتضي كون الكل واحداً في الكفر ، لذا قال العلماء : الكفر كله ملة واحدة ، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس .

ثانياً ـ أن العطف أوجب المغايرة ، فلذلك نقول : الذمي ليس بمشرك . وقال ﷺ عن المجوس فيما أخرجه الشافعي عن عبد الرحمن بن عوف : « سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم » فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك . لكن قوله : « غير ناكحي » إلخ ، زيادة ضعيفة .

ثالثاً ـ نبَّه بذكر الكتاب على أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم ؛ إذ قد حدث في أهل القرآن مثلما حدث في الأمم الماضية[1] .

٥ ـ خص الله تعالى أهل الكتاب بظهور التفرق فيهم دون غيرهم ، وإن اشتركوا مع بقية الكفار في الكفر ؛ لأنه مظنون بهم علم ، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف .

٦ ـ حدثت ظاهرة تفرق أهل الكتاب بعد البعثة النبوية ، وذلك أنهم كانوا

---

(١) تفسير الرازي : ٣٢/٤١

مجتمعين متفقين على نبوته ، فلما بعث محمد ﷺ ، جحدوا نبوته وتفرقوا ، فمنهم من كفر بغياً وحسداً ، ومنهم من آمن ، كقوله تعالى : ﴿ وما تفرَّقوا إلا من بَعْدِ ما جاءهم العلمُ بَغْياً بينهم ﴾ [الشورى ١٤/٤٢] .

٧ ـ ما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل والقرآن إلا أن يوحِّدوا الله تعالى ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال تعالى : ﴿ قل : إني أُمرت أن أعبدَ اللهَ مخلصاً له الدِّين ﴾ [الزُمَر ١١/٣٩] وأن يكونوا حنفاء ، أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام المرضي وحده عند الله : ﴿ إن الدِّين عند اللهِ الإسلامَ ﴾ [آل عمران ١٩/٣] وأن يقيموا الصلاة بحدودها في أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند حلول أجلها ، وذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة ، أي الدين المستقيم ، أو دين الملة القيمة ، أو دين الأمة القيمة القائمة بالحق .

٨ ـ قوله تعالى : ﴿ مخلصين له الدين ﴾ دليل على وجوب النية في العبادات ؛ فإن الإخلاص من عمل القلب ، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى ، لا غيره .

٩ ـ الإخلاص لبّ العبادة ، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري ، تركته وشركه » .

وعيد الكفار ووعد الأبرار وجزاء الفريقين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ ﴿ خالدين ﴾ منصوب على الحال من ضمير مقدر ، تقديره : يجزونها خالدين فيها . و ﴿ أبداً ﴾ ظرف زمان مستقبل يتعلق بـ ﴿ خالدين ﴾ وأما (قط) فللماضي ، تقول : والله لاأكلمه أبداً ، وما كلمته قط .

البلاغة :

﴿ شر البرية ﴾ و ﴿ خير البرية ﴾ بينهما طباق .

﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب .. ﴾ الآية ، و ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ الآية فيها مقابلة بين عذاب الكفار الفجار ، وبين نعيم المؤمنين الأبرار .

المفردات اللغوية :

﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين فيها يوم القيامة على الدوام ، بتقدير الله تعالى ، ويلاحظ أن اشتراك أهل الكتاب والمشركين في جنس العذاب لايوجب اشتراكهما في نوعه ، فربما اختلف لتفاوت كفرهما . ﴿ شر البرية ﴾ الخليقة أو الخلق ، وقرئ : البريئة بالهمز على الأصل . ﴿ جنات عدن ﴾ إقامة . ﴿ رضي الله عنهم ﴾ بطاعته ، وهو زيادة على جزائهم . ﴿ ورضوا عنه ﴾ بثوابه وفضله وهو أقصى أمانيهم . ﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان . ﴿ لمن خشي ربه ﴾ خاف عقابه ، فانتهى عن معصية الله تعالى ، فإن الخشية ملاك الأمر ، والباعث على كل خير .

قال البيضاوي عن وعد المؤمنين : ﴿ إن الذين آمنوا .. ﴾ فيه مبالغات : تقديم المدح ، وذكر الجزاء المؤذن بأن مامنحوا في مقابلة ماوصفوا به ، والحكم عليه بأنه من عند ربهم ، وجمع جنات ، وتقييدها إضافة ووصفاً بما يزداد لها نعياً ، وتأكيد الخلود بالتأبيد[1] .

المناسبة :

بعد بيان موقف الكفار والمشركين من دعوة النبي ﷺ ، ذكر الله تعالى وعيد الكفار ، ووعد الأبرار وجزاء الفريقين ، وقدم وعيد أهل الكتاب على المشركين ؛ لأنه ﷺ كان يقدّم حق الله على حق نفسه ، ولهذا حين كسروا رَبَاعيته في غزوة أحد قال : « اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون » وحيث فاتته

(١) تفسير البيضاوي : ص ٨٠٦

صلاة العصر يوم الخندق قال : « ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً » فقال الله تعالى : كما قدّمت حقي على حقك ، فأنا أيضاً أقدم حقك على حقي ، فمن ترك الصلاة طول عمره لم يكفر ، ومن طعن فيك بوجه يكفر ، ثم إن أهل الكتاب طعنوا فيك ، فقدّمتهم في الوعيد على المشركين الذين طعنوا فيّ . ثم إن أهل الكتاب أولى بالإيمان بالرسول محمد ﷺ ، فهم في الجملة يؤمنون بدين ، ويقرون بنبي آخر الزمان ، وعلاماته في كتبهم ، فطعنهم به في غير محله ، فاستحقوا التقديم في الوعيد لذلك[1] .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن مآل الفجار الكفار فيقول :

﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم ، خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية ﴾ أي إن الذين خالفوا كتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسلة ، من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام ، مآلهم يوم القيامة في نار جهنم المستعرة ، يصيرون إليها ، ماكثين فيها على الدوام ، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، وهم حالاً شر الخليقة التي برأها الله وذرأها ؛ لأنهم تركوا الحق حسداً وبغياً ، فسيكونون شر الخليقة مصيراً . والسبب في أنه لم يقل هنا خالدين فيها أبداً ، كما فعل في الأبرار ؛ لأن رحمته أزيد من غضبه . وقوله : ﴿ هم شر البرية ﴾ لإفادة النفي والإثبات ، أي هم دون غيرهم .

ثم أخبر الله تعالى عن حال الأبرار ، فقال :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية ﴾ أي إن الذين آمنوا بقلوبهم بربهم وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، هم أفضل الخلق حالاً ومآلاً .

(١) غرائب القرآن : ١٥٢/٣٠ ، تفسير الرازي : ٤٩/٣٢

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين الأبرار على الملائكة ؛ لقوله تعالى : ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ .

ثم ذكر جزاءهم فقال :

﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه ﴾ أي جزاؤهم يوم القيامة عند خالقهم ومالكهم على الإيمان والعمل الصالح جنات أو بساتين إقامة دائمة تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار ، ماكثين فيها على الدوام ، لا يخرجون منها ، ولا يرحلون عنها ، ولا يموتون ، بل هم دائمون في نعيمها ، مستمرون في لذاتها إلى الأبد ، لانهاية لنعيمهم . وكلمة الجزاء تفيد معنيين : أحدهما ـ أن يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص ، والثاني ـ أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية ؛ لأن الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ، فلا يبقى في نفسه شيء إلا ويحققه له ، كما قال : ﴿ ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ﴾ [فصلت ٣١/٤١] . وقوله : ﴿ تجري ﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد .

رضي الله عنهم ؛ لأنهم أطاعوا أمره ،وقبلوا شرائعه ، ورضوا عنه ، بما منحهم من الثواب والفضل العميم ، وتحقيق المطالب مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الجزاء والرضوان حاصل لمن خاف الله واتقاه حق تقواه ،وعبده كأنه يراه ، وانتهى عن معاصيه بسبب ذلك الخوف .

وفي ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال ، وترغيب في تقوى الله ورهبته ، حتى يصبح العمل خالصاً لله وحده . كما أن فيه إيماء إلى أن شرط أداء العبادة كالصوم والصلاة : خشية الله والخشوع له .

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : رجل أخذ بعَنَان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هَيْعة استوى عليه ، ألا أخبركم بخير البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : رجل في ثُلّة من غنمه ، يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة . ألا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا : بلى ، قال : الذي يسأل بالله ولا يعطى به » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ استحق أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركون عبدة الأصنام بسبب كفرهم بالإسلام ثلاث عقوبات : دخول نار جهنم ، والخلود فيها ، ووصفهم بأنهم دون غيرهم هم شر البرية وشر خلق الله .

وقوله في وعيدهم : ﴿ خالدين فيها ﴾ وفي آية الرعد : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ إشارة كما تقدم إلى كمال كرمه وسعة رحمته ، كما قال في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة : ﴿ سبقت رحمتي غضبي ﴾ .

٢ ـ قال العلماء : آية الوعيد هذه مخصوصة في صورتين :

إحداهما ـ أن من تاب منهم وأسلم ، خرج من الوعيد .

والثانية ـ أن من مضى من الكفرة يجوز ألا يدخل فيها ؛ لأن فرعون كان شراً منهم .

٣ ـ استحق الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح أربعة أنواع من الجزاء : وصفهم بأنهم خير البرية ، ودخول جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، والخلود فيها أبداً ، ورضوان الله عليهم أي رضا أعمالهم ، ورضاهم عن الله ، أي رضاهم بثواب الله تعالى .

٤ ـ وعملوا الصالحات : والخلود في الجنة خير من الجنة ، ورضا الله خير من الجنة . إما من مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً أو مقابلة الفرد بالفرد ، فلا مكلف يأتي بجميع الصالحات ، بل لكل مكلف حظ ، فحظ الغني الإعطاء ، وحظ الفقير الأخذ ، كما لو قال لامرأتيه : إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا ، فيحمل على أن يدخل كل واحدة منهما داراً على حدة .

٥ ـ احتج بعضهم بقوله : ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أي الخليقة ويؤيده قراءة الهمز على تفضيل البشر على الملائكة ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً ، قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة ، أعظم من ذلك ، وقرأ هذه الآية . والجواب بأن الملائكة أيضاً داخلون في الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أو المراد بالبرية : بنو آدم ؛ لأن اشتقاقها من البرى : وهو التراب ، لا من برأ الله الخلق ، فلا يدخل الملائكة في الآية البتة .

٦ ـ قوله : ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ مع قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر ٢٨/٣٥] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير البرية ، اللهم اجعلنا منهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة

مدنيّة ، وهي ثماني آيات .

تسميتها :

سميت سورة الزلزلة أو الزلزال لافتتاحها بالإخبار عن حدوث الزلزال العنيف قبيل يوم القيامة : ﴿ إذا زُلزلت الأرض زلزالها ﴾ . وهي سورة مدنية ، وقال ابن كثير : هي مكية .

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر الله تعالى في آخر سورة البيّنة وعيد الكافر ووعد المؤمن وأن جزاء الكافرين نار جهنم ، وجزاء المؤمنين جنات ، بيّن هنا وقت ذلك الجزاء وبعض أماراته وهو الزلزلة وإخراج الأرض أثقالها ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقال : ﴿ إذا زُلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي يكون يوم زلزلة الأرض . ثم إنه تعالى أراد أن يزيد في وعيد الكافر ، فقال : أجازيه حينما تزلزل الأرض ، مثل قوله تعالى : ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسودّ وجوه ﴾ [آل عمران ١٠٦/٣] . ثم ذكر ماللطائفتين ، فقال : ﴿ فأما الذين اسودّت وجوههم .. ﴾ [١٠٦] ، ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ [١٠٧] . ثم جمع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذرّة من الخير والشر .

ما اشتملت عليه السورة :

أسلوب هذه السورة المدنية وموضوعها يشبه أسلوب وموضوع السور المكية ، لإخبارها عن أهوال القيامة وشدائدها .

وقد اشتملت على مقصدين :

١ ـ بيان حدوث الزلزال والاضطراب الشديد للأرض يوم القيامة ، فينهار كل ماعليها ، ويخرج الناس الموتى من بطنها من قبورهم ، وتشهد حينئذ على كل إنسان بما عمل على ظهرها : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الآيات : ١ ـ ٥] .

٢ ـ الحديث عن ذهاب الخلائق لموقف العرض والحساب ، ثم مجازاتهم على أعمالهم ، وقسمتهم فريقين : سعيد إلى الجنة ، وشقي إلى النار : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً .. ﴾ [٦ ـ ٨] .

سبب نزولها :

كان الكفار يسألون كثيراً عن الساعة ويوم الحساب ، فيقولون : ﴿ أيّانَ يومُ القيامة ؟ ﴾ [القيامة ٦/٧٥] . ﴿ متى هذا الوعدُ إنْ كُنتم صادقين ﴾ ؟ [الملك ٢٥/٦٧] . ﴿ متى هذا الفتحُ ﴾ ؟[1] [السجدة ٢٨/٣٢] ونحو ذلك ، فأبان لهم في هذه السورة علامات القيامة فحسب ، ليعلموا أن علم ذلك عند الله ، ولا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم للعرض والحساب والجزاء .

فضلها :

أخرج الترمذي وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو قال : « أتى رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أقرئني يا رسول الله ، قال له : اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء ، فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : فاقرأ من ذوات حمّ ، فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : اقرأ ثلاثاً من المسبّحات ، فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة ، فأقرأه ﴿ إذا زُلزلت الأرض زِلزالها ﴾ حتى إذا فرغ منها ، قال الرجل : والذي بعثك

(١) أي متى الفتح الذي تعدوننا به ، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده ؟

بالحق نبياً ، لاأزيد عليها أبداً ، ثم أدبر الرجل ، فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل ، ثم قال : عليّ به ، فجاءه ، فقال له :

أمرتُ بيوم الأضحى ، جعله الله عيداً لهذه الأمة ، فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى ، فأضحّي بها ؟ قال : لا[1] ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلّم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله عز وجل » .

وأخرج الترمذي ـ وقال : هذا حديث حسن ـ عن أنس بن مالك : « أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : هل تزوجت يافلان ؟ قال : لا والله يارسول الله ، ولا عندي ماأتزوج !! قال : أليس معك : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ؟ قال : بلى ، قال : ثلث القرآن ، قال : أليس معك : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك : ﴿ قل ياأيها الكافرون ﴾ ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك : ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، تزوج » .

أمارة القيامة والجزاء على الخير والشر

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

---

(١) هذا في بداية الأمر ، ثم أبيح التضحية بالأنثى ، واتفقت المذاهب على جواز ذلك ، إلا أن الفحل أفضل من الأنثى .

الإعراب :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ ﴿ إذا ﴾ ظرف ، والعامل فيه إما ﴿ فمن يعمل ﴾ أو ﴿ تحدّث ﴾ ويكون ﴿ يومئذ ﴾ تكراراً وبدلاً من ﴿ إذا ﴾ ، وتقديره : إذا زلزلت الأرض تحدث أخبارها . و ﴿ زلزالها ﴾ : منصوب على المصدر ، بكسر الزاي الأولى ، ولو فتح لكان اسماً ، وقيل : هو بالفتح أيضاً مصدر .

﴿ أشتاتاً ﴾ منصوب على الحال من ﴿ الناس ﴾ جمع (شَتٌّ) وهو المتفرق .

﴿ فمن يعمل .. ﴾ ﴿ ومن يعمل .. ﴾ من في الموضعين : شرطية في موضع رفع بالابتداء . و ﴿ يره ﴾ : خبره .

البلاغة :

﴿ زلزالها ﴾ الإضافة للتهويل . و ﴿ زلزلت ﴾ ﴿ زلزالها ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

﴿ وأخرجت الأرض ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتوكيد .

﴿ وقال الإنسان : مالها ﴾ ؟ استفهام للتعجب والاستغراب أو الاستهجان .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ زلزالها ﴾ ، ﴿ أثقالها ﴾ ، ﴿ أوحى لها ﴾ ، ﴿ أخبارها ﴾ ، ﴿ مالها ﴾ سجع مرصع من المحسنات البديعية .

﴿ أوحى لها ﴾ تضمين ، ضمن ذلك معنى الإذن والأمر لها .

المفردات اللغوية :

﴿ زلزلت ﴾ الزلزال : التحريك والاضطراب الشديدان ، وذلك يحصل عند النفخة الأولى أو الثانية أو الممكّن لها في الحكمة الإلهية . ﴿ أثقالها ﴾ الأثقال في الأصل : أمتعة البيت ، كما قال تعالى : ﴿ وتَحْمِلُ أثقالكم .. ﴾ [النحل ٧/١٦] جمع ثقل : متاع البيت ، والمراد هنا : ما في جوف الأرض من الكنوز والدفائن والأموات ، وتخرج أثقالها : تلقيها على ظهرها . ﴿ وقال الإنسان : مالها ﴾ يتساءل الإنسان عما يبهره من الأمر الفظيع وإنكاراً لتلك الحالة ، وقيل : المراد بالإنسان : الكافر بالبعث ، فإن المؤمن يعلم مالها . ﴿ تحدّث أخبارها ﴾ تخبر بما عمل عليها من خير وشر . وهي تحدّث الخلق إما بلسان الحال وهو ما لأجله زلزالها وإخراجها ، أو ينطقها الله فتخبر بما عمل عليها . وهو جواب ﴿ إذا ﴾ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي هريرة : « تشهد على كل عبد أو أمة بكل ما عمل على ظهرها » .

﴿ بأن ربك ﴾ أي تحدّث بسبب أن ربك ﴿ أوحى لها ﴾ أمرها بذلك ، والوحي : الإلهام بخفاء ، يقال : أوحى له وإليه ، ووحى له وإليه : كلّمه خفية أو ألهمه . ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب . ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين متمايزين بحسب مراتبهم وأعمالهم . ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ يروا جزاء أعمالهم من الجنة أو النار . ﴿ ذرّة ﴾ الذرة : الهباء الذي يرى في ضوء الشمس الداخل من نافذة ، أو النملة الصغيرة ، و ﴿ مثقال ذرة ﴾ زنة نملة أو هباء ، وهو مثل في الصغر . ﴿ خيراً يره ﴾ يرى ثوابه . ﴿ شراً يره ﴾ يرى جزاءه . وقوله : ﴿ فمن يعمل .. ﴾ تفصيل ﴿ ليروا ﴾ .

سبب النزول :

نزول الآية (٧ ، ٨) :

﴿ فمن يعمل .. ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ ويطعمون الطعام على حُبِّه ﴾ الآية ، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤْجَرون على الشيء القليل ، إذا أعْطَوْه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظرة ، والغيبة ، وأشباه ذلك ، ويقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر ، فأنزل الله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وقد سمّى رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة .. ﴾ الجامعة الفاذّة ، حين سئل عن زكاة الْحُمُر ، فقال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : « ماأنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذّة الجامعة : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] » .

وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين ، وذلك أنه لما نزل : ﴿ ويُطعمون الطعام على حبه ﴾ كان أحدهما يأتيه السائل ، فيسأل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول : ماهذا بشيء ، وإنما نؤجر على مانعطي .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وكان أحدهما يتهاون بالذنب الصغير ، ويقول : لا شيء عليَّ من هذا ، فرغب الله تعالى في القليل من الخير ؛ لأنه يوشك أن يكثر ، وحذر من الذنب اليسير ، فإنه يوشك أن يعظم ، فلهذا قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم : « اتقوا النار ولو بشِقّ تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيِّبة » .

التفسير والبيان :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي إذا تحركت الأرض من أسفلها حركة شديدة ، واضطربت اضطراباً هائلاً حتى يتكسر كل شيء عليها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلة الساعة شيءٌ عظيمٌ ﴾ [الحج ١/٢٢] وقال سبحانه : ﴿ إذا رُجَّت الأرضُ رَجّاً ﴾ [الواقعة ٤/٥٦] .

﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ ألقت ما في جوفها من الأموات والدفائن ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ، وألقتْ ما فيها وتخلَّت ﴾ [الانشقاق ٣/٨٤ـ٤] . وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول : في هذا قَتَلْتُ ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعتْ يدي ، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً » .

وتخرج الأرض الأموات في النفخة الثانية .

﴿ وقال الإنسان : مالها ؟ ﴾ أي قال كل فرد من أفراد الإنسان لما يبهره أمرها ويذهله خَطْبها : ما لهذه الأرض ، ولأي شيء زلزلت ، وأخرجت أثقالها ؟

﴿ يومئذ تحدِّث أخبارها ﴾ أي في ذلك الوقت المضطرب ، وقت الزلزلة ، تخبر الأرض بأخبارها ، وتحدِّث بما عمل عليها من خير وشر ، ينطقها الله

سبحانه ، لتشهد على العباد . قال ابن عباس في الآية : قال لها ربها : قولي ، فقالت .

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال : « قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يومئذ تحدّث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ماأخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها »[1] . وقال الطبري : إن هذا تمثيل ، والمراد أنها تنطق بلسان الحال ، لا بلسان المقال .

ثم أبان الله تعالى مصدر هذه الواقعة : فقال :

﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ أي تحدّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها بأن تتحدث وتشهد . فقوله : ﴿ أوحى لها ﴾ أي أذن لها وأمرها ، أو أوحى إليها أي ألهمها .

﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ أي في هذا اليوم المضطرب وفي يوم الخراب المدمر ، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب ، مختلفي الأحوال ، فبعضهم آمن ، وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة ، وبعضهم بلون أهل النار ، ليريهم الله أعمالهم معروضة عليهم . هذا ما يراه بعض المفسرين كالشوكاني . فالصدر على هذا الرأي : هو قيامهم للبعث بعد أن كانوا مدفونين في الأرض ، و ﴿ أشتاتاً ﴾ فرقاً مؤمن وكافر وعاص ، سائرون إلى العرض ، ليروا أعمالهم .

وقال آخرون كابن كثير : يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً ، أي أنواعاً وأصنافاً ، مابين شقي وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار ،

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر ، فيكون المراد بقوله : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ ليروا جزاء أعمالهم وهو الجنة والنار ، ولهذا قال :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ أي فمن يعمل في الدنيا وزن نملة صغيرة أو هباء لا يرى إلا في ضوء الشمس ، والمراد أي عمل مهما كان صغيراً ، فإنه يجده يوم القيامة في كتابه ، ويلقى جزاءه ، فيفرح به ، أو يراه بعينه معروضاً عليه . وكذلك من يعمل في الدنيا أي شيء من الشر ولو كان حقيراً أو قليلاً ، يجد جزاءه يوم القيامة ، فيسوؤه . والذرّ كما تقدم : ما يرى في شعاع الشمس من الهباء ، أو هو النملة الصغيرة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة ، فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإن كانَ مثقالَ حَبَّة من خَرْدَل ، أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء ٤٧/٢١] وقوله سبحانه : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ ، فترى المجرمين مُشْفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتَنا مالهذا الكتاب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحداً ﴾ [الكهف ٤٩/١٨] .

وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً : « اتقوا النار ولو بشِقّ تمرة ، ولو بكلمة طيبة » وفي الصحيح له أيضاً : « لاتحقِرنَّ من المعْروف شيئاً ، ولو أن تفرغ من دَلْوك في إناء المستسقي ، ولو أن تلقى أخاك ، ووجهك إليه منبسط » وفي الصحيح أيضاً : « يا معشر نساء المؤمنات لاتحقِرنَّ جارة لجارتها ، ولو فِرْسنَ شاة » يعني ظلفها . وفي الحديث الآخر الذي أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والنسائي عن حوّاء بنت السكن : « ردُّوا السائل ، ولو بظلف محرق » . وأخرج الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة استتري من النار ، ولو بشق تمرة ، فإنها تسدّ من الجائع مسدّها من الشبعان » .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال : « كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل

مثقال ذرة شراً يره ﴾ فرفع أبو بكر يده ، وقال : يا رسول الله ، إني أُجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر ، فقال : يا أبا بكر ، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشر ، ويدخر الله لك مثاقيل ذرّ الخير ، حتى تُوفّاه يوم القيامة » .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « لما نزلت : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد ، فبكى ، فقال له رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : يبكيني هذه السورة ، فقال له رسول الله ﷺ : لولا أنكم تخطئون وتذنبون ، فيغفر الله لكم ، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون ، فيغفر لهم » .

حسنات الكافر : قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله تعالى إياه ، فأما المؤمن فيغفر له سيئاته ، ويثاب بحسناته . وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته .

وعلى هذا يعاقب الكافر بسبب كفره ، وأما حسناته فتنفعه في الدنيا ، كدفع شر أو ضرر عنه ، وأما في الآخرة فلا تفيده ، ولا تنجيه من عذاب الكفر الذي يخلد به في النار ، قال تعالى : ﴿ وقدِمنا إلى ما عَمِلوا من عملٍ ، فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان ٢٣/٢٥] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ من أمارات الساعة : الزلزلة الشديدة للأرض ، وإخراج الأرض أثقالها ، أي ما في جوفها من الدفائن والأموات . قالوا : إنها عند النفخة الأولى تتزلزل ، فتلفظ بالكنوز والدفائن ، وعند النفخة الثانية ترجف فتخرج الأموات أحياء ، كالأم تلد حياً .

٢ ـ لا شك بأن الإنسان في وقت الزلازل والبراكين يرتجف ويخاف

ويتساءل : ما للأرض زلزلت ، مالها أخرجت أثقالها ؟ وهي كلمة تعجيب .

٣ ـ إذا زلزلت الأرض تخبر يومئذ بما عمل عليها من خير أو شر ، ومعنى تحديث الأرض عند أبي مسلم الأصفهاني : يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله ، فكأنها حدثت بذلك ، كقولك : الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة ، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت . وقال الطبري : تُبين أخبارها بالرّجة والزلزلة وإخراج الموتى .

وقال الجمهور : المعنى أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً ويعرفها جميع ما عمل أهلها ، فحينئذ تشهد لمن أطاع ، وعلى من عصى ، قال ﷺ في حديث الترمذي عن أبي هريرة : « إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها » ثم تلا هذه الآية[1] .

٤ ـ الذي تخبر به الأرض : إما أعمال العباد على ظهرها ، كما جاء في حديث الترمذي عن أبي هريرة المتقدم : « أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا ، قال : فهذه أخبارها » .

أو أنها تخبر بما أخرجت من أثقالها ، كما جاء في حديث ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كان أجل العبد بأرض أوْثَبَتْه الحاجة إليها ، حتى إذا بلغ أقصى أثره ، قبضه الله ، فتقول الأرض يوم القيامة : ربّ هذا ما استودعتني » .

أو أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان : مالها ؟ وهذا قول ابن مسعود ، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر ، وإنذاراً للمؤمن[2] .

---

(١) تفسير الرازي : ٥٩/٣٢ ، تفسير القرطبي : ١٤٩/٢٠ ، غرائب القرآن : ١٥٧/٣٠

(٢) تفسير القرطبي : ١٤٨/٢٠ ـ ١٤٩

٥ ـ في يوم الزلزلة يذهب الناس من مخارج قبورهم إلى الموقف ، بعضهم إثر بعض ، أو يرجعون وينصرفون من موقف الحساب إلى موضع الثواب والعقاب فِرقاً فرقاً ، ليروا صحائف أعمالهم ، أو جزاء أعمالهم وهو الجنة أو النار ، وما يناسب كلاً منهما .

ويؤيد هذا قول النبي ﷺ : « مامن أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه ، فإن كان محسناً فيقول : لِم لا ازددت إحساناً ؟ وإن كان غير ذلك يقول : لم لا نزعت عن المعاصي[1] ؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب .

٦ ـ كل من يعمل في الدنيا عملاً خيراً صغيراً أو كبيراً ، يره بعينه أو يُره الله إياه يوم القيامة ، وكل من يعمل في الدنيا عملاً شراً مهما كان قليلاً ، يره بنفسه أو يُره الله إياه يوم القيامة . أو أن المراد : يجد جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

أما الكافر كما تقدم فحسناته في الآخرة محبطة بكفره وترد في وجهه ، ويجد عقاب مافعل من كفر أو شر ، فيعذب بسيئاته ، أي أن عموم الآية قائم ، ولكن لا تقبل حسنات الكفار .

قال ابن مسعود عن آية : ﴿ فمن يعمل .. ﴾ : هذه أحكم آية في القرآن . وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية . قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحف : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وكان النبي ﷺ ـ كما تقدم ـ يسمي هذه الآية الجامعة الفاذّة .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥٠/٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

مكيّة ، وهي إحدى عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة العاديات ؛ لأن الله افتتحها بالقسم بالعاديات : وهي خيل المجاهدين المسرعة في لقاء العدو .

مناسبتها لما قبلها :

تظهر المناسبة بين السورتين من وجهين :

١ ـ هناك تناسب وعلاقة واضحة بين قوله تعالى في الزلزلة : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [٢] وقوله في هذه السورة : ﴿ إذا بعثر ما في القبور ﴾ .

٢ ـ لما ختمت السورة السابقة ببيان الجزاء على الخير والشر ، وبّخ الله تعالى الإنسان على جحوده نعم ربه ، وإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة ، وترك استعداده للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح ، وترك الشر والعصيان .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية مقاصد ثلاثة :

١ ـ القسم الإلهي بخيل المجاهدين على أن الإنسان كفور جحود لنعم ربه عليه ، وأنه مقر شاهد على ذلك : ﴿ والعاديات ضبحاً .. ﴾ [١ ـ ٧] .

٢ ـ التحدث عن غريزة الإنسان في حبه الشديد للثروة والمال : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ [٨] .

٣ ـ الحض على فعل الخير والعمل الصالح الذي ينفع الإنسان حين رجوع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، والتهديد بالعقاب الشديد يوم القيامة : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور .. ﴾ [٩ ـ ١١] .

جحود النعم والبخل لحب الخير وإهمال الاستعداد للآخرة

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾
أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

الإعراب :

﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ﴾ : ﴿ ضبحاً ﴾ : منصوب على المصدر في موضع الحال ، وهو صوت أنفاس الخيل حين عدْوها ، و ﴿ قدحاً ﴾ : مصدر مؤكد ؛ لأن الموريات بمعنى القادحات .

﴿ فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ﴾ : ﴿ صبحاً ﴾ : منصوب على الظرف ، وأثرن : عطف على قوله : ﴿ فالمغيرات ﴾ لأن المعنى : اللاتي أغرن صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، أي جاز عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل . وهاء ﴿ به ﴾ تعود إلى المكان ، وقد دل الحال عليه .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ جواب القسم ، ولام ﴿ لربه ﴾ يتعلق بـ (كنود) أي إن الإنسان لكنود لربه . وقد حسّن دخولَ لام الجر تقديمُه على اسم الفاعل ، كما مع الفعل الذي يشبهه في قوله تعالى : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف ١٥٤/٧] وقوله : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف ٤٣/١٢] .

﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أي ، وإنه لأجل حب المال لبخيل ، واللام تتعلق بـ (شديد) أي وإنه لشديد لأجل حب المال ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

﴿ أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور ﴾ العامل في ﴿ إذا بعثر ﴾ : ما دل عليه : ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ . ولا يجوز أن يعمل فيه (خبير) لأنه لا يجوز أن يعمل ما بعد ﴿ إن ﴾ فيما قبلها ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ يعلم ﴾ لأن الإنسان لا يطلب منه العلم في الآخرة ، وإنما في الدنيا . و ﴿ يومئذ ﴾ : ظرف عمل فيه ﴿ لخبير ﴾ وجاز أن يعمل فيما قبله ؛ لأن اللام في تقدير التقديم ، بخلاف ﴿ إن ﴾ .

البلاغة :

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ التأكيد بإن واللام لزيادة التقرير والبيان .

﴿ لشهيد ﴾ ﴿ لشديد ﴾ بينهما جناس ناقص ، وكذلك بين ﴿ ضبحاً ﴾ و ﴿ صبحاً ﴾ .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ استفهام إنكاري للتهديد والوعيد .

﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ تضمين ، ضمن لفظ ﴿ لخبير ﴾ معنى المجازاة ، أي يجازيهم على أعمالهم .

﴿ لشهيد ﴾ ، ﴿ لشديد ﴾ ، ﴿ الصدور ﴾ ، ﴿ القبور ﴾ سجع مرصع .

المفردات اللغوية :

﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ أُقسم بخيل المجاهدين تَعْدو ، فتضبح ضبحاً ، قال أبو حيان : والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات ، ﴿ والعاديات ﴾ الخيل التي تعدو وتسرع في العَدْو أي الجري جمع عادية . والضَّبْح : صوت أنفاس الخيل حين العَدْو أو الجري . ﴿ فالموريات ﴾ الخيل القادحات التي توري النار ، أي تخرجها ، جمع مورية ، والإيراء : إخراج النار بزَنْد ونحوه . ﴿ قدحاً ﴾ القدح : إخراج النار ، ويلاحظ أن الخيل إذا ركضت أو سارت في أرض ذات حجارة بالليل تقدح شرارة من النار بحوافرها . ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ الخيل التي تغير أو تهجم على العدو بإغارة أصحابها ، وقت الصبح ، جمع مغيرة .

﴿ فأثرن به ﴾ هيجن بمكان عَدْوهن ، أو بذلك الوقت وهو الصبح . ﴿ نقعاً ﴾ غباراً ، بشدة حركتهن . ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ توسطن بذلك الوقت أو بالعدو أو بالنقع جمعاً من جموع الأعداء ، أي صرن وسط الجمع .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ أي لكفور جحود نعمة الله تعالى عليه ، والمراد به جنس الإنسان المتحدث عنه ، وقيل : المراد به هنا : الكافر . ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أي وإنه على كنوده لشاهد ، يشهد على نفسه بصنعه ، لظهور أثره عليه . ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ المال ؛ لقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة٢/١٨٠] . ﴿ لشديد ﴾ لبخيل ، أو لشديد الحب له ، فيبخل به .

﴿ بعثر ما في القبور ﴾ أثير وأخرج ما في القبور من الموتى ، أي بعثوا . ﴿ وحصّل ما في الصدور ﴾ جمع محصلاً وأظهر وبيّن ما في القلوب من الكفر والإيمان ، والشر والخير والعزائم والنوايا ، وتخصيص ذلك ؛ لأن القلوب هي الأصل . ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ لعالم ، فيجازيهم على كفرهم . ويلاحظ أنه أعيد الضمير : ﴿ إن ربهم بهم ﴾ جمعاً ، نظراً لمعنى الإنسان . وهذه الجملة : دلت على مفعول يعلم ، أي إنا نجازيه حينئذ . وتعلق (خبير) بـ ﴿ يومئذ ﴾ مع أنه تعالى خبير دائماً بكل شيء ؛ لأنه يوم المجازاة .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً ، ولبثت شهراً ، لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ .

التفسير والبيان :

﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات ﴾ أي قسماً بالخيل التي تجري وتعدو بفرسانها المجاهدين في سبيل الله إلى العدو ، ويسمع لها حينئذ صوت زفيرها الشديد وأنفاسها المتصاعدة ، بسبب شدة الجري . وتخرج شرر النار بحوافرها أثناء الجري بسبب اصطكاك نعالها بالصخر أو الحجر ؛ وتغير أو تهجم على العدو وقت الصباح .

﴿ فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ﴾ فهيجن في الصبح أو مكان معترك الخيول غباراً يملأ الجو ، ثم توسطن بعَدْوهن جمعاً من الأعداء ، اجتمعوا في مكان ، ففرّقنه أشتاتاً .

وإنما أقسم الله تعالى بالخيل ؛ لأن لها في الركض (العَدْو) من الخصال الحميدة ماليس لسائر الدواب ، ولأن الخيل في نواصيها الخير[1] إلى يوم القيامة ، ولأنها وسيلة الغزو عند العرب ، ولا تكاد تخلو في الأغلب من الخطور ببالهم . والمراد إعلاء شأنها في نفوس المؤمنين ، ليُعْنَوا بتربيتها ، وليتدربوا عليها من أجل الجهاد في سبيل الله ، وليعتادوا على معالي الأمور ، وظواهر الجد والعمل .

وفي هذا القسم ترغيب باقتناء الخيل لهذه الأغراض النبيلة ، لا للسمعة والمفاخرة والرياء .

وعلى هذا فاللام في العاديات للعهد ، ويحتمل وهو الظاهر كما تقدم عن أبي حيان أن تكون للجنس وليست أل فيه للعهد ، ويدخل فيها خيل الجهاد والسرية دخولاً أولياً .

وجواب القسم المحلوف عليه هو :

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ أي إن الإنسان كفور بطبعه للنعمة ، كثير الجحد لها ، وعدم الإقرار بمقتضاها الموجب لشكر الخالق المنعم ، والخضوع لشرعه وأحكامه ، إلا من جاهد نفسه ، وعقل أمر الدنيا والآخرة ، فأقبل على الطاعة والفضيلة ، وأحجم عن المعصية والرذيلة .

والظاهر أن المراد بالإنسان هو الجنس ، والأكثرون على أن الإنسان هو الكافر ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ أفلا يعلم ﴾ . لكنهم قالوا أيضاً : ويحتمل أن يراد أن جنس الإنس مفطور على ذلك إلا من عصمه الله بلطفه وتوفيقه ، وقوله : ﴿ أفلا يعلم ﴾ يجوز أن يكون توبيخاً على أنه لا يعمل بعلمه .

﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أي وإن الإنسان على كونه كنوداً جحوداً لشهيد

(١) قال النبي ﷺ : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » رواه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

يشهد على نفسه بالجحد والكفران ، أي بلسان حاله ، وظهور أثر ذلك عليه في أقواله وأفعاله بعصيان ربه ، كما قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يَعْمُروا مساجدَ الله شاهدين على أنفسِهم بالكفر ﴾ [التوبة ١٧/٩] .

وقال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد .

﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أي وإن الإنسان بسبب حبه للمال لبخيل به ، أو أن حبه للمال قوي ، فتراه مجداً في طلبه وتحصيله ، متهالكاً عليه . فصار هناك رأيان في المعنى : أحدهما ـ وإنه لشديد المحبة للمال ، والثاني ـ وإنه لحريص بخيل بسبب محبة المال ، قال ابن كثير : وكلاهما صحيح .

ثم هدد الإنسان وتوعده إذا ظل بهذه الصفات ، فقال :

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ أي أفلا يدري الجاحد إذا أخرج أو نثر ما في القبور من الأموات ، وأبرز وأظهر ما يُسِرُّ الناس في نفوسهم من النوايا والعزائم ، والخير والشر ، إن رب هؤلاء المبعوثين لخبير بهم ، مطلع على جميع أحوالهم ، لاتخفى عليه منهم خافية في ذلك اليوم وفي غيره ، ومجازيهم في ذلك اليوم على جميع أعمالهم أوفر الجزاء ، ولا يظلمون مثقال ذرة . فإذا علموا ذلك ووعوه ، فعليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته والعمل للآخرة .

وخص أعمال القلوب بالذكر ؛ لأن أعمال الأعضاء الأخرى تابعة لأعمال القلب ؛ فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح .

وأعاد الضمير في قوله : ﴿ إن ربهم بهم ﴾ بصيغة الجمع ؛ لأن الإنسان في معنى الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خُسْر ﴾ [العصر ٢/١٠٣] ثم قال : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ [٣] .

وإنما قال : ﴿ يومئذ ﴾ مع أنه تعالى عالم بأحوال الناس في كل وقت ، للتأكيد على أنه عالم بذلك يوم المجازاة .

وعبّر عن المجازاة بالخبرة والعلم المحيط بهم ولأعمالهم ؛ لأن القصد هو التهديد ، كما قال تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ [آل عمران ١٨١/٣] مع أن كتابة أقوالهم وأفعالهم حاصلة فعلاً ، وإنما أراد أننا سنجازيهم بما قالوا الجزاء المناسب . فيكون قوله تعالى : ﴿ لخبير ﴾ وهو تعالى خبير دائماً فيه تضمين (خبير) معنى مجاز لهم في ذلك اليوم[١] .

وهذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانيات ؛ لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم ، فيكون منكر ذلك كافراً .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ أقسم سبحانه بالخيل التي تشغل بها أذهان العرب عادة على رداءة جبلة الإنسان من قلة الشكر والصبر ، والحرص على المال ، بحيث يكاد يشغله عن تحصيل الكمال الحقيقي ، وعن العمل للمعاد الذي إليه مآل العباد .

فقد طبع الإنسان على كفران النعمة ، وحب المال وبخله به ، وعليه أن يروض نفسه على ما يكون له به النجاة والسعادة .

٢ ـ ثم وبخ الله تعالى بالعلم التام الأزلي الأبدي الشامل لأحوال مبدأ الإنسان ومعاده ، والتوبيخ أو التهديد مدعاة للعقلاء إلى التأمل في المصير المحتوم ، والاستعداد للآخرة بزاد التقوى والفضيلة ، والبعد عن العصيان والمخالفة والرذيلة .

---

(١) البحر المحيط : ٥٠٥/٨

ولا يختلف العلم وقت المجازاة بالأعمال والأقوال والأحوال عن العلم الأزلي لله تعالى بذلك ، وإنما قال : ﴿ يومئذ ﴾ للتأكيد على شمول العلم في الماضي والحاضر والمستقبل ، ولأن الجزاء منوط بالعمل السابق ، فيكون تخصيصه دالاً على التذكر وعدم النسيان ، وعلى التزام العدل وتوافر العلم وقت الجزاء .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة

مكيّة ، وهي إحدى عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة القارعة لبدء السورة بها تهويلاً وتخويفاً ، كابتداء سورة الحاقة ، والقارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامّة والصاخّة والغاشية ونحو ذلك . وسميت بهذا ؛ لأنها تقرع القلوب بهولها .

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة بوصف يوم القيامة : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصّل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ وأعقبتها هذه السورة برمّتها بالحديث عن القيامة ووصفها الرهيب وأهوالها المخيفة .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة المكية التخويف بأهوال القيامة ، وهي كلها تدور حول الموضوع نفسه .

فقد بدأت بالحديث عن أهوال القيامة وشدائدها ، وانتشار الناس فيها من قبورهم كالفراش المتطاير : ﴿ القارعة ما القارعة .. ﴾ [١ـ ٤] .

ثم أشارت إلى بعض أمارات الساعة وهو نسف الجبال وجعلها كالصوف

المندوف ، مما يوجد الذعر والهلع والتأثر الشديد في قلوب الناس : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [٥] .

وكانت خاتمتها الإخبار عن نصب موازين الحساب التي توزن بها أعمال الناس ، فثقيل الميزان بالحسنات إلى الجنة ، وخفيف الميزان بالسيئات إلى النار : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية .. ﴾ [٦ ـ ١١] .

أهوال القيامة وأماراتها وميزان الحساب فيها

ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١

الإعراب :

﴿ القارعة ما القارعة ﴾ ﴿ القارعة ﴾ : مبتدأ . و ﴿ ما ﴾ : مبتدأ ثان ، وما بعده خبره .

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ ﴿ ما ﴾ الأولى : مبتدأ ، وما بعدها خبره . و ﴿ ما ﴾ الثانية : المبتدأ ، وخبرها في محل المفعول الثاني لـ « أدراك » .

﴿ يوم ﴾ ظرف عامله تقرع ، دل عليه القارعة .

﴿ كالفراش المبثوث ﴾ في موضع نصب : لأنه خبر ﴿ يكون ﴾ . وكذلك ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ في موضع نصب : لأنه خبر ﴿ يكون ﴾ .

﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ الفاء : جواب (أما) التي فيها معنى الشرط . وهو : مبتدأ ، و ﴿ في عيشة ﴾ : ظرف في موضع رفع ؛ لأنه خبر المبتدأ . و ﴿ راضية ﴾ : أي مرضي بها ، وهو مما جاء على وزن فاعل ، ويراد به مفعول .

البلاغة :

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ ؟ الاستفهام للتفخيم والتهويل ، وكذلك : ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ ؟ .

﴿ القارعة ما القارعة ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للتخويف والإرهاب ، والأصل أن يقال : القارعة ماهي ؟

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكر فيه أداة التشبيه ، وحذف وجه الشبه ، وهو : في الكثرة والانتشار ، والضعف والهوان . ومثله : ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ أي في تطايرها وخفة تناثرها .

﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ﴾ ﴿ وأما من خفت موازينه فأمه هاويه ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ في عيشة راضية ﴾ مجاز عقلي إذا أريد بالراضية اسم الفاعل ، أي راض بها صاحبها .

﴿ فأما من ثقلت .. ﴾ ﴿ وأما من خفت .. ﴾ فيها احتباك : وهو أن يحذف في كلٍّ نظير ماأثبته في الآخر ، حذف من الأول (فأمه الجنة) وذكر فيها ﴿ عيشة راضية ﴾ وحذف من الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿ فأمه هاوية ﴾ .

﴿ القارعة ﴾ ، ﴿ راضية ﴾ ، ﴿ هاوية ﴾ ، ﴿ ماهيهْ ﴾ ، ﴿ حامية ﴾ سجع مرصّع .

المفردات اللغوية :

﴿ القارعة ﴾ من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب والأسماع بأهوالها وأفزاعها الشديدة ، من القرع : الضرب بشدة . ﴿ وما أدراك ماالقارعة ﴾ ماأعلمك ، وهو زيادة تهويل لها . ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ أي كالفراش المنتشر المتفرق في الكثرة والانتشار ، والذلة والاضطراب ، يموج بعضهم في بعض للحيرة ، إلى أن يُدْعَوا للحساب . والفراش : طائر معروف أحمق يتهافت على النار .

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ كالصوف المندوف في خفة سيرها وتبددها ، حتى تستوي مع الأرض . ﴿ ثقلت موازينه ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته . ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ ذات رضا أو مرضية لصاحبها في الجنة . ﴿ خفت موازينه ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته . ﴿ فأمه هاوية ﴾ فسكنه أو مأواه الذي يأوي إليه نار جهنم . ﴿ ماهيهْ ﴾ ماهي النار ؟ وهاء هيه للسكت تثبت وصلاً ووقفاً . والهاوية : من أسماء جهنم . ﴿ نار حامية ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة .

التفسير والبيان :

﴿ القارعة ، ماالقارعة ، وما أدراك ماالقارعة ﴾ ؟ ﴿ القارعة ﴾ من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وأي شيء هي ، وما أعلمك ماشأن القارعة ؟ وقوله : ﴿ ماالقارعة ﴾ لتعظيم شأنها وتفخيمه ، وقوله : ﴿ وما أدراك ماالقارعة ﴾ تأكيد لشدة هولها ، وتعظيم أمرها ، وتهويل شأنها .

ثم فسر ذلك وأبان زمانها وأماراتها ، فقال :

١ ـ ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أي يوم يخرج الناس من القبور ، يسيرون على غير هدى في كل اتجاه ، شأنهم في ذلك ، كالحشرة الطائرة المعروفة المنتشرة المتفرقة ، أو كجميع الحشرات الطائرة ، كالبعوض والجراد ، فهم في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم بسبب حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ، أي متفرق منتشر ، كما قال تعالى : ﴿ كأنهم جرادٌ منتشرٌ ﴾ [القمر ٧/٥٤] . قال الزمخشري : شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير الفراش إلى النار .

٢ ـ ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أي وتصير الجبال كالصوف ذي الألوان المختلفة ، المندوف الذي نُفش بالندف ؛ لأنها تتفتت وتتطاير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سُيِّرت ﴾ [التكوير ٣/٨١] وقوله سبحانه : ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمّل ١٤/٧٣] .

وفي ذكر هاتين الأمارتين تخويف للناس وتحذير شديد .

ثم ذكر الجزاء على الأعمال وأحوال الناس وتفرقهم فريقين إجمالاً ، فقال :

﴿ فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ﴾ أي أما من ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته أو أعماله الصالحة على سيئاته ، فهو في عيشة مرضية

يرضاها صاحبها في الجنة . والعيشة : كلمة تجمع النعم التي في الجنة .

﴿ وأما من خفّت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيهْ ، نار حامية ﴾ أي وأما من رجحت سيئاته على حسناته ، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ، فمسكنه أو مأواه جهنم . وسماها أمه ؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه ، وسميت جهنم هاوية وهي الهالكة ؛ لأنه يهوي فيها مع عمق قعرها ، ولأنها نار عتيقة .

ونحن نؤمن بالميزان كما ورد في القرآن ، دون أن ندري كيفية وزنه وتقديره .

وما أعلمك ماهذه النار ؟ والاستفهام للتهويل والتخويف ، ببيان أنها خارجة عن المعهود ، بحيث لا يُدرى كنهها . قال الزمخشري : ﴿ هيه ﴾ ضمير الداهية التي دل عليها قوله : ﴿ فأمه هاوية ﴾ أو ضمير هاوية ، والهاء للسكت ، وإذا وصل القارئ حذفها .

هي نار شديدة الحرارة ، انتهى حرها وبلغ في الشدة إلى الغاية ، فهي حارة شديدة الحرارة ، قوية اللهب والسعير . وهذا دليل على قوتها التي تفوق جميع النيران .

أخرج مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم » .

وأخرج أحمد أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أهون أهل النار عذاباً : من له نعلان ، يغلي منهما دماغه » .

وثبت في الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ القيامة ذات أهوال وشدائد ومخاوف تهز القلوب وتقرع الأسماع ، لا يعلم أحد بكنهها ؛ لأنها في الشدة بحيث لا يتصورها عقل أحد ، وكيفما قدرت فهو أعظم من تقديرك ، كأنه تعالى قال : قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار .

وفي هذا تحذير شديد وإرهاب لا مثيل له . قال مقاتل : إنها تقرع أعداء الله بالعذاب ، وأما أولياؤه فهم من الفزع آمنون .

٢ ـ وصف الله يوم القيامة بأمرين :

الأول ـ كون الناس فيه كالفراش المتفرق المنتشر ، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار .

الثاني ـ صيرورة الجبال فيه كالصوف ذي الألوان ، المندوف ، الذي ينفش بعضه عن بعضه .

ويلاحظ أنه تعالى وصف تغير الأحوال على الجبال من وجوه أربعة :

أولها ـ أن تصير قطعاً ، كما قال : ﴿ وحُمِلت الأرضُ والجبالُ ، فدُكّتا دكةً واحدةً ﴾ [الحاقة ١٤/٦٩] .

وثانيها ـ أن تصير كثيباً مهيلاً ، كما قال : ﴿ وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً ، وهي تمرُّ مرَّ السحاب ﴾ [النمل ٨٨/٢٧] .

وثالثها ـ ثم تصير كالعهن المنفوش ، وهي أجزاء كالذر الداخل من النافذة .

ورابعها ـ تصير سراباً ، كما قال : ﴿ وسُيِّرت الجبالُ ، فكانتْ سَراباً ﴾ [النبأ ٢٠/٧٨][1] .

٣ ـ يقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين بحسب ثقل موازين أعمالهم وخفتها ، فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في الجنة في عيشة مرضية ، وأما من رجحت سيئاته على حسناته فهو في نار حامية شديدة الحرارة . وقوله : ﴿ نار حامية ﴾ إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية . وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها .

والموازين جمع ميزان ، فيؤتى بحسنات المطيع في أحسن صورة ، فإذا رجح ، فله الجنة ، ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة ، فيخف وزنه ، فيدخل النار . وقال المتكلمون : إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنها ، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن ، أو يجعل النور علامة الحسنات ، والظلمة علامة السيئات .

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

وقال مقاتل : إنما كان كذلك ؛ لأن الحق ثقيل ، والباطل خفيف[2]

---

(١) تفسير الرازي : ٧٢/٣٢

(٢) تفسير الرازي : ٧٣/٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكاثر

مكيّة ، وهي ثماني آيات .

تسميتها :

سميت سورة التكاثر ؛ لقوله تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ أي شغلكم التفاخر بالأموال والأولاد والأعوان .

مناسبتها لما قبلها :

أخبرت سورة القارعة عن بعض أهوال القيامة ، وجزاء السعداء والأشقياء ، ثم ذكر في هذه السورة علة استحقاق النار وهو الانشغال بالدنيا عن الدين ، واقتراف الآثام ، وهددت بالمسؤولية في الآخرة عن أعمال الدنيا .

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة المكية ذم العمل للدنيا فقط ، والتحذير من ترك الاستعداد للآخرة . لذا تناولت مقاصد ثلاثة :

١ ـ بيان انشغال الناس بملذات الحياة ومغرياتها ، والغفلة حتى يأتي الموت : ﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ﴾ [١ ـ ٢] .

٢ ـ الإنذار بالسؤال عن جميع الأعمال في القيامة : ﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [٣ ـ ٤] .

٣ ـ التهديد برؤية الجحيم يقيناً ، ومجابهة أهوال النار ، والسؤال عن نعيم الدنيا : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين .. ﴾ [٥ ـ ٨] .

سبب نزول السورة :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن بُريْدَة في قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ، قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

التفاخر في الدنيا والسؤال عن الأعمال

أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ﴿ كلا ﴾ : حرف معناه الزجر والردع ، وليس اسماً للفعل ، لتضمنه معنى ارتدع ، كما أن (صه) اسم فعل لدلالته على السكوت .

﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ ﴿ لو ﴾ : حرف يمتنع به الشيء لامتناع غيره ، وجوابه محذوف ، وتقديره : لو علمتم لما ألهاكم ، و ﴿ علم اليقين ﴾ : منصوب على المصدر .

﴿ لترَوُنَّ الجحيم ﴾ بفتح التاء ، فهو فعل ثلاثي ، عُدّي إلى مفعول واحد وهو ﴿ الجحيم ﴾ . وقرئ بضم التاء ، فتكون الواو نائب فاعل ، و ﴿ الجحيم ﴾ : مفعول به ثانٍ ، وهو فعل رباعي ، عدّي بالهمزة إلى مفعولين ، وهو في الأصل يتعدى إلى مفعول واحد ؛ لأنه من رؤية العين . و ﴿ عين اليقين ﴾ مصدر ؛ لأن رأى وعاين بمعنى واحد .

﴿ لتسألن ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين .

البلاغة :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ خبر أريد به التذكير والتوبيخ واللوم .

﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ التكرار للتهديد والإنذار ، وعطف بـ ﴿ ثم ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول .

﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ حذف جواب ﴿ لو ﴾ للتهويل والتفخيم ، أي لرأيتم ما يدهش ويفزع .

﴿ لترون ﴾ ﴿ ثم لترونها ﴾ إطناب بتكرار الفعل ، لبيان شدة الهول .

﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ كناية ، كُنّي بزيارة القبور عن الموت ، أي حتى مُتّم .

﴿ النعيم ﴾ ﴿ الجحيم ﴾ طباق .

﴿ تعلمون ﴾ ، ﴿ اليقين ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وكذا بين ﴿ الجحيم ﴾ و ﴿ النعيم ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ ألهاكم ﴾ شغلكم ، واللهو : الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى . ﴿ التكاثر ﴾ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال . ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى مُتّم ودفنتم في القبور . ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر . ﴿ سوف تعلمون ﴾ سوء عاقبة تفاخركم عند النزع وفي القبر وفي الآخرة . ﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ علم الأمر المتيقن ، أي لو علمتم يقيناً عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به . والعلم اليقيني : ما نشأ عن اعتقاد مطابق للواقع عن عيان أو دليل قطعي ثابت ، دل عليه العقل الصحيح أو النقل الثابت عن النبي ﷺ .

﴿ لترون الجحيم ﴾ النار ، جواب قسم محذوف أكد به الوعيد ، للتفخيم . ﴿ ثم لترونها ﴾ تأكيد . ﴿ عين اليقين ﴾ أي عياناً هي اليقين نفسه . ﴿ ثم لتسألن يومئذ ﴾ في موقف الحساب ، و ﴿ ثم ﴾ هنا للترتيب الإخباري . ﴿ عن النعيم ﴾ ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والطعام والشراب وغير ذلك .

سبب النزول :

تقدم سبب نزول السورة عن ابن أبي حاتم . وأخرج ابن جرير عن علي قال : كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ إلى ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في عذاب القبر .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشِّخِّير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقول : « ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأمضى ، وما سوى ذلك فذاهب ، وتاركه للناس » .

التفسير والبيان :

﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ﴾ أي شغلكم التفاخر والتباهي بالأموال والأولاد والأعوان ، والاعتناء بكثرتها وتحصيلها ، شغلكم عن طاعة الله والعمل للآخرة ، حتى أدرككم الموت ، وأنتم على تلك الحال .

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يَتْبعُ الميتَ ثلاثة ، فيرجع اثنان ، ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

وأخرج أحمد وصاحبا الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال : « يهرم ابن آدم ، ويبقى معه اثنتان : الحرص والأمل » .

أما زيارة القبور فمباحة بالآداب الشرعية ، بأن يبدأ الزائر السلام على صاحب القبر عند رأسه ، ثم يتجه إلى القبلة ويدعو الله عز وجل بالرحمة والمغفرة للميت ولنفسه وللمسلمين ، أخرج ابن ماجه عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تُزهّد في الدنيا ، وتُذكّر الآخرة » وهو صحيح ، وأخرج الحاكم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها ، فإنها تُرِقّ القلب ، وتُدْمِع العين ، وتُذكّر الآخرة ، ولا تقولوا هَجْراً » . وهذا دليل على أنها تُمنع إذا كانت مصحوبة بمنكرات ، كالاختلاط والفتن والنواح .

﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ أي ردعاً وزجراً لكم عن هذا التكاثر المقيت الذي يؤدي إلى التقاطع والتدابر والأحقاد والضغائن ، وإهمال العمل للآخرة ، وخير الأمة ، وتصحيح السلوك والأخلاق . وستعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة . قال الزمخشري : ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ، ولا يهتم بدينه .

والجملة الثانية كررت للتأكيد والتغليظ والوعيد والزجر .

﴿ كلا ، لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي ارتدعوا عن هذا اللهو بالدنيا ، فإنكم لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً ، لانشغلتم عن التكاثر والتفاخر ، ولبادرتم إلى صالح الأعمال ، ولما ألهاكم التباهي عن أمر الآخرة العظيم والإعداد لها . وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، أي لو علمتم لما ألهاكم .

وهذا زيادة في الزجر واللوم عن الانهماك في الدنيا ، والاغترار بمظاهر الحياة الفارغة الزائلة . وليس الكلام مجرد وعظ ، وإنما الخطر الداهم يقتضي عمق التأمل والتفكر في مستقبل الآخرة ، وذلك لا يتوافر عادة بغير إيمان قوي ، وقلب واع سليم . وتكرار لفظ ﴿ كلا ﴾ المفيدة للزجر ، للدلالة على استحقاق ضرر آخر

غير العذاب . وقال الحسن : ﴿ كلا ﴾ بمعنى حقاً كأنه قيل : حقاً لو تعلمون علم اليقين .

ثم فسر الوعيد فقال :

﴿ لترون الجحيم ﴾ أي لتشاهدن النار في الآخرة ، والمراد ذوق عذابها وهذا جواب قسم محذوف . وهو توعد بحال رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة ، خرّ كل مَلَك مقرَّب ، ونبي مُرْسَل ، على ركبتيه من المهابة ، والعظمة ، ومعاينة الأهوال الجسام .

ثم أكد ذلك بقوله :

﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والرؤية بأعينكم ، فإياكم الوقوع فيما يؤدي إلى النار من اقتراف المعاصي والسيئات ، وارتكاب الموبقات والمنكرات .

ثم أكد السؤال عن الأعمال للتحذير فقال :

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أي إنكم سوف تسألون عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة ، وتسألون عن أنواع نعيم الدنيا من أمن وصحة وفراغ ومأكول ومشروب ومسكن وغير ذلك من النعم ، قال الزمخشري : ﴿ عن النعيم ﴾ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه . وقال الرازي : والأظهر أن الذي يسأل عن النعيم هم الكفار ، وفي قول آخر : أنه عام في حق المؤمن والكافر ، واحتجوا بأحاديث منها : روي عن عمر أنه قال : « أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال ﷺ : ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد ، والماء البارد في اليوم الحار » .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن محمود بن لَبيد قال : « لما نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأها النبي ﷺ حتى بلغ ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا : يا رسول الله ، أي نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان : الماء والتمر ، وسيوفُنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : أما إن ذلك سيكون » .

وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . أي أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون . وعن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي برزة : « لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمرِه فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » .

وأخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه عن عبيد الله بن مُحْصِن : أن رسول الله ﷺ قال : « من أصبح منكم آمناً في سِرْبه ، معافى في جسده ، عنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها » .

وأخرج ابن جرير ومسلم وأهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ ، فقال : ماأجلسكما ههنا ؟ قالا : والذي بعثك بالحق ، ماأخرجنا من بيوتنا إلا الجوع ، قال : والذي بعثني بالحق ماأخرجني غيره ، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار[1] ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبي ﷺ : أين فلان ؟ فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء ، فجاء صاحبهم يحمل قِرْبتَه ، فقال : مرحباً ما زار العباد شيء أفضل من نبي ، زارني اليوم ، فعلق قربته بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعِذق ، فقال النبي ﷺ : ألا كنت اجتنيت ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشفرة ، فقال له النبي ﷺ : إياك والحلوب ، فذبح لهم يومئذ فأكلوا ، فقال لها

النبي ﷺ : لتسألن عن هذا يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » .

والظاهر أن السؤال عن النعيم للعموم لأجل لام الجنس إلا أن سؤال الكافر للتوبيخ ؛ لأنه عصى وكفر ، وسؤال المؤمن للتشريف ، فإنه أطاع وشكر . والظاهر أن هذا السؤال في موقف الحساب ، وهو متقدم على مشاهدة جهنم ، ومعنى ﴿ ثم ﴾ الترتيب في الأخبار ، ثم أخبركم أنكم تسألون .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يحذر الله تعالى من ترك العمل الصالح والاستعداد للآخرة ، ويوبخ الذين تشغلهم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى يموتوا ويدفنوا في المقابر .

والتوبيخ عام يشمل التفاخر بكل شيء من الأموال والأولاد ، والقبائل والعشائر ، والسلطة والجاه ، والرجال والأعوان ، فهو يتضمن التفاخر بالنفس وهي العلوم والأخلاق الفاضلة ، والتفاخر بالبدن وهو الصحة والجمال ، والتفاخر بالأمور الخارجية وهي المال والجاه والأعوان والأقرباء والأصدقاء .

٢ ـ لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة ، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي ؛ لأنها تذكّر الموت والآخرة . وذلك يحمل على قصر الأمل ، والزهد في الدنيا ، وترك الرغبة فيها ، كما تقدم في الأحاديث الثابتة . وجاء في الترمذي عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور . ورأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور ، فلما رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء . وقال بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء ، لقلة صبرهن ، وكثرة جَزَعهن .

والخلاصة : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء ، أما الشواب فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد الكبيرات فمباح لهن ذلك . وجائز لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال . وإذا حدثت فتنة من اجتماع الرجال والنساء ، فلا يحل ولا يجوز .

٣ ـ قال العلماء : ينبغي لعلاج القلب ثلاثة أمور : طاعة الله ، والإكثار من ذكر الموت (هاذم اللذات) وزيارة قبور أموات المسلمين .

٤ ـ كرر الله تعالى في هذه السورة الوعيد بعد الوعيد ، للتأكيد والتغليظ على ثبوت عذاب القبر وعذاب الآخرة ، وأن ما وعدنا به من البعث وتوابعه حق وصدق . ثم أعاد تعالى الزجر والتنبيه على أنه إن لم يفعل الناس العمل الصالح ، وترك التفاخر بالأموال والأولاد والرجال ، يندمون ، ويستوجبون العقاب .

٥ ـ أتى الله تعالى بوعيد آخر بقسم محذوف : والله لترون الجحيم في الآخرة ، وهذا خطاب للكفار الذين وجبت لهم النار ، وقيل : الخطاب عام ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ منكم إلا واردها ﴾ [مريم ٧١/١٩] فهي للكفار دار ، وللمؤمنين ممر . ثم أخبر تعالى عن رؤية الجحيم رؤية مشاهدة بالأعين ، وبعيون القلوب والأفئدة .

٦ ـ يُسْأَلُ الناس يوم القيامة عن ألوان النعيم في الدنيا ، من ظلال المساكن والأشجار ، وطيب الحياة والرفاهية ، والصحة والفراغ ، والأمن والستر ونحو ذلك . والكل يسألون ، ولكن سؤال الكفار توبيخ ؛ لأنه قد ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف ؛ لأنه شكر ، وهذا النعيم في كل نعمة . ويكون السؤال في موقف الحساب ، وقيل : بعد الدخول في النار توبيخاً لهم ، والأول هو الظاهر .

---

(١) هو مالك بن التَّيِّهان الأنصاري ، أبو الهيثم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العصر

مكيّة ، وهي ثلاث آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ العصر ﴾ لقسم الله به في مطلعها بقوله : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ ﴿ والعصر ﴾ : الدهر ، لاشتماله على الأعاجيب ، من سرّاء وضرّاء ، وصحة وسقم ، وغنى وفقر ، وعز وذل ، وانقسامه إلى أجزاء : سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة وثانية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مناسبتها لما قبلها :

لما بيّن في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم ، أراد أن يبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات ، وهو ما يعود إلى النفس ، ومن التواصي بالخيرات وكفّ النفس عن المناهي أو المعاصي ، وهو ما يعود إلى المجتمع . والخلاصة : بعد أن قال : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وهدد بتكرار : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ بيّن حال المؤمن والكافر .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية الموجزة توضح أصول الإسلام الكبرى ، ودستور الحياة الإنسانية .

فقد أقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الدهر أو الزمان المشتمل على العجائب

والدال على قدرة الله وحكمته البالغة على خسارة الإنسان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة ، وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي مع الآخرين بالحق ، والتواصي بالصبر والمصابرة .

فضلها :

ذكر الرواة أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب ، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ ، وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟! فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ ففكر مسيلمة هُنيهة ، ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال :

يا وبر يا وبر[1] ، وإنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر .

ثم قال كيف ترى ياعمرو : فقال له عمرو : والله لتعلم أني أعلم أنك تكذب .

وذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا ، إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر . وأخرجه البيهقي عن أبي حذيفة .

وقال الشافعي رحمه الله : لوتدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

---

(١) الوبر : دويبة تشبه الهر ، أعظم شيء فيه أذناه وصدره ، وباقيه دميم ، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان مايعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان (تفسير ابن كثير ٥٤٧/٤) .

رسالة الحياة أو حال المؤمن والكافر

وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣

الإعراب :

﴿ والعصر ﴾ قسم ، وجوابه : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ والمراد بالإنسان : الجنس ، ولهذا استثنى منه : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

﴿ وتواصوا ﴾ أصله « تواصيوا » إلا أنه تحركت الياء وانفتح ماقبلها ، فانقلبت ألفاً ، فاجتمع ساكنان : الألف والواو بعدها ، فحذفوا الألف لالتقاء الساكنين .

البلاغة :

﴿ إن الإنسان ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء ، فهو إطلاق البعض وإرادة الكل .

﴿ لفي خسر ﴾ التنكير للتعظيم ، أي في خسر عظيم .

﴿ وتوصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ إطناب بتكرار الفعل ، لزيادة العناية به .

﴿ وتوصوا بالصبر ﴾ بعد قوله : ﴿ بالحق ﴾ خاص بعد عام ، فإن الصبر داخل في عموم الحق ، إلا أنه خصصه بالذكر للاهتمام به بعينه .

﴿ العصر ﴾ ، ﴿ الصبر ﴾ ، ﴿ خسر ﴾ سجع عفوي غير متكلف ، وهو من المحسنات البديعية .

المفردات اللغوية :

﴿ والعصر ﴾ والدهر ، أقسم الله به لاشتماله على الأعاجيب ، وقيل : صلاة العصر ، أو وقت العصر من بعد الزوال إلى الغروب . ﴿ إن الإنسان ﴾ جنس الإنسان فالتعريف للجنس . ﴿ خُسْر ﴾ خسارة أو خسران في تجارته ، والتنكير للتعظيم . والخسارة : النقصان وضياع رأس المال . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة الدائمة ، فليسوا في خسران .

﴿ بالحق ﴾ وهو الشيء الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل ، أو هو ما أرشد إليه دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة ، أو شرع صحيح جاء به نبي معصوم .

والتواصي بالحق : أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بما لا مجال لإنكاره من إيمان وخير وفضيلة .

﴿ بالصبر ﴾ قوة في النفس تدعو إلى احتمال المشقة في العمل . والتواصي بالصبر : أن يوصي الناس بعضهم بعضاً به ، ويحث الواحد غيره عليه .

وقد اكتفى سبحانه ببيان سبب الربح دون الخسران لأنه المقصود ، وما عداه يؤدي إلى الخسران والنقص .

التفسير والبيان :

﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ﴾ أي قسماً بالعصر وهو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس ؛ لما فيه من العبر وتقلبات الليل والنهار ، وتعاقب الظلام والضياء ، وتبدل الأحداث والدول ، والأحوال والمصالح ، مما يدل على وجود الصانع عزّ وجلّ وعلى توحيده وكمال قدرته ، أقسم بذلك على أن الإنسان في خسارة وهلاك ونقص وضلال عن الحق ، في المتاجر والمساعي ، وصرف الأعمال في أعمال الدنيا ، إلا من استثناهم الله فيما يأتي . وإقسام الله بالدهر دليل على شرفه وأهميته ، لذا قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة : « لا تسبُّوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » . والآية كما ذكر الرازي كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة .

وقيل : المراد بالعصر : صلاة العصر ، أو وقتها تعظيماً لها ، ولشرفها وفضلها ، ولهذا فسّر بها الصلاة الوسطى عند كثير من العلماء . وفيه إشارة إلى أن عمر الدنيا الباقي هو ما بين العصر إلى المغرب ، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها ، فإن الوقت قد ضاق ، وقد لا يمكن تدارك مافات .

والمراد بالإنسان : الجنس ، واللام لام الجنس وهو الراجح . وقيل : اللام في الإنسان لمعهود معين ، كما روي عن ابن عباس أنه أراد جماعة من المشركين

كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطّلب . قال أبو حيان : والعصر ، والإنسان : اسم جنس يعم ، ولذلك صح الاستثناء منه .

ثم استثنى من جنس الإنسان عن الخسران ما يأتي :

﴿ إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ أي إن الإنسان لفي خسارة وضياع ونقصان وهلاك إلا الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم في ربح ، لا في خسر ؛ لأنهم عملوا للآخرة ، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، فآمنوا بقلوبهم ، وعملوا بجوارحهم (أعضائهم) .

وإلا الذين وصّى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره : وهو الإيمان بالله والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه . والحق خلاف الباطل ، ويشمل جميع الخيرات وما يلزم فعله ، أو هو أداء الطاعات ، وترك المحرّمات . قال الزمخشري : وهو الخير كله ، من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة .

وإلا الذين أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على فرائض الله ، وعن معاصي الله ، وعلى أقداره وبلاياه . والصبر يشمل احتمال الطاعات ، واجتناب المنكرات ، وتحمل المصائب والأقدار ، وأذى الذي يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

١ ـ الإنسان وإن ربح الثروة الكبيرة والمال الوفير ، فهو في خسارة محققة ، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً .

٢ ـ أقسم الله تعالى على هذا الحكم بأي عصر أو زمان ، لما فيه من التنبيه

بتصرف الأحوال وتبدّلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته ومزيد حكمته التي تظهر أحياناً بعد مرور الزمان .

والعصر في الحلف بالأيمان مختلف في تقديره عند الفقهاء ، فقال مالك : من حلف ألا يكلم رجلاً عصراً ، يحمل على السنة ؛ لأنه أكثر ماقيل فيه ، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان .

وقال الشافعي : يبرّ بساعة ، إلا أن تكون له نية ، أو يفسره بما يحتمله ، وذلك حملاً على الأقل المتيقن المراد بالعصر .

٣ ـ حكم الله تعالى بالوعيد الشديد ؛ لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتياً بأشياء أربعة أو متصفاً بصفات أربع ، وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور ، وعناصر الإيمان ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . والعمل الصالح : أداء الفرائض واجتناب المعاصي ، وفعل الخير . والتواصي بالحق : أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت ، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد الله ، والعمل بالقرآن ، والدعوة إلى الدين والنصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يحب المرء لغيره مايحب لنفسه . قال عمر رضي الله عنه : رحم الله من أهدى إلي عيوبي .

والتواصي بالصبر : أن يوصي الناس بعضهم بعضاً على طاعة الله عزّ وجلّ ، والصبر عن معاصيه ، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن .

٤ ـ قال الإمام الرازي رحمه الله : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي[1] .

(١) تفسير الرازي : ٣٢/٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الهُمَزَة

مكيّة ، وهي تسع آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ الْهُمَزَة ﴾ لبدئها بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ويلٌ لكل هُمَزَة لُمَزة ﴾ والهمزة : الذي يغتاب الناس ويطعن بهم بقول أو فعل أو إشارة ، واللمزة : الذي يعيب الناس بإشارة الحاجب والعين . قال ابن عباس : ﴿ الهمزة ﴾ : المغتاب ، و ﴿ اللمزة ﴾ : العياب .

مناسبتها لما قبلها :

بعد أن ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة أن جنس الإنسان في خسران ونقص وهلكة ، أبان في هذه السورة حال الخاسر وأراد به تبيان الخسران بمثال واحد .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية في علاج مشكلة خلقية مستعصية بين الناس وهي الطعن في الآخرين بالغيبة أثناء غيابهم ، أو بالعيب حال حضورهم .

وقد بدأت بالإخبار عن العذاب الشديد لكل عيّاب طعّان للناس ، ينتقص الآخرين ويزدريهم ويسخر بهم : ﴿ ويلٌ لكلِّ هُمَزَة لُمَزة ﴾ [١] .

ثم ذمّت السورة الذين يحرصون على جمع الأموال في الدنيا ، كأنهم مخلدون فيها : ﴿ الذي جمع مالاً وعدده .. ﴾ [٢ ـ ٣] .

وختمت بردع الفريقين السابقين ، وأنبأتهم بمصيرهم الأسود وهو النبذ في الحطمة : نار جهنم .

سبب نزولها :

قال عطاء والكلبي والسُّدي : نزلت في الأخْنَس بن شَرِيق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وبخاصة رسول الله ﷺ .

وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ، ويطعن عليه في وجهه . وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك .

وقال محمد بن إسحاق والسهيلي : ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف[1] . وقد روى ذلك ابن جرير عن عثمان وابن عمر .

قال أبو حيان : ونزلت في الأخنس بن شريق ، أو العاص بن وائل ، أو جميل بن معمر ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أمية بن خلَف : أقوال ، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع ، وهي مع ذلك عامة فيمن اتصف بهذه الأوصاف[2] .

وعلى هذا فاللفظ عام ، وإن كان في الأصل يشير إلى شخص معين ، وكذلك قوله تعالى في سورة ﴿ ن ﴾ : ﴿ ولا تطعْ كلَّ حلاّفٍ مهين .. ﴾ [١٠ ـ ١٥] ، فإنه سبحانه تابع في سرد الصفات حتى علم أنه يريد في الأصل إنساناً بعينه .

والقاعدة العامة عند المحققين والأصوليين : أن خصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ .
وهذه السورة تشتمل على سدس من مقاصد القرآن ، وهو حكاية أقوال الجاحدين .

---

(١) تفسير الرازي : ٩١/٣٢

(٢) البحر المحيط : ٥١٠/٨

الطعّان العيّاب للناس وجزاؤه

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

الإعراب :

﴿ الذي جمع مالاً .. ﴾ ﴿ الذي ﴾ : إما في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : وهو الذي ، أو في موضع نصب بفعل مقدر ، أي أعني ، أو في موضع على البدل من « كل » . .

﴿ لينبذن ﴾ بفتح الذال ، أراد به : الذي جمع ، والأصل في الذال أن تكون ساكنة لبناء الفعل المضارع ، لدخول نون التوكيد ، إلا أنه حركت الذال لالتقاء الساكنين ، وكان الفتح أولى لأنه أخف الحركات . ومن قرأ بضم الذال ، أراد به : المال والهمزة واللمزة . وقرئ : « لينبذان » بألف التثنية ، وأراد به المال وصاحبه . وهو جواب قسم محذوف ، أي ليطرحن .

﴿ في عَمَدٍ ممدّدة ﴾ ﴿ عَمَد ﴾ : بفتح العين والدال ، أراد به اسم الجمع ، وقرئ « عُمُد » بضمتين ، وأراد به جمع عمود ، كرسول ورُسُل .

البلاغة :

﴿ هُمَزة ، لُمَزة ﴾ من صيغ المبالغة ، على وزن : فُعَلة ، كنُومة ، وعُيبة وسُخَرة وضحكة .

﴿ جمع مالاً ﴾ تنكير ﴿ مالاً ﴾ للتفخيم ، أي جمع مالاً كثيراً .

﴿ وما أدراك ماالْحُطَمة ﴾ الاستفهام للتفخيم والتهويل لنار جهنم ، و ﴿ الحطمة ﴾ : من صيغ المبالغة .

﴿ همزة ﴾ ، ﴿ لمزة ﴾ جناس ناقص أو غير تام .

﴿ عدّده ﴾ ، ﴿ أخلده ﴾ ، ﴿ الموقدة ﴾ ، ﴿ ممدّدة ﴾ سجع مرصع ، لتوافق الفواصل .

المفردات اللغوية :

﴿ ويل ﴾ خزي وعذاب شديد ، ويراد به الندم والتقبيح . ﴿ هُمَزة ﴾ مغتاب طعّان في أعراض الناس وكراماتهم . ﴿ لُمَزة ﴾ عيّاب يعيب عادة بالحاجب أو العين أو اليد أو الرأس تحقيراً للناس وترفعاً عليهم . ﴿ عدده ﴾ عدّه مرة بعد أخرى تلذذاً به ، أو جعله عُدّة للنوازل وحوادث الدهر .

﴿ يحسب ﴾ يظن لجهله . ﴿ أن ماله أخلده ﴾ جعله خالداً في الدنيا ، لا يموت . ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر . ﴿ لينبذن ﴾ ليطرحنّ وليرمين بإهانة وتحقير ، وهو جواب قسم محذوف . ﴿ في الْحُطَمة ﴾ نار جهنم ، سميت لذلك ؛ لأنها تحطم كل ماألقي فيها ، من الْحَطْم : وهو الكسر . ﴿ الموقدة ﴾ المسعَّرة . ﴿ تطّلع على الأفئدة ﴾ تعلو أوساط القلوب ، وتحيط بها ، وخصت الأفئدة بالذكر ؛ لأنها محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال الفاسدة القبيحة . ﴿ مؤصدة ﴾ مطبقة مغلقة عليهم ، من أوصدت الباب : إذا أغلقته . ﴿ في عمد ممددة ﴾ في أعمدة طويلة ، فتكون النار داخل العَمَد ، جمع عمود .

التفسير والبيان :

﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أي خزي وعذاب شديد لكل من يغتاب الناس ويطعن بهم ، أو يعيبهم في حضورهم ، قال مقاتل : إن الهمزة : الذي يغتاب بالغيبة ، واللمزة : الذي يغتاب في الوجه . وقال ابن عباس : ﴿ همزة لمزة ﴾ طعان معياب .

ثم ذكر أوصافاً أخرى له :

﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ أي أن ذلك الهمزة اللمزة الذي يزدري الناس ويحتقرهم ويترفع عليهم بسبب إعجابه بما جمع من المال وأحصاه ، وظن أن له به الفضل على غيره ، كقوله تعالى : ﴿ جَمَعَ فأَوْعى ﴾ [المعارج ١٨/٧٠] .

﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ أي يظن أن ماله يضمن له الخلود ويتركه حيّاً مخلداً لا يموت ؛ لشدة إعجابه بما يجمعه من المال ، فلا يعود يفكر بما بعد الموت .

ثم ردّ الله عليه أوهامه وزجره على مزاعمه ، فقال :

﴿ كلا ، لينبذَن في الحطمة ﴾ أي زجراً له وردعاً ، فليس الأمر كما زعم ولا كما حسب ، بل ليلقين ويطرحن هذا الذي جمع ماله هو وماله في النار التي تحطم أو تهشم كل ما يلقى فيها .

ثم هوّل عليه شأن النار وعرفها له ، فقال :

﴿ وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ﴾ أي وما أعلمك ما هذه النار ، وأي شيء هي ؟ فكأنها لا تدركها العقول ، هي نار الله الموقدة المستعرة بأمر الله سبحانه ، التي لا تخمد أبداً .

وفائدة وصف جهنم بالحطمة مناسبتها لحال المتكبر المتجبر بماله ، المترفع على غيره ، فهي تكسر كسراً كل ما يلقى فيها ، لا تبقي ولا تذر .

وإضافة ﴿ نار الله ﴾ للتفخيم ، أي هي نار ، لا كسائر النيران .

ثم وصف النار بأوصاف ثلاثة هي :

﴿ التي تطّلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عمد ممددة ﴾ أي التي تعلو القلوب وتغشاها بحرها الشديد ، وتحرقهم وهم أحياء . والقلوب أشد أجزاء البدن تألماً ، وخصت بالذكر لأنها محل العقائد الزائغة ، والنيات الخبيثة ، وسوء الأخلاق من الكبر واحتقار الناس ، والأعمال القبيحة .

وهي عليهم مطبقة ، مغلقة عليهم أبوابها جميعاً ، فلا منافذ ، ولا يستطيعون الخروج منها ، كما قال تعالى : ﴿ عليهم نارٌ مؤصدة ﴾ [البلد ٢٠/٩٠] ، وقال سبحانه : ﴿ كلما أرادُوا أن يَخْرجُوا منها من غمٍّ ، أُعِيدُوا فيها .. ﴾ [الحج ٢٢/٢٢] .

وهي أيضاً كائنة في أعمدة ممددة طويلة موثّقة . قال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدّت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم رَوْح .

والآية تفيد المبالغة في العذاب بقوله : ﴿ لينبذنّ ﴾ أي أنه موضع له قعر عميق جداً كالبئر ، وأن أبوابها لاتفتح ليزيد في حسرتهم ، وتغلق إغلاقاً محكماً للتيئيس من الخروج منها ، وممددة في أعمدة دائمة اللهب ، فلا أمل في إطفائها أو تخفيف شدة حرارتها .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الخزي والعذاب والهَلَكة لكلّ مغتاب عيّاب طعّان للناس . قال النّبي ﷺ : « شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب »[1] .

٢ ـ كأن سبب الهمز واللمز والترفع على الناس وازدرائهم هو المال وطول الأمل ، لأن الغنى يورث الإعجاب والكبر ، وعدّ المال من غير ضرورة دليل على المتعة النفسية والزخرفة الدنية ، والانشغال عن السعادة الباقية ، ولأن المال يطول الأمل ، ويمنّي بالأماني البعيدة ، حتى أصبح لفرط غفلة صاحب المال يحسب أن ماله يتركه خالداً في الدنيا .

٣ ـ ردع الله تعالى عن كل هذه المزاعم والتحسبات ، فالمال لا يرفع القدر ، ولا يقتضي الطعن بالآخرين ، وليس المال كما يظن مخلّداً في الدنيا ، بل المخلّد هو العلم والعمل ، كما قال علي رضي الله عنه : مات خُزّان المال ، وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٨١/٢٠

٤ ـ حدد الله تعالى عقاب الهمزة اللمزة جامع المال حبّاً فيه لذاته ، وهو الطرح أو الإلقاء في نار جهنم التي تحطم كل ما يلقى فيها ، وهي نار الله الموقدة غير الخامدة ، التي أعدها الله للعصاة ، والتي تأكل جميع ما في الأجساد ، حتى تبلغ الفؤاد ، ثم يخلقون خلقاً جديداً ، فترجع تأكلهم .

وهي مغلقة الأبواب ، مطبقة عليهم ، حال كونهم موثقين بأعمدة ، وهي في أعمدة طوال تلتف بهم من كل جانب .

روى خالد بن أبي عمران عن النّبي ﷺ : [أن النار تأكل أهلها ، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم ـ أي تعلوها وتغلبها ـ انتهت ، ثم إذا صَدَروا تعود ، فذلك قوله تعالى : ﴿ نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة ﴾] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفيل

مكيّة ، وهي خمس آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ الفيل ﴾ لافتتاحها بالتذكير بقصة أصحاب الفيل : ﴿ ألم ترَ كيف فعل ربُّكَ بأصحاب الفيل ﴾ ؟ أي ألم تعلم علم اليقين ماذا صنع ربّك العظيم القدير بأبرهة الحبشي قائد اليمن وأتباعه الذين أرادوا هدم البيت الحرام ؟!

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مناسبتها لما قبلها :

ذكر الله تعالى في السورة السابقة ﴿ الْهُمَزَة ﴾ حال الهمزة اللمزة الذي جمع مالاً ، وتعزز بماله ، وأفاد تعالى أن المال لا يغني من الله شيئاً ، ثم ذكر في هذه السورة الدليل على ذلك ، بإيراد قصة أصحاب الفيل الذين كانوا أشدّ منهم قوة ، وأكثر مالاً ، وأعظم عتواً ، وقد أهلكهم الله بأصغر الطير وأضعفه ، ولم يغن عنهم مالهم ولا عددهم ولا قوتهم شيئاً .

ماشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية مقصورة على بيان قصة أصحاب الفيل الذين اعتمدوا على قوتهم ومالهم وقدرتهم على البطش بجيش جرار لا يقهر ، ثم أبادهم الله عن بكرة أبيهم ، حينما أرادوا هدم الكعبة ، بقصف من الحجارة الربانية المعلقة بأرجل طير

صغار ، وجعلهم كعصف مأكول ، أي كبقايا الزرع بعد الحصاد الذي تأكله الماشية ، وتعصف به الريح في كل مكان .

أضواء من التاريخ على قصة أصحاب الفيل :

كان على اليمن قائد من قبل أصحمة النجاشي (ملك الحبشة) واسمه أبرهة بن الصباح الأشرم جدّ النجاشي الذي عاصر النّبي ﷺ قد بنى كنيسة عظيمة سمّاها « القُلّيس » ليصرف إليها حج العرب ، فقام رجل من كنانة وتغوط فيها ليلاً ، فأغضبه ذلك ، وأقسم ليهدمن الكعبة ، مستغلاً هذا الحادث ، ومريداً في الواقع فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام ، وتوسيع بلاد النصرانية .

فجهز جيشاً عظيماً ، مصحوباً بفيلة كثيرة قيل : اثنا عشر ، وقيل : ألف ، زيادة في الإرهاب والتخويف ، وسار حتى وصل إلى « المغمّس » موضع قرب مكة ، فأرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم الكعبة ، فاستعظموا الأمر ، وفزعوا له ، وأرادوا محاربته ، فرأوا ألا طاقة لهم بأبرهة وجنوده ، واعتصموا بالجبال ينظرون ماذا يحدث ، واثقين بأن للبيت ربّاً يحميه .

ولما اقترب الجيش من مكة أمر أبرهة بنهب أموال العرب ، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جدّ النّبي ﷺ ، فاستاقها الجند ، وكان عددها مئتي بعير ، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدّوه عن البيت ، فجاء حناطة ، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم ، وبلّغه عن أبرهة ماقال ، فقال له عبد المطلب : والله مانريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه ، فوالله ماعندنا دفع عنه ، فقال له حناطة : فاذهب معي إليه ، فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجلّه ، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر ، فنزل أبرهة عن سريره ،

وأجلسه معه على البساط ، وسأله عن حاجته ، فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي .

فتعجب أبرهة ، وقال : أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه ، لاتكلمني فيه ؟!

فقال له عبد المطلب : إني أنا ربّ الإبل ، وإن للبيت ربّاً سيمنعه عنك ، قال : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك[1] . وكان قد عرض عبد المطلب ومن معه من أشراف العرب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، وردّ أبرهة على عبد المطلب إبله ، ثم رجع وأتى باب البيت ومعه نفر من قريش ، وأخذوا بحلقة باب الكعبة يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

ثم زحف الجيش نحو البيت ودخلوا مكة ، وكان معه فيل عظيم اسمه « محمود » كلما وجهوه إلى جهة الحرم ، برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول .

وفي اليوم التالي وبينما عبد المطلب يدعو ، التفت ، فإذا هو بطير من نحو اليمن جهة البحر ، فقال : والله إنها لطير غريبة ، ما هي بنجدية ولا تهامية . وكان مع كل طائر أحجار تحملها بمناقيرها وأرجلها ، فألقتها عليهم ، لاتصيب منهم أحداً إلا هلك . وفرّ الجيش هاربين نحو اليمن ، يتساقطون في الطريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وبدأت أنامله تسقط أنملة أنملة ، ولحمه يتساقط ، حتى قدموا به « صنعاء » فمات شرّ ميتة[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٩/١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ٤٣/١ ـ ٥٧

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب ، فأعظموا قريشاً ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدو ، وازدادوا تعظيماً للبيت ، وإيماناً بمكانه عنه الله[1] .

وأراد الله بهذا الحادث تعظيم بيته ، وإعلاء شأنه ، وتهيئة أمة العرب لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله .

وكان ذلك الحدث التاريخي المهم في عام ميلاد النّبي ﷺ ، سنة ٥٧٠ م ، أي كان بين عام الفيل ومبعث النّبي ﷺ أربعون سنة . وكان قد بقي بمكة جَمْع شاهدوا تلك الواقعة ، وقد بلغت حدّ التواتر حينئذٍ ، فما ذاك إلا إرهاص للرسول ﷺ .

قصة أصحاب الفيل

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾

الإعراب :

﴿ ألم تر ﴾ معناه الإيجاب أي قد علمت : لأن همزة الاستفهام لما دخلت على ﴿ لم ﴾ وهي حرف نفي ، والاستفهام كالنفي ، اجتمع نفيان ، فلما دخل النفي على النفي ، انقلبت إيجاباً .

و﴿ كيف ﴾ : في موضع نصب بفعل بعده ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ تر ﴾ .لأن الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله ، وإنما يعمل فيه مابعده . وجملة ﴿ كيف فعل ربّك ﴾ سدت مسدّ مفعولي ﴿ ترى ﴾ لأنها من رؤية القلب بمعنى العلم ، نحو : رأيت الله غالباً . و﴿ ربّك ﴾ : فاعل ﴿ فعل ﴾ .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٧

﴿ طيراً أبابيل ﴾ إما جمع لاواحد له من لفظه كأساطير ، أو واحده « إبّيل » أو إبّول ، كعجاجيل وحدها عِجْوْل .

﴿ كعصف ﴾ في موضع نصب ، على أنه مفعول ثان لـ ﴿ جعلهم ﴾ أي صيّرهم .

البلاغة :

﴿ ألم تر كيف فعل ربّك .. ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب ، أي اعجب .

﴿ فعل ربك ﴾ إشادة بقدرة الله تعالى ، والخطاب للنبي ﷺ بقوله ﴿ ربّك ﴾ تشريف له .

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكرت الأداة ، وحذف وجه الشبه .

﴿ الفيل ﴾ ، ﴿ تضليل ﴾ ، ﴿ أبابيل ﴾ ، ﴿ سجيل ﴾ ، ﴿ مأكول ﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير .

المفردات اللغوية :

﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم ، والخطاب للرسول ﷺ ، وهو إن لم يشهد تلك الواقعة ، لكنه شاهد آثارها ، وسمع بالتواتر أخبارها ، فكأنه رآها ، فإنها من الإرهاصات ؛ لأنها وقعت في السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ . ﴿ أصحاب الفيل ﴾ أصحاب الفيل العظيم الذي كان اسمه « محمود » . وهم أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي ، وجيشه الذين أرادوا هدم الكعبة لصرف الحجاج العرب عن مكة إلى كنيسة بناها أبرهة بصنعاء ، وسماها « القُلَّيس » . فحين توجهوا لهدم الكعبة ، أرسل الله عليهم ماقصه في هذه السورة .

﴿ ألم يجعل ﴾ أي جعل . ﴿ كيدهم ﴾ مكرهم وتدبيرهم بتخريب الكعبة وتعطيلها . ﴿ في تضليل ﴾ تضييع وإبطال وهلاك وخسارة . ﴿ طيراً ﴾ ماطار في الهواء ، صغيراً أو كبيراً . ﴿ أبابيل ﴾ جماعات متفرقة . ﴿ سجّيل ﴾ طين متحجر . ﴿ كعصف مأكول ﴾ كورق زرع يبقى بعد الحصاد ، أكلته الدواب وداسته وأفنته ، أو كتبن أكلته الدواب وراثته .

التفسير والبيان :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ ألم تعلم علم اليقين ، وكأنك شاهدت الواقعة ، بما صنع ربّك العظيم القدير بأصحاب الفيل ، حيث دمرهم الله ، وحمى بيته الحرام ، أفلا يجدر بقومك أن يؤمنوا بالله ؟! وقد شاهد أناس

منهم الواقعة ، حيث أقبل قوم من النصارى الأحباش الذين ملكوا اليمن ، إلى الحجاز ، يريدون تخريب الكعبة ، فلما قربوا من مكة ، وأرادوا دخولها ، أرسل الله عليهم جماعات من الطيور محمّلة بحجارة ، ألقوها عليهم ، فأهلكتهم .

﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ أي أفسد خطتهم ومؤامرتهم ، والمعنى : ألم تر أن ربك جعل مكرهم وتدبيرهم وسعيهم في تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها ، في تضليل عما قصدوا إليه ، وفي ضياع وإبطال ، حتى لم يصلوا إلى البيت ، ولا إلى ماأرادوا بكيدهم ، بل أهلكهم الله تعالى . والكيد : هو إرادة مضرة بالغير على الخفية .

وإذا علم قومك هذا الأمر ، فليخافوا أن يعاقبهم الله بعقوبة مماثلة ، ماداموا يصرون على الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكتابه الكريم ، ويصدون الناس عن سبيل الإيمان الحق بالله عزّ وجلّ .

﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ أي وبعث الله عليهم جماعات متفرقة من الطيور السود ، جاءت من قِبَل البحر فوجاً فوجاً ، مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، لا يصيب شيئاً إلا دمره وهشمه .

وهي حجارة صغيرة من طين متحجر ، كالحمصة وفوق العدسة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدري أو الحصبة ، حتى هلكوا .

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أي فجعلهم فضلات وبقايا مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب ، ثم راثته ، فأهلكهم جميعاً .

أخرج البخاري أنه : « لما أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها ، فألحت ، فقالوا : خلأت

القصواء ، أي حرنت ، فقال رسول الله ﷺ : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها ، ثم زجرها ، فقامت » .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبَس عن مكة الفيل ، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فيبلّغ الشاهد الغائب » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ هذا الخطاب ، وإن كان للنبي ﷺ ، ولكنه عام ، أي ألم تروا ما فعلتُ بأصحاب الفيل ؟ أي قد رأيتم ذلك ، وعرفتم موضع منتي عليكم ، فما لكم لا تؤمنون ؟!

٢ ـ دلت الواقعة على قدرة الله الصانع وعلمه وحكمته ، وعلى شرف محمد ﷺ ؛ لأنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة ، تأسيساً لنبوتهم ، وإرهاصاً لها ، ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله[1] . قال أبو حيان : كان صرف ذلك العدوّ العظيم عام مولده السعيد ﷺ إرهاصاً بنبوته ؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات ، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد ضلل (أحبط) كيدهم ، وأهلكهم بأضعف جنوده ، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[2] .

٣ ـ دلت القصة أيضاً على تكريم الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع

---

(١) تفسير الرازي : ٩٧/٣٢

(٢) البحر المحيط : ٥١٢/٨

العدو عنهم ، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ ، وعبادة الله ، وشكره على نعمائه .

٤ ـ كان إرسال الطير عليهم إرهاصاً للنبي ﷺ ، وأما بعد تقرير نبوته فلم يكن هناك حاجة إلى الإرهاص ، لذا لم يعذب الحَجّاج بتخريب البيت ، ولأنه لم يكن قاصداً التخريب ، وإنما أراد شيئاً آخر ، وهو قتل ابن الزبير .

٥ ـ شبه تدميرهم وإهلاكهم وصيرورتهم بعد قصف الطير بالحجارة بصورة قبيحة حقيرة ، تدل على حقارة كفرهم ، وصغار نفوسهم ، وهوانهم على الله ، وتلك الصورة ورق يابس أو تبن تعصف به الريح ، أكلته الدواب وراثته ، أي كفضلات البهائم ، وذلك يدل أيضاً على فنائهم التام ؛ لأنه أراد تشبيه تقطيع أوصالهم بتفريق أجزاء الروث .

إلا أن هذا التشبيه جاء على منهج القرآن في أدبه الرفيع ، مثل قوله تعالى في تشبيه عيسى وأمه : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة ٥/٧٥] .

وإنما سلط الله العذاب على أصحاب الفيل ، ولم يسلطه على كفار قريش الذين ملؤوا الكعبة أوثاناً ؛ لأن أصحاب الفيل قصدوا التخريب ، وهذا تعدٍ على حق العباد ، ووضع الأوثان فيها قصدوا به التقرب إلى الله ، وهو مع ذلك تعدٍّ على حق الله تعالى ، وحق العباد مقدَّم على حق الله تعالى .

٦ ـ قال ابن مسعود : لما رمت الطير بالحجارة ، بعث الله ريحاً ، فضربت الحجارة فزادتها شدّة ، فكانت لاتقع على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِنْدة ، فقال :

فإنكِ لو رأيتِ ولم تَريهِ ... لدى جنب المُغَمَّس ما لَقِينا
خشيت الله إذ قد بث طيراً ... وظِلٌّ سحابة مرّت علينا
وباتت كلُّها تدعو بحق ... كأن لها على الحَبْشان دَيْنا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم ، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدم في القصة التاريخية أن أميرهم أبرهة رجع وشِرْذمة قليلة معه ، فلما أُخْبِرُوا بما رأوا هلكوا . وذلك للعبرة والعظة .

٧ ـ قال ابن إسحاق : لما ردّ الله الحبشة عن مكة ، عَظُمت العرب قريشاً وقالوا : أهْلُ الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش

مكيّة ، وهي أربع آيات .

تسميتها :

سميت سورة قريش تذكيراً لهم بنعم الله عليهم في مطلع السورة : ﴿ لإيلاف قريش .. ﴾ .

مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين :

١ ـ كلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة ، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم ، وهذه السورة تذكّر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية ، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة ، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار والإمساك بزمام الاقتصاد التجاري في الحجاز ، بالقيام برحلتين صيفاً إلى الشام وشتاء إلى اليمن .

٢ ـ هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور في أولها بآخر السورة المتقدمة : ﴿ لإيلاف قريش .. ﴾ أي لإلف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل ، لتبقى قريش ، ولذا كانتا في مصحف أُبيّ سورة واحدة . ولكن في المصحف الإمام فُصلت هذه السورة عن التي قبلها ، وكتب بينهما : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية تعداد نعم الله العظمى على قريش أهل مكة ، حيث جمع الله كلمتهم ، وحقق الألفة والتئام الشمل بينهم : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ومكّنهم من التنقل وحرية التجارة إلى اليمن شتاء ، وإلى الشام صيفاً ، لتوفير الثروة والغنى : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ .

وهيّأ لهم في البلد الآمن الحرام نعمة الأمن والاطمئنان والاستقرار دون نزاع من أحد : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ﴾ .

فضلها :

روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب : أن رسول الله ﷺ قال : « فضّل الله قريشاً بسبع خلال : أني منهم ، وأن النبوة فيهم ، والحجابة والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ » . قال ابن كثير : وهو حديث غريب .

التذكير بنعم الله على قريش

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟

رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤

الإعراب :

﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ اللام في « إيلاف » إما متعلقة بفعل مقدر ، تقديره : اعجبوا لإيلاف قريش ، أو متعلقة بقوله : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أي لأجل هذا ، أو متعلقة بقوله تعالى : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ آخر سورة الفيل . و ﴿ إيلافهم ﴾ : مجرور على البدل من « إيلاف » الأولى ، و « إيلاف » مصدر رباعي ، وهو آلف يؤلف إيلافاً . وقرئ « إلافهم » على أنه مصدر فعل ثلاثي ، وهو (ألف يألف إلافاً) . و ﴿ قريش ﴾ إن أردت به الحي صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه .

و ﴿ رحلة ﴾ منصوب ؛ لأنه معمول المصدر المضاف وهو إيلافهم ، مثل ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ ﴾ [البقرة ٢٥١/٢] [الحج ٤٠/٢٢] .

البلاغة :

﴿ الشتاء والصيف ﴾ بينهما طباق ، وكذلك بين ﴿ جوع ﴾ و ﴿ خوف ﴾ .

﴿ رب هذا البيت ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف .

﴿ لإيلاف قريش ﴾ وقوله : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ تقديم ما حقه التأخير ، والأصل : ليعبدوا ربّ هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فقدم الإيلاف تذكيراً بالنعمة .

﴿ جوع ﴾ ﴿ خوف ﴾ التنكير لبيان شدتها ، أي جوع وخوف شديدين .

المفردات اللغوية :

﴿ لإيلاف قريش ﴾ يقال : آلف الشيء إيلافاً ، وألف إلافاً وإلفاً ، أي لزمه وعكف عليه ، مع الأنس به وعدم النفور منه ، قال الزمخشري : متعلق بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء على ﴿ فليعبدوا ﴾ لما في الكلام من معنى الشرط ؛ إذ المعنى : أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لأجله . و ﴿ قريش ﴾ مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة . منقول من تصغير قرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، شبهوا بها ؛ لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم . وقال أبو حيان : سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق ، جمعهم قصي بن كلاب في الحرم ، والتقريش : التجمع والالتئام .

﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء ، وإلى الشام في الصيف كل عام ، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة ، لخدمة البيت الذي هو فخرهم

ومجدهم . والرحلة : ارتحال القوم ، بشد الرحال للمسير . ﴿ البيت ﴾ الكعبة . ﴿ أطعمهم ﴾ وسّع لهم في الرزق . ﴿ من جوع ﴾ ﴿ من خوف ﴾ أي من أجل جوع وخوف . ﴿ وآمنهم ﴾ جعلهم في أمن وسلامة في الأموال والأنفس . ﴿ من خوف ﴾ خوف أصحاب الفيل ، أو التخطف في بلدهم ومسايرهم . وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكة ، وخافوا جيش الفيل .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : قال رسول الله ﷺ : « فضّل الله قريشاً بسبع خصال » الحديث المتقدم ، وفيه : نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ .

التفسير والبيان :

﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أي فلتعبد قريش ربها ، شكراً له ، لأجل إيلافهم (أي جعلهم يألفون ، ويسّر لهم ذلك) رحلتين : رحلة إلى اليمن شتاء لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج ، وكونها في الشتاء ؛ لأنها بلاد حارّة ، ورحلة إلى الشام في الصيف ، لجلب الحبوب الزراعية ، وكونها في الصيف ؛ لأنها بلاد باردة ، وكانت قريش في مكة تعيش بالتجارة ، ولولا هاتان الرحلتان لم يتمكنوا من المقام بها ، ولولا الأمن بجوار البيت ، لم يقدروا على التصرف ، وكانوا لا يُغار عليهم ؛ لأن العرب يقولون : قريش أهل بيت الله عز وجل . وكل هذا الاحترام والإجلال لقريش أهل مكة من الله عز وجل الذي هيأه لهم بواسطة البيت الحرام ، فكان عليهم الإقرار بهذه النعمة ، وإفراد الله بالعبادة والتعظيم .

وصرح محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن هذه السورة متعلقة

بما قبلها ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل ، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش ، أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين .

وعلى كل حال فهاتان نعمتان : نعمة صد أصحاب الفيل ، ونعمة جوار البيت الحرام والائتلاف فيه ، فإن لم يعبدوا الله لسائر نعمه ، فليعبدوه لهاتين النعمتين . وقد عرّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت ، بالرغم من أوثانهم التي يعبدونها حول الكعبة ، فميّز نفسه عنها ، وبالبيت تشرفوا على سائر العرب ، وهم يدركون هذا ويقرّون به . وكانت الإشارة إلى البيت في السورة لإفادة التعظيم .

قال الرازي رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ : اعلم أن الإنعام على قسمين : أحدهما ـ دفع الضرر ، والثاني ـ جلب النفع ، والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع ، فإنه غير واجب ، فلهذا السبب بيّن الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ، ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ونظراً لهاتين النعمتين العظيمتين أمرهم ربهم بعبادته والعبودية له وأداء الشكر على ذلك : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾[1] .

والعبادة : هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون ، وهي تحقق معنى العبودية .

ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على قريش ، وصف بها رب هذا البيت ، فقال :

ـ ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي هو ربّ البيت ، وهو الذي أطعمهم من جوع ووسّع لهم في الرزق ويسّر لهم سبيله ، بسبب هاتين الرحلتين ، فخلّصهم من جوع شديد كانوا فيه قبلها .

---

(١) تفسير الرازي : ١٠٧/٣٢

ـ ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي وتفضل عليهم بالأمن والاستقرار ، فليفردوه بالعبادة وحده لاشريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً ، قال ابن كثير : ولهذا من استجاب لهذا الأمر ، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً ، يأتيها رزقُها رَغَداً من كل مكانٍ ، فكفرت بأنعُمِ الله ، فأذاقها الله لِباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنَعُون . ولقد جاءهم رسولٌ منهم ، فكذّبوه ، فأخذَهم العذابُ وهم ظالمون ﴾ [النحل ١١٢/١٦ ـ ١١٣] [1] .

وكانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضها بعضاً ، فأمنت قريش كما تقدم من ذلك لمكان الحرم ، كما آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أنا جَعَلْنا حَرَماً آمناً ، ويُتخَطَّفُ الناسُ من حولهم ﴾ ؟ [العنكبوت ٦٧/٢٩] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أمر الله تعالى في هذه السورة قريشاً وهم أولاد النضر بن كنانة بعبادة وتوحيد ربهم الذي أنعم عليهم بهذه النعم الكثيرة ومنها :

١ ـ إهلاك أصحاب الفيل وصدهم عن مكة ، كما أهلكوا أيضاً لأجل كفرهم ، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله وحمايته ، وتوفير أيضاً للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام .

٢ ـ نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية بسبب ارتحالهم إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب ، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم ؛ لأنهم أهل بيت الله وجيرانه .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٥٥٣/٤

٣ ـ نعمة الأمن من المخاوف ، سواء في داخل مكة حيث جعل الله لهم مكة بلداً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم ، أو في خارجها عندما يتنقلون للتجارة والكسب . والكسب .

٤ ـ نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب ، وأساس مجدهم وعزهم ، فإنهم شرّفوا بالبيت على سائر العرب ، فذكّرهم الله بهذه النعمة .

والخلاصة : إن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة وهي إيلافهم رحلتين .

روى ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن أم سلمة الأنصارية ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويل لكم قريش : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ » . وروى عنها أيضاً : قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع ، وآمنكم من خوف » .

واستدل الإمام مالك بالسورة على أن الزمان قسمان : شتاء وصيف ، ولم يجعل لهما ثالثاً ، فالشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها .

واستدل العلماء بهذا أيضاً على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين ، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر ، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف ، وفي القبلي في الشتاء ، وفي اتخاذ أدوات التبريد صيفاً ، ووسائل الدفء شتاء .
شتاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون

مكيّة ، وهي سبع آيات .

مكيتها أو مدنيتها :

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، وقال هبة الله المفسر الضرير : نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل ، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تسميتها :

سميت سورة الماعون ، لأن الله تعالى ذم في نهايتها المدنية الذين يمنعون الماعون : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ [٧] كالساهين عن الصلاة ، والمنافقين . والماعون : ما يستعيره الجار من جاره من أدوات الطبخ ، كالقدر والملح والماء ، وآلات الحراثة والزرع ، كالفأس والدلو ، ووسائل الخياطة كالإبرة والخيط ونحو ذلك من كل ما يستعان وينتفع به من المنافع السريعة . وتسمى أيضاً سورة الدّين للنعي في مطلعها المكي على الذي يكذب بالدّين ، أي الجزاء الأخروي .

مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١ ـ ذم الله في السورة السابقة ﴿ سورة قريش ﴾ الجاحدين لنعمة الله

الـذين ﴿ أطعمهم من جـوع ﴾ وذم في هـذه السـورة من لم يحضّ على طعـام المسكين .

٢ ـ أمر الله في السورة المتقدمة بعبادته وحـده وتوحيـده : ﴿ فليعبـدوا ربّ هـذا البيت ﴾ وذم في هـذه السورة الـذين هم عن صلاتهم سـاهون ، وينهـون عن الصلاة .

٣ ـ عـدّد الله تعـالى في السـورة الأولى نعمـه على قريش ، وهم مـع ذلـك ينكرون البعث ، ويجحدون الجزاء في الآخرة ، وأتبعه هنـا بتهـديـدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدّين ، أي الجزاء الأخروي .

ما اشتملت عليه السورة :

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر ، وفي نهـايتهـا المـدنيـة عن المنافق .

أما مطلعها فهو في ذمّ الكافر المكذب بيوم الحساب والجزاء : ﴿ أرأيتَ الذي يكـذّب بـالـدين ﴾ ووصفتـه بصفتين : الأولى ـ انتهـاره وزجره وطرده اليتيم ، والثانية ـ عدم الحض أو الحث على إطعام المسكين ، فلم يحسن في عبـادة ربـه ، ولم يفعل الخير لغيره .

وأما خاتمتها فهي في ذم المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر ، ووصفتـه بصفات ثلاث : الأولى ـ الغفلة عن الصلاة ، والثـانيـة ـ مراءاتـه النـاس بعملـه ، والثالثة ـ منعه الماعون الذي يستعـان وينتفع بـه بين الجيران ، فهو لا يعمل لله ، بل يرائي في عمله وصلاته .

وتـوعـدت الفريقين بـالخـزي والعـذاب والهـلاك ، ولفتت الأنظـار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب والتعجيب من صنيعهم .

الكافر المنكر الجزاء الأخروي والمنافق المرائي بعمله وعقاب كلٍ منهما

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

الإعراب :

﴿ أرأيت ﴾ بالهمزة على الأصل ، وهو في الأظهر عند ابن الأنباري من رؤية العين ، لا من رؤية القلب ، فيتعدى إلى مفعول واحد ، وليس في الآية إلا مفعول واحد . وقرئ ﴿ أرأيت ﴾ بتخفيف الهمزة ، بجعلها بين الهمزة والألف ؛ لأن حركتها الفتح . وقرئ ﴿ رأيت ﴾ بحذف الهمزة الأولى للتخفيف ، كما حذف في المضارع ، نحو « يرى » . وقال أبو حيان : الظاهر أن ﴿ أرأيت ﴾ هنا هي التي بمعنى أخبرني ، فتتعدى لاثنين ، أحدهما ﴿ الذي ﴾ والآخر محذوف تقديره : أليس مستحقاً عذاب الله ؟ أو : من هو ؟

﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ﴿ فويل ﴾ مبتدأ : و ﴿ للمصلين ﴾ خبره ، و ﴿ الذين ﴾ صفة الخبر ، و ﴿ هم عن صلاتهم ساهون ﴾ صلته . ولم تحصل الفائدة بالخبر ، بل بما وقع صلة الصفة ، وهو قوله ﴿ ساهون ﴾ وهذا يسمى الخبر الموطئ : وهو أن معتمد الفائدة إنما كان بصفة الخبر ، لا بالخبر . مثل قوله تعالى :﴿ بل أنتم قوم ، تجهلون ﴾ [النمل ٢٧/٥٥] فإن قوله : ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ ، و ﴿ قوم ﴾ خبره ، ومعتمد الفائدة على صفة الخبر ، لا عليه ، لأن قوله : ﴿ بل أنتم قوم ﴾ لم تحصل به الفائدة ، للعلم بأنهم قوم ، وإنما حصلت الفائدة بقوله : ﴿ تجهلون ﴾ .

البلاغة :

﴿ أرأيت الذي يكذّب بالدين ﴾ استفهام يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه .

﴿ فذلك الذي يدعُّ اليتيم ﴾ إيجاز بالحذف ، حذف منه الشرط ، أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم .

﴿ فويل للمصلين ﴾ ذم وتوبيخ ، ووضع الظاهر موضع الضمير ، والأصل ﴿ فويل لهم ﴾ زيادة في التقبيح ؛ لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ جناس ناقص .

﴿ ساهون ﴾ ﴿ يراءون ﴾ ﴿ الماعون ﴾ : توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وكذلك ﴿ بالدين ﴾ ﴿ المسكين ﴾ ﴿ للمصلين ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ أرأيت ﴾ أي هل عرفت وعلمت ؟ وهو استفهام معناه التعجب وتشويق السامع إلى معرفة مايذكر بعده . ﴿ بالدِّين ﴾ بالجزاء والحساب . والمعنى العام للدين : هو النظام الإلهي للحياة المشتمل على الخضوع لما وراء المحسوس بآثار الكون الدالة على وجود الله ووحدانيته ، وبعثة الرسل ، والتصديق بعالم الآخرة . ﴿ يدعُّ اليتيم ﴾ أي يدفعه بعنف عن حقه ، ويزجره زجراً عنيفاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ يومَ يُدَعُّون إلى نارِ جهنمَ دَعّاً ﴾ [الطور ١٣/٥٢] .

﴿ ولا يحض ﴾ لايحث نفسه وأهله وغيرهم من الناس . ﴿ على طعام مسكين ﴾ إطعام . ﴿ فويل ﴾ خزي وعذاب وهلاك . ﴿ ساهون ﴾ غافلون عن الصلاة ، يؤخرونها عن وقتها . ﴿ يراءون ﴾ في الصلاة وغيرها ، يُرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها ، والرياء : المصانعة وفعل الشيء لغير وجه الله ، إرضاء للناس . ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ كل مايستعان وينتفع به كالإبرة والفأس والقِدْر والقصعة .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

﴿ أرأيت ﴾ قال ابن عباس : نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي وقال السُّدّي : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل : في أبي جهل ، كان وصياً ليتيم ، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه ، فدفعه . وقال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً ، فطلب منه يتيم شيئاً ، فَقَرَعه بعصاه ؛ فأنزل الله هذه السورة .

نزول الآية (٤) :

﴿ فويل للمصلين ﴾ : أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فويل للمصلين ﴾ قال : نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارِيّة ، أي الشيء المستعار .

التفسير والبيان :

﴿ أرأيت الذي يكذب بالدّين ﴾ أي أأبصرت يا محمد الذي يكذب بالحساب والجزاء ؟ أو بالمعاد والجزاء والثواب . وقوله : ﴿ أرأيت ﴾ وإن كان في صورة استفهام ، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب . وهذا مثال آخر لكون الإنسان في خسر .

﴿ فذلك الذي يدعُّ اليتيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾ أي هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً ، ويزجره زجراً عنيفاً ، ويظلمه حقه ولا يحسن إليه ، وقد كان عرب الجاهلية لا يورّثون النساء والصبيان .

ولا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على إطعام المسكين المحتاج ، بخلاً بالمال ، كما قال تعالى : ﴿ كلاّ بَلْ لاتُكْرِمون اليتيمَ ، ولا تحَاضُّون على طعام المسكينِ ﴾ [الفجر ١٧/٨٩ ـ ١٨] أي الفقير الذي لا يملك شيئاً ، أو لا يجد كفايته .

﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أي فخزي وعذاب للمنافقين الذي يؤدون الصلاة أحياناً تظاهراً ، والذين هم غافلون عنها ، غير مبالين بها ، لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا .

ولم يقل : في صلاتهم ساهون ؛ لأن السهو في أثناء الصلاة مغتفر معفو عنه لأنه غير اختياري ، وإنما قال : عن صلاتهم ساهون بتأخيرها عن وقتها رأساً ، أو فعلها مع قلة مبالاة بها ، كقوله : ﴿ وإذا قامُوا إلى الصلاةِ قاموا كُسَالى ،

يُراؤون الناسَ ﴾ [النساء ١٤٢/٤] . ويجوز أن يطلق لفظ « المصلين » على تاركي الصلاة ، بناء على أنهم من جملة المكلفين بالصلاة .

﴿ الذين هم يراؤون ﴾ أي إن أولئك الساهين عن صلاتهم هم الذين يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراؤون الناس بكل ماعملوا من أعمال البر ، ليثنوا عليهم . قال الزمخشري : المراءاة : هي مفاعلة من الإراءة ؛ لأن المرائي يُري الناس عمله ، وهم يُرونه الثناء عليه ، والإعجاب به .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سمّع الناس بعمله ، سمّع الله به سامعَ خَلْقه ، وحقّره ، وصغّره » .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أي يمنعون العارية وفعل الخير ، و ﴿ الماعون ﴾ اسم لكل ما يتعاوره الناس بينهم ، من الدَّلْو والفأس والقَدُوم والقِدْر ومتاع البيت ، وما لا يمنع عادة ، كالماء والملح ، مما ينسب مانعه إلى الخسة ولؤم الطبع وسوء الخُلُق .

فهؤلاء المنافقون لاأحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خَلْقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى .

روى النسائي وغيره عن عبد الله بن مسعود قال : كل معروف صدقة ، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدَّلْو والقِدْر .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

أ ـ ذم المكذب بالجزاء والحساب في الآخرة ، واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية .

٢ ـ من صفات المكذب بالجزاء الأخروي وقبائحه : زجر اليتيم وطرده ودفعه عن حقه وظلمه وقهره ، وترك الخير وعدم الحث أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين ، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء . وليس الذم عاماً ، حتى يتناول من تركه عجزاً ، ولكنهم كانوا يبخلون مع الغنى ، ويعتذرون لأنفسهم .

٣ ـ الويل ، أي العذاب والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور : أحدها ـ السهو عن الصلاة ، وثانيها ـ فعل المراءاة ، وثالثها ـ منع الماعون .

وقد جمع المنافقون الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال .

والسهو عن الصلاة : تركها رأساً ، أو فعلها مع قلة المبالاة بها كما تقدم .

أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري ، فلا يدخل تحت التكليف . وقد ثبت أنه ﷺ سها في الصلاة ، وشرع سجود السهو لمن سها . وكذلك سها الصحابة .

وحقيقة الرياء : طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة في قلوب الناس ، وللرياء أنواع ، وأولها : تحسين السَّمْت (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس . وثانيها : لبس الثياب القصار أو الخشنة ، ليأخذ بذلك هيبة الزهد في الدنيا . وثالثها : الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا ، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة .

ورابعها : إظهار الصلاة والصدقة ، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له[1] .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ١٩٧٢/٤ ، تفسير القرطبي : ٢١٢/٢٠ ـ ٢١٣

والفرق بين المنافق والمرائي : أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر ، والمرائي : المظهر ماليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين[١] .

وقال العلماء : لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء ، أو نفي التهمة . واجتناب الرياء صعب إلا على من راض نفسه ، وحملها على الإخلاص . ومن هنا قال رسول الله ﷺ : « الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء ، في الليلة المظلمة ، على المِسْح الأسود »[٢] أي البلاس المصنوع من الشعر .

والماعون عند أكثر المفسرين : اسم جامع لما لا يمنع في العادة ، ويسأله الفقير والغني في أغلب الأحوال ، ولا ينسب سائله إلى لؤم ، بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل ، كالفأس والقِدْر والدَّلْو والمقدحة والغربال والقدوم ، ويدخل فيه الماء والملح والنار ، لما روى ابن ماجه عن أبي هريرة : « ثلاثة لا يمنعن : الماء والنار والملح » . ومن ذلك أن يلتمس جارك الخبز من تنّورك ، أو أن يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم[٣] . وقيل : منع الماعون : منع زكاة أموالهم .

وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين ، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام ، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ ، كالصلاة إذا تركها ، ومنع الماعون إذا تعين ، ويكون منعاً قبيحاً مخلاً بالمروءة في غير حال الضرورة .

٤ ـ في الآيتين حول السهو عن الصلاة ومنع الماعون إشارة إلى أن الصلاة لله عز وجل ، والماعون للخلق أو للناس ، فمن ترك الصلاة لم يراع جانب تعظيم أمر الله ، ومن منع الماعون لم يراع جانب الشفقة على خلق الله ، وهذا كمال الشقاوة ، نعوذ بالله منها .

---

(١) تفسير الرازي : ١١٥/٣٢

(٢) تفسير الكشاف : ٣٦٢/٣

(٣) غرائب القرآن : ١٩١/٣٠

والخلاصة : وصف الله الكفار والمنافقين في هذه السورة بأربع صفات : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة والخير .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر

مكيّة ، وهي ثلاث آيات .

مكيتها أو مدنيتها :

هذه السورة مكية في المشهور وقول الجمهور ، وقال الحسن وعكرمة وقتادة : مدنية ، وهو رأي ابن كثير .

تسميتها :

سميت سورة الكوثر لافتتاحها بقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أي الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة ، ومنه : نهر الكوثر في الجنة .

مناسبتها لما قبلها :

وصف الله الكفار والمنافقين الذين يكذبون بالدين أي بالجزاء الأخروي بأربع صفات : البخل في قوله : ﴿ يدعُّ اليتيم ، ولا يحضُّ على طعام المسكين ﴾ وترك الصلاة في قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ . والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله : ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ ومنع الخير والزكاة في قوله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

وذكر الله تعالى في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعاً للنبي ﷺ ، فذكر أنه أعطاه الكوثر في مقابلة البخل في قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أي الخير الكثير الدائم ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وأمره بالمواظبة على الصلاة : ﴿ فصل ﴾ أي دُمْ على الصلاة في مقابلة ترك الصلاة ، وأمره

بالإخلاص في الصلاة في قوله : ﴿ فصل لربك ﴾ أي لرضا ربك ، لالمراءاة الناس ، في مقابلة المراءاة في الصلاة ، وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء ، في مقابلة منع الماعون[1] .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية الحديث عن مقاصد ثلاثة هي :

١ ـ بيان فضل الله الكريم وامتنانه على نبيه الرحيم بإعطائه الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومنه نهر الكوثر في الجنة .

٢ ـ أمر النبي وكذا أمته بالمواظبة على الصلاة ، والإخلاص فيها ، ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى .

٣ ـ بشارة الرسول ﷺ بنصره على أعدائه ، وبخزيهم وإذلالهم وحقارتهم ، بسبب انقطاعهم عن كل خير في الدنيا والآخرة .

فضلها :

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لِمَ ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه أنزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ، فقال : أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وأخرج مسلم ـ واللفظ له ـ وأبو داود والنسائي عن أنس قال : « بينا

---

(١) تفسير الرازي : ١١٧/٣٢

رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسماً ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أنزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر ﴾ ثم قال : أتدرون ماالكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم في السماء ، فيُخْتَلَجُ[1] العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتي ، فيقول : إنك لاتدري ماأحدث بعدك » .

سبب نزول السورة :

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه ، يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة ! قال : أنتم خير منه ، فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال : لما أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش : بتر محمد منا ، فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدّي قال : كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل : بتر فلان ، فلما مات ولد النبي ﷺ ، قال العاصي بن وائل : بتر محمد ، فنزلت . وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي ، وسمى الولد : القاسم ، وأخرج عن مجاهد قال : نزلت في العاصي بن وائل ، وذلك أنه قال : أنا شانئ محمد .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قالت : نزلت يوم الحديبية ، أتاه جبريل ، فقال : انحر واركع ، فقام ، وخطب

(١) أي ينتزع ويقتطع .

خطبة الفطر والنحر ، ثم ركع ركعتين ، ثم انصرف إلى البدن ، فنحرها . لكن فيه غرابة شديدة كما قال السيوطي .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : بلغني أن إبراهيم ولد النبي ﷺ لما مات ، قالت قريش : أصبح محمداً بتراً ، فغاظه ذلك ، فنزلت : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ تعزية له .

والخلاصة : كان سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي ﷺ ، واستصغار أتباعه ، والشماتة بموت أولاده الذكور ، ابنه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة ، والفرح بوقوع شدة أو محنة بالمؤمنين ، فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر ، وأتباعه هم الغالبون ، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يضعف من شأنه ، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذِكْر وسمعة ، البعيدون عن كل خير .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المنح المعطاة للنبي ﷺ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣

الإعراب :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ﴿ إنا ﴾ أصله : إننا ، فحذفت إحدى النونات استثقالاً لاجتماع الأمثال ، وذهب الأكثرون إلى أن المحذوفة هي الوسطى .

والكوثر : فوعل من الكثرة ، والواو فيه زائدة ، وهو نهر في الجنة ، وسمي كوثراً لكثرة مائه ، ورجل كوثر : كثير العطايا .

﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ و هو ﴾ إما ضمير فصل لاموضع له من الإعراب ، و ﴿ الأبتر ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ ، أو مبتدأ ، و ﴿ الأبتر ﴾ خبره ، والمبتدأ والخبر : خبر ﴿ إن ﴾ .

البلاغة :

﴿ إنا أعطيناك ﴾ ﴿ إنا ﴾ بصيغة الجمع الدالة على التعظيم . وفيه تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ؛ لأن أصلها : إن ونحن . وعبر بصيغة الماضي المفيدة للوقوع . ﴿ أعطيناك ﴾ ولم يقل : سنعطيك ، للدلالة على تحقق وقوع الوَعد مبالغة ، كأنه حدث ووقع .

﴿ الكوثر ﴾ : مبالغة .

﴿ فصل لربك ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف .

﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ إفادة الحصر .

﴿ الكوثر ﴾ ﴿ والأبتر ﴾ مطابقة أو طباق ؛ لأن ﴿ الكوثر ﴾ الخير الكثير ، و ﴿ الأبتر ﴾ المنقطع عن كل خير .

المفردات اللغوية :

﴿ إنا أعطيناك ﴾ يا محمد وقرئ (أنطيناك) ﴿ الكوثر ﴾ للفرط في كثرة الخير من العلم والعمل وشرف الدارين بالنبوة والقرآن والدين الحق والشفاعة ونحوها ، ومنه نهر في الجنة كما روي عنه ﷺ فيما رواه الإمام أحمد ومسلم ومن معهما في الحديث المتقدم عن أنس : أنه « نهر في الجنة ، وعدنيه ربي ، فيه خير كثير ، أحلى من العسل ، وأبيض من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزُبْد ، حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة ، لا يظمأ من شرب منه » وقيل : حوض في الجنة .

﴿ فصل لربك ﴾ أي داوم على الصلاة ، خالصاً لوجه الله ، شكراً لإنعامه ، وقيل : المراد صلاة عيد النحر . ﴿ وانحر ﴾ النُسُك أو الهدي أو الأضحية ، وتصدق على المحاويج (المحتاجين) . ﴿ شانئك ﴾ مبغضك . ﴿ هو الأبتر ﴾ المنقطع عن كل خير ، أو المنقطع العَقِب ، أي الذي لا عقب له ، إذ لا يبقى له نسل ، ولا حسن ذِكْر ، وأما أنت فتبقى ذرّيتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، ولك في الآخرة ما لا يوصف .

التفسير والبيان :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أي منحناك الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى النهاية أو الغاية ، ومنه نهر في الجنة ، جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته . وهذا رد على الأعداء الذين استخفوا به واستقلوه ، ووصف مناقض لما عليه أهل الكفر والنفاق من البخل .

﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك نهر الكوثر ، فداوم على صلاتك المفروضة والنافلة ، وأدّها خالصة لوجه ربك ، وانحر ذبيحتك وأضحيتك وما هو نُسُك لك وهو الهدي (شاة أو بعير مقدّم للحرم) وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لاشريك له ، فإنه هو الذي تعهدك بالتربية وأسبغ عليك نعمه دون سواه ، كما جاء في آية أخرى آمراً له : ﴿ قل : إني صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين ، لاشريكَ له ، وبذلك أُمرتُ وأنا أوّل المسلمين ﴾ [الأنعام ١٦٢/٦ - ١٦٣] .

وهذا على نقيض فعل المشركين الذين كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ، فأمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له ، وهو أيضاً نقيض فعل المنافقين المراءين .

وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد صلاة العيد ، ونحر الأضحية .

قال ابن كثير : الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا جاء في حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم : « كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه ، ويقول : من صلّى صلاتنا ، ونَسَك نُسُكَنا ، فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » فقام أبو بردة بن نيار ، فقال : يا رسول الله ، إني نسكت شاتي قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال : شاتك شاة لحم ، قال : فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين ، أفتجزئ عني ؟ قال : تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك » .

وقال ابن جرير في تفسير الآية : والصواب قول من قال : إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك ، خالصاً دون ماسواه ، من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك ، اجعله له دون الأوثان ، شكراً له على ماأعطاك من الكرامة والخير الذي لاكفاء له ، وخصك به .

﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع عن خيري الدنيا والآخرة ، والذي لا يبقى ذِكْره بعد موته . وهذا رد على ما قال بعض المشركين وهو العاص بن وائل عن النبي ﷺ لما مات ابنه عبد الله من خديجة: إنه أبتر ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير . والأبتر من الرجال : الذي لا ولد له . وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل . وهذا يعم جميع من اتصف بعداوة النبي ﷺ ممن ذكر في سبب النزول وغيرهم . قال الحسن البصري رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبتر : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله بيّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك .

ثمنه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

١ ـ أعطى الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ مناقب كثيرة ، وخيراً كثيراً عظيماً لا حد النهاية ، ومنه نهر في الجنة ، كما روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس .

وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقيل : إنه حوض النبي ﷺ في الموقف ، كما جاء في حديث مسلم المتقدم عن أنس .

وهذان القولان هما أصح الأقوال ، فيكون الكوثر شاملاً نهراً في الجنة ، وحوضاً ترد عليه أمة النبي ﷺ يوم القيامة .

٢ ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى ، دون مشاركة أحد سواه ، وأمرهم أيضاً بذبح المناسك مما يهدى إلى الحرم والأضاحي وجميع الذبائح لله تعالى ، وعلى اسم الله وحده لاشريك له .

٣ ـ إن مبغضي النبي ﷺ وما جاء به من شرع ربه هم المنقطعون عن خيري الدنيا والآخرة ، والذين لا يبقى لهم ذِكر مسموع بعد موتهم ؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة الحق ، ولم يعملوا من أجل الحق والخير المحض لله سبحانه وتعالى .

هذا .. وقد ذكر الرازي رحمه الله أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور ، وأورد ماشرف الله به نبيه محمداً ﷺ وأمته من الفضائل والمزايا والمناقب في سورة الأضحى والانشراح والتين والعلَق والقدر والبينة والزلزال والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهُمَزة والفيل وقريش ، ثم الكوثر ، فليرجع إليه ، فإنه كلام رائع[1] .

وروي عن علي رضي الله عنه فيما خرّجه الدارقطني في قوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ قال : وضع اليمين على الشمال في الصلاة . وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة ، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة والنافلة ؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى ، من حديث وائل بن حجر وغيره . وبه قال مالك وأحمد وإسحاق والشافعي وأصحاب الرأي . واستحب جماعة إرسال اليد[2] .

والموضع الذي توضع عليه اليد مختلف فيه ، فروي عن علي بن أبي طالب أنه وضعها على الصدر . وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل : فوق السُّرَّة ، وقال : لا بأس إن كانت تحت السرة .

---

(١) تفسير الرازي : ١١٨/٣٢ ـ ١١٩

(٢) تفسير القرطبي : ٢٢٠/٢٠ وما بعدها .

وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضاً . والصواب ما في الصحيحين من حديث ابن عمر ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتى تكونا حذو منكبيه ، ثم يكبر ، وكان يفعل ذلك حين يكبّر للركوع ، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ، ويقول : سمع الله لمن حمده ، ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود » . قال ابن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد ، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور ، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول ، وبه أقول ؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ . وقالت طائفة : يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي[1] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) المرجع والمكان السابق .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

مكيّة ، وهي ست آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ الكافرون ﴾ لأن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ بأن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ﴾ . وتسمى أيضاً سورة المنابذة ، وسورة الإخلاص ، والمقشقشة .

مناسبتها لما قبلها :

أمر الله نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار ، فهو لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام ، وبالغ في ذلك فكرّره وأكّده ، وانتهى إلى أن له دينه ، ولهم دينهم .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية ـ سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله تعالى ، وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر ، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان ، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله ﷺ ، وأن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة ، وتفصل النزاع بين فريقي المؤمنين والكافرين إلى الأبد .

فضلها :

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في ركعتي الطواف .

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروي هذا أيضاً عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقد تقدم في سورة الزلزال في حديث ابن عباس عند الترمذي أنها تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن .

وروى أبو القاسم الطبراني عن جَبَلة بن حارثة ـ وهو أخو زيد بن حارثة ـ : أن النبي ﷺ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾ ، حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك » . وروى الإمام أحمد مثل ذلك عن الحارث بن جبلة . والخلاصة : ثبت أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في ركعتي الطواف ، وفي ركعتي الفجر ، والركعتين بعد المغرب ، ويوتر بـ ﴿ سبح ﴾ ، و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

سبب نزولها :

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس : « أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً ، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكفّ عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فأنزل الله : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة ، وأنزل : ﴿ قُلْ : أفغيرَ اللهِ تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر ٦٤/٣٩] » .

وأخرج عبد الرزاق عن وهب قال : قالت كفار قريش للنبي ﷺ : إن سرّك أن تتبعنا عاماً ، ونرجع إلى دينك عاماً ، فأنزل الله : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء قال : لقي الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلَف رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، هلمّ فلتعبد ما نعبد ، ونعبد ما تعبد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فأنزل الله : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾ .

ويؤيد هذا ما ذكره النيسابوري : أنها نزلت في رهط من قريش ، قالوا : يا محمد ، هلمّ ، اتبع ديننا ونتّبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا قد شرّكناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك ، قد شركت في أمرنا ، وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك[1] .

وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها « أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خَلَف ؛ لقوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، هلمّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا ، كنا قد شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك ، كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل : يا أيها الكافرون ﴾[2] » .

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري الواحدي : ص ٢٦١

(٢) تفسير القرطبي : ٢٢٥/٢٠

سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

الإعراب :

﴿ لاأعبد ماتعبدون ﴾ ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي في موضع نصب بـ ﴿ أعبد ﴾ و ﴿ تعبدون ﴾ صلة (الذي) والعائد محذوف ، تقديره : ماتعبدونه . ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، فلا تفتقر إلى عائد .

﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ قال : ﴿ ماأعبد ﴾ ولم يقل (من) لمطابقة ماقبله ومابعده . وقيل : ﴿ ما ﴾ بمعنى (من) .

﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ ﴿ ما ﴾ في الوضعين في موضع نصب ؛ لأنها مفعول ماقبلها ، وهما إما موصولة أو مصدرية مثل ﴿ ما ﴾ الأولى .

البلاغة :

﴿ ياأيها الكافرون ﴾ خطاب بالوصف للتوبيخ والتشنيع .

﴿ لاأعبد ماتعبدون ﴾ طباق السلب ، فالأول نفي والثاني إثبات .

﴿ لاأعبد ماتعبدون ﴾ و ﴿ لاأنتم عابدون ماأعبد ﴾ مقابلة بين الجملتين في الاستقبال .

﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ﴾ ﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ مقابلة بين الجملتين في الحال أو الماضي .

وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال .

﴿ ياأيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون ﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير .

المفردات اللغوية :

﴿ ياأيها الكافرون ﴾ يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لايؤمنون ، وهم زعماء الشرك في مكة . ﴿ لاأعبد ماتعبدون ﴾ أي في المستقبل ، فإن ﴿ لا ﴾ لاتدخل إلا على مضارع

بمعنى الاستقبال ، كما أن ﴿ ما ﴾ لاتدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ، أي لاأعبد في المستقبل ماتعبدون من الأصنام في الحال .

﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ أي ولا تعبدون في المستقبل ماأعبد في الحال ، وهو الله تعالى وحده . ﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ﴾ أي ولست أنا عابداً في الحال أو في الماضي ماعبدتم فيما سلف . ﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده ، ويجوز أن تكون الجملتان تأكيدين على طريقة أبلغ . والأدق أن يقال : إن الآيتين (٢ ، ٣) تدلان على الاختلاف في المعبود الذي يعبد ، فالنبي ﷺ يعبد الله ، وهم يعبدون الأصنام والاوثان . والآيتان (٤ ، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها ، فعبادة النبي عليه الصلاة والسلام عبادة خالصة لله لا يشوبها شرك ولا غفلة عن المعبود ، وعبادتهم كلها شرك وإشراك ، فلا يلتقيان .

﴿ لكم دينكم ﴾ وهو الشرك الذي أنتم عليه . ﴿ ولي دين ﴾ وهو التوحيد أو الإسلام الذي أنا عليه ، لاأرفضه ، قال البيضاوي : فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد ، ليكون منسوخاً بآية القتال . وقال الزمخشري : والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ، ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ، ولا تدعوني إلى الشرك .

التفسير والبيان :

هذه سورة البراءة من عمل المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص في العبادة ، فقال تعالى :

﴿ قل : ياأيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون ﴾ أي قل أيها النبي لكفار قريش : ياأيها الكافرون ، لاأعبد على الإطلاق ماتعبدون من الأصنام والأوثان ، فلست أعبد آلهتكم بأية حال . والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض . وفائدة كلمة ﴿ قل ﴾ : أنه ﷺ كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور ، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن ، فلما كان الخطاب هنا غليظاً أراد الله رفع الحرج عنه وبيان أنه مأمور بهذا الكلام ، لأنه ذكره من عند نفسه .

﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ أي ولستم أنتم مادمتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد ، فهو الله وحده لاشريك له .

وهاتان الآيتان (٢ ، ٣) تدلان على الاختلاف في المعبود ، فالنبي ﷺ يعبد الله وحده ، وهم يعبدون الأصنام والأوثان أو الأنداد والشفعاء ، أو أن المعنى دفعاً للتكرار كما ذكر الزمخشري : لاأعبد في المستقبل ماتعبدون في الحال ، وعلامته ﴿ لا ﴾ التي هي للاستقبال ، بدليل أن (لن) للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأبيد ، وأصله في رأي الخليل : لا أن . وما : للحال[1] ، وخلاصة المعنى : لاأفعل في المستقبل ماتطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ماأطلب منكم من عبادة إلهي . ﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم ، أي لاأسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ، وأنتم لاتقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، فعبادة الرسول ﷺ وأتباعه خالصة لله لاشرك فيها ولا غفلة عن المعبود ، وهم يعبدون الله بما شرعه ، ولهذا كانت كلمة الإسلام : « لاإله إلا الله ، محمد رسول الله » أي لامعبود إلا الله ، ولا طريق إليه في العبادة إلا بما جاء به الرسول ﷺ .

والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها ، فكلها شرك وإشراك ، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان .

فالآيتان (٤ ، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها . ويرى بعضهم كالزمخشري : وما كنت قط في الحال أو في الماضي عابداً ماعبدتم ، يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى مني في الإسلام ؟! وما عبدتم في وقت ماأنا على عبادته .

وقيل : في الآيات تكرار ، والغرض التأكيد ، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ماسألوه من عبادته آلهتهم .

---

(١) قد فهم بعضهم خطأ ماأراده الزمخشري هنا وفي الآيتين بعدهما ، فقلب الوضع ، وجعل الاستقبال محل الحال وبالعكس .

﴿ لكم دينكم ولي دينِ ﴾ أي لكم شرككم أو كفركم ، ولي ديني وهو التوحيد والإخلاص أو الإسلام ، فدينكم الذي هو الإشراك ، لكم لا يتجاوزكم إليّ ، وديني الذي هو التوحيد مقصور علي لا يتجاوزني ، فيحصل لكم . وقيل : الدين : الجزاء ، والمضاف محذوف ، أي لكم جزاء دينكم ، ولي جزاء ديني . وقيل : الدين : العبادة .

وليست السورة منسوخة بآية القتال ، والمحققون على أنه لانسخ ، بل المراد التهديد ، كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ماشئتم ﴾ [فصلت ٤٠/٤١] .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإنْ كذَّبوك فقُلْ : لي عَمَلي ، ولكم عَملُكم ، أنتم بريئون مما أعملُ ، وأنا بريءٌ مما تعملون ﴾ [يونس ٤١/١٠] وقوله : ﴿ لنا أعمالُنا ، ولكم أعمالُكم ﴾ [القصص ٥٥/٢٨] . والمراد بذلك كله التهديد ، لاالرضا بدين الآخرين .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لكم دينكم وليَ دينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورَّث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ماعدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان .

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكسِ ، لحديث أحمد وأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » .

قال الرازي : جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ عند المتاركة ، وذلك غير جائز ؛ لأنه تعالى ماأنزل القرآن ليتمثل به ، بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه[1] .

(١) تفسير الرازي : ١٤٨/٣٢

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على اختلاف المعبود واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم ، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام ، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لالقاء بين الكفر والإيمان ، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله .

أما اختلاف المعبود بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار : فهو أن الفريق الأول يعبد الله وحده لاشريك له ، والفريق الثاني يعبد غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر أو الملائكة أو الكوكب أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل .

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله بإخلاص لاشرك فيه ولا غفلة عن المعبود ، وبما شرع الله لعباده من كيفية العبادة المرضية له ، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك وبنحو اخترعوه لأنفسهم ، لا يرضى عنه ربهم .

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام ؛ لأن الدين الحق المقبول عند الله هو الإسلام وهو الإخلاص لله والتوحيد . وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

مدنيّة ، وهي ثلاث آيات .

تسميتها :

سميت سورة النصر ؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ أي الفتح الأكبر والنصر المؤزر الذي سمي فتح الفتوح وهو فتح مكة المكرمة . وتسمى أيضاً سورة ﴿ التوديع ﴾ .

مناسبتها لما قبلها :

لما أخبر الله تعالى في آخر السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول عن دين الكفار ، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول ، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر ، حيث يصبح دين الأكثرين . وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بالنصر والفتح ، وانتشار الإسلام ، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه : دين الله ، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله ﷺ .

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المدنية بالإجماع تشير إلى فتح مكة ، وانتصار النبي ﷺ على المشركين ، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، وانحسار ظلمة الشرك والوثنية ، والإخبار بدنو أجل النبي ﷺ ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره .

فضلها :

تقدم في تفسير سورة الزلزال أنها في حديث الترمذي عن أنس بن مالك تعدل ربع القرآن ، و ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل ربع القرآن .

وأخرج النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عُتْبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : صدقت .

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرحلت ، ثم قام ، فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة ، أي خطبة حجة الوداع .

سبب نزولها :

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُدْخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه ، فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم . قال ابن عباس : فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ماتقولون في قول الله عز وجل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصَرنا وفتَح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ماتقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ، قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ، ﴿ فسبح بحمد ربك ، واستغفره ، إنه كان توابا ﴾ فقال عمر : لاأعلم منها إلا ماتقول » .

وقت نزول هذه السورة :

هناك قولان في ذلك :

أحدهما ـ أن فتح مكة كان سنة ثمان في رمضان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، وتوفي في ربيع الأول سنة عشر ، ولذلك سميت سورة التوديع .

والقول الثاني ـ أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إن الذي فَرَضَ عليك القرآن لرادّك إلى معادٍ ﴾ [القصص ٨٥/٢٨] . وقوله ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ يقتضي الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء و وقع .

وعلى هذا القول يكون الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب معجزاً ، فهو من أعلام النبوة[١] .

والظاهر القول الأول ، بدليل ما قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجّة الوداع ، ثم نزلت ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة ٣/٥] فعاش بعدها النبي ﷺ ثمانين يوماً . ثم نزلت آية الكَلالة (آخر سورة النساء) ، فعاش بعدها خمسين يوماً . ثم نزل ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة ١٢٨/٩] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً . ثم نزل : ﴿ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ﴾ [البقرة ٢٨١/٢] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً . وقال مقاتل : سبعة أيام[٢] .

لكن قال الرازي : الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة[٣] .

---

(١) تفسير الرازي : ١٥٥/٣٢

(٢) تفسير القرطبي : ٢٣٣/٢٠

(٣) تفسير الرازي : ١٦٤/٣٢

فتح مكة

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

الإعراب :

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ تقديره : إذا جاءك نصر الله ، فحذف الكاف التي هي المفعول . وجواب ﴿ إذا ﴾ إما قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك .. ﴾ والفاء غير مانعة من هذا على ما عليه الجمهور ، أو محذوف تقديره : إذا جاءك نصر الله والفتح ، جاء أجلك ، وهو العامل في ﴿ إذا ﴾ .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ يدخلون : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ الناس ﴾ وأفواجاً : منصوب على الحال من واو ﴿ يدخلون ﴾ .

البلاغة :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ خاص بعد عام ، فإن نصر الله يشمل جميع الفتوحات ، قال الرازي : وهو الغلبة على قريش أو على جميع العرب ، فعطف عليه فتح مكة تعظيماً لشأنه .

﴿ ورأيت الناس ﴾ عام أريد به الخاص ، فلفظ الناس عام ، والمراد به العرب .

﴿ دين الله ﴾ هو الإسلام ، وأضافه تعالى إليه تشريفاً وتعظيماً ، مثل : بيت الله ، وناقة الله . ﴿ إنه كان تواباً ﴾ تواب : صيغة مبالغة على وزن (فعّال) .

المفردات اللغوية :

﴿ نصر الله ﴾ النصر : العون أو الإعانة على تحصيل المطلوب . ﴿ والفتح ﴾ تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً أو موقوفاً ، أو الفصل بين الفريقين المتحاربين بانتصار أحدهما على الآخر ، والمراد به هنا فتح مكة ، فالفرق بين النصر والفتح : أن النصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف الفتح عليه .

﴿ دين الله ﴾ أي الإسلام . ﴿ أفواجاً ﴾ جماعات كثيفة ، كأهل مكة والطائف واليمن والهوازن وسائر قبائل العرب ، جمع فوج : وهو الجماعة والطائفة . وقد دخلت الجماعات في الإسلام بعدما كان الدخول فيه فردياً واحداً بعد الآخر ، وذلك بعد فتح مكة ، جاءه العرب من مختلف الأنحاء طائعين . ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ أي نزّه الله وصل له حامداً على نعمه ، روي : أنه عليه السلام لما دخل مكة بدأ بالمسجد ، فدخل الكعبة ، وصلى ثماني ركعات . ﴿ واستغفره ﴾ اسأله المغفرة لك ولمن اتبعك ، وطلب الاستغفار من النبي كان لترك الأفضل ، وليقتدي به غيره ، ولم يكن بسبب ارتكاب معصية أو ذنب . وكان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه » . وعلم بذلك أنه قد اقترب أجله ، فتوفي بعد فتح مكة بعامين سنة عشر .

التفسير والبيان :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ أي إذا تحقق لك يا محمد نصر الله وعونه وتأييده على من عاداك وهم قريش ، وفتح عليك مكة ، وتحققت لك الغلبة ، وإعزاز أمرك ، فسبّح الله تعالى أي نزهه حامداً له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك . وفائدة قوله : ﴿ نصر الله ﴾ مع أن النصر لا يكون إلا من الله : هو أنه نصر لا يليق إلا بالله ، ولا يليق أن يفعله إلا الله ، أو لا يليق إلا بحكمته . والمراد تعظيم هذا النصر . وقوله : ﴿ جاء نصر الله ﴾ مجاز ، أي وقع نصر الله .

روى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نُعيتْ إلي نفسي » فإنه مقبوض في تلك السنة .

خير ، وأنا وأصحابي خير » ، وقال فيما رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن ابن عباس : « لاهجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لاهجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به ، جماعات فوجاً بعد فوج ، بعد أن كانوا في بادئ الأمر يدخلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .

﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً ﴾ أي إذا فتحت مكة وانتشر الإسلام ، فاشكر الله على نعمه ، بالصلاة له ، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به بالنصر ، واقرن الحمد بالتسبيح ، أي اجمع بينهما ، فإن ذلك النصر والفتح يقتضي الحمد لله على عظيم منّته وفضله ، وما منحك من الخير .

واطلب أيضاً من الله المغفرة لك تواضعاً لله ، واستقصاراً لعملك ، وتعليماً لأمتك ، وكذا اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر ، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم ، وهو كثير القبول لتوبة عباده ، حتى لا ييأسوا ويرجعوا بعد الخطأ .

روى الأئمة ـ واللفظ للبخاري ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » . وعنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك الله ربّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتأول القرآن » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

١ ـ كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله بما هو

أهل له ، ومن أجلّ النّعم على نبي الله وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء ، وفتح مكة عاصمة العرب والإسلام ، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين .

وتوج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات ، فوجاً بعد فوج . وذلك لما فُتحت مكة ، قالت العرب : أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، أي طاقة . فكانوا يسلمون أفواجاً : أمّة أمّة .

٢ ـ لهذا ختم الله هذه السورة بأمر الله نبيه بالإكثار من الصلاة ، والتسبيح لله ، أي تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ولا يجوز عليه ، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح ، وسؤال الله الغفران مع مداومة الذكر ، والله كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .

والأمة أولى بذلك ، فإذا كان ﷺ ، وهو معصوم ، يؤمر بالاستغفار ، فما الظن بغيره ؟

روى مسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه ؟ فقال : خبّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ـ فتح مكة ـ ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبّح بحمد ربك ، واستغفره ، إنه كان تواباً ﴾ .

٣ ـ دين الله هو الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عند الله الإسلامُ ﴾ [آل عمران ١٩/٣] وقوله : ﴿ ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبلَ منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران ٨٥/٣] .

٤ـ قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين : إن إيمان المقلّد صحيح ؛ لأنه تعالى حكم بصحة وإيمان أولئك الأفواج ، وجعله من أعظم المنن على محمد ﷺ ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً ، لما ذكره في هذا المجال .

٥ـ أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً ثم بالحمد ثم بالاستغفار ؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس .وقدم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمال مثلاً ، فالله يُنزّه ويُقدّس عن إهمال الحق . وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي ﷺ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه .

٦ـ الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد ، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي ﷺ وأمته من شكر نعمة النصر والفتح .

٧ـ اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ . روي أنه لما نزلت هذه السورة خطب ﷺ وقال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا ، وبين لقائه والآخرة ، فاختار لقاء الله »[1] . وقد عرفوا ذلك ؛ لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت ؛ لأنه لو بقي بعد ذلك ، لكان كالمعزول عن الرسالة ، وهو غير جائز . ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل .

---

(١) تفسير الكشاف : ٣٦٥/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المسد ، أو : اللَّهب

مكيّة ، وهي خمس آيات .

تسميتها :

سميت سورة المسَد ؛ لقوله تعالى في آخرها : ﴿ في جيدها حبل من مَسَدٍ ﴾ أي في عنق أم جميل زوجة أبي لهب حبل مفتول من ليف . وسميت أيضاً سورة ﴿ تبَّت ﴾ لقوله تعالى في مطلعها : ﴿ تبَّت يدا أبي لهب ﴾ أي هلكت وخسرت يدا أبي لهب ، كما سميت سورة أبي لهب ، أو سورة اللهب .

مناسبتها لما قبلها :

هناك تقابل بين هذه السورة والسورة التي قبلها ، ففي السورة السابقة ﴿ النصر ﴾ ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقبى .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية بالإجماع الكلام عن مصير أبي لهب عبد العُزّى بن عبد المطلب ، عمّ النبي ﷺ ، ومصير زوجته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان ، وهو هلاك أبي لهب عدو الله تعالى ورسوله ﷺ في الدنيا ، ودخوله نار جهنم ؛ لشدة إيذائه النبي ﷺ ومعاداته له ، وصدّه الناس عن الإيمان به .

وكذلك زوجته شريكة معه في هذا العقاب ؛ لأنها كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فتكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم .

سبب نزول السورة :

ثبت في الصحيحين وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس قال : « لما نزلت : ﴿ وأنذرْ عشيرتَك الأقربين ﴾ [الشعراء ٢١٤/٢٦] ورَهْطَك منهم المخلصين ، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفَا ، فهتف : ياصباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد . فاجتمعوا إليه ، فقال : يابني فلان ، يابني فلان ، يابني فلان ، يابني عبد مناف ، يابني عبد المطلب ! فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدّقيَّ ؟ قالوا : ماجرَّبنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبّاً لك ! أما جمعتنا إلا لهذا[1] ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة : « تبَّت يدا أبي لهب ، وقد تبّ » كذا قرأ الأعمش وعبد الله وأبي إلى آخر السورة . وقراءة حفص : ﴿ وتبّ ﴾ أي الأول دعاء عليه ، والثاني خبر عنه .

وعن طارق المحاربي قال : « بينا أنا بسوق ذي المجاز ، إذ أنا بشاب حديث السن يقول : أيها الناس ، قولوا : لاإله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ـ مؤخر القدم ـ ويقول : يا أيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : محمد ، زعم أنه نبي ، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب[2] » .

---

(١) وفي رواية البخاري : ألهذا جمعتنا ؟

(٢) تفسير القرطبي : ٢٣٦/٢٠

جزاء أبي لهب وامرأته

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

الإعراب :

﴿ ماأغنى عنه ماله ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما استفهامية في موضع نصب بـ ﴿ أغنى ﴾ أو نافية ، ومفعول ﴿ أغنى ﴾ محذوف ، وتقديره : ماأغنى عنه ماله شيئاً .

﴿ وما كسب ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما مصدرية ، أي وكسبه ، أو اسم موصول ، أي الذي كسبه ، فحذف العائد تخفيفاً .

﴿ وامرأته حمّالةَ الحطب ﴾ ﴿ امرأتُه ﴾ : إما معطوف على ضمير ﴿ سيصلى ﴾ أي سيصلى هو وامرأته ، وجاز العطف على الضمير المرفوع ؛ لوجود الفصل ؛ لأنه بقوم مقام التأكيد في جواز العطف . وإما أنه مبتدأ مرفوع ، و ﴿ حمالةَ الحطب ﴾ خبره ، على قراءة الرفع . ومن قرأ بالنصب ﴿ حمالةَ الحطب ﴾ فهو منصوب على الذم ، وتقديره : اذم حمالة الحطب .

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ ﴿ في جيدها ﴾ : حال من ﴿ حمالة الحطب ﴾ أو خبر مبتدأ مقد

البلاغة :

﴿ يدا أبي لهب ﴾ مجاز مرسل ، أطلق الجزء وأراد الكل ، أي هلك .

﴿ أبي لهب ﴾ ﴿ ناراً ذات لهب ﴾ بينهما جناس ، فالأول كنية له ، والثاني وصف للنار . والجناس : أن يتشابه اللفظان في النطق ، ويختلفا في المعنى ، وهو نوعان : تام ، وغير تام .

﴿ أبي لهب ﴾ كنية للتصغير والتحقير ، كأبي جهل .

﴿ حمالة الحطب ﴾ استعارة ، استعير هذا التعبير للنمية بين الناس .

﴿ وامرأته حمّالةَ الحطب ﴾ منصوب على الذم ، أي أخص بالذم حمالة الحطب .

﴿ وتبّ ﴾ ، ﴿ كسب ﴾ ، ﴿ لهب ﴾ ، ﴿ الحطب ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ تبّت يدا أبي لهب ﴾ أي هلك وخسر ، قال تعالى : ﴿ وما كيدُ فرعونَ إلا في تَباب ﴾ [غافر ٣٧/٤٠] وهذه الجملة دعاء عليه ، وأبو لهب : أحد أعمام النبي ﷺ واسمه : عبد العُزّى بن عبد المطلب ، وكنيته : أبو عتيبة ، وإنما كني أبا لهب لحمرة وجهه . ﴿ وتبَّ ﴾ أي قد خسر ، وهذا خبر بعد الدعاء عليه ، كقولهم : أهلكه الله وقد هلك ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه . ﴿ وما كسب ﴾ أي وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح ، وقوله : ﴿ ماأغنى ﴾ أي يغني .

﴿ سيصلى ناراً ﴾ سيجد حرها ويذوق وبالها . ﴿ ذات لهب ﴾ لهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها ، وذات لهب : أي تلهب وتوقد ، وهي مناسبة لكنيته بأبي لهب : أي تلهب وجهه إشراقاً وحمرة . ﴿ وامرأته ﴾ هي من سادات قريش ، وكنيتها : أم جميل ، واسمها : أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان . ﴿ حمالة الحطب ﴾ أي تحمله حقيقة ، فتحمل حزمة الشوك والحسك ، وتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ . أو تحمل حطب جهنم ؛ لأنها تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ﷺ ، وتحمل زوجها على إيذائه . أو أن التعبير كناية عن النميمة التي توقد الخصومة بين الناس .

﴿ في جيدها ﴾ في عنقها . ﴿ حبل من مسد ﴾ حبل مفتول من ليف ، أي مما مسّد أي فتل وربط الحبل على هذه الصورة : تصوير لها بصورة الحطّابة التي تحمل الحزمة ، وتربطها في عنقها ، تحقيراً لشأنها ، أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع ، وفي جيدها سلسلة من النار .

التفسير والبيان :

﴿ تبّت يدا أبي لهب ، وتب[1] ﴾ أي هلكت يداه وخسرت وخابت ، وهو مجاز عن جملته ، أي هلك وخسر ، وهذا دعاء عليه بالهلاك والخسران . ثم قال : ﴿ وتب ﴾ أي وقد وقع فعلاً هلاكه ، وهذا خبر من الله عنه ، فقد خسر الدنيا والآخرة . وأبو لهب : عم النبي ﷺ ، واسمه عبد العُزّى بن عبد المطلب ، وقد كان كثير الأذى والبغض والازدراء لرسول الله ﷺ ولدينه .

---

(١) لم يقل في أول هذه السورة ﴿ قل ﴾ كما في سورة الكافرين ، حق لا يشافه عمه بما يزيد في غضبه ، رعاية للحرمة ، وتحقيقاً لمبدأ الرحمة .

ثم أخبر الله تعالى عن حال أبي لهب في الماضي ، فقال :

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أي لم يدفع عنه يوم القيامة ما جمع من المال ، ولا ما كسب من الأرباح والجاه والولد ، ولم يفده ذلك في دفع ما يحل به من الهلاك ، وما ينزل به من عذاب الله ، بسبب شدة معاداته لرسول الله ﷺ ، وصدّه الناس عن الإيمان به ، فإنه كان يسير وراء النبي ﷺ ، فإذا قال شيئاً كذّبه .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عبّاد من بني الدّيل ، وكان جاهلياً فأسلم ، قال : « رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المَجاز ، وهو يقول : يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه ، أحول ، ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا : هذا عمه أبو لهب » . والفرق بين المال والكسب : أن الأول رأس المال ، والثاني هو الربح .

ثم ذكر الله تعالى عقابه في المستقبل ، فقال :

﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي سيذوق حرّ نار جهنم ذات اللهب المشتعل المتوقد ، أو سوف يعذب في النار الملتهبة التي تحرق جلده ، وهي نار جهنم . قال أبو حيان : والسين للاستقبال ، وإن تراخى الزمان ، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة ، وإن تراخى وقته[1] .

﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ أي وتصلى امرأته أيضاً ناراً ذات لهب ، وهي أم جميل ، أروى بنت حرب ، أخت أبي سفيان ، كانت تحمل الشوك والغضى ، وتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ . وقيل : المراد أنها كانت تمشي بالنميمة ،

---

(١) البحر المحيط : ٥٢٦/٨

فيقال للمشاء بالنائم ، المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أي يوقد بينهم النائرة ، ويورّث الشر ، وهذا رأي الكثيرين .

قال أبو حيان : والظاهر أنها كانت تحمل الحطب ، أي مافيه شوك ، لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول ﷺ وأصحابه ، لتعقرهم ، فذمت بذلك ، وسميت حمالة الحطب .

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ أي في عنقها حبل مفتول من الليف ، من مسد النار ، أي مما مسّد من حبالها أي فتل من سلاسل النار . وقد صورها الله في حالة العذاب بنار جهنم بصورة حالتها في الدنيا عند النميمة ، وحينما كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها في جيدها ، ثم تلقيها في طريق النبي ﷺ ؛ لأن كل مجرم يعذب بما يجانس حاله في جرمه . وقيل : صورها الله في الدنيا بصورة حطّابة ممتهنة احتقاراً لها ، وإيذاء لها ولزوجها .

ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر ، وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد ، وبيدها فِهر (حجر) فقالت : بلغني أن صاحبك هجاني ، ولأفعلنّ وأفعلنّ ، وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ﷺ ، فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها : هل تري معي أحداً ؟ فقالت : أتهزأ بي ؟ لاأرى غيرك[1] .

والظاهر هو المعنى الأول ؛ قال سعيد بن المسيّب : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت : واللات والعُزّى لأنفقنّها في عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار .

---

(١) البحر المحيط : ٥٢٦/٨ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ٥٦٤/٤ وما بعدها .

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ أوضحت السورة نوع عذاب أبي لهب وزوجته أم جميل ، ومآلهما في الدارين ؛ لشدة عداوتهما لرسول الله ﷺ .

أما الآيات الأولى في أبي لهب فقد تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه :

أحدها ـ الإخبار عنه بالتباب والخسار ، وبوقوع ذلك فعلاً .

وثانيها ـ الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده ، وبوقوع ذلك فعلاً .

وثالثها ـ الإخبار عنه بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك ؛ لأنه مات على الكفر .

وتكليف أبي لهب بالإيمان في حد ذاته لا مانع منه ، وإن كان الله قد علم أنه لا يؤمن ، وأخبر أيضاً أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، قال الآمدي : أجمع الكل على جواز التكليف بما علم الله أنه لا يكون عقلاً ، وعلى وقوعه شرعاً ، كالتكليف بالإيمان لمن علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل[١] . وأيد ذلك الرازي في تفسيره[٢] . والخلاصة : أنه كلف بتصديق الرسول ﷺ فقط ، لا تصديقه وعدم تصديقه ، حتى يجتمع النقيضان[٣] .

وأما الآيتان الأخيرتان : فتصفان عذاب أم جميل بأنها مع زوجها تصلى نار جهنم وتذوق حرها وتتلظى بلهبها ، وأنها هالكة في الدنيا ، ومعذبة في الآخرة بحبل من نار ، وسلاسل من نار جهنم تطوقها ، لإيذائها النبي ﷺ ، فإنها كانت في غاية العداوة له ، ولإفسادها بين الناس بالنميمة وتأجيج نار العداوة بينهم .

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي : ٧٣/١

(٢) تفسير الرازي : ١٧١/٣٢

(٣) غرائب القرآن : ٢١٤/٣٠ .

قال الضحاك وغيره : كانت تُعيِّر النبي ﷺ بالفقر ، وهي تحتطب في حبل ، تجعله في جيدها من ليف ، فخنقها الله جل وعزّ به في الدنيا ، فأهلكها ، وهو في الآخرة حبل من نار .

٢ ـ قال العلماء : في هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما ، لا ظاهراً ولا باطناً ، ولا سراً ولا علناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة[1] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) تفسير ابن كثير : ٥٦٥/٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص

مكيّة ، وهي أربع آيات .

تسميتها :

سميت بأسماء كثيرة أشهرها سورة الإخلاص ؛ لأنها تتحدث عن التوحيد الخالص لله عز وجل ، المنزه عن كل نقص ، المبرأ من كل شرك ، ولأنها تخلّص العبد من الشرك ، أو من النار . وسميت أيضاً سورة التفريد أو التجريد أو التوحيد أو النجاة أو الولاية ؛ لأن من قرأها صار من أولياء الله ، أو المعرفة ، وتسمى كذلك سورة الأساس ؛ لاشتمالها على أصول الدين .

مناسبتها لما قبلها :

المناسبة بينها وبين ماقبلها واضحة ، فسورة الكافرين للتبرؤ من جميع أنواع الكفر والشرك ، وهذه السورة لإثبات التوحيد لله تعالى ، المتميز بصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، المنزه عن الشريك والشبيه ، ولذا قرن بينهما في القراءة في صلوات كثيرة ، كركعتي الفجر والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصلاة المسافر .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة أهم أركان العقيدة والشريعة الإسلامية ، وهي توحيد الله وتنزيهه ، واتصافه بصفات الكمال ، ونفي الشركاء ، وفي هذا الرد على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى .

فضلها :

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة ، وأنها تعدل في ثواب قراءتها ثلث القرآن ؛ لأن كل ماجاء في القرآن بيان لما أجمل فيها ؛ ولأن الأصول العامة للشريعة ثلاثة : التوحيد ، وتقرير الحدود والأحكام ، وبيان الأعمال ، وقد تكفلت ببيان التوحيد والتقديس . أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري : « أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ يرددها ، فلما أصبح ، جاء إلى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشقّ ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « احشدوا ، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ ، فقرأ : ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله ﷺ ، فقال : إني قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » .

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فإنه من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ﴾ في ليلة ، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن » .

سبب نزول السورة :

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

زاد ابن جرير والترمذي قال : « ﴿ الصمد ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث . ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عِدْل[1] ، وليس كمثله شيء » .

وقال قتادة والضحاك ومقاتل : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ ، فقالوا : صِفْ لنا ربك ، فإن الله أنزل نعته في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو ؟ أذَهَبٌ هو أم نحاس أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ومن يورثها ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة ، وهي نسبة الله خاصة[2] .

سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤

---

(١) قال الأخفش : العِدْل بالكسر المثل ، وقال الفراء : العَدْل بالفتح : ما عَدَل الشيء من غير جنسه ، والعِدْل بالكسر المثل .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ص ٢٦٢

الإعراب :

﴿ قل : هو الله أحد ﴾ ﴿ هو ﴾ : ضمير الشأن والحديث ، مبتدأ ، و ﴿ الله ﴾ : مبتدأ ثانٍ ، و ﴿ أحد ﴾ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول ، ولا حاجة لعائد يعود على المبتدأ الأول ؛ لأن ضمير الشأن إذا وقع مبتدأ ، لم يعد من الجملة التي وقعت خبراً عنه ضمير ؛ لأن الجملة بعده وقعت مفسرة له ، بدليل أنه لا يجوز تقديمها عليه .

﴿ الله الصمد ﴾ مبتدأ وخبر .

﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ﴿ لم يلد ﴾ : أصله (يَوْلِد) فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ، كيعد ، ويزن ، والأصل : يوْعد ويوْزن ، ولهذا لم تحذف في ﴿ يُولَد ﴾ لوقوعها بين ياء وفتحة . و ﴿ أحد ﴾ : اسم ﴿ يكن ﴾ ، و ﴿ كفواً ﴾ : خبرها . و ﴿ له ﴾ : متعلق بـ ﴿ كفواً ﴾ وقدم عليه للاهتمام به ؛ إذ فيه ضمير الباري تعالى ، والتقدير : ولم يكن أحد كفواً له ، أي مكافئه ، فهو في معنى المفعول ، متعلق بـ ﴿ كفواً ﴾ . وأخّر ﴿ أحد ﴾ رعاية للفاصلة .

البلاغة :

﴿ قل : هو ﴾ ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن للتعظيم والإجلال .

﴿ الله الصمد ﴾ تعريف كل منهما لإفادة التخصيص .

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ جناس ناقص ، لتغير الشكل وبعض الحروف .

﴿ قل : هو الله أحد ﴾ يقتضي نفي الكفء والولد ، وقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هو تخصيص بعد تعميم ، زيادة في الإيضاح والبيان ، وتقرير ما يسمى التجريد أو التفريد .

﴿ أحد ﴾ ، ﴿ الصمد ﴾ ، ﴿ لم يولد ﴾ ، ﴿ أحد ﴾ سجع مرصع .

المفردات اللغوية :

﴿ أحد ﴾ أي واحد في ذاته ، لم يتركب من جواهر مادية ولا من أصول غير مادية ، وهو أيضاً وصف بالوحدانية ونفي الشركاء . ﴿ الصمد ﴾ المقصود في جميع الحوائج على الدوام . ﴿ لم يلد ﴾ لأنه لم يفتقر إلى ما يعينه ، ولأنه لا مجانسة بينه وبين غيره فهذا نفي للشبه والمجانسة . ﴿ ولم يولد ﴾ لأنه قديم أولي غير محدث ، انتفى الحدوث عنه ، فهو وصف بالقدم والأولية . ﴿ كُفُواً ﴾ أي مكافئاً ومماثلاً . والكفء والمكافئ : النظير والمثيل ، والمراد أنه لم يكن أحد يكافئه ، أي يماثله من صاحبة وغيرها .

التفسير والبيان :

﴿ قل : هو الله أحد ﴾ أي قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته : هو الله أحد ، أي واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له ، ولا نظير ولا عديل . وهذا وصف بالوحدانية ونفي الشركاء . والمعنى : هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالألوهية ، لا يشارك فيها . وهذا نفي لتعدد الذات .

﴿ الله الصمد ﴾ أي الذي يُصْمَد إليه في الحاجات ، أي يقصد ، فهو المقصود في جميع الحاجات ؛ لأنه القادر على تحقيقها ، والمعنى : هو الله الذي يقصد إليه كل مخلوق ، لا يستغني عنه أحد ، وهو الغني عنهم . وهذا إبطال لاعتقاد مشركي العرب وأمثالهم بوجود الوسائط والشفعاء .

قال ابن عباس في تفسير الصمد : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته ، لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار .

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء ؛ لأنه لا يجانسه شيء ، ولأنه قديم غير محدَث ، لا أول لوجوده ، وليس بجسم وهذا نفي للشبه والمجانسة ، ووصف بالقدم والأولية ، ونفي الحدوث .

وفي الجملة الأولى نفي لوجود الولد لله ، ورد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، وعلى اليهود القائلين : عزير ابن الله ، وعلى النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وفي الجملة الثانية نفي لوجود الوالد ، وسبق العدم .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أي ليس لله أحد يساويه ، ولا يماثله ، ولا يشاركه في شيء . وهذا نفي لوجود الصاحبة ، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب من أن لله نِداً في أفعاله ، حيث جعلوا الملائكة شركاء لله ، والأصنام والأوثان أنداداً لله تعالى .

وللسورة نظائر في آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ بديعُ السمواتِ والأرضِ ، أنّى يكون له ولدٌ ، ولم تكنْ له صاحبةٌ ، وخلَق كلَّ شيءٍ ﴾ [الأنعام ١٠١/٦] أي هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف له من خلقه نظير ؟ ، وقوله : ﴿ وما ينْبغي للرحمنِ أن يتّخذ ولداً ، إنْ كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً . لقد أحصاهم وعَدّهم عَدّاً . وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فَرْداً ﴾ [مريم ٩٢/١٩ـ٩٥] وقوله : ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمنُ ولداً ، سبحانَه بل عباد مُكْرَمون ، لا يَسْبقونه بالقولِ ، وهم بأمرِه يعملون ﴾ [الأنبياء ٢٦/٢١ـ٢٧] .

جاء في صحيح البخاري : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم » . وروى البخاري أيضاً وعبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : كذّبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أ ـ تضمنت هذه السورة الموجزة إثباتاً ونفياً في آن واحد .

فقد أبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته ، منزه عن جميع أنحاء التركيب ، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله : ﴿ الله أحد ﴾ .

وأوضحت أن الله غني بذاته كريم رحيم ، تحتاج إليه جميع الخلائق في قضاء الحوائج ، متصف بجميع صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، ونفت عنه كل أنواع الاحتياج إلى الآخرين بقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ .

وقررت أن الله أحد فرد ، ليس له شيء من جنسه ، ولم يلد أحداً ، وليس له لاحق يماثله ، ونفت عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله : ﴿ لم يلد ﴾ .

وكذلك هو قديم أولي أزلي غير مسبوق بالعدم ، فلا والد له ، ولا سابق له ، ونفت عنه الحدوث والأولية بقوله : ﴿ ولم يولد ﴾ .

وهو سبحانه أيضاً لا مقارن له في الوجود ، ولا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا نديد ، ونفى عن ذاته العلية الأنداد والأشباه بقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقديس ، وكل نفي رد على أصحاب العقائد الباطلة كالثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم وهما النور والظلمة ، والنصارى القائلين بالتثليث ، والصابئة القائلين بعبادة الأفلاك والنجوم ، واليهود الذين يقولون : عزير ابن الله ، والمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله .

فقوله : ﴿ أحد ﴾ يبطل مذهب الثنوية ، وقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله ؛ لأنه لو وجد خالق آخر ، لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات ، وقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ يبطل مذهب اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، والمشركين في أن الملائكة بنات الله . وقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ يبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله وشركاء .

٢ ـ قال العلماء : هذه السورة في حق الله تعالى ، مثل سورة الكوثر في حق الرسول ﷺ ، لكن الطعن في حق الرسول ﷺ كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتر لا ولد له ، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً ؛ لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى ، ولهذا السبب قال هنا : ﴿ قل ﴾ ليدفع عن الله ، وفي سورة ﴿ إنا أعطيناك ﴾ لم يقل (قل) وإنما قال الله ذلك مباشرة ، حتى يدفع بنفسه عن الرسول ﷺ[1] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) تفسير الرازي ١٨٥/٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

مكيّة ، وهي خمس آيات .

مكيتها أو مدنيتها :

هذه السورة وسورة الناس مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر وهو رأي الأكثرين ، ومدنية في رواية عن ابن عباس وقتادة وجماعة ، قيل : وهو الصحيح .

تسميتها :

سميت هذه السورة سورة الفلق ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ قل : أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ الفلق ﴾ الشق وفصل الشيء عن بعضه ، وهو يشمل كل ماانفلق من حب ونوى ونبات عن الأرض ، وعيون ماء عن الجبال ، ومطر عن السحاب ، وولد عن الأرحام ، ومنه : ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام ٩٦/٦] ، و ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ [الأنعام ٩٥/٦] .

مناسبتها لما قبلها :

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة الإخلاص لتنزيه الله عما لا يليق به في ذاته وصفاته ، أبان في هذه السورة وما بعدها وهما المعوذتان ما يستعاذ منه بالله من الشر الذي في العالم ، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله ، كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن ، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من

شر المخلوقات ، وظلمة الليل ، والسحرة ، والحسّاد ، ثم ذكر في سورة الناس الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ؛ لذا سميت السور الثلاثة (الإخلاص وما بعدها) في الحديث بالمعوّذات . وقدمت الفلق على الناس لمناسبة الوزان في اللفظ لفواصل الإخلاص مع مقطع ﴿ تبت ﴾ .

ماشتملت عليه السورة :

تضمنت السورة الاستعاذة من شر المخلوقات ، وبخاصة ظلمة الليل ، والسواحر والنامين ، والحَسَدة ، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس ، وحمايتهم من شر ذوات السموم ، وشر الليل إذا أظلم ، لما فيه من مخاوف ومفاجآت ، وبخاصة في البراري والكهوف .

فضل المعوذتين :

روى مسلم في صحيحه وأحمد والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط : ﴿ قل : أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل : أعوذ برب الناس ﴾ » .

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال : « أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوّذات في دُبُر كل صلاة » .

وروى أحمد وأبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر قال : « بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي : يا عقبة ألا تركب ! قال : فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ، ثم قال : يا عُقْب[1] ، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ قلت : بلى ، يا رسول الله ، فأقرأني ﴿ قل : أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل : أعوذ برب

(١) عقب : منادى مرخم من عقبة ، مثل أفاطم من فاطمة .

الناس ﴾ ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ ، فقرأ بهما ثم مرّ بي ، فقال : كيف رأيت يا عُقْب ، اقرأ بهما كلما نِمْت وكلما قمت » .

وروى النسائي عن أبي عبد الله بن عابس الْجُهَني : أن النبي ﷺ قال له : « يا ابن عابس ألا أدلك ـ أو ألا أخبرك ـ بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، هاتان السورتان » .

وأورد ابن كثير أحاديث كثيرة في معناها ثم قال : فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث .

وفي حديث صُدَيّ بن عجلان : « ألا أعلمك ثلاث سور ، لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلهن : ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل : أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل : أعوذ برب الناس ﴾ » .

وروى البخاري وأهل السنن في الاستشفاء بهذه السور الثلاث (المعوذات) عن عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ، ثم يمسح بهما ماستطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

سبب نزول المعوذتين :

السبب : قصة سحر لَبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين عن عائشة ، فإنه سحره في جُفّ (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه ﷺ ، وأسنان مشطه ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عُقْدة مغروز بالإبر ، فأنزلت عليه المعوذتان ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد ﷺ في نفسه

خِفّة ، حتى انحلت العُقْدة الأخيرة ، فقام ، فكأنما نشط من عِقال[1] . وجعل جبريل يَرْقي رسول الله ﷺ ، فيقول : « باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر حاسد وعَيْن ، والله يشفيك » .

الاستعاذة من شرّ المخلوقات

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

الإعراب :

﴿ قل : أعوذ بربّ الفلق ﴾ ﴿ أعوذ ﴾ : فعل معتل ، ويسمى « أجوف » وأصله : أعْوَذ على وزن أفْعَل ، إلا أنه استثقلت الضمة على الواو لأنه حرف علة ، فنقلت من العين التي هي الواو إلى ماقبلها .

﴿ من شرّ ما خلق ﴾ ﴿ شرّ ﴾ بغير تنوين على الإضافة في القراءة المشهورة ، و ﴿ ما ﴾ : مصدرية ، وتقديره : من شرّ خلقه . وقرئ « من شرٌ ماخلق » بتنوين ﴿ شرّ ﴾ وهي قراءة مروية عن أبي حنيفة ، و ﴿ ما ﴾ : فيها أيضاً مصدرية ، في موضع جر على البدل من ﴿ شرّ ﴾ أي من خلقه .

البلاغة :

﴿ فلق ﴾ و ﴿ خلق ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ شرّ ماخلق ﴾ ﴿ ومن شرّ غاسق ﴾ ﴿ ومن شرّ النفاثات ﴾ تكرار كلمة ﴿ شرّ ﴾ مرات إطناب ، للتنبيه على قبح وشناعة هذه الأوصاف .

﴿ شرّ غاسق ﴾ ﴿ شرّ النفاثات ﴾ ﴿ شرّ حاسد ﴾ خاص بعد عام وهو ﴿ من شرّ ماخلق ﴾ .

﴿ حاسد ﴾ و ﴿ حسد ﴾ جناس اشتقاق .

---

(١) البحر المحيط : ٥٣٠/٨

﴿ الفلق ﴾ ﴿ خلق ﴾ ، ﴿ العقد ﴾ ﴿ حسد ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ أعوذ ﴾ ألجأ . ﴿ الفلق ﴾ شق الشيء وفصل بعضه عن بعض ، ومنه ﴿ فالقُ الإصباح ﴾ [الأنعام ٩٦/٦] ، و ﴿ فالقُ الحبِّ والنَّوى ﴾ [الأنعام ٩٥/٦] ، و ﴿ الفلق ﴾ يشمل كل ما يفلقه الله عن غيره ، كفلق ظلمة الليل بالصبح ، وفلق العيون والأمطار والنبات والأولاد ، ويخص الفلق عرفاً بالصبح ، ولذلك فسّر به ، وتخصيصه لما فيه من تغير الحال ، وتبدل وحشة الليل بسرور النور ، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ إليه ما يخافه . ولفظ ﴿ الرّب ﴾ هنا أوقع من سائر أسمائه ؛ لأن الإعاذة من المضارّ تربية وعناية .

﴿ من شرّ ما خلق ﴾ من شرّ المخلوقات كلها ، وخصّ عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشرّ فيه ، وهو يشمل الحيوان والإنسان والجماد كالسم وغيره . ﴿ غاسق ﴾ ليل اشتد ظلامه . ﴿ وقب ﴾ دخل ظلامه وتخصيصه لأن المضار تكثر فيه ويسر الدفع . ﴿ النفاثات ﴾ السواحر من النفوس أو النساء تنفث . ﴿ في العُقَد ﴾ التي تعقدها في الخيط ، والنفث :النفخ مع ريق يخرج من الفم ، و ﴿ العقد ﴾ جمع عقدة : وهي ما يعقد من حبل أو خيط ونحوهما . ﴿ حاسد ﴾ هو الذي يتمنى زوال نعمة المحسود . وخصّ الحاسد بالذكر ؛ لأنه العمدة في الظاهر والسبب في إضرار الإنسان والحيوان وغيرهما . وذكر هذه الأصناف الثلاثة بعد التعميم الشامل لها ﴿ ما خَلَق ﴾ لشدة شرّها .

التفسير والبيان :

﴿ قل : أعوذ بربِّ الفلق ، من شرّ ما خلق ﴾ أي قل أيها النبي : ألجأ إلى الله ، وأستعيذ بربِّ الصبح ؛ لأن الليل ينفلق عنه ، أو بربِّ كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله ، من الحيوان ، والصبح ، والحَبِّ ، والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره ، أعوذ بالله خالق الكائنات من شرّ كل ما خلقه الله سبحانه من جميع مخلوقاته . وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات عن العبد .

أخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري ، قال : « كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من عين الجان ، ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورتا المعوذتين ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك » .

وأخرج مالك في الموطأ عن عائشة : « أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى ، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه ، كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها » .

وبعد أن عمم الاستعاذة من جميع المخلوقات ، خصص بالذكر ثلاثة أصناف تنبيهاً على أنها أعظم الشرور ، وأهم شيء يستعاذ منه ، وهي :

١ ـ ﴿ ومن شرّ غاسق إذا وقب ﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ الليل إذا أقبل ؛ لأن في الليل مخاوف ومخاطر من سباع البهائم ، وهوام الأرض ، وأهل الشرّ والفسق والفساد .

٢ ـ ﴿ ومن شرّ النفّاثات في العقد ﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ النفوس أو النساء الساحرات ؛ لأنهن كنّ ينفثن (أي ينفخن مع ريق الفم) في عُقَد الخيوط ، حين يسحرن بها . والنّفث : النفخ بريق ، وقيل : النفخ فقط . قال أبو عبيدة : إنهن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي اللاتي سحرن النّبي ﷺ .

٣ ـ ﴿ ومن شرّ حاسد إذا حسد ﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ كل حاسد إذا حسد : وهو الذي يتمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود .

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ دلت السورة الكريمة على تعليم الناس كيفية الاستعاذة من كل شرّ في الدنيا والآخرة ، من شر الإنس والجن والشياطين وشرّ السباع والهوام وشرّ النار وشرّ الذنوب ، والهوى ، وشرّ العمل ، وغير ذلك من سائر المخلوقات ، حتى المستعيذ نفسه .

٢ ـ لامانع يمنع من نزول السورة ليستعيذ بها رسول الله ﷺ ، والحديث صحيح ، ولا يتنافى مع النص القرآني ، واقتصر فعل السحر بالنّبي ﷺ على مجرد

كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صداع خفيف ، وهو معنى التخيل في الحديث ، وقد يحدث تخيل في اليقظة كالمنام ، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق ، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة ؛ لأن الله عصمه من أي سوء ، أو اختلاط فكري ، أو اضطراب عصبي ، كما قال تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة ٦٧/٥][1] .

٣ ـ خصص الله تعالى في إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة : هي أولاً الليل إذا عظم ظلامه ؛ لأن في الليل كما ذكر الرازي تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ، ويقع الحريق ، ويقل فيه الغوث ، وينبعث أهل الشرّ على الفساد .

وثانياً ـ الساحرات اللائي ينفثن (ينفخن) في عُقَد الخيط حين يَرْقين عليها ، شبه النفخ كما يعمل من يرقي .

وثالثاً ـ الحاسد الذي يحسد غيره ، أي يتمنى زوال نعمة المحسود ، وإن لم يصرّ للحاسد مثلها . وهذا مذموم ، أما الغبطة أو المنافسة فهي مباحة ؛ لأنها تمني مثل النعمة وإن لم تزل عن صاحبها ؛ روي أن النّبي ﷺ قال : « المؤمن يَغْبِط ، والمنافق يحسُد »[2] . وفي الصحيحين : « لاحسد إلا في اثنتين » أي لا غبطة .

قال العلماء : الحاسد لا يضرّ إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود ، فيَتْبَع مساوئه ، ويطلب عثراته . والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء ، وأول ذنب عُصي به في الأرض ، فحسد إبليس آدم ، وحسد قابيلُ هابيلَ . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون .

وقال العلماء أيضاً : لا يضرّ السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته ، وإنما

(١) انظر تفسير الألوسي : ٢٨٣/٣٠

(٢) تفسير القرطبي : ٢٥٩/٢٠

بفعل الله وتأثيره ، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط ، قال الله تعالى عن السحر : ﴿ وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ [البقرة ١٠٢/٢] ، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل ، فإنه يطلب شرعاً الحذر والاحتياط وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان ، عملاً بفعل عمر والصحابة في طاعون عمواس ، والأمر باتقاء العين ، والفرار من المجذوم .

٤ ـ أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرُّقى أو الرُّقية ؛ لأن النّبي ﷺ اشتكى ، فرقاه جبريل عليه السلام ، وقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، والله يشفيك » كما تقدم . وقال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء : « بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شرّ كل عرق نعار ، ومن شرّ حرّ النار » .

وقال ﷺ : « من دخل على مريض لم يحضر أجله ، فقال : أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يشفيك ـ سبع مرات ، شفي » .

وعن علي رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مريض قال : « أذهب الباس ربَّ الناس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة » .

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال : قدمت على رسول الله ﷺ ، وبي وجع قد كاد يبطلني ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعل يدك اليمنى عليه ، وقل : بسم الله ، أعوذ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أجد » سبع مرات ، ففعلت ذلك ، فشفاني الله .

وروي أنه ﷺ كان إذا سافر ، فنزل منزلاً يقول : « يا أرض ، ربّي وربّك الله ، أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك ، وشرّ ما يخرج منك ، وشرّ ما يدبّ عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ، وحية وعقرب ، ومن شرّ ساكني البلد ووالد وما ولد » .

وقالت عائشة في الحديث المتقدم : كان رسول الله ﷺ ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ والمعوذتين ، في كفه اليمنى ، ومسح بها المكان الذي يشتكي[1] .

والأصح جواز النَّفْث عند الرُّقى ، بدليل ما روى الأئمة عن عائشة : أن النّبي ﷺ كان يَنْفِث في الرُّقية . وأجاز الإمام الباقر تعليق التعويذ على الصبيان .

وأما النهي عن الرُّقى فهو وارد على الرُّقى المجهولة التي لا يفهم معناها .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) انظر هذه الأحاديث والأدلة الثمانية في تفسير الرازي : ١٨٩/٣٢ ـ ١٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

مدنيّة ، وهي ست آيات .

تسميتها :

سميت سورة ﴿ الناس ﴾ ؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قل : أعوذ بربّ الناس .. ﴾ وتكررت كلمة ﴿ الناس ﴾ فيها خمس مرات . وقد نزلت مع ماقبلها ، وهي مكية عند الأكثر ، وقيل : مدنية كما تقدم . وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها .

وهي آخر سورة في القرآن ، وقد بدئ بالفاتحة التي هي استعانة بالله وحمد له ، وختم بالمعوذتين للاستعانة بالله أيضاً .

ماشتملت عليه السورة :

اشتملت هذه السورة ، وهي ثاني المعوذتين على الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إلى ربّ الناس الملك الإله الحق من شرّ إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم .

وقد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول الله ﷺ من سحر اليهود . وقيل : إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقِشتان ، أي تبرئان من النفاق .

روى الترمذي كما تقدم عن عقبة بن عامر عن النّبي ﷺ قال : «لقد أنزل الله

علي آيات لم يُرَ مِثْلُهن : ﴿ قل : أعوذ بربّ الناس ﴾ إلى آخر السورة ، و ﴿ قل : أعوذ بربّ الفلق ﴾ إلى آخر السورة . وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه مسلم أيضاً .

الاستعاذة من شرّ الشياطين

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

الإعراب :

﴿ من الجنّة والناس ﴾ إما بدل من ﴿ شرّ الوسواس ﴾ وتقديره : أعوذ بربّ الناس من شرّ الجنّة والناس ، وإما متعلق بمحذوف تقديره : الكائن من الجنة والناس ، الذي يوسوس في صدور الناس . وفي ﴿ يوسوس ﴾ ضمير الجنّة ، وذكّره : لأنه بمعنى الجنّ ، وكنى عنه مع التأخير : لأنه في تقدير التقديم ، كقوله تعالى : ﴿ فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى ﴾ [طه ٦٧/٢٠] فتقدم الضمير : لأن موسى في تقدير التقديم ، والضمير في تقدير التأخير .

البلاغة :

﴿ أعوذ بربّ الناس ﴾ وما بعدها : الإضافة للتشريف والتكريم والاستعانة ، فقد أضيف الرّب إلى الناس : لأن الاستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم ، استعاذوا بربّهم مالكهم وإلههم ، كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر . قال أبو حيان : والظاهر أن ﴿ ملك الناس ﴾ ، ﴿ إله الناس ﴾ صفتان . وقال الزمخشري : عطف بيان للرّب ، فإن الرّب قد لا يكون ملكاً ، والملك قد لا يكون إلهاً .

﴿ ربّ الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ إطناب بتكرار الاسم ، زيادة في التكريم والعون ، ومزيد البيان ، والإشعار بشرف الإنسان .

﴿ الْجنّة .. والناس ﴾ بينهما طباق .

﴿ يوسوس ﴾ و ﴿ الوسواس ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

ويلاحظ أن الفواصل منتهية بالسين الذي فيه جَرْس خافت ومهيب وله وقْع في النفوس .

المفردات اللغوية :

﴿ أعوذ ﴾ ألتجئ وأحتمي . ﴿ ربّ الناس ﴾ مربّيهم ومعتني بشؤونهم ، قال البيضاوي : لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضارّ البدنية ، وهي تعمّ الإنسان وغيره ، والاستعاذة في هذه السورة من المضارّ التي تعرض للنفوس البشرية ، وتخصها ، عم الإضافة ثمة ، وخصصها بالناس ههنا ، فكأنه قيل : أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس بربّهم الذي يملك أمورهم ، ويستحق عبادتهم .

﴿ ملك الناس ، إله الناس ﴾ صفتان تدلان على أنه تعالى حقيق بالإعاذة ، قادر عليها ، غير ممنوع عنها . ﴿ الوسواس ﴾ الموسوس الذي يلقي في النفوس خواطر الشرّ والسوء . ويصح أن يراد به المصدر أي الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة . ﴿ الخنّاس ﴾ صيغة مبالغة ، أي من عادته أن يخنس ، أي يتأخر بذكر الله ، والخنوس : الرجوع والتأخر . ﴿ من الْجِنَّة ﴾ بيان للوسواس ، جمع جني كإنسي وإنس ، والجن : خلق مستتر لا يعلم به أحد إلا الله تعالى .

التفسير والبيان :

﴿ قل : أعوذ بربّ الناس ، مَلِك الناس ، إله الناس ﴾ أي قل أيها الرسول : ألجأ وأستعين بالله مربي الناس ومتعهدهم بعنايته ورعايته ، وخالقهم ومدبر أمرهم ومصلح أحوالهم ، وله الملك التام والسلطان القاهر ، وهو الإله المعبود الذي يعبده الناس ، واسم الإله خاص بالله لا يشاركه فيه أحد ، أما الملك فقد يكون إلهاً وقد لا يكون .

وهذه صفات ثلاث لله عزّ وجلّ : الربوبية ، والملك ، والألوهية ، فهو ربّ كل شيء ، ومليكه ، وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة ، عبيد له . وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة ، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية ، ثم ذكر الملكية ؛ لأن المستعيذ لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا مالكه ، ثم ذكر الألوهية ؛ لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه .

والسبب في تكرار لفظ ﴿ الناس ﴾ هو مزيد البيان والإظهار ، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى ، وقال : « ربّ الناس » مع أنه ربّ جميع المخلوقات ، فخصّ الناس بالذكر للتشريف ، ولأن الاستعاذة لأجلهم .

﴿ من شرّ الوسواس الخنّاس ﴾ أي ألجأ إلى الله وأحتمي من شرّ الشيطان ذي الوسوسة ، الكثير الخنوس أي الاختفاء والتأخر ، بذكر الله ، فإذا ذكر الإنسان الله تعالى خنس الشيطان وانقبض ، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب . قال ابن عباس في هذه الآية : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس .

وقد سلط الله الشيطان على الناس إلا من عصمه الله ، للمجاهدة والفتنة والاختبار ، ثبت في الصحيح أنه « مامنكم من أحد إلا وكّل به قرينه ، قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنّبي ﷺ ، وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ، ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النّبي ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله ﷺ : « على رِسْلكما ، إنها صفية بنت حُيَيّ ، فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ـ أو قال : شرّاً » . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبَه ، فذلك الوسواس الخنّاس » . وروى الإمام أحمد عن أبي تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : « عثر بالنّبي ﷺ حماره ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النّبي ﷺ : لاتقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا

قلت : تعس الشيطان ، تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » . وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلَب .

ثم أبان موضع وسوسته ، فقال :

﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ أي الذي يلقي خواطر السوء والشرّ في القلوب ، وإنما ذكر الصدور لأنها تحتوي على القلوب ، والخواطر محلها القلب ، كما هو المعهود في كلام العرب .

ثم بيَّن الله تعالى أن الذي يوسوس نوعان : جني وإنسي ، فقال :

﴿ من الْجِنّة والناس ﴾ أي أن ذلك الموسوس إما شيطان الجن ، فيوسوس في صدور الناس ، كما تقدم ، وإما شيطان الإنس ، ووسوسته في صدور الناس : أنه يُري نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ، فيجعله فريسة وسوسة الشيطان الجني . وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن وقد يكون من الناس ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنسِ والجِنّ ، يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرفَ القول غروراً ﴾ [الأنعام ١١٢/٦] أي ليست العداوة قهرية جبرية ، وإنما بما أودع الله فيهم من قدرة الاختيار ، فمنهم من يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين ، ومنهم من يحذر عداوتهم ووسوستهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

علّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمةً بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن ، وعرفنا أنه بصفاته الثلاث : الربوبية ، والملك ، والألوهية ، يحمي

المستعيذ من شرور الشيطان وأضراره في الدين والدنيا والآخرة . ومعنى الربوبية يدل على مزيد العناية وحرص المربي .

وإنما ذكر أنه ﴿ ربّ الناس ﴾ وإن كان ربّاً لجميع الخلق ، لأمرين :

أحدهما ـ لأن الناس معظَّمون ، فأعلم بذكرهم أنه ربّ لهم ، وإن عظموا .

الثاني ـ لأنه أمر بالاستعاذة من شرّ الناس ؛ فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم[1] . ثم ذكر صفتي الملك والألوهية ليبين للناس أنه ملكهم الحقيقي ، وإن كان لهم ملوك ، وأنه إلههم ومعبودهم ، لا معبود لهم سواه ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ، ويُلجأ إليه ، دون الملوك والعظماء .

أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن ، وإما شيطان الإنس . قال الحسن : هما شيطانان ؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية . وقال قتادة : إن من الجنّ شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن .

ويلاحظ أن المستعاذ به في سورة ﴿ الفلق ﴾ مذكور بصفة واحدة وهي أنه « ربّ الفلق » ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهي « الغاسق » و ﴿ النفاثات ﴾ و « الحاسد » . وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث : وهي الرّب والملك والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، وسبب التفرقة : أن المطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في هذه السورة سلامة الدين ، ومضرة الدين ، وإن قلّت ، أعظم من مضارّ الدنيا وإن عظمت[2] .

☆ ☆ ☆

(١) تفسير القرطبي : ٢٦٠/٢٠

(٢) تفسير الرازي : ١٩٩/٣٢

وبعد ، فقد سجدت شكراً لله تبارك وتعالى على ما أولاني وأسبغ علي من كمال وفيض النعمة وتمام المنة ، بانتهاء هذا **التفسير الشامل للمأثور والمعقول ، والجامع لأنواع البيان وأحكام القرآن** ، وهو تفسير العصر ، وذلك في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين المبارك الواقع ١٣ من ذي القعدة ١٤٠٨ هـ ، الموافق ١٩٨٨/٦/٢٧ م ، وكان العمر حينذاك ٥٦ عاماً . وقد تفرغت لهذه المهمة خلال سنوات طوال ، هاجرت فيها إلى دولة الإمارات ـ العين ، تاركاً الأهل والولد ، مستغرقاً في عظمة كلام ربّي عزّ وجلّ ، فازددت إيماناً على إيمان .

وكان أول مؤلف لي في بلدتي « دير عطية » من نواحي دمشق الفيحاء ، التي ولدت فيها سنة ١٩٣٢ م ، وهو آثار الحرب في عام ١٩٦٢ م ، ثم تابعت التأليف والبحث وكتبت أغلب مؤلفاتي وبحوثي التي أربت على الثلاثين في رياض دمشق والعين ، فاللهم لك الحمد والشكر ، اجعل كل حرف من كتابك وتفسيره وجميع ماصنفت خالصاً لوجهك الكريم ، وحقق به النفع والخير ، وأعتق به من نارك في الآخرة كل جزء من جسمي وروحي ، وشعري وبشري ، وعظمي ولحمي ، وسمعي وبصري ، ومخي ودمي ، وأدخلني الجنة بستر وسلام .

سبحانك اللهم لاأحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم يالطيفاً فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب ، ورضني في دنياي وآخرتي ، واغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات .

الخاتمة

من أحكام الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة ، أي بالبداهة أن إنزال القرآن المجيد على نبي هذه الأمة الإسلامية قصد به العمل بكل ما جاء فيه من الأحكام والشرائع والعقائد والآداب والأخلاق والمواعظ ، وأنه لا يكفي المسلم أو المسلمة مجرد قراءته أو تلاوته للتعبد والبركة ، وإنما للاستفادة بما جاء فيه ، فهو دستور الأمة ، ونظام حياة الفرد والجماعة ، والرعية والدولة .

والسائد في الوسط العلمي أنه لا يُستغنى بتفسير قديم عن تفسير آخر ، لاختلاف مناهج المفسرين ، وامتياز كل تفسير بميزة لا تتوافر في الآخر ، فهذا في العقيدة ، وهذا في الأحكام ، وذاك في الآثار والروايات الكثيرة ، وآخر في التأويل بالمعقول أو في العلوم الكونية ، والكل يكمل بعضه بعضاً ، أما في العصر الحديث فيصعب على كل مسلم أو بيت اقتناء جميع التفاسير المطولة والمتوسطة والمختصرة ، فضلاً عن عسر فهمها أحياناً ، وإطالتها ، واستطرادها في كثير من الأحوال لأمور بعيدة أو قريبة عن التفسير ، وينقصها جميعها التفسير الشامل الموضوعي للآيات ، لفهمها جملة واحدة ، بسبب عنايتها بالجزئيات والفرعيات ، دون وجود تصور متكامل أو عام فيها للآية أو لطائفة من الآيات ، وصعوبة إدراك مشتملات السورة وارتباط أجزائها ببعضها ، أو التعرف على موضوعها المقصود .

وكذلك يكثر السؤال في وقتنا عادة عن أحسن تفسير يعتمد عليه لمتوسط الثقافة ، فلا يكاد المرء يجد جواباً شافياً ؛ لأن القديم وَعْر المسالك ، والجديد فيه

هَنَات وسَقَطات ، أو جنوح لتأييد بعض الآراء المذهبية ، أو تطرف وبُعْد في التأويل وإغراب في بعض الأحيان لإرضاء أذواق العصر .

لذا وجب وضع تفسير شامل معتدل غير متطرف ، يجمع بين مزايا التفاسير المختلفة وييسر على القارئ والتالي فهم الآيات الكريمة بدقة ووعي ، ويحيط بكل ماهو ضروري يحقق مقاصد القرآن العظيم في العقيدة والعبادة والتشريع والآداب والأخلاق والسلوك القديم في الحياة ، ويفسر القرآن بالقرآن وبالسُّنة الصحيحة والسيرة الثابتة ، وهذا ماأوردته في هذا الكتاب ، كما أردت بيان ما يستنبط من الآيات من أحكام شرعية مختلفة .

وذلك بعد أن ألحّ علي بعض إخواني لتحقيق هذه الغاية ، فتوقفت أولاً ، ثم شرح الله صدري للعمل الذي يحتاج لجهود مكثفة ووقت طويل الأمد ، فوضعت هذا التفسير الشامل لطريقتي أهل المأثور والمعقول ، والجامع لأحكام القرآن الذي أنار الطريق أمام كل تالٍ للقرآن ، بعبارة سهلة واضحة ، وأسلوب سلس بيّن ، ومنهج منظم متدرج من المفردات إلى الكليات ، وكان بحمد الله تعالى جامعاً بين طريقة الوجيز والوسيط والمبسوط ، فبيان المفردات اللغوية والإعراب والبلاغة يحقق الإيجاز لمن يكتفي به ؛ والتعرف على أسباب النزول والمناسبة بين الآيات والسور وقصص القرآن والبيان لكل طائفة من الآيات ، يلبي مطلب التوسط في المعرفة والعلم ؛ والانتقال إلى بيان فقه الحياة بمعنى « الفقه الأكبر » الشامل للعقيدة والأخلاق والأعمال والأحكام العملية المستنبطة من الآيات ، يتجاوب مع رغبة من أراد التوسط والإطالة والاستيعاب .

ومن أجل السير في هذه المراتب الثلاثة المتدرجة ، قد يوجد تكرار بينها بقصد تلبية الحاجة ، وتيسير المطلب دون حاجة للرجوع إلى ماسبق .

أما المصادر : فقد نبهّت عليها في المقدمة ، وأكرر القول بأنني اعتمدت على

أغلب ما كتب في التفسير قديماً وحديثاً ، مبتدئاً بتفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري في الآثار والمعقول معاً وأسباب النزول وبعض التصويبات والترجيحات ، ثم اعتمدت على تفسير الكشاف للزمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيّان التوحيدي ، وغرائب القرآن للنظام الأعرج وغيرها كالبيضاوي والنسفي وأبي السعود والجلالين في اللغويات والمعاني الدقيقة ، والمناسبات ، وعلى تفسير الفخر الرازي « التفسير الكبير » في العقائد والإلهيات والكونيات والأخلاق وبعض الأحكام ومناسبات الآيات والسور ، وأسباب النزول ، مع الرجوع في بيان الأسباب أيضاً إلى « أسباب النزول » للواحدي النيسابوري ، و « أسباب النزول » للسيوطي .

كما اعتمدت على تفسير الإمام القرطبي ، وأحكام القرآن لابن العربي ، وأحكام القرآن للجصاص الرازي في معرفة الأحكام الفقهية ، ورجعت في ذلك وغيره أيضاً إلى تفسير الحافظ ابن كثير وفتح القدير للشوكاني والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَيّ ، لبيان معاني الآيات وتأييدها بالأحاديث والأخبار الصحاح ، كما استقيت بعض المعلومات من تفسيري الخازن والبغوي .

واستأنست أحياناً بعبارات بعض المفسرين الجدد الجميلة والمفيدة ، كتفسير المنار للشيخ رشيد رضا ، ومحاسن التأويل للقاسمي ، وتفسير المراغي ، وفي ظلال القرآن ، رحم الله الجميع وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء .

وقد تجنّبت الأخذ في أسباب النزول وغيرها بالأحاديث والروايات الضعيفة والإسرائيليات الدخيلة التي لاتتفق مع عصمة الأنبياء ، وضمان سلامة الوحي .

وأما الإعراب فمرجعي الأصلي كتاب (البيان في إعراب القرآن) لأبي البركات بن الأنباري ، وأما البلاغة فمرجعي في الغالب كتاب (صفوة التفاسير) للشيخ محمد علي الصابوني ، وأما قصص الأنبياء فكنت أرجع مع الحذر

لكتاب (قصص الأنبياء) للأستاذ عبد الوهاب النجار ، وأما أحداث ووقائع الغزوات والسيرة فعمدتي فيها كتب السيرة الشهيرة كسيرة ابن هشام ، وابن إسحاق ، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها مما كتب قديماً وحديثاً .

وأستطيع أن أقول عن خبرة وتجربة وبعد أن عانيت التأليف في رحاب الجامعات مدة ربع قرن فأكثر في الفقه الإسلامي وأصوله وفي الحديث النبوي ، وتفسير كتاب الله وغير ذلك : إنه لاتصح العقيدة ، ولا تُشرق في النفس معانيها إلا بالقرآن ، ولا يستقيم سلوك مسلم إلا بفهم كتاب الله ، ولا تلين النفس بعد القرآن إلا بالحديث النبوي وروحانيته الفياضة ، ولا يصح عمل المسلم إلا بالأحكام الشرعية المقررة في الفقه ، ولا يُعصَم العقل والفهم عن الخطأ ، ولا تنضبط أحكام الشريعة إلا بأصول الفقه .

ولا أجد الآن خيراً من إهداء شيء للمسلمين في كل مكان ، حكاماً ومحكومين ، غير هذا الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي والدَّارمي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه مرفوعاً : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحَكَم مابينكم ، هو الفَصْل ليس بالهَزْل ، من تركه من جبَّار قصَمه الله ، ومن ابتغَى الهدى في غيره أضلَّه الله ، هو حَبْل اللهِ المتين ، ونورُه المبينُ ، والذِّكْرُ الحكيمُ ، وهو الصراطُ المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعَّب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يَمَلُّه الأتقياء ، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تفنى غرائبه ، هو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عَجَباً ﴾ من عَلِمَ عِلْمَه سبَق ، ومن قال به صدَق ، ومن حَكَم به عَدَل ، ومن عَمِل به أجر ، ومن دعا إليه ، هدي إلى صراط مستقيم » .

وكلمتي الأخيرة : إنني في نفسي بالذات كلما فسّرت آية أو سورة من كتاب الله ، ازددت إيماناً بصحة تنزيل هذا الكتاب المجيد على محمد رسول الله ﷺ ،

وبأنه الكتاب الوحيد المنقذ للبشرية من تخبطها في دياجير الظلمة والضلال ، كما ازددت انبهاراً وثقة ويقيناً بإعجاز القرآن وعظمته ، فمها حاولت إحصاء المعاني والأحكام ، يظل كلام الله عز وجل البحر الزاخر والفيض العارم الذي لا يمكن الإحاطة بمراده ومشتملاته ، ولكن عملي جُهْد المُقِلّ والعبد الضعيف الخاضع لله وحده ، والعاجز عن إدراك جميع معاني القرآن ، والذي يكفيني إعلانه هو القول بأن القرآن العظيم هو الكتاب الفذّ الأول الذي أثّر في فكري وسُلوكي وتكوين شخصيتي ، فاللهم وفقنا جميعاً للعمل به ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الأستاذ الدكتور / وهبة مصطفى الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فهرس

الجزء الثلاثين

الموضوع	الصفحة
سورة النبأ :	٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٦
مااشتملت عليه السورة	٧
الإخبار عن البعث وأدلة إثباته	٨
أوصاف يوم القيامة وأماراته ونوع عذابه	١٥
أحوال السعداء	٢٣
عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة وتهديد الكافرين المعاندين	٢٦
سورة النازعات :	٣١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٣١
مااشتملت عليه السورة	٣٢
الحلف على وقوع البعث وأحوال المشركين فيه والردّ على إنكارهم إياه	٣٣
التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون	٣٩
إثبات البعث بخلق السموات والأرض والجبال	٤٤
جزاء فريقي الناس في الآخرة وتفويض علم الساعة لله تعالى وقصر مدة الدنيا	٤٩
سورة عبس :	٥٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥٧
مااشتملت عليه السورة وسبب نزول السورة	٥٨
المساواة في الإسلام	٦٠
القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان	٦٤
نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان	٧١

أهوال القيامة ٧٤
سورة التكوير : ٨٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٨٠
فضلها ٨١
أحوال القيامة وأهوالها ٨١
الحلف لإثبات صدق الوحي القرآني ونبوة الرسول ﷺ ٨٧
سورة الانفطار : ٩٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٩٦
فضلها ٩٧
أمارات القيامة والجزاء على العمل وتوبيخ الإنسان على جحود النعم ٩٨
علة الجحود وكتابة الملائكة وانقسام الناس فريقين ١٠٣
سورة المطففين : ١١٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ١١٠
ماشتملت عليه السورة ١١١
وعيد المطففين ١١٢
ديوان الشر وقصة الفجار ١١٨
ديوان الخير وقصة الأبرار ١٢٥
سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ومقابلتهم بالمثل في الآخرة ١٣١
سورة الانشقاق : ١٣٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ١٣٧
فضلها ١٣٨
أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين ١٣٩
تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال ١٤٥
سورة البروج : ١٥٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ١٥٢
ماشتملت عليه السورة وفضلها وسبب نزولها والحكمة منها ١٥٣

تفصيل القصة ـ قصة الساحر والراهب والغلام	١٥٤
القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود	١٥٦
عقاب الكفار وثواب المؤمنين	١٦٢
كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة السالفة	١٦٥
سورة الطارق :	١٧٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	١٧٢
فضلها	١٧٣
القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها وإثبات إمكان البعث	١٧٤
القسم على صدق القرآن والرسالة وتهديد الكائدين لهما	١٨١
سورة الأعلى :	١٨٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	١٨٦
فضلها	١٨٧
تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه	١٨٨
التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة	١٩٥
سورة الغاشية :	٢٠٣
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٢٠٣
فضلها	٢٠٤
هول القيامة وأحوال أهل النار	٢٠٤
أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة	٢٠٩
إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك	٢١٣
سورة الفجر :	٢٢٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٢٢٠
ماشتملت عليه السورة وفضلها	٢٢١
حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا	٢٢٢
توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تماديه في الدنيا	٢٣٠
حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفع عنها يوم القيامة	٢٣٦

سورة البلد : ٢٤٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٢٤٢
ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله ٢٤٤
مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة ٢٤٨
سورة الشمس : ٢٥٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٢٥٦
جزاء إصلاح النفس وإهمالها ٢٥٧
العظة بقصة ثمود ٢٦٣
سورة الليل : ٢٦٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٢٦٧
فضلها ٢٦٨
اختلاف مسعى الناس ٢٦٩
قد أعذر من أنذر ٢٧٤
سورة الضحى : ٢٨٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٢٨٠
نعم الله تعالى على النبي محمد ﷺ ٢٨٢
سورة الشرح : ٢٩٢
تسميتها ومناسبتها وما اشتملت عليه السورة ٢٩٢
نعم الله على نبيه وما أمره به ٢٩٣
سورة التين : ٣٠٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٣٠٢
فضلها ٣٠٣
حال النوع الإنساني خَلْقاً وعملاً ٣٠٣
سورة العلق : ٣١٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٣١٢
كيفية نزول هذه السورة ـ حديث بدء نزول الوحي ٣١٣

الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة	٣١٥
صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم	٣٢٢
سورة القدر :	٣٣١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٣١
معنى نزول القرآن في ليلة القدر	٣٣٢
بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر	٣٣٢
تعيين ليلة القدر وأماراتها أو علاماتها	٣٣٨
الحكمة في إخفائها بين الليالي وفضائلها	٣٣٩
سورة البينة :	٣٤٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٤٠
فضلها	٣٤١
لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة دون إنذار	٣٤٢
وعيد الكفار ووعد الأبرار وجزاء الفريقين	٣٥٠
سورة الزلزلة :	٣٥٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٥٦
سبب نزولها وفضلها	٣٥٧
أمارة القيامة والجزاء على الخير والشر	٣٥٨
سورة العاديات :	٣٦٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٦٧
جحود النعم والبخل لحب الخير وإهمال الاستعداد للآخرة	٣٦٨
سورة القارعة :	٣٧٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٧٥
أهوال القيامة وأماراتها وميزان الحساب فيها	٣٧٦
سورة التكاثر :	٣٨٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٣٨٢
سبب نزول السورة	٣٨٣

التفاخر في الدنيا والسؤال عن الأعمال ٣٨٤
سورة العصر : ٣٩١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٣٩١
فضلها ٤٠٩
رسالة الحياة أو حال المؤمن والكافر ٣٩٢
سورة الهمزة : ٣٩٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٣٩٦
سبب نزولها ٣٩٧
الطعّان العيّاب للناس وجزاؤه ٣٩٨
سورة الفيل : ٤٠٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ٤٠٢
أضواء من التاريخ على قصة أصحاب الفيل ٤٠٣
قصة أصحاب الفيل ٤٠٥
سورة قريش : ٤١١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ٤١١
ماالشتملت عليه السورة وفضلها ٤١٢
التذكير بنعم الله على قريش ٤١٢
سورة الماعون : ٤١٨
مكيتها أو مدنيتها ، تسميتها ومناسبتها لما قبلها ٤١٨
ماالشتملت عليه السورة ٤١٩
الكافر المنكر الجزاء الأخروي والمنافق المرائي بعمله وعقاب كل منهما ٤٢٠
سورة الكوثر : ٤٢٧
مكيتها أو مدنيتها وتسميتها ومناسبتها لما قبلها ٤٢٧
ماالشتملت عليه السورة وفضلها ٤٢٨
سبب نزول السورة ٤٢٩
المنح المعطاة للنبي ﷺ ٤٣٠

سورة الكافرون :	٤٣٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٤٣٦
فضلها وسبب نزولها	٤٣٧
سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين	٤٣٩
سورة النصر :	٤٤٤
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٤٤٤
فضلها وسبب نزولها	٤٤٥
وقت نزول هذه السورة	٤٤٦
فتح مكة	٤٤٧
سورة المسد :	٤٥٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٤٥٢
جزاء أبي لهب وامرأته	٤٥٤
سورة الإخلاص :	٤٦٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٤٦٠
فضلها	٤٦١
سبب نزول السورة	٤٦٢
سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل	٤٦٢
سورة الفلق :	٤٦٨
مكيتها أو مدنيتها ، وتسميتها ومناسبتها لما قبلها	٤٦٨
فضل المعوذتين	٤٦٩
سبب نزول المعوذتين	٤٧٠
الاستعاذة من شرّ المخلوقات	٤٧١
سورة الناس :	٤٧٧
تسميتها وما اشتملت عليه السورة	٤٧٧
الاستعاذة من شرّ الشياطين	٤٧٨
الخاتمة	٤٨٤